



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة والإعلام
الدراسات العليا
قسم الدعوة والاحتساب

وسائل الدعوة وأساليبها في العصر العباسي الثاني

٢٢٢ - ٢٢٣ هـ

دراسة تحليلية تقويمية

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد

سليمان بن عبد الله بن منصور الحبس
المحاضر بقسم الدعوة والاحتساب

إشراف : فضيلة الدكتور

فضل إلهي بن شيخ ظهور إلهي
الأستاذ المشارك بقسم الدعوة والاحتساب

الجزء الأول

٥١٤١٧

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة والإعلام
الدراسات العليا
قسم الدعوة والاحتساب

وسائل الدعوة وأساليبها

في العصر العباسي الثاني

٢٢٢ - ٢٢٢ هـ

دراسة تحليلية تقويمية

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد

سليمان بن عبد الله بن منصور الحبس

المحاضر بقسم الدعوة والاحتساب

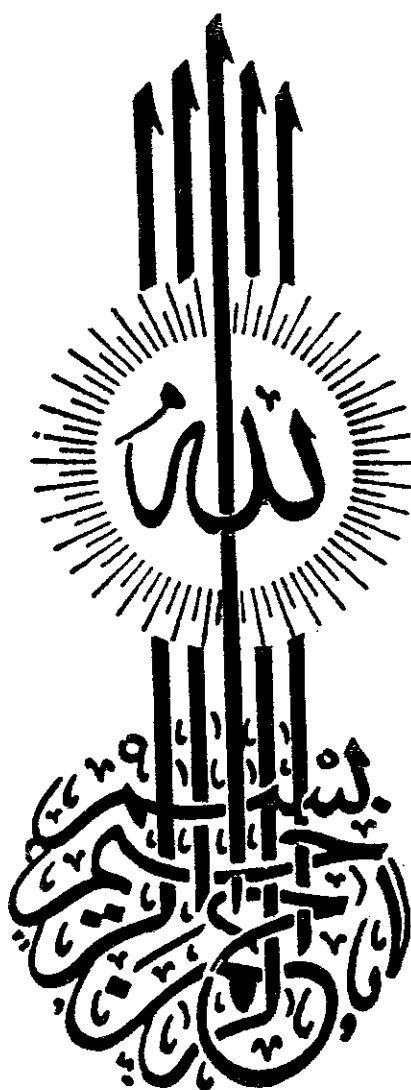
إشراف

فضيلة الدكتور/ فضل إلهي بن شيخ ظهور إلهي

الأستاذ المشارك بقسم الدعوة والاحتساب

الجزء الأول

١٤١٧ هـ



الشكر والدعاء

أحمد الله عز وجل وأشكره على ما من به علي من نعم لا
أحصي عددها، وأسأله تبارك وتعالى أن يوزعني شكرها، وأن يجعلها عوناً
علي طاعته ومرضاته .

ثم أتقدم بوافر شكري، وعظيم امتناني، وخالص ثنائي، لشيخني الفاضل وأستاذي الجليل
الدكتور/ فضل إلهي بن شيخ ظهور إلهي، الذي رعى هذا البحث منذ كان بذرة حتى استوى على
سوقه، والذي لم يبخل علي قط بتوجيهاته السديدة، وآرائه القيمة، بل كان يرمى هذا البحث
رعايه أبوية حكيمة، وفتح له قلبه، وأولاه الكثير من وقته الثمين، وكان لي بعد الله عز وجل نعم
العون طيلة إعداد هذا البحث، فأسأل الله عز وجل أن يجزيه عني خير الجزاء وأوفره .

كما أن من واجبي أن أعترف بالفضل لذوي الفضل، فأتقدم هنا بمفور الشكر وجزيل الثناء
إلى حصن العلم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على ما أولته وتوليه طلبية العلم ورواده
من عناية واهتمام، فسهلت لهم السبل وذللت لهم العقبات.

ولكلية الدعوة والإعلام عمادة وأساتذة أزجي خالص الشكر وجميل العرفان، فلقد كنت أجد
دوماً منهم الدعم المستمر والتشجيع المتواصل .

وأعمم الشكر المقرون بالدعاء إلى كل من أعانني على إتمام هذا البحث

بالتوجيه والإرشاد من الأساتذة الأفاضل والزملاء الكرام.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً .

المقدمة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣) ، أما بعد :

فلقد ختم الله عز وجل الرسالات الإلهية بنبينا محمد ﷺ فجعله رسولاً لجميع الثقلين الجن والإنس كافة، وانتقل ﷺ إلى رحمة ربه، فقام صحابته رضوان الله عليهم بحمل الدعوة من بعده، وبذلوا كل ما يستطيعون لنشرها بين البشرية عامة ودعوتها إلى هذا الدين الحنيف .

ثم توالى الأجيال تحمل هذه الرسالة الخالدة، من جيل إلى جيل، وأصبح شرف الدعوة منوطاً بمن حمل هذه الرسالة ودعا الناس إليها .

وكان ممن حمل هذه الرسالة ودعا الناس إليها الدعوة إلى الله في العصر العباسي الثاني، الذين قاموا بالدعوة إلى الله تعالى، ونشر العلوم الشرعية، والأمر بالمعروف والنهي

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ١ .

(٣) سورة الأحزاب : الآيتان ٧٠ - ٧١ .

عن المنكر، وتزكية النفوس، ومحاربة المذاهب والفرق الضالة التي تريد تشويه الإسلام، واقتلاع جذوره من نفوس المسلمين، وسعوا سعياً حثيثاً للمحافظة على روح هذه الأمة وصلتها بالله عز وجل .

وفي هذا البحث جهد متواضع لتقديم دراسة حول الوسائل والأساليب الدعوية التي استخدمها الدعاة إلى الله تعالى في العصر العباسي الثاني، ومحاولة للتعرف على العوامل التي أسهمت في تأثيرها أو إعاقتها .

وأما في هذه المقدمة فسأتحدث بعون الله تعالى عن هذا الموضوع، من خلال النقاط التالية :

- ١- تحديد مصطلحات البحث .
- ٢- أهمية الموضوع وأسباب اختياره .
- ٣- الدراسات السابقة .
- ٤- المشكلة البحثية .
- ٥- تساؤلات البحث .
- ٦- تحديد نطاق البحث «زماناً ومكاناً» .
- ٧- تقسيم البحث .
- ٨- المنهج المستخدم في البحث .
- ١- **تحديد مصطلحات البحث :**

في هذا البحث عدة مصطلحات تحتاج إلى إيضاح وتحديد، من أهمها ما يلي :

أ - الدعوة .

ب - الوسيلة .

ج- الأسلوب .

١ - الدعوة :

١- الدعوة في اللغة :

تطلق كلمة دعوة ويراد بها في اللغة عدة معان منها:

أ - الطلب والنداء . كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾^(١) ، ودعا بالشيء : طلب إحضاره . كقوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾^(٢) .

ب- ومنها الابتهاال والسؤال^(٣) . كقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٤) .

ج- ومنها المحاولة لإمالة الناس إلى مذهب أو نحلة.

قال العلامة ابن فارس: «دعو» الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك. تقول: «دعوت أدعو دعاء»^(٥) .

(١) سورة الروم : جزء من الآية ٢٥ .

(٢) سورة ص : الآية ٥١ ، وانظر الزمخشري : محمود بن عمر، أساس البلاغة، مادة «دعو» ص ١٨٩ (ط. بدون، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٤هـ) ومجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط، مادة «دعا» ٢٨٦/١ (ط. الثانية، نشر دار إحياء التراث العربي، مصر، ١٣٩٣هـ).

(٣) انظر الفيومي : أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مادة «دعا» ص ٧٤. (ط. بدون، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م).

(٤) سورة الإسراء : جزء من الآية ١١٠ .

(٥) ابن زكريا : أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، باب الدال والعين وما يثلثهما، مادة «دعو» ٢٧٩/٢ (ط. الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٦٦هـ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون) .

وجاء في لسان العرب: «والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داعٍ .
ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، أدخلت الهاء فيه للمبالغة. والنبى ﷺ
، داعي الله تعالى، وكذلك المؤذن»^(١).

٢- الدعوة في الاصطلاح :

للدعوة في الاصطلاح معنيان :

المعنى الأول هو : الدين أو الإسلام. أما المعنى الثاني فهو : النشر والبلاغ .

يقول الدكتور أحمد غلوش: «كلمة الدعوة من الألفاظ المشتركة التي تطلق على
الإسلام وعلى عملية نشره بين الناس، وسياق إيرادها هو الذي يحدد المعنى المراد. فمثلاً إذا
قيل: هذا من رجال الدعوة إلى الله . كان معنى الدعوة هنا محاولات النشر والتبليغ، وإن
قيل: اتبعوا دعوة الله كان المراد بها الإسلام»^(٢).

والمعنى المراد للدعوة في هذا البحث هو النشر والبلاغ.

وقد كثرت تعريفات الأساتذة والباحثين للدعوة بهذا المعنى، وكل واحد من تلك
التعريفات أرى والله أعلم بالصواب سعى إلى تقديم تصور عن الدعوة من خلال جانب معين
من جوانبها لما رأى من أهميته والحاجة الماسة إليه .

ولأن هذا البحث يدرس جزءاً من تاريخ الدعوة سأقتصر هنا إن شاء الله تعالى على ذكر
تعريفين فحسب من تلك التعريفات أرى من وجهة نظري المتواضعة أنهما من أنسب
التعريفات لموضوع هذا البحث .

(١) ابن منظور : محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة «دعا» ٢٥٩/١٤ (ط. بدون، دار صادر، بيروت).

(٢) أحمد أحمد غلوش : الدكتور، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ص ١٠ (ط. بدون، نشر الشركة العالمية
للكتاب، بيروت، ١٩٨٧م) .

أما التعريف الأول فهو ما ذكره الدكتور أبو المجد السيد نوفل حيث قال: «الدعوة : هي قيام من عنده أهلية النصح الرشيد، والتوجيه السديد من المسلمين، في كل زمان ومكان، بترغيب الناس في الإسلام اعتقاداً ومنهجاً، وتحذيرهم من غيره بطرق مخصوصة»^(١).

وأما التعريف الثاني فهو ما ذكره الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني، حيث قال: «الدعوة: هي تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة»^(٢).

ب- الوسيلة :

١- الوسيلة في اللغة:

الوسيلة في اللغة: هي ما يتوصل به إلى الشيء ويُتَقَرَّبُ به. وجمعها وسائل يقال: وَسَلَ إليه وسيلة، وتوسَّل.

والوسيلة المنزلة عند الملك، والوسيلة الدرجة، والوسيلة القرية. وسَلَّ فلان إلى الله تعالى توسيلاً إذا عمل عملاً تقَرَّبُ به إليه، والواصل: الراغب إلى الله تعالى^(٣).

قال العلامة ابن فارس: الواو والسين واللام كلمتان متباينتان جداً. الأولى الرغبة والطلب يقال: وَسَلَ إذا رغب. والواصل الراغب إلى الله عز وجل. ومن ذلك القياس: الوسيلة، والأخرى: السرقة، يقال: أخذ إبله توسلاً^(٤).

(١) أبو المجد السيد نوفل : الدكتور، الدعوة إلى الله تعالى، خصائصها -مقوماتها- مناهجها- ص ١٨ (ط. الأولى، مطبعة الحضارة العربية، الفجالة، مصر، ١٣٩٧هـ) ومما يتميز به هذا التعريف أنه يشتمل على جميع أركان الدعوة مع ذكر شيء من الأوصاف لكل منها .

(٢) محمد أبو الفتح البيانوني : الدكتور، المدخل إلى علم الدعوة، ص ١٧ (ط. الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ) ومما يتميز به هذا التعريف أنه جمع بين الجانبين النظري والتطبيقي مع قصر ألفاظه .

(٣) انظر : الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، فصل الواو، باب اللام، مادة «الوسيلة» ٦٥/٤ (ط. بدون، دار الجليل، بيروت، ١٣٧١هـ)، وابن الأثير: المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة «وسل» ١٨٥/٥ (ط. بدون، دار أنصار السنة المحمدية، لاهور، تحقيق: محمود الطناحي وطاهر الزاوي).

(٤) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، باب الواو والسين وما يثلاثهما، مادة «وسل» ١١٠/٦ .

٢- الوسيلة في الاصطلاح :

الوسيلة في الاصطلاح هي ما يُتقرب به إلى الغير^(١) .

أما وسائل الدعوة الإسلامية فـ **قيل هي**: «كل ما يستعين به الداعية من الأشياء على تبليغ الدعوة إلى الله على نحو نافع مثمر»^(٢) .

وقيل هي: «ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية أو مادية»^(٣) .

ويلاحظ من خلال هذين التعريفين أنهما يدوران حول معنى واحد وهو أن وسائل الدعوة الإسلامية هي الأدوات التي يستخدمها الداعية لتبليغ دعوته، ومحاولة التأثير على المدعويين من خلالها .

ج - الأسلوب :

١- الأسلوب في اللغة :

الأسلوب في اللغة هو الطريق المتمد. ويقال للسطر من النخيل : أسلوب، وهو أيضاً الطريقة. يقال: سلكت أسلوب فلان، أي طريقته. وهو أيضاً المذهب. يقال: أنتم في أسلوب سوء، أي مذهب سوء. ويقال للمتكبر: أنفه في أسلوب إذا لم يلتفت يمينه ولا يسرة.

وهو أيضاً **الفن** يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي في فنون منه. والجمع :

(١) الجرجاني : علي بن محمد، التعريفات ص٣٠٧ (ط. الأولى ، دار عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة).

(٢) عبد الكريم زيدان : الدكتور، أصول الدعوة، ص٤٢٩ (ط. الثالثة، مكتبة المنار الإسلامية، ١٣٩٦هـ).

(٣) محمد البيانوني : الدكتور، المدخل إلى علم الدعوة ، ص٤٩ .

أساليب^(١).

٢- الأسلوب في الاصطلاح :

الأسلوب في الاصطلاح قيل هو: «عرض ما يراد عرضه من معانٍ وأفكار، ومبادئ، وأحكام، في عبارات، وصيغ، ذات شروط معينة»^(٢).

وقيل هو: «الصيغ التي يُعبّر عن المعنى بها، أو الحلقة اللفظية التي يقدم بها المعنى أو ما يقوم مقامها»^(٣).

ولا يوجد -في نظري- اختلاف بين هذين التعريفين إلا من ناحية اللفظ فحسب^(٤).

٢- أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

الحديث عن وسائل الدعوة الإسلامية وأساليبها في العصر العباسي الثاني حديث له أهمية بالغة، وخاصة عالية، كيف لا، وهو يمثل جزءاً من تاريخ الدعوة الإسلامية العظيم . وهناك عدة أسباب أدت بالباحث لاختيار هذا الموضوع، وجعله مجالاً لدراسته يمكن إجمالها فيما يلي :

١- أن نجاح الدعوة في كل زمان ومكان مرتبط بالسير خلف سلفنا الصالح ومعرفة الوسائل والأساليب التي سلكوها لأنها هي النبراس الذي يضيء الطريق لمن أراد أن ينجح في دعوته، ويكون داعية إلى الله على بصيرة .

(١) انظر الجوهري : إسماعيل بن حماد، الصحاح، مادة «سلب» ١/١٤٩ (ط. الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٩هـ) ، والزمخشري : أساس البلاغة، مادة «سلب» ، ص ٣٠٤ ، وابن منظور : لسان العرب، مادة «سلب» ١/٤٧٣ .

(٢) أبو المجد السيد نوفل : الدكتور، الدعوة إلى الله تعالى، ص ١٨٩ .

(٣) سيد محمد ساداتي الشنقيطي : الدكتور، ركائز الاعلام في دعوة إبراهيم عليه السلام، ص ١٢٩ (ط. الأولى، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٥هـ).

(٤) هناك اختلاف في وجهات النظر للتفريق بين الوسيلة والأسلوب إلا أن الذي أخذ به الباحث في هذا البحث ما سجل فيه من تعريفي الوسيلة والأسلوب .

٢- أن العصور السابقة لعصرنا هذا، قد نالت - ولله الحمد - قسطاً لا بأس به من الحديث والدراسة بخلاف هذا العصر^(١).

٣- اجتمعت على الدعوة الإسلامية في هذا العصر عقبات متعددة تختلف كثيراً عما واجهته من عقبات في عصورها السابقة، كالزنج، والقرامطة،، والعبيدية، والصوفية، وغيرها من العقبات .

٤- في هذا العصر كان للحركة العلمية نشاط كبير في العلوم عامة، وفي العلوم الإسلامية خاصة، فهو يُعدُّ العصر الذهبي لها، حيث دون معظمها وأصبحت تتداول بين طلبة العلم ومحبيه، بعد أن كانت في صدور العلماء مما كان له الأثر الملموس في حياة الناس كافة .

٥- أنّ عدداً من العقبات التي وجدت في تلك الفترة موجودة الآن مثل الشيعة، والخوارج، والمعتزلة، والتعصب المذهبي، وغيرها، فدراسة ومعرفة الوسائل والأساليب التي جابه بها الدعوة في تلك الفترة تلك العقبات يسهل على الدعاة في هذا العصر اختيار أنجع الوسائل، وأفضل الأساليب للتصدي لتلك العقبات وتجاوزها، ليبقى طريق الدعوة مفتوحاً، وعمل دعائها مستمراً ومتواصلاً بإذن الله تعالى .

(١) انظر على سبيل المثال :

- رؤوف شلبي : الدكتور، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، والدعوة الإسلامية في عهدها المدني .
- جميل المصري، الدكتور، تاريخ الدعوة الإسلامية في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين .
- عبد الحميد مظاهري ندوي: معالم الدعوة في الدولة الإسلامية إلى نهاية عهد معاوية رضي الله عنه .
- عبد الرحمن بن سليمان الخليلي : الدكتور، الدعوة الإسلامية في بلاد الشام أساليبها ووسائلها وتناجها من بداية الدعوة حتى سنة ٢٣ هـ .
- حسين محمد غيطاس : الدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
- علي أحمد مشاعل: الدكتور، الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول مشكلاتها وأساليب مواجهتها ١٣٢-٢٣٢ هـ .

٦- لعل في إبراز الجهود الدعوية للعلماء والدعاة في هذا العصر وجمعها في مجلد واحد يعطي العديد من الناس دفعة قوية للاتجاه إلى هذا الميدان، والعمل فيه بكل جد وإخلاص .

٣- الدراسات السابقة :

قام الباحث بالاطلاع على عدد من المكتبات الخاصة، والعامّة، والمركزية، في عدد من جامعات المملكة، كالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وكلية الدعوة بالمدينة النبوية، وجامعة الملك سعود، وكذلك زيارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية والاطلاع على دليل الرسائل الجامعية الصادر عنه . لكنه لم يجد كتاباً أو رسالة علمية بهذا العنوان، وإنما كل ما وجدته حول هذا الموضوع من الدراسات ذات العلاقة يمكن ذكرها فيما يلي :

١- الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول مشكلاتها وأساليب مواجهتها ١٣٢-٢٣٢هـ .

وهي رسالة دكتوراه أعدها الدكتور: علي بن أحمد مشاعل وأجيزت من كلية الدعوة والإعلام بالرياض .

وقد استهدفت هذه الدراسة التعرف على جهود العلماء والدعاة في الدعوة إلى الله تعالى في تلك الفترة، وكذلك التعرف على المشكلات التي واجهت الدعوة في تلك الفترة، وكيف جابهها الدعاة إلى الله تعالى .

وقد استفاد الباحث من هذه الدراسة في التعرف على كيفية مجابهة العلماء والدعاة في تلك الفترة لعدد من الفرق والمذاهب المنحرفة إضافة إلى التعرف على مواقفهم من البدع وأهلها .

٢- الاحتساب في العصر العباسي ١٣٢-٦٥٦ هـ .

وهو بحث مكمل لنيل درجة الماجستير، أعدّه الباحث فائق المشهداني وأجيز من المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض.

وقد استهدفت هذه الدراسة التعرف على مفهوم الاحتساب، وأهميته، وصوره في العصر العباسي، وكذلك التعرف على مراحل تطوره، والشروط التي كانت تراعى عند تعيين المحتسب.

وقد استفاد الباحث من هذه الدراسة في التعرف على عدد من صور الاحتساب وأشهر المحتسبين في العصر العباسي .

وعلى ضوء ما سبق، يتضح لنا أن هاتين الدراستين قد تناول كل منهما جانباً من جوانب الدعوة الإسلامية، دون التطرق إلى وسائل الدعوة وأساليبها في العصر العباسي الثاني .

ومن هنا فإن هذه الدراسة يرجى أن تجمع بإذن الله تعالى ما يتعلق بوسائل الدعوة وأساليبها في العصر العباسي الثاني، كما يرجى أن تقوم إن شاء الله تعالى بتوثيقه، وتحليله، وتقويمه، على ضوء منهج علمي .

٤- المشكلة البحثية :

تشير الدراسات التاريخية إلى تميز العصر العباسي الثاني بعدد من الخصائص والسمات في عدد من المجالات، ففي هذا العصر نشطت الحركة العلمية نشاطاً كبيراً، وفيه تعددت الفرق والمذاهب الإسلامية المنحرفة، وكان لها نفوذ ظاهر في بعض المناطق .

وقد تركت هذه الظروف تأثيرات مهمة على الأنشطة الدعوية في هذا العصر، حيث استخدمت وسائل وأساليب دعوية متعددة لمواجهة تلك الأوضاع والظروف، مما يشير إلى أهمية دراسة هذه الوسائل والأساليب الدعوية وتحليلها، وتقويم نتائجها بهدف التعرف على أفضل الوسائل والأساليب التي استخدمت في مواجهة تلك الظروف، وكذلك التعرف على العوامل التي ساهمت في تأثيرها، والعوائق التي اعترضت طريقها، وكيف جابه الدعاة تلك العوائق والعقبات .

٥- تساؤلات البحث :

يسعى هذا البحث إلى الإجابة على مجموعة من التساؤلات تمثل الإجابة عليها أهداف الدراسة، وهذه التساؤلات هي :

أ - ما الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والفكرية، التي واجهتها الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثاني؟

ب - ما الوسائل التي استخدمها الدعاة إلى الله في تلك الفترة في الدعوة إلى الله ؟

ج - ما الأساليب التي استخدمها الدعاة إلى الله في تلك الفترة في الدعوة إلى الله ؟

د - ما مدى تأثير تلك الوسائل والأساليب في المدعوين ؟

وما العوامل التي أسهمت في تأثيرها أو إعاقتها ؟

٦ - تحديد نطاق البحث «زماناً ومكاناً» :

نظراً لأن هذا البحث يستهدف تحليل وتقويم وسائل وأساليب الدعوة الإسلامية في

العصر العباسي الثاني، فإن الإطار الزمني للدراسة تحدد بالفترة الواقعة بين عامي ٢٣٢

إلى ٣٣٣ هـ^(١) .

هذا ما يتعلق بالنطاق الزمني للبحث، أما النطاق المكاني فسوف تتناول هذه الدراسة إن شاء الله تعالى المناطق التي كانت تخضع للخلافة العباسية خلال تلك الفترة، إضافة إلى عدد من الدويلات التي انشقت عنها كدولة الأمويين في الأندلس (١٣٨-٤٢٢ هـ) ، ودولة الأغالبة في القيروان (١٩٦-٢٩٦ هـ)، ودولة العبسيديين في القيروان أيضاً (٢٩٦-٣٦٢ هـ)^(٢) .

٧- تقسيم البحث :

قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة أبواب، وخاتمة، وثمانية فهارس . وهي كما يلي :

يلي :

* المقدمة .

* تمهيد ويشتمل على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : الأوضاع السياسية في العصر العباسي الثاني .
- المبحث الثاني : الأوضاع الاجتماعية في العصر العباسي الثاني .

(١) اعتاد الكتاب أن يقسموا تاريخ العباسيين إلى فترات أربع هي :

- أ - العصر العباسي الأول « ١٣٢-٢٣٢ هـ » .
- ب - العصر العباسي الثاني « ٢٣٢-٣٣٤ هـ » .
- ج - العصر العباسي الثالث « ٣٣٤-٤٤٧ هـ » .
- د - العصر العباسي الرابع « ٤٤٧-٦٥٦ هـ » .

(انظر شاكر مصطفى : الدكتور، دولة بني العباس، ١/١٧٨ . ط. الأولى، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣ م ، ومحمد الحضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، ص ٤٨٦، ط. بدون، المكتبة التجارية، مصر، ١٩٧٠ م . غير أنه قسم العصر العباسي الرابع إلى عشرين .

(٢) تقدم في ص ز مبررات اختيار هذا العصر .

- المبحث الثالث : الأوضاع الفكرية في العصر العباسي الثاني .

* الباب الأول: وسائل الدعوة في العصر العباسي الثاني

ويشتمل على ثلاثة فصول :

● الفصل الأول : الرسائل والرسول .

وفيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول : أهمية وسيلة الرسائل والرسول .

- المبحث الثاني : الرسائل .

- المبحث الثالث : الرسول .

- المبحث الرابع: تقويم أثر هذه الوسيلة .

● الفصل الثاني : المناظرة .

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : أهمية وسيلة المناظرة .

- المبحث الثاني : مناظرة الفرق الضالة وأهم مجالاتها في هذا العصر .

- المبحث الثالث : تقويم أثر هذه الوسيلة .

● الفصل الثالث : الجهاد .

وفيه ستة مباحث :

- المبحث الأول : أهمية وسيلة الجهاد .

- المبحث الثاني : الجهاد ضد النصارى .
 - المبحث الثالث : الجهاد ضد الزنج .
 - المبحث الرابع : الجهاد ضد القرامطة .
 - المبحث الخامس : الجهاد ضد الوثنيين .
 - المبحث السادس : تقويم أثر هذه الوسيلة .
- * الباب الثاني : أساليب الدعوة في العصر العباسي الثاني .**

ويشتمل على أربعة فصول :

● **الفصل الأول : أسلوب الموعظة الحسنة .**

وفيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول : أهمية أسلوب الموعظة الحسنة .
- المبحث الثاني : وعظ الخلفاء والولاة .
- المبحث الثالث : وعظ أهل العلم والعامه .
- المبحث الرابع : تقويم أثر هذا الأسلوب .

● **الفصل الثاني : أسلوب القدوة الحسنة .**

وفيه عشرة مباحث :

- المبحث الأول : أهمية أسلوب القدوة الحسنة .
- المبحث الثاني : القدوة في قوة الإيمان وإظهار السنة .

- المبحث الثالث : القدوة في العبادة والإكثار منها لله تعالى .
- المبحث الرابع : القدوة في الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى .
- المبحث الخامس : القدوة في الجهاد ، وبذل النفس .
- المبحث السادس : القدوة في الورع .
- المبحث السابع : القدوة في الزهد .
- المبحث الثامن : القدوة في العدل .
- المبحث التاسع : القدوة في المعاملة الحسنة .
- المبحث العاشر : تقويم أثر هذا الأسلوب .

● الفصل الثالث : أسلوب التربية والتعليم

وفيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول : أهمية أسلوب التربية والتعليم .
- المبحث الثاني : التعليم العام .
- المبحث الثالث : التعليم الخاص .
- المبحث الرابع : تقويم أثر هذا الأسلوب .

● الفصل الرابع : أسلوب الترغيب والترهيب .

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : أهمية أسلوب الترغيب والترهيب .

- المبحث الثاني : مجالات أسلوب الترغيب والترهيب في هذا العصر .
- المبحث الثالث : تقويم أثر هذا الأسلوب .
- * الباب الثالث : العوامل التي أسهمت في تأثير تلك الوسائل والأساليب .

ويشتمل على أربعة فصول :

● الفصل الأول : حرص الدعاة وإخلاصهم في دعوتهم

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : حرصهم على إنكار المنكرات والقضاء عليها .

- المبحث الثاني : حرصهم على بذل العلم وتعليمه .

● الفصل الثاني : صبرهم على الأذى .

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : أسباب تعرضهم للأذى .

- المبحث الثاني : أنواع الأذى وصبرهم عليها .

● الفصل الثالث : مراعاة العلماء والدعاة لأحوال المدعويين

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : استخدام اللين والرفق مراعاة لأحوال المدعويين .

- المبحث الثاني : استخدام الغلظة والشدة مراعاة لأحوال المدعويين .

● الفصل الرابع : مساندة بعض أولي الأمر لهم .

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : قمع بعض الخلفاء والأمراء لعدد من أهل البدع والأهواء .
- المبحث الثاني : توقيف بعض الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء .
- المبحث الثالث : تعيين المحتسبين .

* الباب الرابع : العوائق في تأثير تلك الوسائل والأساليب .

ويشتمل على أربعة فصول :

● الفصل الأول : التعصب المذهبي .

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : مظاهر التعصب المذهبي .
- المبحث الثاني : أهم آثار التعصب المذهبي السيئة .

● الفصل الثاني : وجود فرق ومذاهب منحرفة .

وفيه خمسة مباحث :

- المبحث الأول : الخوارج .
- المبحث الثاني : الرافضة .
- المبحث الثالث : المعتزلة .
- المبحث الرابع : الصوفية .
- المبحث الخامس : الزنج .

● الفصل الثالث : كثرة المنكرات وانتشارها .

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : وجود الزنادقة .
- المبحث الثاني : وجود المنجمين .
- المبحث الثالث : وجود القُصَّاص .

● الفصل الرابع : ضعف الخلافة وقلّة اهتمامها بأمر الدين.

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : ضعف تدين الخلفاء وقلّة اهتمامهم بالعمل للدين وخدمته .
- المبحث الثاني : ضعف الخلفاء سياسياً وإدارياً وأثر ذلك على الخلافة الإسلامية .

* الخاتمة : واشتملت على أهم نتائج البحث وتوصيات الباحث .

ومن أجل خدمة البحث، وتسهيلاً للقارئ الكريم ذُيِّلت البحث بثمانية فهارس تفصيلية،

وهي كما يلي :

- ١- فهرس الآيات .
- ٢- فهرس الأحاديث .
- ٣- فهرس الأعلام المترجم لهم .
- ٤- فهرس الأماكن والبلدان .
- ٥- فهرس الأبيات الشعرية .

٦- فهرس الألفاظ الغريبة والمشروحة .

٧- فهرس المصادر والمراجع .

٨- فهرس الموضوعات .

٨- المنهج المستخدم في البحث :

نظراً لأن هذا البحث يسعى إلى دراسة موضوع يتعلق بتاريخ الدعوة الإسلامية، وفي فترة تاريخية مضت، فإن المنهج التاريخي يعد من أنسب المناهج الملائمة لهذه الدراسة، وسوف يستخدم الباحث إن شاء الله تعالى هذا المنهج، من خلال الخطوات التالية :

أ - تحديد مصادر البحث الأساسية والثانوية ونقدها .

ب - تصنيف الحقائق وتحليلها، ومحاولة الربط بينها وصولاً إلى استنتاجات علمية دقيقة.

ج - عرض النتائج التي يتم التوصل إليها في ضوء التساؤلات التي تطرحها الدراسة .

وقد راعيت بفضل الله تعالى في هذا البحث عدداً من الأمور من أهمها :

١- قمت بضبط الآيات القرآنية الكريمة بالشكل وكتابة أسماء سورها وأرقامها في الهامش.

٢- قمت بتخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية، مع الحرص على الحكم عليها -إن كان الحديث من غير الصحيحين- من خلال ما ذكره العلماء المتخصصون من السابقين أو المحدثين .

٣- حرصت على جمع المعلومات لهذا البحث من المصادر القديمة الموثوقة، مع الاستفادة من المراجع الحديثة في بعض جوانب البحث، كما أنني حرصت على أن أرجع إلى أكثر من مصدر في المسألة الواحدة في معظم جوانب البحث لتوثيق المعلومة وإثرائها .

- ٤- حرصت على ترتيب المصادر والمراجع في الحواشي حسب تقدم وفاة أصحابها .
 - ٥- ترجمت للأعلام الواردة في البحث ممن لهم علاقة قوية في البحث .
 - ٦- عرّفت بمعظم الأماكن والبلدان الواردة في البحث .
 - ٧- حرصت على شرح وتفسير الكلمات، والألفاظ الغريبة الواردة في البحث .
 - ٨- قمت بعمل فهرس تفصيليه، للآيات، والأحاديث، والأعلام المترجم لهم، والأماكن والبلدان، والأبيات الشعرية، والألفاظ الغريبة والمشروحة، والمصادر والمراجع، والموضوعات .
- وقد بذلت قصارى جهدي في جميع مراحل البحث لكي يخرج هذا الجهد المتواضع على الوجه المطلوب. فإن وُقِّتُ وأدركت الصواب فمن الله عز وجل، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان أعاذني الله وإخواني المسلمين من شرهما .

سليمان الحبس

التمهيد

«التمهيد»

يحسن قبل الحديث عن وسائل الدعوة وأساليبها في العصر العباسي الثاني أن أتطرق إلى الحديث عن بعض أوضاع هذا العصر وحالاته السياسية، والاجتماعية، والفكرية، وذلك من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول: الأوضاع السياسية في العصر العباسي الثاني.

المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية في العصر العباسي الثاني .

المبحث الثالث : الأوضاع الفكرية في العصر العباسي الثاني.

«المبحث الأول»

«الأوضاع السياسية في العصر العباسي الثاني»

تمهيد:

تمتد هذه المرحلة مدة قرن من الزمان من سنة ٢٣٢هـ إلى سنة ٣٣٣هـ. وهي مرحلة تتسم في معظمها بالضعف والانحطاط السياسي، حتى إن الخليفة العباسي في فترة من الفترات لم يكن له سلطة إلا في بغداد ومعاملاتها^(١).

وفي هذا المبحث سأتحديث إن شاء الله تعالى عن تلك الأوضاع السياسية في هذا العصر من خلال النقاط التالية:

أ- خلفاء هذا العصر.

ب- الضعف والانحطاط السياسي في هذا العصر.

ج - أسباب الانحطاط السياسي في هذا العصر.

(١) انظر ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ١٨٤/١١ (ط. الخامسة، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤٠٤هـ).

أ- خلفاء هذا العصر :

تعاقب على الخلافة في هذا العصر ثلاثة عشر خليفة هم:

- ١- أبو الفضل جعفر المتوكل على الله^(١).
- ٢- أبو جعفر محمد المنتصر بالله^(٢).
- ٣- أبو العباس أحمد المستعين بالله^(٣).
- ٤- أبو عبد الله محمد المعتز بالله^(٤).
- ٥- أبو إسحاق محمد المهدي بالله^(٥).
- ٦- أبو العباس أحمد المعتمد على الله^(٦).

(١) هو أبو الفضل جعفر بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور القرشي العباسي البغدادي، تولى الخلافة في ذي الحجة من سنة ٢٣٢هـ، وبقي فيها إلى أن قتل سنة ٢٤٧هـ. (انظر الذهبي: محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ١٢/٣٠ ط. الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ).

(٢) هو أبو جعفر محمد بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم العباسي، تولى الخلافة بعد مقتل أبيه ولم يبق فيها طويلاً، حيث توفي سنة ٢٤٨هـ فكانت خلافته ستة أشهر وأياماً. (انظر المرجع السابق، ١٢/٤٢).

(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد العباسي بويح له بالخلافة بعد وفاة المنتصر بالله سنة ٢٤٨هـ وبقي فيها إلى أن خلع سنة ٢٥٢هـ ثم قُتل في السنة نفسها. (انظر المرجع السابق: ١٢/٤٦، وابن كثير: البداية والنهاية، ١١/٢، ١١).

(٤) هو أبو عبد الله محمد وقيل الزبير بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله العباسي أستخلف سنة ٢٥٢هـ وهو ابن عشرين سنة أو دونها وكانت دولته مستضعفة مع الأتراك حيث خلعوه من الخلافة سنة ٢٥٥هـ ثم قتلوه. (انظر المرجع السابق: سير أعلام النبلاء، ١٢/٥٣٢، والبداية والنهاية، ١١/١٠، ١٦).

(٥) هو أبو إسحاق محمد بن هارون الواثق بالله بن محمد المعتصم بالله العباسي بويح له بالخلافة بعد خلع المعتز بالله سنة ٢٥٥هـ وكان ورعاً صالحاً خليقاً للخلافة لكنه لم يجد معيناً ولا ناصرأً قتله الأتراك سنة ٢٥٦هـ وكانت خلافته أقل من سنة بخمسة أيام. (انظر المرجع السابق: سير أعلام النبلاء، ١٢/٥٣٥، والبداية والنهاية، ١١/١٧، ٢٢).

(٦) هو أبو العباس أحمد بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله العباسي أستخلف بعد قتل المهدي بالله في شهر رجب من سنة ٢٥٦هـ وبقي فيها حتى توفي في شهر رجب من سنة ٢٧٩هـ فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وأياماً. (انظر المرجع السابق: سير أعلام النبلاء، ١٢/٥٤٠، والبداية والنهاية، ١١/٦٥).

٧- أبو العباس أحمد المعتضد بالله^(١).

٨- أبو محمد علي المكتفي بالله^(٢).

٩- أبو الفضل جعفر المقتدر بالله^(٣).

١٠- أبو منصور محمد القاهر بالله^(٤).

١١- أبو العباس أحمد الراضي بالله^(٥).

١٢- أبو إسحاق إبراهيم المتقي لله^(٦).

(١) هو أبو العباس أحمد بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله العباسي بويج له بالخلافة بعد وفاة عمه المعتضد على الله كان شجاعاً فاضلاً مهيباً أعاد للخلافة هيبتها ومكانتها توفي في شهر ربيع الأول من سنة ٢٨٩هـ فكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وأياماً. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٦٣/١٣، وابن كثير: البداية والنهاية، ٨٦/١١).

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بويج بالخلافة عند موت والده بعهد منه توفي سنة ٢٩٥هـ فكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وأياماً. (انظر المرجعين السابقين: سير أعلام النبلاء، ٤٧٩/١٣، والبداية والنهاية، ١٠٤/١١).

(٣) هو أبو الفضل جعفر بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بويج له بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي بالله وهو ابن ثلاث عشرة سنة فلم يلتفت إلى أعباء الأمور فصغر منصب الخلافة في عهده. خلع من الخلافة مرتين وفي الثالثة قتل وكان ذلك سنة ٣٢٠هـ فكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وأياماً. (انظر المرجعين السابقين: سير أعلام النبلاء، ٤٣/١٥، والبداية والنهاية، ١٦٩/١١).

(٤) هو أبو منصور محمد بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بويج له بالخلافة بعد قتل أخيه المقتدر بالله بقي فيها حتى خلع سنة ٣٢٢هـ بعدما عذب وأوذى وتأخرت وفاته إلى سنة ٣٣٣هـ. (انظر المرجعين السابقين: سير أعلام النبلاء، ٩٨/١٥، والبداية والنهاية، ١٧٨/١١).

(٥) هو أبو العباس أحمد وقيل محمد بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله العباسي بويج له بالخلافة بعد خلع القاهر بالله في جمادى الأولى من سنة ٣٢٢هـ كان سمحاً من خيار الخلفاء توفي في شهر ربيع الأول من سنة ٣٢٩هـ وكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وأياماً. (انظر المرجعين السابقين: سير أعلام النبلاء، ١٠٣/١٥، والبداية والنهاية، ١٩٦/١١).

(٦) هو أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله العباسي بويج له بالخلافة بعد وفاة أخيه الراضي بالله، كان صالحاً كثير الصيام والصلاة وبقي في الخلافة حتى خلع منها في المحرم من سنة ٣٣٣هـ وتأخرت وفاته إلى سنة ٣٥٧هـ. (انظر المرجعين السابقين: سير أعلام النبلاء، ١٠٤/١٥، والبداية والنهاية، ٢٠٩، ١٩٨/١١).

١٣- أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله^(١).

ب- الضعف والانحطاط السياسي في هذا العصر:

يُعدُّ هذا العصر من حيث قوة الخلافة وضعفها عصر ضعف وانحطاط حيث إن معظم خلفائه كانوا ضعفاء سياسياً وإدارياً فلم يتمكنوا من السيطرة على زمام الخلافة وإدارة شؤونها بقوة وحزم.

يقول الإمام الذهبي: «بعد مصرع المتوكل وابنه وأولئك الخلفاء المستضعفين المقتولين، نُقضَ أمرُ الخلافةِ جدًّا»^(٢).

ويصف الحافظ ابن كثير عهد المستعين بالله وخلافته قائلاً:

«وقد ضعف جانب الخلافة واشتغلوا بالقيان والملاهي»^(٣). ويتحدث العلامة ابن الأثير عن عهد المقتدر بالله وخلافته قائلاً: «وانخرقت الهيبة، وضعف أمر الخلافة»^(٤).

ويؤكد هذا القول الإمام الذهبي حيث يقول عن عهده أيضاً «وانخرم نظام الإمامة في أيامه، وصغر منصب الخلافة»^(٥).

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن علي المكتفي بالله بن أحمد المعتضد بالله العباسي بوع له بالخلافة بعد خلع المتقي لله ولم يبق فيها كثيراً حيث خلع منها في جمادى الآخرة من سنة ٣٣٤هـ وأودع السجن حتى توفي به سنة ٣٣٨هـ. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١١١/١٥، وابن كثير البداية والنهاية، ٢١٠/١١، ٢١٢).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٣١/١٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ٣/١١.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٢١/٦ (ط. الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ).

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٣/١٥.

ويصف الحافظ ابن كثير حال الخلافة في أواخر هذا العصر فيقول - وهو يتحدث عن خلافة الرازي بالله:-

«وهي أمر الخلافة جداً، واستقل نواب الأطراف بالتصرف فيها، ولم يبق للخليفة حكم في غير بغداد ومعاملاتها»^(١).

ويستمر هذا الضعف والانحطاط السياسي حتى نهاية هذا العصر، حيث يقول الإمام الذهبي واصفاً حال الخلافة في عهد آخر خلفاء هذا العصر المستكفي بالله:

«وضَعُف دَسْتُ^(٢) الخلافة جداً»^(٣).

ولا يعني ما سبق أن كل خلفاء هذا العصر كانوا ضعفاء سياسياً وإدارياً بل وجد منهم - وهم قلة - من كان قوياً فنهض بأمر الخلافة وأعاد لها شيئاً من مهابتها وكرامتها. ومن هؤلاء الخليفة المعتضد بالله حيث يقول الإمام الذهبي عنه: «أحيا رميم الخلافة التي ضعفت من مقتل المتوكل»^(٤).

ويقول عنه الحافظ ابن كثير: «وقد كان أمر الخلافة دائراً فأحياه الله على يديه بعدله، وشهامته، وجرأته»^(٥).

ج - أسباب الانحطاط السياسي في هذا العصر:

يظهر للباحث أن هناك عدة أسباب أدت- بعد قضاء الله وقدره - إلى هذا الضعف

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٨٤.

(٢) دَسْتُ: الدست هو المنصب والمراد هنا ضعف منصب الخلافة. (انظر: المعجم الوسيط مادة «الدست»، ٢٨٢/١).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٥/١١٣.

(٤) المرجع السابق: ١٣/٤٦٧.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/٦٦.

والانحطاط السياسي في هذا العصر، يمكن إجمالها في النقاط التالية :

١- زوال هيبة الخلفاء لصغر سنهم، مما أدى إلى سيطرة النساء على بعضهم، والتحكم في شؤون الخلافة، والتلاعب بخزينة الدولة حسب رغباتهن وأهوائهن.

فالمقتدر بالله - على سبيل المثال - تولى الخلافة وهو في سن الثالثة عشرة من عمره^(١). فاشتغل باللعب واللهو، وترك أمور الدولة لغيره، فتدخلت النساء وأفراد حاشيته في الحكم، بل إن الأمر والنهي أصبح بيد أمه، فازداد نفوذها حتى أصبحت هي التي تعين وتعزل من الوزراء من ومتى شاءت.

يقول العلامة ابن الأثير: «على أن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيراً، وحكم فيها النساء والخدم، وفرط في الأموال»^(٢).

ويقول الإمام الذهبي عنه أيضاً: «كان منهوماً باللعب والجواري لا يلتفت إلى أعباء الأمور»^(٣).

ويقول عنه أيضاً: «واستقل بالأمر والنهي السيدة أم المقتدر»^(٤).

٢- سوء تصرف أفراد البيت العباسي بعامته والخلفاء بخاصة، واشتداد الخلاف بينهم، والتآمر على بعضهم، وذلك في سبيل تولي السلطة والمحافظة على كرسي الخلافة واحتكاره.

فقد ذكر الإمام الطبري أنه لما خُلع المستعين بالله وتولى المعتز بالله الخلافة، أمر بقتله

(١) انظر: الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ١٣٩/١٠. (ط. الرابعة، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٢١/٦ - ٢٢٢.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٣/١٥.

(٤) المرجع السابق: ٤٩/١٥.

فقتل وأتى برأسه وهو يلعب بالشطرنج فقييل: هذا رأس المخلوع. فقال دعوه هنالك، ثم لما فرغ من لعبه دعا به فنظر إليه، ثم أمر بدفنه، وأمر لقاتله بخمسين ألف درهم^(١).

ولما تولى المقتدر بالله الخلافة عزل مرتين . ففي المرة الأولى بويق لابن المعتز ولقب «الغالب بالله» وفي المرة الثانية بويق لأخيه محمد بن المعتضد ولقب «القاهر بالله»، ثم أعيد للخلافة في المرة الثالثة على يد الأمير التركي «مؤنس الخادم»^(٢).

وكان بعض الخلفاء إذا تولى الخلافة قتل منافسيه من قرابته وأهل بيته، أو اضطهدهم ونكّل بهم^(٣).

٣- انغماس معظم الخلفاء في اللهو والترف وعدم الاهتمام بشؤون الخلافة. يقول الحافظ ابن كثير في حوادث سنة ٢٤٩هـ: «وقد ضعف جانب الخلافة واشتغلوا بالقيان والملاهي»^(٤).

ويقول الإمام الذهبي عن الخليفة المعتمد على الله: «وانهمك في اللهو واللعب واشتغل عن الرعية»^(٥).

ويقول الدكتور شوقي ضيف: «وكان من أهم الأسباب في تدهور الخلافة العباسية أن كثرة من الخلفاء انغمست في اللهو، والترف، والإقبال على كل متاع من بناء قصور باذخة، ومعيشة كفلت لها كل وسائل التعميم وأدواته»^(٦).

(١) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣٦٤/٩.

(٢) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٣/١٥، ٥٤.

(٣) انظر ابن كثير: البداية والنهاية ١٧١/١١، ٢١٠.

(٤) المرجع السابق: ٣/١١.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٥٤٠/١٢.

(٦) شوقي ضيف: الدكتور، تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الثاني - ص ١٩. (ط. السابعة، دار المعارف، القاهرة).

فالمتموكل كان مثلاً مولعاً ببناء المدن والقصور، حيث أمر ببناء عدة قصور منها المختار، والبديع، ولؤلؤة، والجعفري، وأنفق على الأخير أكثر من ألفي ألف دينار^(١).

أما المقتدر فكان سخياً مبذراً، وكان في داره أحد عشر ألف غلام خصي غير الصقالبة والروم، وأخرج جواهر الخلافة ونفائسها على النساء وغيرهن، ويقال إنه أتلف من المال في أيام خلافته ثمانين ألف دينار^(٢).

٤ - كثرة القلاقل والثورات في أنحاء الدولة الإسلامية كشورات الخوارج^(٣)

(١) انظر الطبري: تاريخ الرسل الملوك ، ٢١٢/٩ .

(٢) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٢٢/٦ ، وابن كثير: البداية والنهاية، ١٦٩/١١ - ١٧٠ ، وابن تغري بردي: يوسف الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢٣٤/٣ . (ط. بدون، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب).

(٣) الخوارج: هي فرقة دينية منحرفة نشأت في القرن الأول الهجري، ويعود سبب تسميتهم بالخوارج إلى أحد الأمرين التاليين:

الأمر الأول: أنهم رفضوا التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وخرجوا عن طاعة علي رضي الله عنه. الأمر الثاني: أنهم خرجوا من الكوفة إلى معسكر عبد الله بن وهب الراسبي على نهر دجلة.

وافترقت الخوارج على حوالي عشرين فرقة فمن أشهرها المحكمة ، والأزارقة، والنجداث، والبهيسية، والعجاردة، والشعالبية، والإباضية، والصفرية، ويجمع الخوارج على اختلاف فرقها عدة مبادئ منها:

أ - التبرؤ من عثمان وعلي رضي الله عنهما ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك.

ب - تكفير الحكيمين وأصحاب الجمل وكل من رضي بتحكيم الحكيمين.

ج - وكذلك يرون أن الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقاً واجباً.

د - وكذلك يرون بجميع فرقهم سوى النجدات تكفير مرتكبي الذنوب.

(انظر البغدادي: عبد القاهر، الفرق بين الفرق ص ٥٤ - ٥٥ . ط. بدون ، دار الآفاق الجديدة، بيروت. والشهرستاني: المل والنحل ص ١١٥ . ط. بدون، دار الفكر، بيروت، تحقيق: عبد العزيز الوكيل. وأمير مهنا وعلى خريس: جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص ٩٣ . ط. الأولى ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م).

والزنج^(١)، والقرامطة^(٢)، إضافة إلى ثورات وشغب رجال الجيش في أحيان مختلفة ولأسباب متعددة. وهذه القلاقل والثورات - بلاشك - أرهقت الخلافة الإسلامية وكلفتها الكثير من الخسائر المادية والبشرية.

(١) الزنج: هم طائفة من العبيد كانوا يكسحون السباح في المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط، وانضمت إليهم جماعات من العبيد الهاريين من القرى والمدن المجاورة تخلصاً من حالتهم. وقد قاد هذه الفرقة رجل خرج في النصف من شوال من سنة ٢٥٥هـ وزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم يكن صادقاً وإنما كان أجيراً من عبد القيس واسمه علي ابن محمد بن عبد الرحيم، وأصله من قرية من قرى الري. وكان يدعي أن العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذ هؤلاء العبيد بما كانوا يعانونه من بؤس، كما ادعى أيضاً العلم بالغييب وقال: لقد عرضت علي النبوة فأبيتها. فقيل له: لم ذاك؟ قال: لأن لها أعباءً خفت ألا أطيع حملها. وكان له منبر في مدينته «المختارة» يصعد عليه ويسب عثمان، وعلياً، ومعاوية، وطلحة، والزبير، وعائشة رضي الله عنهم، على الرغم من ادعائه الانتساب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وما زال الزنج يلتفون حول هذا الرجل حتى بلغوا أكثر من ثلاثمائة ألف مقاتل، فقويت شوكتهم، وعظم شأنهم، واستولوا على مدن عديدة. فقيض الله للمسلمين الأمير «الموفق بالله» فتمكن بفضل الله تعالى من القضاء عليهم، وقتل زعيمهم بعد أربعة عشر عاماً من الحروب المتواصلة كلفت الخلافة الإسلامية كثيراً من الجهود والخسائر في الأرواح والأموال.

(انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٩/٤١٠ وما بعدها، وابن كثير: البداية والنهاية، ١١/١٨-١٩، والسيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، ص ٤٢٥ (ط. بدون، دار الجليل، بيروت، ١٤٠٨هـ).

(٢) القرامطة: هي فرقة باطنية هدامة اعتمدت التنظيم السري العسكري ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق لذلك يقال لهم الإسماعيلية. ويقال لهم القرامطة نسبة إلى حمدان ابن الأشعث الذي كان يلقب بـ «قرمط» لقصر كان فيه، وقيل غير ذلك. وأما باطنها وحقيقتها فهو الإلحاد، والإباحية، وهدم الأخلاق، والقضاء على الدولة الإسلامية، وقد ظهرت هذه الفرقة سنة ٢٧٨هـ ودامت قرابة قرنين من الزمان حيث لم يقض عليهم نهائياً إلا في سنة ٤٦٧هـ. وقد بدأت من جنوبي فارس وانتقلت إلى سواد الكوفة، وامتدت إلى الأحساء، والبحرين، والبصرة، واليمامة، وسيطرت على رقعة واسعة من جنوبي الجزيرة العربية.

(انظر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٣٦٥ - ٣٧٥، وأمير مهنا: جامع الفرق والمذاهب الإسلامية، ص ١٥٧، والندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٩٥ - ٣٩٨، (ط. الثانية، مطبعة سفير، الرياض، ١٤٠٩هـ)، ومحمود شاكر: القرامطة ص ٥، ٤٢، ٧٠ (ط. الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ).

٥- نفوذ القواد الأتراك^(١)، وسيطرتهم على الخلفاء، وشؤون الخلافة سيطرة كاملة، وبخاصة بعد مقتل المتوكل.

يقول ابن الطقطقي واصفاً حال هؤلاء القواد مع الخلفاء :

«إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه»^(٢).

فقتلوا المتوكل، والمهتدي، والمقتدر^(٣). وسملوا^(٤) القاهر، والمتقي، والمستكفي. ولما سمل المتقي قال القاهر وكان قد سُمِل قبله:

صرتُ وإبراهيمُ شيخي عمي لا بد للشيخينِ من مصدرِ
مادامَ توزونُ له إمرةٌ مطاعة فالميلُ في المِجْمِرِ^(٥).

يقول الإمام الذهبي: «وكانت دولة المعتز مستضعفة مع الأتراك»^(٦).

(١) لما رأى الخليفة المعتصم بالله نفوذ الفرس في الدولة العباسية استقدم العنصر التركي من بلاد ما وراء النهر وأكثر من شرائه حتى بلغ عددهم في عهده سبعين ألفاً. (انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢/٢٣٣، ومحمد جمال الدين سرور: الدكتور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ص ٢٣ ط. الثالثة، دار الفكر العربي، ١٣٩٣هـ).

(٢) ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ١٧٧. ط. بدون، دار إحياء الكتب العربية، عني بنشره محمود الكتبي).

(٣) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٩/٢٢٧، ٣٩٠، ٤٥٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٦/٢٢١.

(٤) السَّمَل: هو فقاء العين، يقال: سملت عينه إذا فقتت بحديدة محماة، أو شوك، أو نحو ذلك. (انظر ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة «سمل»، ٢/٤٠٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة «سمل»، ١١/٣٤٧).

(٥) انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٢/٥٣٣.

ويقول الحافظ ابن كثير: «وكان من عزمه - أي الخليفة المهتدي بالله - أن يبئد الأتراك الذين أهانوا الخلفاء وأذلوهم، وانتهكوا مذنب الخلافة»^(١) ولكنه لم يتمكن من القيام بما عزم عليه رحمه الله.

وهكذا كان هذا العصرُ من الناحية السياسية في الجملة عصرَ ضعف وانحطاط للخلافة العباسية.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٢٣/١١.

«المبحث الثاني»

«الأوضاع الاجتماعية في العصر العباسي الثاني»

تمهيد :-

إن معرفة الأوضاع الاجتماعية لأي عصر من العصور تساعد الباحث في تكوين خلفية لديه- ولو يسيرة - عن هذا العصر من حيث حالته الدعوية، وما مدى حاجته إليها، لأنه سيحاول التعرف على عناصر سكانه، وما يتكونون، وما الأديان التي يعتنقونها، وما مستوى معيشتهم، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية.

وفي هذا المبحث سأتحديث بعون الله تعالى عن الأوضاع الاجتماعية في العصر العباسي الثاني من خلال النقاط التالية :

أ- المقصود بالحياة الاجتماعية.

ب- عناصر السكان في هذا العصر.

ج - أقسام السكان في هذا العصر.

أ- المقصود بالحياة الاجتماعية:

قبل أن أبدأ بالحديث عن الأوضاع الاجتماعية في هذا العصر، أرى أنه لا بد من تحديد المقصود بالحياة الاجتماعية .

يُقصد بالحياة الاجتماعية «الحديث عن عناصر السكان الذين يكونون المجتمع في تفاعلهم مع بعضهم البعض، ومستواهم المعاشي، والأديان التي يعتنقونها، والمناسبات التي يحتفلون بها، والبحث في بلاط الخلفاء، وحياة ساكنيه، وصلاتهم مع طبقات الشعب»^(١).

ب- عناصر السكان في هذا العصر:

نظراً لأن المملكة الإسلامية في هذا العصر كانت تشتمل على رقعة كبيرة من العالم، فإن عناصر سكانها كانت كثيرة ومتعددة. فهناك العنصر العربي، والفارسي، والتركي، والبربري، والمغاربي، إلى جانب أهل الذمة من يهود، ونصارى، ومجوس^(٢).

إضافة إلى الأرقاء والمماليك على اختلاف أنواعهم وألوانهم، فهناك الرقيق الأبيض كالصقلي، والرومي، والديلمى، والكردي. وهناك أيضاً الرقيق الأسود الذي كان يجلب من ساحل إفريقية الشرقي كالزنج^(٣).

وكان كل عنصر من هذه العناصر له دور في التأثير على المجتمع من عدة نواح، كاللغة، والأخلاق، والعادات.

(١) أمينة البيطار : الدكتورة ، تاريخ العصر العباسي الثاني ، ص ٣٤٧ . (ط. بدون، مطابع مؤسسة الوحدة، ١٤٠٠هـ).

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن: الدكتور، تاريخ الإسلام السياسي، والديني، والثقافي والاجتماعي ، ٤٢٢/٣ ، ٤٢٧ (ط. السابعة ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م)، ومحمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، ص ١٦٩ ، ١٧٩.

(٣) انظر أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠.

فالأتراك لم يكن لهم مدنية ولا حضارة، بل كانوا بدواً، وقد أكسبتهم هذه البداوة قوة في البدن، وخشونة في الطبع فطابعهم كان حب الجندية والفروسية.

وقد وصفهم الجاحظ بقوله: «وكذلك الترك، أصحاب عمد وسكان فياف، وأرياب مواشٍ، وهم أعراب العجم كما أن هذيلاً أكراد العرب، فحين لم تشغلهم الصناعات، والتجارات، والطب، والفلاحة، والهندسة، ولا غرس، ولا بنيان، ولا شق أنهار، ولا جباية غلات، ولم يكن همهم غير الغزو، والغارة، والصيد، وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال، وطلب الغنائم، وتدويخ البلدان»^(١).

كما عرف الترك أيضاً «بأنهم ينظرون في شيء من الاحتقار إلى أهل البلاد التي يحكمونها، وينتصرون لمذهب أهل السنة، ولا يميلون إلى الفلسفة والجدل في الدين»^(٢).

أما الفرس فكان طابعهم حب الفخفة والظهور، فقد ورثوا مدنية قديمة مملوءة بالتقاليد والأوضاع، فطبعوا عليها بحاسنها ومساوئها، ولهم قدرة فائقة على تنظيم الحكم، وإمام كبير بالوسائل التي تزيد الثروة وتضاعفها، كما اهتموا بتشجيع العلم بفروعه المختلفة^(٣).

وقد احتفظ العرب ببعض عاداتهم القبلية، وتأثروا بالحضارة وانغمس كثير منهم في البذخ والترف.

وكثيراً ما كان يتعاقب على أقطار الدولة الإسلامية هذه الأجناس الثلاثة أو جنسان

(١) الجاحظ: عمرو بن بحر، رسالة في مناقب الترك «وهي ضمن مجموع رسائل الجاحظ»، ١/٧٠ - ٧١ (ط). بدون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ، تحقيق: عبد السلام هارون).

(٢) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص ١٦٩.

(٣) انظر أحمد أمين: ظهر الإسلام، ١/٦٢ (ط. الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م)، وأمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص ٣٤٨.

منها. فتعاقب على العراق العرب، والفرس، والأتراك. وعلى مصر العرب والأتراك، ثم المغاربة.

وكان لهذه العناصر أثر واضح في سياسة الدولة الإسلامية كما أثرت في حالتها المادية ونهضتها الأدبية والعلمية^(١).

وهناك عنصران آخرا كان لهما أثر في الحياة الاجتماعية في هذا العصر، وإن كان هذا يأتي في منزلة أقل من تأثير العناصر الثلاثة السابقة، وهذان العنصران هما الروم والزنج^(٢).

فالرقيق الرومي الذي ازدادت أعداده نتيجة الحروب المتصلة بين المسلمين والبيزنطيين، حتى إنه بعد معركة من المعارك الكبيرة معهم أسر المسلمون كثيراً منهم، وكان لا ينادى على شيء - من الأسرى وغيرهم من الغنائم - أكثر من ثلاثة أصوات، ثم يباع طلباً للسرعة، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة، عشرة عشرة، طلباً للسرعة^(٣). «فانتشر المماليك الروم تبعاً لذلك من رجال ونساء وغللمان، في بيوت الخلفاء والأغنياء، بل إن بعض الخلفاء في هذا العصر كانت أمهاتهم روميات، منهم المنتصر بالله، والمعتز بالله، والمقتدر بالله. وقد استكثر الخليفة المقتدر بالله من الخدم والمماليك من الروم»^(٤).

وأما الزنج فكانوا يجلبون في الأكثر من سواحل إفريقية الشرقية «وكانت مصر وشمال إفريقيا وشمال جزيرة العرب من أهم أسواقهم، وقد جلب إلى العراق كثير من الزنجيات

(١) انظر محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٧٠.

(٢) انظر أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي ص ٣٥١.

(٣) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥ / ٢٥٠.

(٤) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٧١ - ١٧٢.

اللاتي عرفن بكثرة النسل، كما جلب كثير من الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور. وكثر الزنج في العراق، وأدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج الخطيرة التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥ - ٢٧٠هـ) وكلفت الدولة العباسية كثيراً من الأموال والدماء»^(١).

وقد قام الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة في الدولة الإسلامية، اشتركوا في الحياة السياسية والاجتماعية، فقد عملت فئات من جنسياتهم كافة بما فيهم الزنج في خدمة قصر الخلافة، وكذلك بيوت أوساط الناس، كما ضم الجيش العباسي طائفة منهم.

ووصل كثير من المعتقين منهم إلى مراكز سامية، كقيادة الجيوش، مثل مؤنس الخادم في العراق، وجوهر الصقلي في المغرب ومصر، ومنهم من حكم الولايات مثل كافور الأخشيدي في مصر، وسبكتكين التركي في بلاد الأفغان^(٢).

ومن عناصر السكان كذلك أهل الذمة من يهود، ونصارى، ومجوس، حيث كانوا منتشرين في نواحي الدولة الإسلامية وأطرافها، وداخلها، وكان لكل طائفة منهم رئيس يمثلهم في قصر الخلافة^(٣). «وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني، ويقىمون شعائرهم الدينية في أمن ودعة»^(٤). وكانوا يمارسون العديد من المهن والوظائف، فالنصارى مثلاً كان منهم كتاب السلاطين، وفراشو الملوك، وأطباء الأشراف، والصيارفة^(٥).

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٤٢٤/٣.

(٢) انظر محمد سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٧٥، وآدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢٧٨/١، ٢٧٩. (ط. الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٧٧هـ، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة).

(٣) انظر محمد سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٧٨، ١٧٩.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٤٢٥/٣، وانظر آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٦٩/١، ٧٨.

(٥) انظر محمد عويس: الدكتور، المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ ص ١٧٧. ط. بدون، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٧م).

أما اليهود فكانوا في الغالب يقومون على المهن الوضيعة في المجتمع، كالصباغة،
والدباغة، ونحوهما^(١).

وأصدر بعض الخلفاء في هذا العصر أوامر متعددة تتعلق بأهل الذمة منها:

١- ما أصدره المتوكل على الله في سنة ٢٣٥هـ حيث جاء فيه :

وقد رأى أمير المؤمنين أن يحمل أهل الذمة جميعاً بحضرته وفي نواحي أعماله، أقربها
وأبعدها، وأخصهم وأخسهم، ...

ثم جاء في هذا البيان عددٌ من الأوامر لأهل الذمة التي تتعلق بملابسهم، ومراكبهم،
ومنازلهم... إلى أن جاء فيه:

وتحذرهم إدهانا وميلاً، وتتقدم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل
الذمة عن سبيل عناد وتهوين إلى غيره، ليقصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على
السبيل التي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها، وأخذهم بها إن شاء الله^(٢).

كما نهى أن يستعان بهم في الدواوين ، وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها
على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم، ونهى أن
يظهروا في أعيادهم صليباً، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لثلا تشبه قبور المسلمين^(٣).

٢- ومن الأوامر التي تتعلق بأهل الذمة كذلك ما أصدره المقتدر بالله، حيث أصدر في سنة
٢٩٦هـ عدة أوامر كان منها أن لا يستخدم أحد من اليهود والنصارى في الدواوين^(٤).

(١) انظر محمد عويس: المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، ص ١٨٦ وشوقي ضيف: العصر العباسي
الثاني ص ٦٥.

(٢) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١٧٣/٩ ، ١٧٤.

(٣) انظر: المرجع السابق: ١٧٢/٩.

(٤) انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ١٠٨/١١.

ولكن هذه الأوامر يظهر أنها لم تكن دائما تنفذ بدقة، بدليل أن المتوكل نفسه يجعل في سنة ٢٤٥هـ مقداراً من نفقة بناء قصره الجعفري بيد دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا القائد التركي^(١). وكانت أيضاً وقتية حيث إن أوامر المتوكل انتهت بوفاته^(٢).

أما أوامر المقتدر فقد كانت أقل تنفيذاً من أوامر المتوكل حتى إن وزيره علي بن الفرات كان يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم، وكان منهم أربعة نصارى^(٣).

ج أقسام السكان في هذا العصر:

يمكن أن نقسم عناصر السكان في المملكة الإسلامية في هذا العصر إلى قسمين: قسم الخاصة وقسم العامة.

١- قسم الخاصة :

وهو قسم كانت له علاقة مباشرة بالخليفة أو دار الخلافة، كأهل الخليفة، وقواده، ورجال دولته.

أو علاقة غير مباشرة ككبار التجار، والأطباء، والشعراء، والندماء. فهؤلاء كانوا يعيشون في الغالب حياة بذخ وترف؛ نظراً لما كانوا يتمتعون به من رخاء اقتصادي في معظم الأحيان.

(١) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، ٢١٢/٩ .

(٢) انظر توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٦ (ط. الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ترجمة وتعليق: د. حسن إبراهيم حسن ورفاقه).

(٣) انظر الصابي: الهلال بن المحسن، الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٢٦١ (ط. بدون ، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج).

٢- قسم العامة:

وأما القسم الآخر فهم عامة الشعب ، وكان منهم العلماء، والصناع، والزراع، والعمال، وصغار التجار. فهؤلاء كانوا يعيشون حياة اجتماعية متوسطة؛ إلا أن الفقر سمة لغالبيتهم^(١).

حتى إن متوسط أجر العامل كان في بداية هذا العصر درهم ونصف الدرهم في اليوم، ثم ازداد في نهايته، وكان إيراد أصحاب الحوانيت لا يتعدى ثلاثمائة درهم في الشهر^(٢).

وها هي بعض النماذج والأمثلة التي تبين لنا صوراً من الحياة الاجتماعية التي كان يعيشها بعض أفراد كل من القسمين السابقين.

١- فالخلفاء كان يغلب على كثير منهم حياة الترف والإسراف، ويتمثل ذلك في تعدد مساكنهم، وتلون مطاعمهم ومشاربهم، وكثرة خدمهم وحشمهم.

فالتوكل مثلاً أكثر من بناء القصور حتى بلغت قصوره نحو العشرين^(٣). أما المعتضد فكان زواجه بقطر الندى ابنة أمير مصر خمارويه بن أحمد بن طولون مثلاً للإسراف والبذخ، حيث كان صداقها ألف ألف درهم، أما جهازها وتكاليف زواجها فلا يكاد يوصف^(٤).

٢- أما نساء الخلفاء وأمهاتهم؛ فكانت خرائنهن تنوء بالأموال الباهظة، فكن يعشن حياة ترف وبذخ، حتى إن أم المستعين كانت خزائنها تحتوى على ضعف ما في بيت المال،

(١) انظر أحمد أمين: ظهر الإسلام، ١١٤/١، وأمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي ص ٣٥٨.

(٢) انظر المرجع السابق: ص ٣٥٩.

(٣) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢١٢/٩، وشوقي ضيف: العصر العباسي الثاني ص ٥٥.

(٤) انظر المقرئ: أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقرئية) ٣١٩/١

(ط. بدون، دار صادر، بيروت، طبعة جديدة بالأوفست)، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦١/٣ - ٦٣.

حيث كان فيها قيمة ألف ألف دينار، بينما بيت المال ليس فيه إلا نحو من خمسمائة ألف دينار^(١).

أما أم المعتز فكانت أثرى منها حيث كان في خزائنها زهاء ألف ألف دينار سوى الجواهر المتعددة التي لم ير مثلها وقدرت بألفي ألف دينار^(٢).

٣- أما الوزراء فهم على شاكله الخلفاء وذويهم حيث كان معظمهم يعيش عيشة مترفة؛ لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة، وإقطاعات تدر عليهم آلاف الدنانير سنوياً^(٣).

فالوزير علي بن الفرات كان يملك أموالاً تزيد على عشرة آلاف ألف دينار، وكانت داره مدينة بذاتها^(٤). «وكان يُحصَل من ضياعه في العام ألفي ألف دينار»^(٥).

أما الوزير حامد بن العباس، فقد كان كثير المال والغلمان، وجد في خزائنه ألوف من الذهب^(٦).

وكان له ألف وسبعمائة حاجب، وأربعمائة مملوك يحملون السلاح^(٧).

ولا يعني ما سبق أن جميع الخلفاء والوزراء في هذا العصر كانوا على هذه الشاكلة؛ بل وجد من الخلفاء والوزراء من بلغ في الزهد والورع مبلغاً عظيماً. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما يلي:

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٨٤/٩.

(٢) انظر المرجع السابق: ٣٩٥/٩.

(٣) انظر شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ٥٦.

(٤) انظر ابن خلكان: أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٤٢٢/٣. (ط. بدون، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠م، تحقيق: د. إحسان عباس).

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٧٧/١٤.

(٦) انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤٩/١١.

(٧) انظر ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ١٨٠/٦ ، (ط. الأولى، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٥٧هـ).

أ- كان الخليفة المهدي بالله « من أحسن الخلفاء مذهباً، وأجودهم طريقة، وأكثرهم ورعاً، وعبادة، وزهادة»^(١).

ويبلغ من زهده وتقواه رحمه الله أنه لما توفي « وجدوا سفظاً^(٢) فيه جبة صوف، وكساء، وبرنس، كان يلبسه بالليل ويصلي فيه»^(٣).

ولم يكن يأخذ رحمه الله لنفسه من بيت المال إلا ما يسد حاجته فقط، فقد قال يوماً للأمرء:

«ولست أريد إلا القوت فقط، لا أريد فضلاً على ذلك إلا لأخوتي، فإنهم مستهم الحاجة»^(٤).

ب- وكان الوزير علي بن عيسى من أحسن الوزراء حيث كان فاضلاً، دينياً، ورعاً، متزهداً، حتى قال عنه معاصره الصولي^(٥):

«وما أعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبهه في زهده، وعفته، وحفظه للقرآن، وعلمه بمعانيه، وكتابته، وحسابه، وصدقاته، ومبراته»^(٦).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ، ٢٣/١١.

(٢) سفظاً: السَّفَطُ نوع من الأوعية يوضع فيه بعض الأدوات والأشياء الخفيفة. (انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة «سفظ»، ٣١٥/٧، والمعجم الوسيط مادة «السَّفَطُ» ، ٤٣٣/١).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ٣٥٨/٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ، ١٨/١١.

(٥) هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول المعروف بالصولي، كان أحد العلماء بفنون الآداب، حسن المعرفة بأخبار الملوك، وأيام الخلفاء مات بالبصرة سنة ٣٣٥هـ. (انظر الخطيب البغدادي: أحمد بن علي، تاريخ بغداد، ٤٢٧/٣. ط. بدون، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، والحموي: ياقوت، معجم الأدباء، المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ١٠٩/١٩. ط. بدون، دار المأمون، ومكتبة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٥٥هـ).

(٦) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٩٥.

ومما يدل على كثرة تصدقه رحمه الله أنه قال عن نفسه : « كسبتُ سبعمائة ألف دينار .
أخرجت منها في وجوه البر ستمائة ألف وثمانين ألفاً »^(١) .

هذا ما يتعلق ببعض أفراد القسم الأول قسم الخاصة، أما القسم الثاني قسم العامة؛
فكما أسلفت كانوا يعيشون عيشة متوسطة، لكن الفقر كان يغلب عليهم، وبخاصة عند
حدوث اضطرابات سياسية أو غير سياسية كانقطاع للمطر، أو شدة برد ونحو ذلك، مما كان
يؤدي إلى قلة في الموارد وغلاء في الأسعار.

ففي سنة ٢٦٠هـ مثلاً اشتد الغلاء في عامة المملكة الإسلامية، فانجلى عن مكة من
كان مجاوراً إلى المدينة وغيرها من البلدان من شدة الغلاء، وارتفع السعر ببغداد حتى بلغ
الكر^(٢) من الحنطة خمسين ومائة دينار، ودام ذلك شهراً^(٣)، أما في سنة ٣٣٠هـ فوق
بغداد غلاء فاحش لتصاعد الاضطرابات السياسية، حيث بلغ «كر الحنطة ثلاثمائة وستة
عشر ديناراً، واشتد القحط، وأكلوا الميتات، وكان قحطاً لم ير ببغداد مثله أبداً»^(٤) .

وفي المقابل نجد أن رواتب الموظفين وبخاصة صغارهم كانت ضئيلة إلا أنها كانت أعلى
من مداخيل عامة الناس^(٥) التي كانت بأبخس الأثمان، حتى إن الفلاحين كانوا يتقاضون
أجورهم عيناً من عمال الخليفة، أو من مشتري الغلات والمحاصيل، وكان أحد العبيد
يتقاضى أربعة أرغفة عن أجره اليومي^(٦) .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ١٥ / ٣٠٠ .

(٢) الكرُّ: مكيال لأهل العراق يقدر بستين قفيزاً. والقفيز يعادل ستة عشر كيلو جراماً تقريباً. (انظر المعجم
الوسيط: مادة «قفر»، ٧٥١/٢، ومادة «كرُّ»، ٧٨٢/٢).

(٣) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٥١٠/٩، وابن الجوزي: المنتظم، ٢١/٥ .

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٥٧ .

(٥) انظر فهمي عبد الرازق سعد: العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين ص ١٩٨ (ط. بدون ،
الدار الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت، ١٩٨٣م).

(٦) انظر المرجع السابق: ص ١٩٧ .

فشكّل الفقر في هذا العصر ظاهرة اجتماعية حتى إننا نجد في بعض كتب السير والتراجم من تحدث عن هذه الظاهرة؛ لأنه رزح تحت وطأتها مدة من عمره.

فهذا عبد الوهاب البغدادي المالكي^(١) ضاقت به المعيشة في بغداد حتى لا يجد قوت يومه؛ فخرج منها إلى مصر طلباً للرزق، ولما شيعه بعض أصحابه قال لهم: «لو وجدت بين ظهرانيكم رغيّفين كل غداة ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية»^(٢).

وهذا لا يعني أن معظم فترات هذا العصر كانت هكذا؛ بل لقد كانت بعض فتراته من أفضل الفترات من حيث رفاهية العيش بها، وحمد الخاص والعام لها، ورضاهم عنها، حتى قال بعضهم:

«كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر»^(٣).

أما المعتضد بالله لما أفضت الخلافة إليه «سكنت الفتن، وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب، ورخصت الأسعار»^(٤).

وهكذا فالأوضاع الاجتماعية في هذا العصر متعددة ومتباينة، لتعدد عناصر السكان، وتباين أقسامهم وطبقاتهم.

(١) هو عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون البغدادي الفقيه المالكي شيخ المالكية له مصنفات في المذهب. (انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ، ٢١٩/٣).

(٢) المرجع السابق: ٢٢٠/٣.

(٣) المسعودي: علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٢٢/٤ (ط. بدون، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد).

(٤) المرجع السابق: ٢٣٢/٤.

«المبحث الثالث»

«الأوضاع الفكرية في العصر العباسي الثاني»

تمهيد :

كانت المملكة الإسلامية في هذا العصر شاسعة المساحة، مترامية الأطراف، مما أدى إلى تعدد وتنوع عناصر سكانها الذين كانوا قبل إسلامهم ينتمون إلى ملل ونحل متعددة، وهذا - بطبيعة الحال- كان له أثر في الأوضاع الفكرية في هذا العصر، حيث وُجد فيه العديد من الفرق والمذاهب المنحرفة.

وهذا لا يعني طغيان تلك الفرق والمذاهب المنحرفة على المجتمع وسيطرتها عليه، بل كان للعلماء والدعاة من أهل السنة والجماعة في هذا العصر بفضل الله تعالى، الجهود الحسنة في التأثير على المجتمع، ودعوته إلى الله تعالى.

كما كانت لهم في المقابل جهود عظيمة في التصدي لتلك الفرق والمذاهب المنحرفة، بكل ما يستطيعونه من وسائل وأساليب، وعدم تركها تعيث في المجتمع فساداً وتدميراً. وكل تلك الجهود سأتناولها بالبحث والتفصيل في ثنايا هذا البحث إن شاء الله تعالى. أما في هذا المبحث فسأشير بعون الله تعالى إلى أهم الفرق والمذاهب المنحرفة التي وجدت في عصر البحث من خلال النقاط التالية:

١- الخوارج.

٢- الرافضة.

٣- المعتزلة.

٤- الصوفية.

١- الخوارج:

تعد فرقة الخوارج من أقدم الفرق المنحرفة، وقد افتقرت على عدة فرق، إلا أنها في هذا العصر لم يبرز منها إلا فرقتان هما الصفرية^(١) والإباضية^(٢).

واستطاعت كل واحدة من هاتين الفرقتين إقامة دولة لها حيث تمكن الصفرية من إقامة دولة لهم في سجلماسة^(٣)، كما تمكن الإباضية من إقامة دولة لهم في تاهرت^(٤). وظلتا ملاذا وملجأ للخوارج الصفرية والإباضية حتى سقطتا على يد أبي عبد الله الشيعي - داعية الدولة العبيدية - سنة ٢٩٦هـ^(٥).

(١) الصفرية: فرقة من الخوارج أصحاب زياد بن الأصفر، وقيل عبد الله بن صفار، وقيل النعمان بن صفر. من أهم معتقداتهم أن كل ذنب مغلظ كفر، وكل كفر شرك، وكل شرك عبادة للشيطان، وجوزوا التقية في القول دون الفعل. أقامت الصفرية دولتها في سجلماسة سنة ١٤٠هـ، وكان أول أئمتهم عيسى بن يزيد السوداني، وعرفت هذه الدولة بدولة بني مدرار. وانقسمت الصفرية إلى ثلاث فرق لكنهم جميعاً يقولون بموالاته عبد الله ابن وهب الراسبي، وحر قوص بن زهير وأتباعهما. (انظر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٧٠، وأمير مهنا: جامع الفرق والمذاهب الإسلامية، ص ١٣٨).

(٢) الإباضية: فرقة أساسية من فرق الخوارج أتباع عبد الله بن إباض التميمي. من أهم معتقداتهم: ١- تكفير على بن أبي طالب وبعض الصحابة رضي الله عنهم كغيرهم من الخوارج. ٢- أن مخالفهم من أهل الإسلام كفار ولكنهم ليسوا مشركين، وجوزوا مناكحتهم وموارثتهم.

تميز الإباضية عن الخوارج بأنهم لا يسمون إمامهم أمير المؤمنين، ولا يقولون عن أنفسهم مهاجرين. والإباضية أعدل فرق الخوارج، وينفون عن أنفسهم هذه التسمية، ويعدون مذهبهم مذهباً اجتهادياً، فقهاءً، سنياً، يقف جنباً إلى جنب مع المذاهب الأربعة. وقد أسست الإباضية دولة لها في تاهرت سنة ١٦١هـ وعرفت هذه الدولة بدولة بني رستم. (انظر الشهرستاني: الملل والنحل، ص ١٣٤، وأمير مهنا: جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص ٩، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ١٥).

(٣) سجلماسة: بلدة قديمة من أعمال مراكش بالمغرب، شيدت على مسيرة ٢٠٠ ميل جنوبي الجنوب الشرقي لفاس. (انظر دائرة المعارف الإسلامية، ٢٩٨/١١. ط. بدون، ترجمة الأستاذ أحمد الشنتناوي ورفاقه).

(٤) تاهرت: اسم مدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لإحدهما تاهرت القديمة والأخرى الحديثة وهي تقع الآن في الجزائر على الحد الشرقي لمركز وهران الحالي. (انظر القزويني: زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤٢ ط. بدون، دار بيروت، بيروت، ١٣٩٩هـ)، ودائرة المعارف الإسلامية، ٥٥/٤.

(٥) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٣٣/٦، ومحمود إسماعيل عبد الرزاق: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ص ١١٤ وما بعدها. ط. الثانية، نشر مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٦م).

كما وُجد الخوارج الصفرية والإباضية في شرق المملكة الإسلامية^(١)، وفي وسطها^(٢)، وكانوا يقومون بين الفينة والأخرى بثورات ضد الخلافة العباسية أثقلت كاهلها، وكلفتها الكثير من الرجال والأموال^(٣)، وذلك لأنهم كانوا يرون الخروج على السلطان، وأن داره دار بغي، ومن خالفهم في معتقدهم؛ فهو كافر حلال الدم والمال^(٤).

٢- الرافضة^(٥):

كان للرافضة في هذا العصر وجود فكري كبير .

وقد افتقرت على عدة فرق من أشهرها وأكبرها الإمامية،^(٦) التي افتقرت على فرق

(١) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٣٧/٥ - ٣٣٨، وابن كثير: البداية والنهاية، ٣١/١١.

(٢) انظر المسعودي: مروج الذهب، ٢٤٤/٤ - ٢٤٥.

(٣) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣٧٤/٩ - ٣٧٦، ٥٣٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٣٥/٥، ٣٣٩، ٣٤٦، ٣٥٥، وابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/١١، ١٦٥.

(٤) انظر البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٧٠، والشهرستاني: الملل والنحل، ص ١٣٤.

(٥) سبب تسمية الشيعة بالرافضة، إما لأنهم رفضوا إمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وإما لرفضهم أكثر الصحابة، ورفضهم لإمامة الشيخين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. (انظر أبا الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ٨٧/١، ط. الأولى، مكتبة النهضة المصرية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، وابن كثير: البداية والنهاية، ٣٣٠/٩).

(٦) الإمامية: فرقة من فرق الرافضة قالت بإمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد النبي ﷺ نصاً وتعييناً من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين.

افتقرت الإمامية على فرق كثيرة ومتعددة منها: الكاملية، والمحمدية، والباقرية، والإسماعيلية، والموسوية، والاثنا عشرية، والهاشمية، واليونسية. (انظر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٣٨ - ٣٩، والشهرستاني: الملل والنحل، ص ١٦٢ - ١٧٠، وأمير مهنا: جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص ٢٦ - ٢٨).

كثيرة كان من أبرزها وأعظمها خطراً على الدعوة الإسلامية في هذا العصر الإسماعيلية^(١).

فالإمامية - بشكل عام - لم تكن لهم دولة تتبناهم، وكانوا يكثرون في العراق، حتى إن ناحية ببغداد كان أهلها كلهم إمامية لا يوجد فيهم سني البتة^(٢).

وكان من أشهر علمائهم وقادتهم في هذا العصر، حسين بن روح القيني^(٣)، ومحمد بن يعقوب الكليني^(٤).

وكان هؤلاء الإمامية يجاهرون بسب الصحابة رضي الله عنهم^(٥)، ويصنّفون الكتب في جمع مثالبهم والطعن فيهم^(٦).

أما الإسماعيلية فقد استطاعت أن تكون لها دولتين إحداهما في اليمن على يد

(١) الإسماعيلية: فرقة من فرق الإمامية سادت الإمامة إلى جعفر الصادق ومنه إلى ولده إسماعيل المنصوص عليه في بادئ الأمر. والإسماعيلية مؤمنة بعدم موته منتظرة له، زاعمة أنه لا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس. واعترفت فرقة منهم وقالت بموته وقالت إن الإمامة انتقلت إلى أولاده. وانقسمت الإسماعيلية إلى عدة فرق ولكنها تعود إلى منبع واحد وأهم هذه الفرق هي: الإسماعيلية الواقفة، والبهرة، والعبيدية، والدرزية، والقرامطة. (انظر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٣٩، ٢٦٦-٢٦٧، والشهرستاني: الملل والنحل، ص ١٦٧-١٦٨، وأمير مهنا: جامع الفرق والمذاهب الإسلامية، ص ١٧-١٨).

(٢) انظر الحموي: معجم البلدان، ٤/٤٤٨. (ط. بدون، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٣٧٦هـ).

(٣) هو أبو القاسم حسين بن روح بن بحر القيني كبير الرافضة الإمامية ومفتيهم، وقادتهم، كان مضمرًا لشق عصا الطاعة، وكانت الرافضة تبذل له الأموال، وقد كاد أمره أن يظهر توفي سنة ٣٢٦هـ (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٥/٢٢٢).

(٤) هو محمد بن يعقوب الرازي الكليني عالم الإمامية وشيخها، صاحب التصانيف، مات ببغداد سنة ٣٢٨هـ (انظر المرجع السابق: ١٥/٢٨٠). وقال المحقق حفظه الله في هامش الصفحة نفسها: «وللكليني هذا كتاب الكافي، وهو عند الإمامية بمثابة صحيح البخاري عند أهل السنة، وفيه من المعتقدات الباطلة المفتراة على الأئمة مما لا يقول به مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر».

(٥) انظر ابن الجوزي: المنتظم، ٦/١٩٥، وابن كثير: ١١/١٥٢، ٢٠٦.

(٦) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٣/٥٠٩.

داعيتها الحسن بن حوشب^(١)، وذلك في سنة ٢٦٦هـ.^(٢) أما الأخرى فكانة في شمال إفريقيا، وتأسست على يد داعيتها أبي عبد الله الشيعي^(٣)، الذي مهد السبيل لعبيد الله المهدي^(٤) الذي تولى قيادة هذه الدولة وكان أول خلفائها، وذلك في سنة ٢٩٧هـ^(٥).

وكانت الدولة العبيدية أكثر نفوذاً وتأثيراً في العالم الإسلامي من شقيقتها في اليمن، حيث انتشرت وسيطرت على بقاع شتى في بلاد المغرب، ثم في مصر، وامتدت رقعتها إلى فلسطين والشام، وإلى بلاد الحجاز وغيرها، بل وخطب لهم في الموصل وبغداد حيناً من الدهر^(٦).

وقد عانى أهل السنة من العبيديين في بلاد المغرب وغيرها أذى كثيراً، يقول أحد علماء المالكية:

(١) اختلف في اسمه فقيل هو الحسن بن فرح بن حوشب بن زادان، وقيل هو منصور بن حسن، وقيل هو رستم ابن الحسين بن حوشب بن دادان. من أهل الكوفة بعثه ابن القداح إلى اليمن وأمره بلزوم العبادة والزهد ودعاء الناس إلى المهدي وأنه خارج في هذا الزمان في اليمن، توفي سنة ٣٠٢هـ (انظر الخزرجي: علي بن الحسن، المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، ص ٤١٥، ٤٢٩. وهو ضمن مجموع أخبار القرامطة، ط. الأولى، نشر عبد الهادي حرصوني، ١٤٠٠هـ جمع وتحقيق ودراسة: د. سهيل زكار. وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٢٦/٦).

(٢) انظر المرجعين السابقين: المسجد المسبوك ص ٤١٣-٤٢٢، والكامل في التاريخ، ١٢٦/٦. ومحمود شاكر: القرامطة، ص ٥٢-٥٣.

(٣) هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني الشيعي أبو عبد الله، من دهاة الرجال الخبيرين بالجدل، والحيل، وإغواء بني آدم، قام بالدعوة إلى المهدي فلما تمكن المهدي من الملك قتله سنة ٢٩٨هـ. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٥٨/١٤، وابن كثير: البداية والنهاية، ١١٦/١١).

(٤) ادعى أن نسبه هو: عبید الله بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقيل لم يكن اسمه عبید الله بل إنما هو سعيد بن أحمد، وقيل سعيد بن الحسين وهو أول من قام من الخلفاء العبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام وأعلنوا بالرفض وأبطنوا مذهب الإسماعيلية، توفي سنة ٣٢٢هـ وكانت دولته خمساً وعشرين سنة وأشهرًا. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٤١/١٥، وعبد الحمي بن العماد الخنيلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢٩٤/٢ (ط. الثانية، دار المسيرة، بيروت، ١٣٩٩هـ).

(٥) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٤١/١٥-١٤٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٢٧/٦-١٣٣).

(٦) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ١٩٢/٣.

« إن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه أربعة آلاف في دار النحر في العذاب من عالم ،
وعابد ، ليردهم عن الترضي عن الصحابة فاختاروا الموت. فقال الشاعر:

وأحلّ دار النحر في أغلاله من كان ذا تقوى وذا صلوات»^(١)

وكانوا يجاهرون بسب الصحابة رضي الله عنهم، بل وكانوا يعلقون رؤوس أكباش،
وحمير، وغيرها على أبواب الحوائيت والدروب، وكانوا يكتبون عليها أنها رؤوس الصحابة
رضي الله عنهم. ومن ينكر ذلك من أهل السنة ولو بالكلام قتل ومثل به^(٢).

٣- المعتزلة^(٣):

في مطلع هذا العصر كان لفرقة المعتزلة وزنها السياسي والفكري لأن تعاليمها،

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٥ / ١٤٥، وانظر الدباغ: عبد الرحمن بن محمد ، معالم الإيمان في معرفة
أهل القيروان، ٣/٣٤ (ط. بدون ، نشر المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر، تحقيق محمد ماضور
و د. محمد أبو النور).

(٢) انظر القاضي اليحصبي السبتي: عياض بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب
مالك ، ٣/٣١٨. (ط. بدون ، نشر مكتبة الحياة، بيروت، ومكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، تحقيق: د.
أحمد بكير محمود)، وانظر أيضاً المالكي: عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان
وأفريقية، ٢/٣٣٨ (ط. بدون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ، تحقيق: بشير البكوش، وابن
عذارى المراكشي: محمد ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ١/١٥٩، ٢١٦، ط. بدون،
مطبوعات، ليدن، ١٩٥١م نشر وتحقيق: ج . س. كولان و إ . ليفي بروفسال).

(٣) المعتزلة: هي فرقة دينية منحرفة ذكر العلماء عدة أسباب لتسميتهم بهذا الاسم من أشهرها: أنه أطلق على
الذين اعتزلوا مجلس الحسن البصري بعد اختلافهم في مرتكب الكبيرة. وهؤلاء هم أصحاب واصل بن
عطاء، وسبب ذلك أنه جاء رجل إلى الحسن البصري وقال له: لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب
الكبائر، والكبيرة كفر يخرج به عن الملة، وهم وعبيدة الخوارج... فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب
قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين
المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد، فقال الحسن: اعتزل عنا
واصل، فسمي هو وأصحابه معتزلة. وأصل مذهب المعتزلة القول بالأصول الخمسة وهي: التوحيد، والعدل ،
والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمعتزلة قسمان: معتزلة البصرة،
ومعتزلة بغداد، وتفرعت الفرقتان إلى أكثر من عشرين فرقة كل فرقة منها تكفر سائرهما. ومن أشهرها:
الواصلية ، والعمرية، والهديلية، والنظامية، والجاحظية، والكعبية. (انظر البغدادي: الفرق بين الفرق ص
٩٣، والشهرستاني: الملل والنحل، ص ٤٣ وما بعدها، وأمير مهنا: جامع الفرق والمذاهب الإسلامية
ص١٨٨ - ١٩٠).

ومبادئها كانت قد ازدهرت في نهاية العصر العباسي الأول ، حيث نالت التأييد الرسمي من قبل ثلاثة من الخلفاء هم المأمون، والمعتصم ، والواثق، ولما أفضت الخلافة في أواخر ذي الحجة من عام ٢٣٢هـ إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدل، والترك لما كان عليه الناس في أيام المأمون والمعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد^(١).

وكان هذا الأمر بداية النهاية للمعتزلة حيث كانوا يثيرون قضاياهم بين الناس، ويتحمسون لها، ويؤذون الناس في سبيلها.

واستمر المتوكل يتخذ الإجراء تلو الإجراء نصراً للسنة وإماتة للبدعة، فقرب علماء أهل السنة، ورفع مكانتهم^(٢)، وفي المقابل نحى علماء المعتزلة ورؤساءها عن مناصبهم وضيق عليهم^(٣).

وقد حذا الخلفاء بعد المتوكل حذوه في تقريب أهل السنة وإبعاد المعتزلة، فأصبح المعتزلة على المستوى الرسمي والشعبي جماعة مشبوهة تقاسي العزلة والكرهية. ومع ضعفهم واضمحلالهم سياسياً وشعبياً اضمحلوا أيضاً فكرياً فلم يتألق بين صفوفهم مفكرون كالذين كانوا في عهد الخلفاء قبل المتوكل^(٤).

إلا أنهم استطاعوا أن ينهضوا بمبادئهم وأفكارهم في موضع بعيد عن عاصمة الخلافة وحاضرتها، حيث تمكنوا من السيطرة على فكر عدد من الولاة في دولة الأغالبة في شمال افريقية، فجعلوهم يتحمسون لأفكارهم ومبادئهم وينافحون عنها، بل بلغ بهم الأمر إلى

(١) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٩٠/٩، والمسعودي: مروج الذهب، ٨٦/٤.

(٢) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٤ / ١٢، وابن كثير: البداية والنهاية، ٣١٦/١٠.

(٣) انظر المرجع السابق: ٣١٥/١٠ - ٣١٦، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٨٩/٩.

(٤) انظر عبد الرحمن سالم: الدكتور، التاريخ السياسي للمعتزلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص ٣١٩. (ط. بدون ، دار الثقافة، القاهرة، ١٤٠٩هـ).

امتحان عدد من علماء أهل السنة واضطهادهم من أجلها^(١).

ولكن بفضل الله تعالى وقف عدد من علماء أهل السنة في وجوههم، وعقدوا معهم المناظرات تلو المناظرات، ففندوا شبههم، ودحضوا أباطيلهم.

٤- الصوفية^(٢):

جاهرت الصوفية في هذا العصر بعدد من الأفكار والمعتقدات المنحرفة المخالفة لما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، ليس هذا فحسب بل كانوا يحثون الناس على تطبيقها والعمل بها.

فمن تلك الأفكار والمعتقدات مثلاً أن التوكل على الله الحق هو عدم الأخذ بالأسباب، أما من يأخذ بالأسباب فليس من المتوكلين حتى قال أحدهم:

«إني لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شبهان وقد اعتقدت التوكل لثلاثين يوماً
شبعي زاداً تزودته»^(٣).

ومنها كذلك حثهم لطلابهم ومريديهم على عدم الاشتغال بطلب العلم، حتى قال أحدهم:

«أحب للصوفي أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهم»^(٤).

(١) انظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، ٦١١/٢، والديباغ: معالم الإيمان، ٩٣/٢ - ٩٥.

(٢) قال الإمام ابن الجوزي عن التصوف والصوفية: «والتصوف: طريقة كان ابتداءها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد. ومال إليهم طلاب الدنيا، لما يرون عندهم من الراحة واللعب» (ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي، تلبيس إبليس ص ١٨٣. ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ).

(٣) المرجع السابق: ص ٣٣٧.

(٤) المكي الصوفي: أبو طالب محمد بن علي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد، ١٩٥/٢. (ط. الأولى، نشر المكتبة الحسينية، مصر، ١٣٥١هـ).

وغيرها من الأفكار والمعتقدات التي سأتناولها بالتفصيل والدراسة في ثنايا هذا البحث
إن شاء الله تعالى.

هذه هي أهم الفرق والمذاهب المنحرفة التي كانت موجودة في هذا العصر، وقد قام
العلماء والدعاة بحمد الله تعالى بجهود حسنة لمجابتها، والتصدي لها، وتحذير الناس
منها.

الباب الأول

وسائل الدعوة في العصر

العباسي الثاني

الباب الأول

«وسائل الدعوة في العصر العباسي الثاني»

تمهيد :

لا شك أن الدعوة الإسلامية في كل زمان ومكان بحاجة إلى وسائل لنشرها، وحث الناس على الإيمان بمبادئها، وقبول تعاليمها .

وفي العصر العباسي الثاني أستخدم بفضل الله تعالى عدد من الوسائل للقيام بالدعوة إلى الله تعالى داخل المجتمع الإسلامي وخارجه. وكان لها بحمد الله وتوفيقه العديد من الآثار الحسنة، والنتائج الطيبة المحمودة .

وفي هذا الباب سأحدث إن شاء الله تعالى عن تلك الوسائل من خلال الفصول التالية :

الفصل الأول : الرسائل والرسول .

الفصل الثاني : المناظرة .

الفصل الثالث : الجهاد .

الفصل الأول

الرسائل والرسائل

الفصل الأول

«الرسائل والرسل»

تمهيد :-

وسيلة إرسال الرسائل وبعث الرسل من الوسائل المهمة التي يمكن استخدامها في الدعوة إلى الله تعالى .

وفي العصر العباسي الثاني استخدم الدعوة إلى الله تعالى هذه الوسيلة داخل المجتمع الإسلامي وخارجه .

فما يتعلق بالرسائل مثلاً أرسلوا رسائل متعددة الموضوعات والأهداف كالرسائل الوعظية، والرسائل الجوابية، والرسائل التوضيحية ونحو ذلك من أنواع الرسائل.

أما ما يتعلق بالرسل ففي هذا العصر بعث بعض أولي الأمر من الخلفاء والوزراء رسلاً لرعاية مصالح المسلمين خارج المجتمع الإسلامي والاهتمام بشؤونهم وتفقد أحوالهم.

وفي هذا الفصل سأحدث عن هذه الأمور بعون الله تعالى من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : أهمية وسيلة الرسائل والرسل .

المبحث الثاني : الرسائل .

المبحث الثالث : الرسل .

المبحث الرابع : تقويم أثر هذه الوسيلة .

المبحث الأول

«أهمية وسيلة الرسائل والرسول»

تُعدُّ وسيلة إرسال الرسائل وبعث الرسل من أهم وسائل الدعوة إلى الله تعالى حيث إن الداعية يتمكن من خلالها من تبليغ ما لديه من دعوة إلى كافة الناس على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم. فيتمكن من مخاطبة المسلم وغير المسلم، والحاكم والمحكوم، والعالم وغير العالم، والشريف والوضيع، والغني والفقير، والقريب والبعيد.

وينظرة سريعة إلى سيرة نبينا وقدوتنا محمد ﷺ نجد أنه ﷺ، منذ أن مكناه الله عز وجل وعقد الصلح مع قريش سنة ست من الهجرة^(١)، وهدأت الأحوال تفرغ لإبلاغ هذا الدين إلى كل من يستطيع إبلاغه من ملك، أو رئيس، أو أمير، ونحوهم من ذوي السلطة والرئاسة داخل جزيرة العرب وخارجها .

فأخذ ﷺ ، يستخدم وسيلة إرسال الرسائل وبعث الرسل ليبلغ دعوة الله تعالى التي أمر بها : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

(١) انظر ابن هشام : عبد الملك، السيرة النبوية ١٩٦/٣ . (ط. بدون، نشره مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة)، وقال المحافظ ابن حجر : «وكان توجهه ﷺ من المدينة يوم الأثنين مستهل ذي القعدة سنة ست فخرج قاصداً إلى العمرة فصده المشركون عن الوصول إلى البيت، ووقعت بينهم المصالحة على أن يدخل مكة في العام المقبل». (ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٤٤٠/٧، ط. بدون، دار المعرفة، بيروت)، وحسن هذا الخبر الدكتور أكرم العمري ثم قال: وأجمع أهل العلم على تاريخها بلا خلاف . (أكرم ضياء العمري: الدكتور، السيرة النبوية الصحيحة ٤٣٤/٢، ط. السادسة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية ١٤١٥هـ).

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

يقول الإمام ابن القيم: «لما رجع من الحديبية^(١)، كتب إلى ملوك الأرض، وأرسل إليهم رسله ... وبعث ستة نفر في يوم واحد في المحرم سنة سبع»^(٢).

فكتب ﷺ إلى كسرى ملك الفرس، وإلى قيصر عظيم الروم، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى غيرهم من ملوك الأرض وعظماؤها^(٣).

فأسلم عدد منهم، كالنجاشي^(٤)، وجيفر الجُندني الأزدي ملك عمان، والمنذر بن ساوي العبدي ملك البحرين^(٥).

إذاً فوسيلة إرسال الرسائل وبعث الرسل من الوسائل المهمة في الدعوة إلى الله تعالى .

وفي العصر العباسي الثاني استخدم العلماء والدعاة هذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى داخل المجتمع الإسلامي وخارجه .

(١) اختلف العلماء في زمن بعث النبي ﷺ تلك الرسائل إلى الملوك والرؤساء على عدة أقوال، ولا يهمننا كثيراً تحديد زمن بعثها بقدر ما يهمننا معرفة حرص النبي ﷺ على استخدام هذه الوسيلة .

وللاطلاع على أقوال العلماء في زمن بعث تلك الرسائل انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ٣٨/١ و١٢٩/٨ ، وأكرم العمري : الدكتور، السيرة النبوية الصحيحة ٢/٤٥٤-٤٥٥ ، ومهدي رزق الله أحمد : الدكتور، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٥١٣-٥١٤ . (ط. الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤١٢هـ).

(٢) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد ١/١٩٩ . (ط. الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ ، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط).

(٣) انظر صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، رقم الحديث «٤٤٢٤» ١٢٦/٨ ، وكتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، رقم الحديث «٢٩٤٠» ١٠٩/٦ . (ط. بدون، دار المعرفة، بيروت)، صحيح الإمام مسلم : كتاب الجهاد، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل، رقم الحديث «١٧٧٤» ٣/١٣٩٧ . (ط. بدون، دار إحياء التراث العربي، تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي)، وابن القيم : زاد المعاد ١٢٠/١-١٢٤.

(٤) انظر ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ١٢٩/٨ .

(٥) ابن القيم : زاد المعاد ١٢٢/١-١٢٣ .

المبحث الثاني

«الرسائل»

تمهيد :

استخدم العلماء والدعاة في هذا العصر وسيلة إرسال الرسائل إلى كافة أفراد المجتمع وطبقاته، فأرسلوا رسائل إلى الخلفاء، ورسائل إلى الأمراء، ورسائل إلى غيرهم من أفراد المجتمع الإسلامي على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم. وكانت الرسائل تعالج موضوعات متعددة، وتسعى إلى تحقيق أهداف وغايات مختلفة ومتنوعة .

وفي هذا المبحث سأتحديث إن شاء الله عن أنواع تلك الرسائل التي استخدمت في هذا العصر تحت العناوين التالية :

- ١- الرسائل الوعظية .
- ٢- الرسائل الجوابية .
- ٣- الرسائل التوضيحية .

١- الرسائل الوعظية :

من أنواع الرسائل التي استخدمها العلماء والدعاة في هذا العصر، الرسائل الوعظية، فخطبوا من خلالها الأمراء والولاة، بل وأيضاً العلماء والقضاة، لأن الجميع بحاجة إلى الوعظ والتذكير، وبخاصة إذا ظهر من أحدهم خلل أو تقصير في أي حق من حقوق الله تعالى .

ومن أمثلة تلك الرسائل ما يلي :

أ - رسالة القاضي سحنون بن سعيد^(١) إلى محمد بن الأغلب^(٢) :-

حكم القاضي سحنون بن سعيد بأخذ سبي لرجل يدعى « منصور » وهو من المقرين للأمير محمد بن الأغلب فدخل منصور على الأمير وقد شق ثوبه، وذكر إليه ما نزل به، فأرسل الأمير إلى سحنون بأن يردّ إلى منصور سببه فلم يستجب له، وبعد عدّة محاولات أقبل الأمير حتى دنا من موضع سحنون، وضربت له قبة نزل فيها، وقد استشاط غيظاً لمصارمته^(٣) إياه على منصور، ودعا فتى فقال له : اذهب إلى سحنون فقل له : أردّد السبي على منصور، وإلا فأتني برأسه .

فجاء الفتى إلى سحنون يبكي ويتضرّع ويقول له : أمرت فيك بعظيم .

(١) هو الإمام أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، وسحنون لقب له، ولي قضاء افريقية سنة أربع وثلاثين ومائتين وكان لا يهاب سلطاناً في الحق يقيمه عليه وكان فقيهاً زاهداً رفيع القدر عفيفاً . (انظر القاضي عياض: ترتيب المدارك ١/٥٨٥).

(٢) هو أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم الأغلبي تولى على افريقية سنة ٢٢٦ هـ ومكث والياً عليها حتى توفي سنة ٢٤٢ هـ . (انظر ابن عذارى : البيان المغرب، ١/١٠٧، ١١٢).

(٣) لمصارمته : أي لمضيه في انفاذ رأيه. جاء في لسان العرب : رجل صارم أي ماض في كل أمر. والصرامة : المستبد برأيه المنقطع عن المشاورة . (انظر ابن منظور : لسان العرب، مادة « صرم » ١٢/٥٣٥).

فأخذ سحنون ورقاً فكتب فيه بعد الاسم : ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ
وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾^(١) الآية.

ودفع الكتاب للفتى، ثم قال: ادفعه لابن الأغلب. فلما قرأه أمره برفع مضربه، واحتجب
ثلاثاً ثم قال لمنصور :

سلني عما شئت من حوائجك وأعرض عن خبر سحنون. وكان الأمير يقول في
سحنون : «إن سحنون لم يركب لنا دابة، ولا عقل كُمَّه^(٢) بصرّة، فهو لا يخافنا»^(٣).

وفي هذه الحادثة العديد من الدروس والعبر التي يُفِيدُ منها الداعية إلى الله تعالى منها
على سبيل المثال :

١- ثبات القاضي سحنون على الحق الذي يعتقدُه مهما كلفه ذلك من ثمن، والذي كاد أن
يكون نفسه التي بين جنبيه .

٢- ومنها كذلك حكمة القاضي سحنون في معرفة كيفية مخاطبة ذلك الأمير وردعه حيث
ذكره بالله عز وجل عن طريق آية من كتاب الله تبارك وتعالى تشابه وضعه معه .

٣- ومنها كذلك المكانة العالية التي كان يتمتع بها هذا القاضي عند الناس، وعند هذا
الأمير لعلمه بأنه لا يريد بذلك سوى وجه الله عز وجل والدار الآخرة .

(١) سورة غافر : الآية ٤١ .

(٢) الكم : الكم من الثوب مدخل اليد ومخرجها.. (ابن منظور : لسان العرب، مادة «كمم» ٥٢٦/١٢) .
ومعنى قوله : ولا عقل كُمَّه : هو كناية على أنه لم يأخذ منه مالا قط .

(٣) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦٠٦/١ .

ب- رسالة الإمام محمد بن سحنون^(١) إلى بعض أمراء بني الأغلب :

قال العلامة أبو بكر المالكي : ورأيت موعظة كتب بها محمد بن سحنون إلى بعض أمراء بني الأغلب يقول فيها: «أما بعد فيأني أوصيك ونفسي بتقوى الله الذي بطاعته نيلت معالي الأمور وارتقي إلى شرفها.

وأول ما أمرك به النظر إلى نفسك ومعادك الذي تصير إليه، فلا دنيا لمن لا آخرة له، ويحسن المنقلب يُغَبِّط المرء. فانظر لنفسك وخذ بعنانها، واحبسها في كل أمر تنازعك إليه، فعن قليل تذهب الدنيا، وتأتي الآخرة، فلا ينفع نفساً إلا ما قدمت، ولا يسوؤها إلا ما عملت. وقد كان يقال :

إن خير الخلقاء، وأنفع الأخلاء، المرشدون في المضلات، المذكورون في الغفلات. فأذكرك يوماً هو منك قريب، تنزل فيه بساحتك ملائكة الرحمن، وقد أسلمت الأهل والولدان، تعطي حيث لا يقبل منك، مسلوباً منك ما في يديك منه، مودعاً في بطن الأرض. ثم بعد ذلك الطامة الكبرى: يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، ثم ينشر لك كتاب فيه من عملك مثاقيل الذرِّ والخرْدُل، فانظر كيف أنت عند ذلك. وقد قلدت أمراً عظيماً، لكل الخلق فيك نصيب، قد اشترك العدو والصديق، فخلص نفسك من وثاقها بأن تملأ الأرض عدلاً كما أمرك الله سبحانه، واعلم أن الذي ملكك أمرٌ عدوُّك، وأدال لك عليه، وأذله بين يديك، هو الله ربك وربّه، والهك وإلهه، ومالكك ومالكه، يديل الأمور بينك وبينه في الدنيا، ثم يتولى الحكم بينك وبينه يوم القيامة فيأخذ منك له بمثاقيل الذرِّ والخرْدُل .

(١) هو محمد بن سحنون التنوخي كان إماماً ثقة عالماً بالمذهب المالكي وكان جامعاً لفنون العلم ألف نحو مائتي كتاب في عدد من العلوم والمغازي والتواريخ. توفي سنة ٢٥٦هـ . (انظر المالكي : رياض النفوس ٤٤٣/١، الدباغ : معالم الإيمان ١٢٢/٢).

فانظر رحمك الله وإيانا، لنفسك نظر من يموت غداً ثم يُحاسب بجميع ما قدم. ولا تُملِّك
نَفْسَكَ عنانها وتمهل في أمرك، وآثر الله عز وجل عند غضبك، واعمل في ذلك وكل أمرك
بما يرضي الله سبحانه، فإنه يرضى عنك. وآثر رضى الله عز وجل على رضى عباده ولا
ترض عباد الله بسخطه، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً .

وأنزل كتابي هذا منك بمنزلة من مرض أبوه فهو يسقيه من الدواء ما يكره رجاء منفعتة
وهو به بارٌ وعليه شفيق والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»^(١).

نعم هكذا يجب أن يكون الداعية يشعر من يدعوهُ إلى أنه ما قام بدعوته إلا لأتته به بارٌ
وعليه شفيق.

ما أجمل هذه الرسالة التي يشعر من قرأها بأنها تخرج من قلب صادق مُخلص لا يُريد
بها رياءً ولا سمعة. فهي سهلة العبارة، قويّة الأسلوب، حاول كاتبها جاهداً ربط المدعو بالله
عز وجل وتذكيره بالدار الآخرة التي هي دار القرار .

ج - رسالة الشيخ أبي الأحوص^(٢) إلى إبراهيم بن الأغلب^(٣) :

ومن تلك الرسائل الوعظية رسالة بعث بها أحمد بن عبد الله أبو الأحوص إلى الأمير
إبراهيم بن أحمد لما جار على الناس وتعسفهم وقيل إنه كتب فيها ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾
فلما وصلت إلى إبراهيم بلغت منه مبلغاً عظيماً، فأتاه في الليل فاستأذن عليه فلم يسمع
من حس المطحنة لأن زوجته كانت تطحن، فلما سمعوا فتحوا له الباب فدخل إليه فقال بعد

(١) المالكي : رياض النفوس ٤٤٧/١ .

(٢) هو أحمد بن عبد الله أبو الأحوص كان أصله من المغرب سكن سوسة وأوطنها وكان ثقة متعبداً كثير
العمل والاجتهاد . توفي سنة أربع وثمانين ومائتين . (انظر المرجع السابق ٤٨٢/١ ، وابن عذارى : البيان
المغرب ١٣٠/١).

(٣) هو إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب بن تميم ابن أمراء القيروان ولي سنة ٢٦١هـ وكان
أميراً حازماً صارماً مهيباً توفي سنة ٢٨٩هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٨٧/١٣).

السلام والسؤال عن الحال «أتتني رقعة ذكر أنها من عندك. فقال : أنا مكفوف البصر كما ترى ولكن تقرأ الرقعة عليّ، فإن كنت أمليتها أخبرتك. فقرئت عليه فقال: نعم أنا أمليتها، فوعظه فاتعظ، ثم قال له: أحب أن ترفع إليّ كلما ثبت عندك من مثل هذا فأغيره»^(١).

وروى ابن عذارى هذه الحادثة مع اختلاف كبير الأمر الذي يجعل القارئ يشك أنهما حادثة واحدة فيقول -وهو يتحدث عن أبي الأحوص: كان زاهداً ورعاً فلما أكثر إبراهيم بن أحمد الجور والقتل. دعا برجل من أهل سوسة^(٢) وأملى عليه رسالة إلى إبراهيم، وبعث بها إليه. فلما قرأها غضب وبعث إلى أبي الأحوص من قال له: عذرتناك لفضلك ودينك ولكن ابعث إليّ الذي كتب الكتاب، وبالله لئن لم تفعل لأقتلنّ فيه من أهل سوسة كذا وكذا ويكون إثم ذلك في عنقك. فقال أبو الأحوص للرسول: قل له لئن قتلت ألفاً لا يكون إثمهم إلاّ عليك ولو عملت ما عملت ما أعلمتك بالرجل فتب إلى خالك وارجع عن جورك فأمسكه الله عنه^(٣).

هذه الحادثة - على اختلاف ألفاظها وتفصيلها - فيها الكثير من العبر والدروس والفوائد الدعوية منها:

١- لجوء هذا الداعية إلى الغلظة والشدة لتيقنه أنّ هذا الأسلوب هو الذي يجب أن يسلك في هذا الموقف.

(١) المالكي : رياض النفوس ٤٨٥/١ .

(٢) سوسة : مدينة صغيرة بنواحي أفريقية أحاط بها البحر من ثلاث نواح، قيل من القيروان إلى سوسة ستة وثلاثين ميلاً . (انظر الحموي : معجم البلدان ٢٨١/٣، والحميري : محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٣١ ط. بدون، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، تحقيق: د. إحسان عباس).

(٣) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ١٣٠/١ .

٢- حسن إسلام الداعية وقوة إيمانه وتمسكه بدينه كل ذلك يورث لدى الناس إجلاله وتعظيمه لذلك قال له الأمير «عذرناك لفضلك» . وهكذا يجب أن يكون الداعية ليستطيع أن يقوم بمسؤولية الدعوة إلى الله .

٣- فقه هذا الداعية ويظهر ذلك جلياً عندما قال له : «وبالله لئن لم تفعل لأقتلن فيه من أهل سوسة كذا وكذا ويكون إثم ذلك في عنقك» وذلك لعلمه بقول الله -تبارك وتعالى- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١) .

٤- عدم يأس هذا الداعية من امتثال ذلك الأمير وانقياده لأوامر الله مما جعله يكرر النصيح عليه أكثر من مرة .

د - رسالة القاضي حماس بن مروان^(٢) إلى عامل القيروان^(٣) :

كتب قاضي القيروان حماس بن مروان رسالة^(٤) إلى عامل القيروان لما علم أنه قتل إنساناً بغير حق وعظه فيها في سفك الدماء، فأنف، ذلك العامل، وقال :

« ما لحماس وهذا؟ أنا سلطان أنظر في الدماء وشبهها » فتوجه القاضي حماس إلى تونس لمقابلة الأمير: زيادة الله بن الأغلب^(٥) واجتمع به فعزل العامل المذكور وصرف

(١) سورة الأنعام : جزء من الآية ١٦٤ .

(٢) هو حماس بن مروان بن سماك الهمداني ولي القضاء بالقيروان سنة ٢٩٠هـ واستعفى منه سنة ٢٩٤هـ وذلك عند تغير الأحوال. توفي رحمه الله سنة ٣٠٤هـ . (انظر الدباغ : معالم الإيمان ٢/٣٢٠-٣٢٩).

(٣) القيروان : مدينة تقع الآن في الجمهورية التونسية في جنوب غربي العاصمة «تونس» (انظر : الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٤١١ ط بدون، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ١٤٠٧هـ وهي صادرة عن معهد الدراسات العربية، التابع لجامعة الدول العربية بإشراف: محمد شفيق غريال).

(٤) لم يذكر لنا المصدر مضمون تلك الرسالة .

(٥) هو زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم الأغلبي التميمي آخر أمراء الدولة الأغلبية بتونس. مات بالرمة سنة ٣٠٤هـ فاراً من داعية بني عبسيد أبي عبد الله الشيعي . (انظر خير الدين الزركلي : الأعلام ٥٦/٣، ط. السابعة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦م).

حماساً مكرماً^(١).

نعم هكذا يجب أن يكون الداعية يستخدم جميع ما في وسعه من وسائل وأساليب في سبيل القيام بالدعوة إلى الله تعالى.

فالقاضي حماس رحمه الله لم يكتف بكتابة تلك الرسالة، بل قام بمتابعة الأمر حتى قضى على ذلك المنكر واجتثته من جذوره.

٢- الرسائل الجوابية :

ومن أنواع الرسائل التي كان يستخدمها الدعاة إلى الله تعالى في هذا العصر الرسائل الجوابية. ويقصد بها تلك الرسائل التي يوجهها العلماء والدعاة إلى من يسألهم ويستشيرهم، أيّاً كان ذلك السائل، خليفة، أو والياً، أو رجلاً من عامة الناس.

وهذا يدل على مكانة العلماء والدعاة في هذا العصر، وعدم انغلاقهم على أنفسهم، وأنهم قريبون من الناس، بحيث لا يجد المرء مشقة في سؤالهم واستفتائهم عن أي أمر من أمور دينه ودنياه .

ومن أمثله تلك الرسائل ما يلي :

أ- رسالة الإمام أحمد بن حنبل^(٢) إلى الخليفة المتوكل يجيبه عمّن يصلح للقضاء :

بعث الإمام أحمد بن حنبل رسالة إلى الخليفة المتوكل عندما أرسل إليه عبد الرحمن بن يحيى بن خاقان^(٣) ليسأله عمّن يصلح لتقلد القضاء وذكر له عدداً من الأسماء. فأجابه الإمام أحمد وأبدى له رأيه في تلك الأسماء ثم قال في نهاية الرسالة :

(١) انظر الدباغ : معالم الإيمان ٣٢٧/٢ .

(٢) هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي. قال عنه الإمام الشافعي: خرجت من العراق فما تركت رجلاً أفضل، ولا أعلم، ولا أروع، ولا أتقى، من أحمد بن حنبل. توفي رحمه الله سنة ٢٤١هـ. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١١/١٧٧، وابن كثير: البداية والنهاية، ١٠ / ٣٢٥).

(٣) هو عبد الرحمن بن يحيى بن خاقان بن موسى روى عنه أبو مزاحم موسى بن عبيدان مسائل عن الإمام أحمد بن حنبل، ولم أقف له على تاريخ وفاة. (انظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/٢٧٨).

«وفي الجملة أن أهل البدع والأهواء لا ينبغي أن يستعان بهم في شيء من أمور المسلمين فإن في ذلك أعظم الضرر على الدين، مع ما عليه رأي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه من التمسك بالسنة والمخالفة لأهل البدع. ويقول أحمد بن محمد بن حنبل، وقد سألتني عبد الرحمن بن يحيى بن خاقان عن جميع ما في هذا القرطاس، وأجبت بما كتبت به، وكنت عليل العين ضعيفاً في بدني فلم أقدر أن أكتب بخطي، فوقّع هذا التوقيع في أسفل هذا القرطاس عبد الله ابني بأمري وبين يدي، وأسأل الله أن يطيل بقاء أمير المؤمنين، وأن يُديم عاقبته ويحسن له المعونة والتوفيق بمنه وقدرته»^(١).

ب - رسالة الإمام أحمد إلى الخليفة المتوكل يجيبه عن سؤاله حول أم القرآن :

كتب عبيد الله بن يحيى^(٢) إلى الإمام أحمد بن حنبل رسالة يخبره فيها أن أمير المؤمنين - المتوكل - أمره أن يكتب إليه يسأله عن أم القرآن لا مسألة امتحان، ولكن مسألة معرفة وبصيرة.

فكتب الإمام أحمد إلى عبيد الله بن يحيى رسالة جاء فيها :

«بسم الله الرحمن الرحيم أحسن الله عاقبتك يا أبا الحسن في الأمور كلها، ودفع عنك مكروه الدنيا والآخرة برحمته، قد كتبت إليك رضي الله عنك بالذي سألت عنه أمير المؤمنين بما حضرني، وإنني أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين، فقد كان الناس في خوض من الباطل واختلاف شديد يغمسون فيه، حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة وأنجلي عن الناس ما كانوا فيه من الذلّ وضيق المحابس، فصرف

(١) ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ١٨٤ . (ط. الثانية، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٧م) .

(٢) هو عبيد الله بن يحيى بن خاقان التركي ثم البغدادي أبو الحسن الوزير الكبير، وزر للمتوكل وللمعتمد مات سنة ٢٦٣هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٩/١٣، وابن كثير : البداية والنهاية ٣٦/١١) .

ذلك كله، وذهب به بأمير المؤمنين، ووقع ذلك من المسلمين موقعاً عظيماً، ودعوا الله لأمير المؤمنين، فأسأل الله أن يستجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء، وأن يتم ذلك لأمير المؤمنين، وأن يزيد في نيته ويعينه على ما هو فيه، فقد ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم. وذكر عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن نقرأ كانوا جلوساً بباب النبي ﷺ فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا، وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا، فسمع رسول الله ﷺ فخرج وكأنا فقيء في وجهه حب الرمان، فقال: «بهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا إنكم لستم مما هاهنا في شيء، انظروا الذي أمرتم فاعملوا به، وانظروا الذي نهيتم عنه فانتهوا عنه»^(١) وذكر أحاديث ثم قال : وقد قال الله تعالى : ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾^(٢)، وقال : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(٣) فأخبر أن الأمر غير الخلق وذكر آيات وقال : لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان في كتاب الله، أو في حديث عن النبي ﷺ، أو عن أصحابه، أو عن التابعين»^(٤).

ومن خلال هاتين الرسالتين تظهر لنا حكمة هذا الإمام رحمه الله، وحسن تصرفه، فقد أظهر لولي الأمر النصح بأحسن أسلوب، وألطف عبارة، وأكد له ضرورة التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففيهما السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة. كما حرص رحمه الله أن يبعده عن الخوض في مسائل ضررها أكبر من نفعها . وهكذا يجب أن يكون الداعية حذراً فطناً يحذّر غيره من الوقوع في المزالق والمتاهات قبل أن يقع فيها .

(١) مسند الإمام أحمد : رقم الحديث «٦٧٠٢» ١٧٤/١٠، وقال الشيخ أحمد محمد شاكر : «إسناده صحيح» . (ط. بدون ، دار المعارف، مصر ١٣٩٢هـ).

(٢) سورة التوبة : جزء من الآية ٦ .

(٣) سورة الأعراف : جزء من الآية ٥٤ .

(٤) ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد ص ٣٧٨ .

ج - رسالة الإمام أحمد إلى رجل سألته عن مناظرة أهل الكلام والجلوس معهم :

كتب رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل يسأله عن مناظرة أهل الكلام والجلوس معهم. فكتب إليه الإمام أحمد بكتاب جاء فيه : « أحسن الله عاقبتك، الذي كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا، أنهم كانوا يكرهون الكلام، والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاء إلى ما في كتاب الله لا تعد ذلك .

ولم يزل الناس يكرهون كل مُحَدَّث من وضع كتاب، وجلوس مع مبتدع ، ليورد عليه بعض ما يلبس عليه في دينه»^(١).

إن هذه الرسالة -على قصرها- فيها خير كثير لهذا السائل ولغيره ممن هم على شاكلته، حيث إنها تحذر أشد الحذر من الخوض في مسائل جاء الإسلام بالنهي عنها، كما أنها اشتملت على النهي عن مصاحبة أهل البدع والجلوس معهم، الذين هم يفسدون في الأرض ولا يصلحون .

وتفيدنا هذه الرسالة -كذلك- بقرب الدعاة والعلماء من عامة الناس، وأنهم على اتصال بهم عن طريق وسيلة الرسائل.

٣- الرسائل التوضيحية :

ومن أنواع الرسائل التي استخدمها العلماء والدعاة في هذا العصر الرسائل التوضيحية، فقد كانوا يوضحون للناس من خلالها ما يشكل عليهم من أمور دينهم ومن تلك الرسائل :

رسالة الإمام أحمد إلى جماعة يوضع لهم عدداً من الأمور المتعلقة بالصلاة :

صلى الإمام أحمد بن حنبل مع جماعة فرأى من بعضهم عدة مخالفات فبعث إليهم رسالة مطولة وضع لهم من خلالها عدداً من الأمور المتعلقة بالصلاة ومما جاء فيها :

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ٩٣/١٨-٩٤ . (ط. الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١١هـ، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري).

« هذا كتاب في الصلاة، وعظم خطرهما، وما يلزم الناس من تمامها وأحكامها، يحتاج إليه أهل الإسلام، لما قد شملهم من الاستخفاف بها، والتضييع لها، ومساابقة الإمام فيها، كتبه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل إلى قوم صلى معهم بعض الصلوات. أي قوم، إني صليت معكم. فرأيت من أهل مسجدكم من سبق الإمام في الركوع والسجود، والرفع والخفض. وليس لمن سبق الإمام صلاة، بذلك جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ وعن أصحابه رضوان الله عليهم. جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «أما يخاف الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار»^(١)...»^(٢).

«... ثم قال: واعلموا لو أن رجلاً أحسن الصلاة، فأتمها وأحكمها، ثم نظر إلى من أساء في صلاته وضيعها، وسبق الإمام فيها فسكت عنه، ولم يعلمه في إساءته في صلاته ومسايقته الإمام فيها، ولم ينهه عن ذلك، ولم ينصحه، شاركه في وزرها وعارها...»^(٣).

«... ثم قال: فاتقوا الله تعالى في أموركم عامة، وفي صلاتكم خاصة، واتقوا الله في تعليم الجاهل، فإن تعليمه فريضة واجب لازم.

والتارك لذلك مخطف آثم، وأمروا أهل مسجدكم بإحكام الصلاة وإتمامها، وأن لا يكون تكبيرهم إلا بعد تكبير الإمام، ولا يكون ركوعهم وسجودهم ورفعهم وخفضهم إلا بعد تكبير الإمام، وبعد ركوعه وسجوده ورفعته وخفضه. واعلموا أن ذلك من تمام الصلاة. وذلك الواجب على الناس واللازم لهم. كذلك جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه رحمة الله عليهم...»^(٤).

(١) صحيح الإمام البخاري مع الفتح: كتاب الأذان، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام، رقم الحديث «٦٩١»
١٨٢/٢، وصحيح الإمام مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما، رقم
الحديث «٤٢٧» ٣٢٠/١.

(٢) ابن أبي يعلى الفراء: طبقات الحنابلة ٣٤٨/١، (ط. بدون، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٧١هـ،
تصحيح: محمد حامد الفقي).

(٣) المرجع السابق: ٣٥٢/١.

(٤) المرجع السابق: ٣٥٢/١-٣٥٣.

ثم ركز رحمه الله على الإمام وحثه على تحسين صلاته والاهتمام بها فقال «وأمر يا عبد الله الإمام أن يهتم بصلاته، ويعنى بها ويتمكن ليتمكنوا ، إذا ركع وسجد. فإني صليت يومئذ. فما استمكنت من ثلاث تسبيحات في الركوع ولا ثلاث في السجود . وذلك لعجلته، لم يمكن ولم يستمكن . وعجل ، فأعلمه أن الإمام إذا أحسن الصلاة كان له أجر صلاته، ومثل أجر من يصلي خلفه . وإذا أساء كان عليه وزر إساءته، ووزر من يصلي خلفه. وجاء الحديث عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال «التسبيح التام : سبع، والوسط من ذلك خمس ، وأدناه ثلاث تسبيحات» وأدنى ما يسبح الإمام في الركوع «سبحان ربي العظيم» ثلاث مرات، وفي السجود «سبحان ربي الأعلى» ثلاث مرات، وإذا سبح في الركوع والسجود ثلاثاً ثلاثاً. فينبغي له أن لا يعجل بالتسبيح، ولا يسرع فيه، ولا يبادر، وليكن بتمام من كلامه ولسانه ويمكن فإنه إذا عجل بالتسبيح وبادر به لم يدرك من خلفه التسبيح، وصاروا مبادرين إذا بادر ، وسابقوه، ففسدت صلاتهم. فكان عليه مثل وزرهم جميعاً. وإذا لم يبادر الإمام وتمكن، وأتم صلاته وتسبيحه أدرك من خلفه ولم يبادروا. فيكون الإمام قد قضى ما عليه وليس عليه إثم ، ولا وزر ...»^(١).

ثم بين - رحمه الله - في هذه الرسالة من هو أحق بالتقديم للإمامه فقال: «ومن الحق الواجب على المسلمين أن يقدموا خيارهم، وأهل الدين والفضل منهم، وأهل العلم بالله تعالى، الذين يخافون الله عز وجل ويراقبونه . وقد جاء الحديث « إذا أم بالقوم رجل، وخلفه من هو أفضل منه لم يزالوا في سفال»^(٢).

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الخنابلة ٣٥٨/١ .

(٢) الحديث رواه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال ٧٨٩/٢، والعقيلي في الضعفاء الكبير ٣٥٥/٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦٤/٢، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً بنحو هذا اللفظ وفيه الهيثم ابن عقاب الكوفي، قال الأزدي : لا يعرف، وقال العقيلي : مجهول بالنقل حديثه غير محفوظ ولا يعرف إلا به. وقال الألباني في الضعيفة : الحديث ضعيف جداً . (انظر ابن عدي الجرجاني : الكامل في ضعفاء الرجال ٧٨٩/٢ . ط. الثانية، دار الفكر ١٤٠٥هـ)، العقيلي : محمد بن عمرو، الضعفاء الكبير ٣٥٥/٤ ط. الأولى دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق د. عبد المعطى قلعجي، الهيثمي : مجمع الزوائد ٦٤/٢ ط. دار الريان، القاهرة ١٤٠٧، الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٦٠٩/٣ رقم ١٤١٥ ط. الثانية، مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٨هـ).

... ثم قال رحمه الله « فرحم الله قوماً عنوا بصلاتهم، وعنوا بدينهم، فقدموا خيارهم، واتبعوا في ذلك سنة نبيهم ﷺ وطلبوا بذلك القرية إلى ربهم عز وجل »^(١).

... ثم قال رحمه الله « فاتقوا الله يا معشر المسلمين، وأحكموا صلاتكم، والزموا فيها سنة نبيكم وأصحابه ﷺ وعليهم أجمعين . فإن ذلك هو الواجب عليكم، واللازم لكم، وقد وعد الله تعالى من اتبعهم رضوانه، والخلود في جنته، قال الله عز وجل : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢) . فاتباع المهاجرين والأنصار واجب على الناس إلى يوم القيامة ... »^(٣).

ثم بين رحمه الله شيئاً من آداب الخروج إلى الصلاة فقال :

« فاعلموا رحمكم الله أن العبد إذا خرج من منزله يريد المسجد إنما يأتي الله الجبار الواحد القهار، العزيز الغفار، وإن كان لا يغيب عن الله حيث كان، ولا يعزب عنه تبارك وتعالى مثقال حبة من خردل، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر في الأرضين السبع، ولا في السموات السبع، ولا في البحار السبعة، ولا في الجبال الصم الصلاب الشوامخ البواذخ . وإنما يأتي بيتاً من بيوت الله، ويريد الله، ويتوجه إلى الله تعالى وإلى بيت من البيوت التي ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(٤) فإذا خرج أحدكم من منزله فليحدث لنفسه تفكيراً وأدباً غير ما كان عليه،

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ١/٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٠ .

(٣) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ١/٣٦٢ .

(٤) سورة النور : الآية ٣٦ .

وغير ما كان فيه من حالات الدنيا وأشغالها، وليخرج بسكينة ووقار فإن النبي ﷺ أمر بذلك وليخرج برغبة ورهبة وبخوف ووجل وخضوع وتواضع لله عز وجل، فإنه كلما تواضع لله عز وجل وخشع وخضع، وذل لله تعالى كان أزكى لصلاته وأحرى لقبولها وأشرف للعبد وأقرب له من الله وإذا تكبر قصمه الله ورد عمله وليس يقبل من المتكبر عملاً ..» (١).

ثم ذكر رحمه الله المخاطبين في مسألة قبول الصلاة وما موقف المسلم من ذلك فقال «... فما أعظم خطرك يا أخي في هذه الصلاة، وفي غيرها من عملك، وما أولاك بالهم والحزن، والخوف والوجل فيها، وفيما سواها مما افترض الله عليك. إنك لا تدري هل يقبل منك صلاة قط، أم لا؟ ولا تدري هل يقبل منك حسنة قط، أم لا؟ وهل غفر لك سيئة قط، أم لا؟ ثم أنت مع هذا تضحك وتغفل، وينفك العيش. وقد جاءك اليقين أنك وارد النار، ولم يأتك اليقين أنك صادر عنها. فمن أحق بطول البكاء وطول الحزن منك، حتى يتقبل الله منك؟ ثم -مع هذا- لا تدري، لعلك لا تصبح إذا أمسيت، ولا تمشي إذا أصبحت، فمبشر بالجنة، أو مبشر بالنار. وإنما ذكرتك يا أخي لهذا الخطر العظيم إنك لمحقوق أن لا تفرح بأهل ولا مال ولا ولد، وإن العجب كل العجب من طول غفلتك، وطول سهوك ولهوك عن هذا الأمر العظيم، وأنت تساق سوقاً عنيفاً في كل يوم وليلة، وفي كل ساعة وطرفة عين. فتوقع يا أخي أجلك ولا تغفل عن الخطر العظيم الذي قد أظلك ...» (٢).

ثم بين رحمه الله أصناف الناس في الصلاة فقال :

«... وقد أصبح الناس في نقص عظيم شديد من دينهم عامة، ومن صلاتهم خاصة

فأصبح الناس في صلاتهم ثلاثة أصناف : صنفان لا صلاة لهم :

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ١/٣٦٦ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٦٩ . ٣٧٠ .

أحدهما : الخوارج والروافض والمشبهة^(١) ، وأهل البدع يحقرون الصلاة في الجماعات، ولا يشهدونها مع المسلمين في مساجدهم، بشهادتهم علينا بالكفر وبالخروج من الإسلام.

والصنف الثاني : من أصحاب اللهو واللعب، والعكوف على هذه المجالس الرديئة على الأثرية والأعمال السيئة .

والصنف الثالث : هم أهل الجماعة، الذين لا يدعون حضور الصلاة عند النداء بها ومشاهدتها مع المسلمين في مساجدهم. فهؤلاء خير الأصناف الثلاثة، -وهؤلاء مع خيرهم وفضلهم على غيرهم - قد ضيعوها ورفضوها، إلا ما شاء الله لمسابقتهم الإمام في الركوع والسجود، والخفض والرفع ، أو مع فعله ..»^(٢).

ثم بين لهم رحمه الله أهمية صلاة الجماعة وأنها واجبة عليهم لا يسعهم التخلف عنها إلا من عذر شرعي فقال «فأمروا رحمكم الله بالصلاة في المساجد من تخلف عنها، وعاتبوهم إذا تخلفوا عنها، وأنكروا عليهم بأيديكم، فإن لم تستطيعوا فبالسنتكم واعلموا أنه لا يسعكم السكوت عنهم، لأن التخلف عن الصلاة من عظيم المعصية ...»^(٣).

(١) المشبهة : صنفان ، الصنف الأول : الذين شبهوا ذات الباري بذات غيره ومن هؤلاء السبائية من الروافض الغلاة. ومنهم أيضاً البيانية أتباع بيان بن سمعان، والمغيرية أتباع المغيرة بن سعيد العجلي، والمنصورية أتباع أبي منصور العجلي الذي شبه نفسه بربه. والخطابية . فهؤلاء وغيرهم ممن قال بهذا القول كلهم خارجون عن الإسلام. الصنف الثاني : الذين شبهوا صفاته بصفات غيره من المخلوقين فمنهم الذين شبهوا إرادة الله تعالى بإرادة خلقه كمعتزلة البصرة ومنهم الذين شبهوا كلام الله عز وجل بكلام خلقه فزعموا أن كلام الله تعالى أصوات وحروف من جنس الأصوات والحروف المنسوبة إلى العباد. ومنهم الذين قالوا بحدوث جميع صفات الله تعالى وأنها من جنس العباد كالزرارية أتباع زرارة بن أعين الرافضي. ومنهم الذين قالوا إن الله تعالى لا يعلم الشيء حتى يكون . (انظر البغدادي : الفرق بين الفرق من ص ٢١٤ إلى ص ٢١٩ . وللتوسع انظر : الشهرستاني : المل والنحل ص ١٠٣ وما بعدها وأمير مهنا : جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص ١٨٦).

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ١/ ٣٧١ .

(٣) المرجع السابق : ١/ ٣٧٥ .

وجاء في نهاية هذه الرسالة القيمة « فرحم الله امرءاً احتسب الأجر والثواب، فبث هذا الكتاب في أقطار الأرض. فإن أهل الإسلام محتاجون إليه لما قد شملهم من الاستخفاف بصلاتهم والاستهانة بها، والله أعلم بالصواب»^(١).

ما أعظم هذه الرسالة وما أحسنها، إنه على الرغم من طولها حيث تجاوزت الثلاثين صحيفة من المطبوع إلا أن القارئ لها لا يشعر بالسآمة والملل منها. وفي هذه الرسالة الكثير من العبر والفوائد أذكر منها :

١- حرص الإمام أحمد رحمه الله على تفقد مجتمعه والقيام بواجب النصح للمسلمين بأي وسيلة كانت .

٢- هذه الرسالة تمتاز بمميزات عديدة أذكر منها :

أ - أنها تكاد تكون شاملة لجميع ما يتعلق بالصلاة من سنن وأداب وواجبات ونحوها .

ب - أنها يغلب عليها طابع النصح والشفقة لا طابع الشدة والغلظة والتشهير .

ج - التركيز على القضايا المهمة المتعلقة بالصلاة والحرص على استيفائها وإقناع المخاطبين بأهميتها مثل مسألة وجوب أدائها جماعة، ومسألة الإمامة ومن أحق الناس بها، إضافة إلى مسألة قبول هذه الشعيرة العظيمة أو ردها على صاحبها، وما موقف المسلم تجاه هذه القضية العظيمة .

د - حرص الإمام رحمه الله على كثرة الاستشهاد على ما يقول من الكتاب والسنة .

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ١/ ٣٨٠ والرسالة بكاملها من ص ٣٤٨ إلى ٣٨٠ من الجزء نفسه .

المبحث الثالث

«الرُّسُلُ»

تمهيد :-

في هذا العصر كانت المملكة الإسلامية في حالة حرب - في معظم الأوقات - مع دولة الروم المتاخمة لها، وكانت الحرب بينهما سجّالاً يوم لهذه، والآخر لتلك، ممّا نتج عن ذلك وجود عدد كبير من الأسرى لدى الطرفين، الأمر الذي جعل كلا الطرفين يبعث رسله إمّا لعقد هدنة، وإمّا لتفقد أحوال الأسرى، وإمّا لطلب المفاداة بين الأسرى، أو نحو ذلك من الأمور .

وفي هذا المبحث سأتناول إن شاء الله تعالى هذا الأمر من خلال الحديث عن رسولين تمّ إرسالهما إلى الروم، لرعاية مصالح أسرى المسلمين، وتفقد أحوالهم. وذلك تحت العنوانين التاليين :

١- إرسال المتوكل رسولاً إلى الروم للمفاداة بين الأسرى .

٢- إرسال الوزير علي بن عيسى رسولاً إلى الروم لتفقد أحوال أسرى المسلمين .

١- إرسال المتوكل رسولاً إلى الروم للمفاداة بين الأسرى :

في سنة ٢٤٦هـ أرسل المتوكل نصر بن الأزهر^(١)، ليطلع على أحوال أسرى المسلمين لدى الروم، ويفاوضهم للمفاداة بين الأسرى .

وقد روى نصر بن الأزهر تفاصيل مهمته تلك حيث قال :

« لما صرّت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك، بسوادي، وسيفي، وخنجرّي، وقلنسوتي، فجرت بيني وبين خال الملك «بطرناس» المناظرة -وهو القيم بشأن الملك- وأبو أن يدخلوني بسيفي، وسوادي، فقلت : أنصرف . فأنصرفت فرددت من الطريق ومعني الهدايا ... فدخلت عليه، فإذا هو على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة حوله قيام، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير، وقد هيئ لي مجلس، ووضعت الهدايا بين يديه، وبين يديه ثلاثة تراجم، فقالوا لي: ما نبلغه؟ قلت : لا تزيدون علي ما أقول لكم شيئاً . فأقبلوا يترجمون ما أقول، فقرّني، وأكرمني، وهياً لي منزلاً بقره، فخرجت فنزلت في منزلي، وأتاه أهل لؤلؤة^(٢) برغبتهم في النصرانية، وأنهم معه، ووجهوا برجلين من فيها رهينة من المسلمين .

قال : فتغافل عني نحواً من أربعة أشهر، حتى أتاه كتاب مخالفة أهل لؤلؤة، وأخذهم رسله، واستيلاء العرب عليها، فراجعوا مخاطبتي، وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفداء على أن يعطوا جميع من عندهم، وأعطي جميع من عندي، وكانوا أكثر من ألف قليلاً، وكان جميع الأسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين، منهم عشرون امرأة، معهن عشرة من الصبيان، فأجابوني إلى المخالفة، فاستحلفت خاله، فحلف عن ميخائيل، فقلت: أيها الملك قد حلف لي خالك، فهذه اليمين لازمة لك؟

(١) لم أظفر له بترجمة فيما اطلعت عليه من كتب التاريخ والسير والتراجم والطبقات .

(٢) لؤلؤة : قلعة قرب مدينة طرسوس المتاخمة لبلاد الروم غزاها المأمون وفتحها . (انظر الحموي : معجم البلدان ٢٦/٥).

فقال برأسه نعم، ولم أسمعته يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع، فيقول برأسه : نعم أولاً، وليس يتكلم وخاله المدبر أمره ثم خرجت من عنده بالأسرى بأحسن حال»^(١).

فعن طريق هذا الرسول أنقذ الله أكثر من ألفين من المسلمين من أيدي الروم النصارى، الذين كان يخشى منهم القيام بفتن هؤلاء الأسرى، وصدّهم عن دينهم .

٢- إرسال الوزير علي بن عيسى^(٢) رسولا إلى الروم لتفقد أحوال أسرى المسلمين :

عندما علم الوزير الصالح علي بن عيسى بحال أسرى المسلمين في بلاد الروم، وأنهم قد تعرضوا لبلاء شديد حتى كادوا أن يفتنوا في دينهم، عندما علم بذلك اغتم لأمرهم، واحترار حيرة شديدة في كيفية انقاذهم والتخفيف عنهم، فأشار عليه القاضي ابن مكرم^(٣) برأي استحسنته فعمل به يقول القاضي ابن مكرم :

«كنت خصيصاً بأبي الحسن علي بن عيسى، وربما شاورني في شيء من أمره، قال : دخلت عليه يوماً وهو مغموم جداً فقدّرت أنّه بلغه عن المقتدر أمر كرهه، فقلت: هل حدث شيء؟ وأومات إلى الخليفة .

فقال : ليس غمي من هذا الجنس، ولكن مما هو أشدّ منه.

فقلت : إن جاز أن أقف عليه فلعلّي أقول فيه شيئاً .

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢١٩/٩-٢٢٠ .

(٢) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح البغدادي، كان ثقة نبيلاً، فاضلاً، عفيفاً. وزر للمقتدر غير مرة، وللقاهر، وكان عديم النظر في فنه كان كثير الصلوات والصدقات، يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم توفي سنة ٣٣٤ وقيل ٣٣٥ هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٩٨/١٥، ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٧/١١).

(٣) هو أبو يحيى عبد الله بن إبراهيم بن مكرم ولي القضاء ببغداد، ثم ولاة الوزير ابن الفرات قضاء مصر فاستخلف عليها ولم يدخلها. عزل عن قضاء بغداد سنة ٣١٣ هـ . (انظر الكندي : محمد بن يوسف، الولاية وكتاب القضاء ص ٥٣١ ط). بدون نشر مؤسسة قرطبة، القاهرة، تصحيح: رفن كست).

فقال : نعم، كتب إلى عاملنا بالثغر، أن أسارى المسلمين في بلد الروم، كانوا على رفق وصيانة إلى أن ولي آنفاً ملكَ الروم ، حَدَّثَانِ، فعسفا الأسارى، وأجاعاهم، وأعرباهم، وعاقباهم، وطالباهم بالتنصر، وأنهم في جهد جهيد، وبلاء شديد، وليس هذا مما لي فيه حيلة، لأنه أمر لا يبلغه سلطاننا، والخليفة لا يطاوعني، فكنت أنفق الأموال، وأجتهد ، وأجهز الجيوش ، حتى تطرق القسطنطينية .

فقلت : أيها الوزير، هاهنا رأي أسهل مما وقع لك يزول به هذا .

فقال : قل يا مبارك .

فقلت : إنَّ بأنطاكية^(١) عظيماً للنصارى يقال له «البطرك»، وبيت المقدس آخر يقال له «القائليق» وأمرهما ينفذ على ملك الروم حتى إنهما ربما حرما الملك فيحرم عندهم، ويحلانته فيحل. وعند الروم أنه من خالف منهم هذين فقد كفر، وأنه لا يتمّ جلوس الملك ببلد الروم إلا برأي هذين، وأن يكون الملك قد دخل إلى بيعتهما، وتقرب بهما، والبلدان في سلطاننا، والرجلان في ذمتنا، فيأمر الوزير بأن يكتب إلى عاملي البلدين بإحضارهما، وتعريفهما بما يجري على الأسارى، وأن هذا خارج عن الملك، وأنهما إن لم يزيلا هذا، لم يطالب بجريته غيرهما، وينظر ما يكون الجواب.

قال : فاستدعى كاتباً، وأملى عليه كتابين في ذلك، وأنفذهما في الحال، وقال : سرّيت عني قليلاً، وافترقتنا.

فاستدعاه الوزير بعد شهرين وأيام وقال له :

كان رأيك في أمر الأسارى أبرك رأي وأصحّه، وهذا رسول العامل قد ورد بالخبر، وأوماً

(١) أنطاكيّة : مدينة عظيمة تقع الآن في جنوب تركيا على نهر العاصي . (انظر الموسوعة العربية الميسرة ٢٤٥/١).

إلى رجل كان بحضرته وقال له : خبرنا بما جرى.

فقال الرجل : أنفذني العامل مع رسول «البطرك» و«القائليق» برسالتهما إلى قسطنطينية وكتبا إلى ملكيها : إنكما قد خرجتما عن ملة المسيح بما فعلتماه بالأسارى وليس لكما ذلك، فإنه حرام عليكما، ومخالف لما أقرنا به المسيح من كذا وكذا، وعدداً أشياء في دينهما، فإمّا زلتما عن هذا، واستأنفتما الإحسان إلى الأسارى، وتركتما مطالبتهما بالتنصر، وإلا لعناكما على هذين الكرسيين وحرمتناكما.

قال : فمضيت مع الرسول، فلما صرنا بقسطنطينية، حُجِبْتُ عن الملكين أياماً، وخليا بالرسول، ثم استدعياني إليهما، فسلمت عليهما فقال لي ترجمانهما : يقول لك الملكان، إن الذي بَلَغَ ملك العرب من فعلنا بالأسارى كذب وتشنيع، وقد أذنا في إدخالك دار البلاط لتشاهد أساراكم، فترى أحوالهم بخلاف ما بلغكم، وتسمع من شكرهم لنا، ضد ما اتصل بكم.

قال : ثم حملت إلى دار البلاط، فرأيت الأسارى، وكان وجوههم قد أخرجت من القبور، تشهد بالضر الشديد، والجهد الجهد، وما كانوا فيه من العذاب إلى حين قدومنا، إلا أنهم مرفهون في ذلك الوقت، وتأمّلت ثيابهم، فإذا جميعها جدد، فعلمت أنني منعت من الوصول تلك الأيام حتى غيّر زيّ الأسارى، وأصلح أمرهم .

وقال لي الأسرى : نحن للملكين شاكرون، فعل الله بهما صنع، وأومأوا إليّ : إن الأمر كان كما بلغكم، ولكنه خُفّفَ عنا، وأحسن إلينا، بعد حصولك هاهنا .

وقالوا لي : كيف عرفت حالنا؟ ومن تنبّه علينا، وأنفذك بسببنا ؟

فقلت : وكيّ الوزارة علي بن عيسى قبلغه ذلك، فأنفذ من بغداد وفعل كذا وكذا .

قال : فضجوا بالدعاء إلى الله تعالى للوزير، وسمعت امرأة منهم تقول : مرٌّ^(١) يا علي

ابن عيسى لا نسي الله لك هذا الفعل.

قال : فلما سمع ذلك علي بن عيسى أجهش بالبكاء، وسجد حمداً لله سبحانه وتعالى،

وبرّ الرسول، وصرفه^(٢).

نعم يحق لهذا الوزير الصالح، أن يبكي، وأن يجهش بالبكاء، كيف لا، وقد خفف الله

بفعله هذا عن الأسرى ما كانوا يجدونه من جهد، ومعاناة، بل وتعرضوا حتى للفتنة في

الدين التي هي أشدُّ وأعظم خطراً على المسلم من أيُّ جهد وبلاء .

وفي هذه الحادثة العديد من الدروس والعبر أذكر منها :

١- أنه يجب على الداعية أن لا ييأس، وعليه أن يبحث عن أيِّ أسلوب أو وسيلة مناسبة

للقيام بواجب الدعوة إلى الله، وقضاء مصالح المسلمين .

٢- أهمية النصحية وعظم نفعها وفائدتها، وأنه يجب على الداعية القيام بها مع عدم

احتقارها، والتقليل من شأنها .

٣- حقد النصارى وكراهيتهم للمسلمين ، مهما كانت أحوالهم، والحرص على الانتقام

منهم، والتنكيل بهم، كلما سنحت لهم الفرصة، وصدق الله إذ يقول : ﴿وَكُنْ تَرَضَى

(١) مرٌّ : أي استمر . جاء في لسان العرب : مرٌّ مرّاً ومروراً : ذهب واستمر . قال تعالى : {فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به} الأعراف: جزء من الآية ١٨٩ . أي استمرت به . (انظر ابن منظور : لسان العرب، مادة «مرر» ١٦٥/٥).

(٢) القاضي التنوخي : أبو علي المحسن بن علي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ١/٥٢-٥٥ . (ط. بدون، تحقيق : عبود الشالجي ١٣٩١هـ)، وانظر ابن الجوزي : المنتظم ٦/٣٥٢-٣٥٣ .

عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَكَانَ اتَّبَعْتَ
 أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَكِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١﴾ .

٤- أن المسلمين بسبب ما لديهم من مبادئ وتعاليم فرضها عليهم دينهم الخفيف، لم يقابلوا هذا الفعل بالمثل، فيفعلوا في أسرى الروم، أو ما لديهم من أهل الذمة، مثل فعلهم. وهذا بحد ذاته يدلُّ على عظمة هذا الدين، وحسن تعاليمه .

المبحث الرابع

«تقويم أثر هذه الوسيلة»

من خلال المبحثين السابقين تبين لنا بحمد الله تعالى أنه كان لوسيلة إرسال الرسائل وبعث الرسل عدد من الآثار الحسنة في هذا العصر ويمكن إجمالها في النقاط التالية :

أ - أهم الآثار الحسنة لإرسال الرسائل :

- ١- توعية المسلمين في أمور دينهم، ودعوتهم إلى العمل بما جاء في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وتحذيرهم من ارتكاب عدد من البدع والمخالفات. ومن أمثلة ذلك، رسالة الإمام أحمد بن حنبل إلى الذين صلى معهم بعض الصلوات .
- ٢- المساهمة في دفع ظلم وجور بعض الظالمين والجائرين على الناس .
- ومن أمثلة ذلك رسالة الشيخ أبي الأحوص أحمد بن عبد الله إلى الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي، حيث اتعظ عن ظلمه، وقال لأبي الأحوص: أحبُّ أن ترفع إليّ كلما ثبت عندك من مثل هذا فأغيِّره .
- ٣- تمكين العلماء والدعاة من بذل النصيحة، والمشورة لولاة أمورهم، كلما رأوا حاجتهم إلى ذلك، ودعوتهم إلى التمسك بالكتاب والسنة، والعمل بهما، ففيهما الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة .
- ومن أمثلة ذلك ما كان يبعثه الإمام أحمد من رسائل إلى الخليفة المتوكل، وكذلك رسالة الإمام سحنون بن سعيد إلى الأمير الأغلبي .

ب - أهم الآثار الحسنة لبعث الرسل :

- ١- إنقاذ المسلمين وتخليصهم من أيدي أعدائهم، ورفع الذلّة والصغار عنهم .
ومن أمثلة ذلك ما أنقذه الله تعالى من أسرى على يد الرسول نصر بن الأزهر .
- ٢- حماية المسلمين من أن يفتنهم النصارى في دينهم^(١) والمساهمة في دفع وإزالة ما تعرّضوا له من شدّة ومعاناة .
ومن أمثلة ذلك ما يسّره الله تعالى على يد رسول الوزير الصالح علي بن عيسى .

(١) في سنة ٢٤١هـ تعرض أسرى المسلمين للاقتتان في دينهم وكانوا نحواً من عشرين ألفاً- حيث كان الروم النصارى يعرضون عليهم النصرانية فمن أبى قتلوه. فقتلوا منهم اثني عشر ألفاً، وتنصّر بعضهم، وفودي فيما بعد من تبقى منهم . (انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/٣٢٤).

الفصل الثاني

المناظرة

الفصل الثاني

«المناظرة»

تمهيد :

المناظرة وسيلة مهمة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى، وفي العصر العباسي الثاني استخدم العلماء والدعاة هذه الوسيلة، فعقدوا عدداً من المناظرات مع بعض أتباع الفرق الضالة، كالمنتسبين إلى الأديان السماوية السابقة، وأتباع الفرق الإسلامية المنحرفة . وكان بحمد الله تعالى لتلك المناظرات نتائج طيبة وآثار حسنة على الدعوة في هذا العصر .

وفي هذا الفصل سأتحدث إن شاء الله تعالى عن هذه الوسيلة من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : أهمية وسيلة المناظرة .

المبحث الثاني : مناظرة الفرق الضالة وأهم مجالاتها في هذا العصر .

المبحث الثالث : تقويم أثر هذه الوسيلة .

المبحث الأول

«أهمية وسيلة المناظرة»

قبل أن اتطرق إلى أهمية وسيلة المناظرة في الدعوة إلى الله أحب أن أبين معناها في اللغة والاصطلاح .

المناظرة في اللغة :

يقول العلامة الجرجاني : « المناظرة لغة: من النظر أو من النظر بالبصيرة»^(١) .

ويقول العلامة ابن منظور في مادة «نظر» « والمناظرة : أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف أتيا»^(٢) .

ويقول أيضاً ، والتناظر : التفاوض في الأمر . ونظيرك : الذي يفاوضك وتناظره، وناظره من المناظرة . والنظير: المثلُّ، وقيل المثل في كل شيء . وفلان نظيرك أي مثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رأهما سواء. ويقال : ناظرت فلاناً أي صرتُ نظيراً له في المخاطبة. وناظرت فلاناً بفلان أي جعلته نظيراً له^(٣) .

ويضيف العلامة الزبيدي إلى قول ابن منظور في المناظرة قائلاً: «المناظرة : المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كل ما يراه ببصيرته»^(٤) .

(١) الجرجاني : علي بن محمد، التعريفات ص ٢٨٧ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، مادة «نظر» ٢١٧/٥ .

(٣) انظر المرجع السابق : ٢١٩/٥ .

(٤) محمد بن مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس فصل النون من باب الراء مادة «نظر» ٥٧٥/٣، (ط. بدون نشر مكتبة الحياة، بيروت).

المناظرة في الاصطلاح :

يقول الجرجاني : « والمناظرة اصطلاحاً هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشئين إظهاراً للصواب »^(١).

ويتفق التهانوي مع الجرجاني في تعريف المناظرة ويضيف تعريفاً آخر لها، حيث يقول: « هي علم يعرف به كيفية آداب إثبات المطلوب ونفيه أو نفي دليله مع الخصم »^(٢).

أهمية المناظرة في الدعوة إلى الله :

لا شك أن المناظرة والمجادلة بالحسنى^(٣) تعدُّ وسيلة فعّالة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى وقد بيّن القرآن الكريم في غير موضع وجوب ذلك وأهميته، فقال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٤)، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾^(٥).

تحدّث العلامة الفخر الرازي عن المجادلة، وحاجة الداعية إليها عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾^(٦).

(١) الجرجاني : التعريفات ص ٢٨٧؛ وانظر أيضاً طاش كبري زاده : علم البحث والمناظرة ص ٣١ (ط. بدون، مطبعة الجبلوي ١٣٩٧هـ تحقيق : أبو عبد الرحمن بن عقيل).

(٢) انظر : محمد أعلى التهانوي : موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بـ «كشاف اصطلاحات الفنون» ١٣٩١/٦ (ط. بدون، نشر شركة خياط، بيروت).

(٣) تطلق لفظة المجادلة على المناظرة. قال العلامة ابن منظور : « والمجادلة : المناظرة والمخاصمة » (لسان العرب : مادة «جدل» ١٠٥/١١)، وقال الشيخ محمد أبو زهرة : « قد يطلق الجدل في اللغة ويراد منه المناظرة، كقوله تعالى: [وجادلهم بالتي هي أحسن] ، وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (تاريخ الجدل ص ٦ ط. بدون ، دار الفكر العربي ١٩٣٤م) وللإطلاع على تفصيل أكثر حول هذا الأمر انظر : محمد البيانوني : الدكتور، المدخل إلى علم الدعوة ص ٢٦٤، وعلي جريشة : الدكتور، أدب الحوار والمناظرة، ص ٥٩ (ط. الأولى، دار الوفاء المنصورة، مصر ، ١٤١٠هـ).

(٤) سورة النحل : الآية ١٢٥ .

(٥) سورة العنكبوت : الآية ٤٦ .

(٦) سورة هود : الآية ٣٢ .

فيقول رحمه الله : « وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدل معهم، وذلك الجدل ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة، والمعاد، وهذا يدل على أن الجدل في تقرير الدلائل، وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»^(١).

ويقول الدكتور توفيق الراعي مبيناً لأهمية المناظرة والمجادلة والتي هي أحسن: « لما كانت الحجة لازمة لبيان الحق والدفاع عنه، حتى تتفتح مغاليق القلوب، وكانت الحكمة سناً وقوة لهذه الحجة وكان الجدل والتي هي أحسن سلاحاً ودرعاً للحق، كان على الدعاة أن يأخذوا به لإظهار الحق وتبليغه للناس»^(٢).

ويقول أيضاً: « هذا وقد صاحب الدعوة الإسلامية جهادان، جهاد باللسان، وجهاد بالسنان، وكان جهاد اللسان والحجة، أقوى وأصعب على المشركين والضالين من جهاد السنان لبطلان حججهم وتهاوي دعوتهم، أمام حجة الإسلام وبيانه ورسالته . ومن هذا يتحصل لدينا أن الجدل للوقوف على الحق، أو لإقناع الناس به عمل مشروع ومحمود، وقد يكون واجباً كالقتال في سبيل الله»^(٣).

(١) الفخر الرازي : محمد بن عمر الطبرستاني، التفسير الكبير، ٢١٨/١٧ . (ط. الأولى، المطبعة المصرية، مصر، ١٣٥٧هـ).

(٢) توفيق الراعي : الدكتور، الدعوة إلى الله (الرسالة - الوسيلة - الهدف) ص ٢٩٦ (ط. الأولى، مكتبة الفلاح، الكويت ، ١٤٠٦هـ).

(٣) توفيق الراعي : الدعوة إلى الله : ص ٢٩٧ .

وفي العصر العباسي الثاني كانت الأوضاع الفكرية فيه متعددة ومتنوعة، حيث وجد العديد من الفرق والتيارات الفكرية المنحرفة وكان أتباعها ومؤيدوها، يدعون إليها وينافحون عنها. الأمر الذي جعل العلماء والدعاة إلى الله في هذا العصر يستخدمون هذه الوسيلة في دعوتهم إلى الله عز وجل .

المبحث الثاني

«مناظرة الفرق الضالة وأهم مجالاتها في هذا العصر»

عقد العلماء والدعاة في هذا العصر عدداً من المناظرات مع بعض أتباع الفرق الضالة. ومن تلك المناظرات ما كان مع بعض المنتسبين إلى الأديان السماوية السابقة، ومنها ما كان مع بعض أتباع الفرق الإسلامية المنحرفة .

وفي هذا المبحث سأتحديث بعون الله تعالى عن أبرز تلك المناظرات، وأهم مجالاتها من خلال الأمرين التاليين :

أ - مناظرة بعض المنتسبين إلى الأديان السماوية السابقة .

ب - مناظرة بعض أتباع الفرق الإسلامية المنحرفة .

أ - مناظرة بعض المنتسبين إلى الأديان السماوية السابقة :

١ - اليهود :

- مناظرة الإمام محمد بن سحنون ليهودي بمصر :

كان أبو الفضل بن حميد^(١) فتى يطلب العلم على يد محمد بن سحنون ولم يكن في علم الجدل بالماهر «فخرج إلى الحج فمر بمصر، فدخل حماماً بها، فإذا عليه رجل يهودي، فلما خرج من الحمام أقبل يناظر اليهودي على مذهبهم فغلبه اليهودي، فرجع إلى القيروان بعدما حجّ وفي قلبه حسرة، إذ لم يكن عنده من المناظرة ما يدحض به حجة اليهودي.

فلما رجع دخل على محمد بن سحنون فهابه أن يذكر الحكاية، فقضى الله تعالى أن يخرج محمد بن سحنون على أثر ذلك إلى الحج فصحبه ذلك الرجل إلى مصر، فقال له : امض بنا رحمك الله إلى الحمام . فأجابه ابن سحنون إلى ذلك، فمضى به إلى الحمام الذي عليه ذلك اليهودي، فلما خرج ابن سحنون سبقه أبو الفضل بالخروج، فأنشبت المناظرة مع اليهودي، فلما خرج ابن سحنون وجدهما يتناظران، وقد استعلى اليهودي على أبي الفضل

(١) هو أبو الفضل أحمد بن علي بن حميد التميمي كان أبوه وزيراً لابن الأغلب ومن خاصته وكذلك أخوته ولم يدخل هو في شيء من هذا. قال المالكي : كان من أهل الفضل والدين والفقه ورعاً متواضعاً ، توفي سنة إحدى وخمسين ومائتين . (انظر: القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤/٤٠٧ - ط. بدون، مطبعة فضالة المحمدية، نشر وزارة الأوقاف المغربية)، وابن فرحون : إبراهيم بن علي الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ١/١٥١ ط. بدون، دار التراث، القاهرة، تحقيق: د. محمد أبو النور).

بكثرة الحجاج والمناظرة بالباطل لضعفه وقلة معرفته بالمناظرة. فدخل معهما محمد فيما هما فيه، ورجعت المناظرة بين اليهودي وابن سحنون حتى حضرت صلاة الظهر فأقام محمد الصلاة وصلى، وعاد إلى المناظرة حتى حضرت صلاة العصر فأقام محمد الصلاة وصلى العصر، ثم عاد إلى المناظرة فلم يزل إلى صلاة المغرب وقد اجتمع الناس إليهما من كل موضع، وشاع ذلك بمصر وقال الناس بعضهم لبعض : امضوا نسمع المناظرة بين الفقيه المغربي وبين اليهودي.

فلما كان عند صلاة المغرب انحصر اليهودي وانقطع عن الحجّة وظهر عليه ابن سحنون بالدلائل الواضحة والحجّة البالغة . فلما تبين اليهودي الحق بالبرهان وأراد الله عز وجل هدايته، قال عند ذلك : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فأسلم وحسن إسلامه، فكبر الناس عند ذلك، وعلت أصواتهم بالتكبير وقالوا : أسلم اليهودي على يدي الفقيه المغربي .

فقام محمد وهو يمسخ العرق عن جبينه، ثم رد وجهه إلى صاحبه وقال : لا جزاك الله خيراً عني، ولامه أشد اللوم، وقال له : كاد أن تجري على يدك فتنة عظيمة، كيف تأتي إلى رجل يهودي تناظره وأنت ضعيف المناظرة والجدال؟!

فإذا رأى من أراد الله عز وجل فتنته هذا الذي كان يهودياً قد غلبك واستظهر عليك بباطله أدخلت عليه الفتنة وداخله الشك في دينه، فلا تكن لك عودة لمثل هذا وتب إلى الله

عز وجل من ذلك . ولولا أنني خفت الفتنة على الناس أن يداخلهم شك في دينهم ما ناظرته»^(١) .

فمن خلال هذه الحادثة تبين لنا أن هدف محمد بن سحنون رحمه الله من هذه المناظرة هو نصرة الحق وإظهاره وتشبيث المؤمنين حيث خشي افتتاح الناس بما أثاره هذا الرجل من شبه ودعاوى باطلة ويظهر هذا من تأنيبه لأبي الفضل حيث قال له : «كاد أن تجري على يديك فتنة عظيمة ...»

ومما يستفاد من هذه الحادثة أيضاً أنه لا بد أن يكون المناظر عالماً قوى الحجة، وأن لا يلجأ إلى المناظرة إلا عند الحاجة الماسة لها .

٢- النصارى :

مناظرة الإمام عبد الله بن التبان^(٢) لنصراني بالقيروان :

وفد على عامل القيروان نصراني - وكان رأساً في مذهبه - فبعث عامل القيروان إلى أبي محمد عبد الله بن التبان لينظره، فلما جلس معه مجلس المناظرة قال أبو محمد بن التبان للعامل : إن اخترت أن أطيل معه أطلت، وإلا أوجزت. فقال : أوجز .

(١) المالكي : رياض النفوس ١/٤٥٠، والقاضي عياض، ترتيب المدارك، ٣/١١٣ .

(٢) هو الإمام الفقيه أبو محمد عبد الله بن إسحاق بن التبان كان من أشد الناس عداوة لبني عبيد الرافضة ، توفي رحمه الله سنة ٣٧١ هـ . (انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤/٥١٧، والدباغ : معالم الإيمان ٣/٨٨) .

فقال أبو محمد لترجمانه قل له : أنتم تعتقدون ثلاثة :

قال : نعم .

فقال له : أخبرني الواحد مفتقر إلى اثنين أو مستغن عنهما ؟

فضرب النصراني على وجهه وأطرق، وعليه كآبة الانقطاع^(١) .

فمن خلال هذه المناظرة الموجزة استطاع بحمد الله تعالى أبو محمد بن التبان أن يفحم هذا النصراني الذي يعتقد بالتثليث، وأن الله تعالى ثالث ثلاثة، حتى إنه لم يستطع أن يرد عليه ولو بكلمة واحدة. وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٢) .

(١) الدباغ : معالم الإيمان ٣/٩٠-٩١ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٧١ .

ب - مناظرة بعض أتباع الفرق الإسلامية المنحرفة :

١- الشيعة^(١) :

عقد العلماء والدعاة في هذا العصر العديد من المناظرات مع الشيعة في موضوعات ومجالات متعددة منها :

أ - أن نبينا محمداً ﷺ هو خاتم النبيين :-

مناظرة الإمام ابن الحداد لأبي عبد الله الشيعي :-

قال أبو عبد الله الشيعي^(٢) لسعيد بن محمد المعروف بابن الحداد^(٣) مناظراً له :
القرآن يقر أن محمداً ﷺ ليس بخاتم النبيين.

فقال له سعيد : أين ذلك ؟

فقال له : في قوله : ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٤) فخاتم النبيين غير رسول الله.

(١) بدأت بالحديث عن الشيعة لقدمهم ولكثرة ما عقد معهم من مناظرات ولانتشارهم ولوجود دولة تدعمهم وتتنهاهم .

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٢٩ .

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح بن الحداد المغربي شيخ المالكية وكان بحراً في الفروع ورأساً في لسان العرب، بصيراً بالسنن، مات سنة اثنتين وثلاثمائة . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٤/٢٠٥) .

(٤) سورة الأحزاب : جزء من الآية ٤٠ .

فقال له سعيد : هذه الواو ليست من واوات الابتداء وإنما هي من واوات العطف كقوله عز وجل : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١) فهل من أحد يوصف بهذه الصفات غير الله عز وجل^(٢) ؟

وقال أبو عبد الله الشيعي لسعيد بن الحداد ومن كان معه :

يا أهل البلدة إنكم تبغضون علياً -رضي الله عنه- ؟

فقال له سعيد : على مبغضه لعنة الله .

فقال : صلى الله عليه . فقال سعيد : نعم ورفع صوته : صلى الله عليه وسلم ، وقال :

لأن الصلاة في خطاب العرب الرحمة والدعاء .

قال : ألم يقل رسول الله ﷺ : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» ؟

فقال سعيد : نعم إلا أنه قال : «إلا أنه لا نبي بعدي»^(٣) وهارون كان حجة في حياة

موسى وعلي لم يكن حجة في حياة النبي ، وهارون كان شريكاً ، أفكان علي شريكاً للنبي ﷺ في النبوة ؟ وإنما أراد التقريب والوزارة والولاية .

فما يلاحظ في هذه المناظرة أنه مهما أثار أبو عبد الله الشيعي موضوعاً أجاب عنه

الإمام ابن الحداد إجابة مقنعة حتى كان أبو عبد الله الشيعي يضطر إلى التنقل من موضوع إلى آخر .

(١) سورة الحديد : الآية ٣ .

(٢) المالكي : رياض النفوس ٦٢/٢ .

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري وغيره عن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه بلفظ « أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال : أتخلفني في الصبيان والنساء . قال : ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي » (صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة ، رقم الحديث « ٤٤١٦ » ، ١١٢/٨) .

ب : المفاضلة بين الصحابة رضوان الله عليهم:

كان الشيعة كثيراً ما يناظرون أهل السنة في المفاضلة بين الصحابة مستشهدين بذلك بنصوص وأدلة لا تسعفهم فيما ذهبوا إليه ومن ذلك ما يلي :-

١ - مناظرة القاضي الحسين بن أبان لشيعة بعض الأكابر :

قال أحد الشيعة في هذا العصر للقاضي الحسين بن إسماعيل بن أبان^(١) بحضرة بعض الأكابر بعدما ذكر له مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين وشجاعته أتعرفها؟

« فقال القاضي : نعم، ولكن أتعرف أنت أين كان الصديق رضي الله عنه يوم بدر؟ كان مع رسول الله ﷺ في العرش بمنزلة الرئيس الذي يحامي عنه، وعلي رضي الله عنه في المبارزة، ولو فرض أنه انهزم أو قتل لم يخذل الجيش بسببه فأفحم الشيعة.

وقال القاضي أيضاً : وقد قدمه الذين رووا لنا الصلاة والزكاة والوضوء بعد رسول الله ﷺ فقدّموه عليه حيث لا مال له ولا عبيد ولا عشيرة. وقد كان أبو بكر يمنع عن رسول الله ﷺ ويجاحف عنه^(٢)، وإنما قدّموه لعلمهم أنه خيرهم. فأفحم الشيعة أيضاً^(٣).

(١) هو الحسين بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن سعيد بن أبان القاضي المحاملي الفقيه الشافعي ولي قضاء الكوفة ستين سنة ، توفي سنة ثلاثين وثلاثمائة . (انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٢٠٣).

(٢) يُجَاحِفُ عَنْهُ : أي يدافع عنه في الحرب ويدنو منه. جاء في لسان العرب : والجِاحِفُ مزاحمة الحرب، والمجَاحِفَةُ : الدنْوُ. (انظر ابن منظور : لسان العرب، مادة «جحف»، ٩/٢١).

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٢٠٤ .

٢- مناظرة الإمام ابن الحداد لعبيد الله المهدي:

ومن تلك المناظرات ما جرى بين عبيد الله المهدي وبين سعيد بن الحداد رحمه الله بشأن حديث «غدير خُم»^(١) «من كنت مولاة فعلي مولاة»^(٢).

حيث يروي لنا ابن الحداد هذه الحادثة فيقول بعدما ذكر أنه جاء عند المهدي مجيباً لرسوله «فقال لي : اجلس، فجلست فإذا بكتاب لطيف إلى جانبه على مخدة فرأيته وقد أوماً إلى أبي جعفر فقال له : أعرض الكتاب على الشيخ.

قال : تصفح، فجعل يده على بعض الصفحة وأنا أنظر إلى الإسناد، فقال لي أبو جعفر : اقرأ.

فقلت له : عرفت الحديث وهو حديث «غدير خم» «من كنت مولاة فعلي مولاة» وهو حديث صحيح . وقد رويناها. فعطف عليّ عبيد الله لعنة الله عليه

فقال لي : فما للناس لا يكونون عبيدنا ؟

(١) غدير خُمّ : اسم موضع، وخُمّ : واد بين مكة والمدينة عند الجحفة به غدير عنده خطب النبي ﷺ . (الحموي معجم البلدان ٣٨٩/٢).

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٦٨/٤ (ط. الثالثة، المكتب الإسلامي ، بيروت)، وسنن الإمام الترمذي : كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه رقم الحديث «٣٧١٣»، ٦٣٣/٥ وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . (ط. الأولى ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ، تحقيق : كمال يوسف الحوت).

وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع : «صحيح» رقم الحديث «٦٥٢٣»، ١١٢/٢ . (ط. الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ).

فقلت له : أعز الله السيد^(١) لم يرد ولاية الرق، إنما أراد ولاية في الدين .

فقال لي : هل من شاهد من كتاب الله عز وجل ؟

فقلت نعم : قال الله عز وجل : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢) .

فما لم يجعله الله عز وجل لنبي لم يجعله لغير نبي وعلي لم يكن نبياً ، إنما كان وزير النبي ﷺ .

فقال لي : انصرف لا ينالك أحد .

قال ابن الحداد : فخرجت وصحبي البغدادي حتى خرجت وأوماً إلى فوقفت .

فقال لي : اكنتم هذا المجلس.^(٣)

(١) ليت الإمام ابن الحداد لم يقل له هذه الكلمة لما ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ركم عز وجل » الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ٣٤٦/٥ ، وأبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب لا يقول المملوك ربي وربتي رقم الحديث « ٤٩٧٧ » ٢٥٧/٥ (ط. بدون، دار إحياء السنة النبوية، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد).

وقال الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة «صحيح على شرط الشيخين. رقم الحديث « ٣٧١ » ، ١٠٠/١ . (ط. الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩هـ).

(٢) سورة آل عمران : الآيتان ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) المالكي : رياض النفوس ٥٩/٢ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٠٦/١٤ .

ج : السنة والقياس :-

ومن القضايا والمجالات التي كان الشيعة يناظرون فيها أهل السنة، قضية السنة وحجية القياس، فقد دعا أبو عبد الله الشيعي جماعة من أهل السنة إلى مجلسه كان منهم إبراهيم ابن يونس^(١)، وسعيد بن الحداد، وموسى القطان^(٢)، ويروي هذه المناظرة سعيد بن الحداد، فيقول : « أرسل ورائي الشيعي -لعنة الله عليه- وما كنت آتي إليه إلا برسول، فدخلت إليه في قصر إبراهيم بن أحمد وحوله جماعة من أصحابه، وجماعة ممن ينسب إليهم العلم من أهل بلدنا، فسلمت ثم جلست، فقال : أبو عبد الله لإبراهيم بن يونس وقد قيل له إن هذا الشيخ كان قاضياً على هذه المدينة- بأي شيء كنت تقضي ؟

فقال له إبراهيم : بالكتاب والسنة .

فقال له أبو عبد الله : فما السنة ؟

فقال له إبراهيم : السنة .. السنة

فقال ابن الحداد : المجلس مشترك أو خاص ؟

فقال : مشترك .

فقال ابن الحداد : أصل السنة في كلام العرب : المثال الذي يتمثل عليه

قال الشاعر : تُرِيكَ سُنَّةٌ وَجْهٌ غَيْرَ مُقَرَّفَةٍ مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدْبٌ^(٣)

أي صورة وجه ومثاله .

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن يونس الحشاب ولي أحكام القيروان وقضاء مدينة رقادة، وكان ثقة فاضلاً،

توفي سنة ثمان وثلاثمائة . (انظر الدباغ: معالم الإيمان ٢/٣٥٠، وابن عذارى: البيان المغرب ١/١٨٥).

(٢) هو أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن القطان ولاء الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب قضاء طرابلس فعدل

فيهم فرفع أمره إلى الأمير فعزله وحبس، توفي سنة ست وثلاثمائة . (الخشنى : محمد بن الحارث،

طبقات علماء إفريقية ص ١٥٩ . ط. دار الكتاب اللبناني، بيروت، الدباغ: معالم الإيمان ٢/٣٣٥).

(٣) البيت للشاعر ذي الرمة . انظر ديوانه ص ٨ ط. الثانية، المكتب الإسلامي، دمشق ١٣٨٤هـ).

والسنة محصورة في ثلاث : الائتثار بما أمر به رسول الله ﷺ . والائتثار عما نهى عنه والائتثار به فيما فعل .

قال الشيعي : فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبي ﷺ وجاءت السنة من طرق؟ فقال ابن الحداد : انظر إلى أصح الخبرين نقلاً فأخذ بأصحهما ، وأطلب الدليل على موضع الحق في أحد الحديثين ويكون الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة فلا بد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين .

فقال الشيعي : فلو استورا في الثبات؟

فقال ابن الحداد : يكون أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً .

فقال : فمن أين قلتم بالقياس ؟

فقال ابن الحداد : قلنا ذلك من كتاب الله عز وجل .

فقال : فأين تجد ذلك ؟

فقال ابن الحداد : قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾^(١) .

فالصيد معلومة عينه، والجزاء الذي أمرنا أن نمثله بالصيد المعلومة عينه ليس بمنصوص فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه بالقياس والاجتهاد، ومنه قول الله عز وجل : { يحكم به ذوا عدل منكم } فلم يكله إلى حاكم واحد حتى جعلهما اثنين ليقيسا ويجتهدا .

فقال الشيعي : ومن ذوا عدل؟ وأوماً أن ذوا عدل إنما هم قوم مخصوصون بنص الآية .

(١) سورة المائدة : الآية ٩٥ .

فقال ابن الحداد : هم الذين قال الله عز وجل فيهم في آية المراجعة : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾^(١) . ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله عز وجل : ﴿وَكُوْرَدُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٢) والاستنباط غير منصوص .

ثم عطف الشيعي على موسى القطان فقال له : أين وجدتم حدّ الخمر في كتاب الله تعالى ؟ .

فقال موسى : قال النبي ﷺ : «من شربها فاضربوه بالأردية ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي، ثم إن عاد فاضربوه بالجريد»^(٣) .

فقال الشيعي : على النكير منه، ايش هذا؟ أقول لك أين وجدتم حدّ الخمر في كتاب الله تعالى، تقول : اضربوه بالأردية ثم بالأيدي ثم بالجريد .

فقال ابن الحداد : إنّما حدّ قياساً على حد القاذف، لأنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى، وإذا هذى افتري، فوجب عليه ما يؤول أمره إليه وهو حدّ القاذف .

فقال لموسى : أولم يقل النبي ﷺ : «أقضاكم علي» فجعل موسى وهو ينص عليه

(١) سورة الطلاق : جزء من الآية ٢ .

(٢) سورة النساء : جزء من الآية ٨٣ .

(٣) لم أقف على هذا اللفظ فيما تيسر لي الإطلاع عليه من كتب الحديث الشريف وعلومه وقد سألت أحد الأساتذة المهتمين بالسنة وعلومها فأقادني بعدم الوقوف عليه، وأحالني إلى عدد من الكتب التي تهتم بالعلل والموضوعات فرجعت إليها ولم أقف عليه . ووجدت ألفاظاً أخرى منها ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من شرب الخمر فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاقتلوه» . (سنن الإمام النسائي، كتاب الأشربة باب ذكر الروايات المغلطات في شرب الخمر، رقم الحديث «٥٦٦١» ٣١٣/٨ ط. بدون، دار الكتب العلمية، بيروت) . وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على مسند الإمام أحمد ٥٠/٩ «الحديث صحيح على شرط الشيخين» .

الحديث: «وأعلمكم بحلاله وحرامه معاذ، وأرأفكم أبو بكر، وأشدكم في دين الله عمر»^(١).

فقال الشيعي : وكيف يكون أشدهم في دين الله وقد هرب بالراية يوم حنين ؟

فقال له موسى : ما سمعنا بهذا ولا نعرفه .

فقال ابن الحداد : تحيز إلى فئة كما أنزل الله تعالى : ﴿إِلَّا مَتَّحِرًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَّحِيزًا إِلَى

فِتْنَةٍ﴾^(٢) . فمن تحيز إلى فئة كما أمر الله عز وجل فليس بفار .

فقال الشيعي بوجهه إلى بعض أصحابه فقال : أسمع ما قال الشيخ : قال : انحاز إلى

فئة كما أمر الله سبحانه. ثم قال : وأي فئة أكثر من رسول الله ﷺ وقد كان حاضراً ولم

يتحيز إليه وكأنه تخافت في كلامه ويسمع من يليه .

فقال ابن الحداد : جاء عنه ﷺ أنه قال : «عمر فئة»^(٣) . فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز

إلى فئة .

(١) الحديث رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر،

وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفضهم زيد بن

ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أميناً وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن

الجراح» وزاد الإمام ابن ماجة : «وأفضاهم علي». (سنن الإمام الترمذي : كتاب المناقب، باب مناقب،

معاذ، وزيد، وأبي، وأبي عبيدة، رقم الحديث : «٣٧٩٠» ٦٢٣/٥، وسنن الإمام ابن ماجة : المقدمة، رقم

الحديث : «١٥٤» ٥٥/١ (ط. بدون، المكتبة العلمية، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي) ، وابن

بليان : الأمير علاء الدين علي، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ١٣١/٩ (ط. الأولى دار الكتب

العلمية، بيروت) والحاكم النيسابوري : المستدرک على الصحيحين، ٤٢٢/٣، وقال : إسناده صحيح على

شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة إنما اتفقا بإسناده هذا على ذكر أبي عبيدة فقط. ووافقه الإمام

الذهبي في التلخيص ، ٤٢٢/٣. (ط. بدون، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت).

(٢) سورة الأنفال : جزء من الآية ١٦ .

(٣) لم أقف عليه فيما تيسر لي الاطلاع عليه من كتب الحديث وعلومه وقد سألت أحد الأساتذة المهتمين

بالسنة وعلومها فأفادني بعدم الوقوف عليه. وكان الأولى أن يطلب الإمام ابن الحداد من الشيعي إثبات

فرار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالراية يوم حنين وقد ذكر الإمام ابن القيم ما يفيد ثباته وعدم فراره

حيث يقول - وهو يتحدث عن غزوة حنين- :

«وبقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار، وأهل بيته، وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر،

وعمر رضي الله عنهما...» (زاد المعاد: ٤٦٩/٣). فعمر رضي الله عنه لم يهرب كما يدعي هذا

الشيعي .

فسكت الشيعي فحركه بعض أصحابه، وقال : ألا تسمع ما يقول الشيخ؟ فقال :
صدق، أو نحو هذا من القول، سمعها منه ابن الحداد ومن كان يليه ...»^(١)

ويلاحظ على الشيعي من خلال هذه المناظرة وغيرها من المناظرات الحرص على المبادرة
بالأسئلة طلباً لمباغته الخصم وإحراجه، وكذلك التنقل من قضية إلى أخرى ومن شخص إلى
آخر حرصاً على عدم إظهار عجزه وبخاصة إذا كان المناظر قوياً كابن الحداد رحمه الله الذي
اشتهر بسعة علمه وقوة حجته .

٢- المعتزلة :

كان للمعتزلة مجموعة من الآراء والمعتقدات يؤمنون بها وينافحون عنها فتصدى لهم
-بفضل الله تعالى- جماعة من علماء أهل السنة بالحجج القوية، والبراهين الصحيحة
الثابتة. وهذه نماذج من تلك المناظرات :-

أ - حدوث الأسماء والصفات «القول بخلق القرآن»:-

كانت هذه القضية من أكبر وأكثر القضايا التي كان المعتزلة يؤمنون بها ويدافعون عنها
مريدين بذلك إثبات « أن كلام الله تعالى محدث، مخلوق في محل، وهو حرف وصوت كتب
أمثاله في المصاحف حكايات عنه لنفسيهم أصلاً الصفات القديمة عن الباري تبارك
وتعالى»^(٢)

لذلك كانوا يعقدون المناظرات تلو المناظرات لإثبات هذا الأمر ونشره بين الناس. وهذه
بعض الأمثلة على ذلك :-

(١) المالكي : رياض النفوس ٢/٧٦ .

(٢) انظر : أمير مهنا : جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص ١٨٨ . ١٨٩ .

١- مناظرة شيخ من أهل السنة لأحمد بن أبي دؤاد المعتزلي^(١) :

قال ابن أبي دؤاد -زعيم المعتزلة في عصره- لرجل من أهل السنة : « ما تقول يا شيخ في القرآن أمخلوق هو ؟

فقال الشيخ : لم تنصني ، المسألة لي .

قال : قل .

فقال الشيخ : هذا الذي تقوله علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي،

أو ما علموه؟

فقال ابن أبي دؤاد : لم يعلموه .

قال : فأنت علمت ما لم يعلموا ؟ فخبجل وسكت .

ثم قال : أقلني بل علموه .

قال : فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت، أما يسعك ما وسعهم فخبجل

وسكت»^(٢) .

٢- مناظرة الإمام محمد بن سحنون لأبي سليمان النحوي^(٣) المعتزلي :

كان أبو سليمان النحوي -وهو ممن كان يقول بخلق القرآن ويذهب إلى الاعتزال- عند

أحد الوزراء فطلب الوزير من محمد بن سحنون أن يناظره « فقال محمد : تقول أيها الشيخ

أو تسمع؟

(١) هو أحمد بن أبي دؤاد بن فرج بن حريز الإيادي المعتزلي، كان داعية إلى خلق القرآن، ابتلاه الله بالفالج

قبل موته بأربع سنين، وتوفي ببغداد سنة ٢٤٠ هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١/١٦٩، وابن

كثير : البداية والنهاية ، ١٠/٣١٩) .

(٢) المرجع السابق : ١٠/٣٢١ .

(٣) لم أظفر له بترجمة فيما اطلعت عليه من كتب السير، والتراجم، والطبقات، وقد جاء في معالم الإيمان :

١٣٤/٢، أن اسمه محمد، إلا أنه لم يتمه ولم يُعرف به.

فقال له الشيخ : قل يا بني .

فقال محمد : أرأيت كل مخلوق هل يذل لخالقه؟

فسكت الشيخ ولم يحر جواباً، ومضى وقت طويل وانحصر ولم يأت بشيء .

فقال له محمد : كم سنة أتت عليك أيها الشيخ؟

فقال له : ثمانون سنة .

فقال محمد للوزير : قد اختلف أهل العلم في الصلاة على الميت بعد سنة من يوم موته،

فقال بعضهم : يصلى عليه، وأجمعوا أنه إذا جاوز السنة لا يُصلى عليه، وهذا الشيخ له

ثمانون سنة ميت في عداد الموتى، فقد سقطت الصلاة عليه بإجماع ، ثم قام ^(١) .

فسئل محمد بن سحنون أن يبين لهم معنى سؤاله هذا .

فقال : إن قال إن كل مخلوق يذل لخالقه فقد كفر لأنه جعل القرآن ذليلاً، لأنه يذهب إلى

أنه مخلوق، قال الله عز وجل : ﴿وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن

خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ^(٢) .

وإن قال : إنه لا يذل فقد رجع إلى مذهب أهل السنة؛ لأنه لا يذهب في هذه الحالة إلى

أنه مخلوق الذي هو صفة من صفاته ^(٣) .

(١) المراد بهذه العبارة والله أعلم أن النحوي لأنه كان ممن يقول بخلق القرآن، فهو على ضلال ولا فائدة منه

كالميت، وهذا فيه تحقير لمن يقول بهذا القول الذي عدّه العلماء كفراً .

(٢) سورة فصلت : الآيتان ٤١ . ٤٢ .

(٣) المالكي : رياض النفوس ١/٤٤٩، وانظر الدباغ : معالم الإيمان ٢/١٣٤ .

٣- مناظرة الإمام محمد بن سحنون لسليمان بن حفص^(١) المعتزلي :-

وناظر محمد بن سحنون أيضاً سليمان بن حفص الفراء - وهو من شيوخ المعتزلة - في مسألة الأسماء والصفات .

فقال الفراء : يا أبا عبد الله، الله سمي نفسه ؟ أراد أن يقول له نعم، فيثبت عليه الإقرار بحدوث الأسماء والصفات .

فقال له ابن سحنون : الله سمي نفسه لنا ولم يزل وله الأسماء الحسنی^(٢) .

٤- مناظرة الإمام ابن الحداد لابن الأشج^(٣) المعتزلي بحضرة الأمير الأغلبي :

وحادثة أخرى حول هذه القضية -القول بخلق القرآن- يرويها لنا سعيد بن الحداد رحمه الله والذي كانت له مواقف مشهورة مع المعتزلة كمواقفه مع الشيعة الأنفة الذكر فيقول : «دخلت على إبراهيم الأمير^(٤) وكان حاضراً للمجلس ابن الأشج وجماعة، ثم أخذ بعض النافية - وهم القائلون بخلق القرآن-

فقال : أيها الأمير كثر التشبيه وفشا بالقيروان وقال قائلون كذا، وقال آخرون كذا .

قال أبو عثمان بن الحداد : صرح النافي وكُتبت أنا إجلالاً لله عز وجل عن تشنيع أهل التعطيل على أولي السنة، وعلمت أنه إنما أراد أن يُحرك بذلك الأمير ليصل منه إلى أمر يجد به السبيل إلى كيد السنة وإماتتها .

(١) هو سليمان بن حفص بن أبي عصفور المعروف بالفراء من كبار معتزلة القيروان ومشاهيرهم رحل إلى بغداد وله كتب في الاعتزال، توفي سنة ٢٦٩هـ .

(انظر الخشني : طبقات علماء إفريقية ص٢٨٦، وابن عذارى : البيان المغرب ١/١١٩).

(٢) الدباغ : معالم الإيمان ٢/١٦٧، ولأبي الحسن الأشعري مناظرة مع أبي علي الجبائي في أسماء الله تعالى ، انظر : السكوني : عمر، عيون المناظرات ص٢٢٨، (ط. بدون، نشر الجامعة التونسية، تحقيق سعد غراب)، ومحمد أبو زهرة : تاريخ الجدل ص٢٨٩.

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن الأشج كان من أهل الجدل والكلام على مذهبه توفي سنة ست وثمانين ومائتين . (انظر الخشني : طبقات علماء إفريقية ص١٩٣، والدباغ : معالم الإيمان ٢/٢٣٢).

(٤) تقدمت ترجمته في ص ٤٢.

فقلت له : أيها الأمير إن ما استفاض من الخبر وانتشر دخل ذلك على البكر في خدرها والبادي في بدوه فكيف بمن حضر، فليشر -أيها الأمير- إلى رجل قال ذلك من جميع البرايا، فإن لم يفعل فاعلم مقامه -يعني من الكذب والكفر- .

فقال له الأمير : اذكر أحداً .

قال : سرف أطلب أحداً .

فقال له أبو عثمان : طلبناك بذكر ما سلف إلى أن صرت تطلبه في التوقيف .

فقال الأمير : أمر منادياً ينادي لا يتكلم أحد في الكلام .

فقال أبو عثمان : أيها الأمير الناس هادون ساكنون فمتى ناديت حركت ساكناً .

ثم جرى ذكر تكلم الله تعالى لموسى ﷺ فقال أبو عثمان : ممن سمع موسى الكلام ؟

قال ابن الأشج : من الشجرة .

فقال : من ورقها أو من لحائها .

فبدر الأمير -وقد انتبه لمراد ابن الحداد- فقال لابن الأشج : اسكت وبلك، خوفاً أن

يجيب فيجب عليه القتل .

قيل لأبي عثمان وما أردت بهذا الكلام ؟

فقال : لأنه كل ما صرح فقال بأنه من الشجرة على الحقيقة كفر وزعم أن الله تبارك

وتعالى لم يكلم موسى وأنه لم يفضل به بكلامه .

فقال الأمير لأبي عثمان : أقول لك كما قلت لابن طالب^(١) لا أقول مخلوقاً ولا غير

مخلوق .

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طالب بن سفيان التميمي ولي قضاء القيروان مرتين وكان عادلاً حازماً لا يخاف في الله لومة لائم عزله وحبسه إبراهيم بن الأغلب ثم قتله بسبب قضية قضى فيها تخالف هواه، توفي سنة خمس وسبعين ومائتين. (انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤/٣٠٨).

فقال له أبو عثمان : لم ؟

قال الأمير : لأن الله تعالى قال كلامي ولم يقل مخلوقاً ولا غير مخلوق، فقال أبو عثمان : فإن قال غيرك مثل ما قلت في علم الله سبحانه .

فقال : إن الله عز وجل لم يقل مخلوقاً ولا غير مخلوق وسلك في العلم مسلكك في الكلام ؟

فقال الأمير : والله لو قال ذلك أحد لقسمته بسيفي .

فقال أبو عثمان : ولم ؟

قال الأمير : لأنه لو كان مخلوقاً لكان قبل أن يخلق العلم جاهلاً، لأن ضد العلم الجهل .

فقال أبو عثمان : فكذلك لا يقال في الكلام مخلوق، لأنه لو كان مخلوقاً لكان موصوفاً قبل خلقه بضده وهو الخرس، وما لزم في العلم لزم مثله في الكلام»^(١) .

فمن خلال هذه المناظرة نلاحظ قوة الإمام ابن الحداد رحمه الله وعظم قدرته على إفحام الخصم وإلزامه.

ب - في فعل الأصلح :

مناظرة الإمام أبي الحسن الأشعري^(٢) لأبي علي الجبائي^(٣) المعتزلي :

ومن الآراء والمعتقدات التي يؤمن بها المعتزلة قولهم : يجب على الله أن يفعل الأصلح،

(١) المالكي : رياض النفوس، ٧٠/٢ .

(٢) هو العلامة أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري إمام المتكلمين ولد سنة ٢٦٠ هـ قال عنه الإمام الذهبي: رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات وقال فيها قر كما جاءت ثم قال: وبذلك أقول، وبه أدين، ولا تؤول. ولأبي الحسن ذكاء مفرط، وتبحر في العلم، وتصانيف جمة تقضي له بسعة العلم. توفي رحمه الله سنة ٣٢٤ هـ وقيل غير ذلك.. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٨٥/١٥، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٣٠٣/٢).

(٣) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي البصري شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف ولد سنة ٢٣٥ هـ ومات بالبصرة سنة ٣٠٣ هـ. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٨٣/١٤، وابن كثير: البداية والنهاية، ١٢٥/١١).

فناظر أبو الحسن الأشعري أبا علي الجبائي -وهو من شيوخ المعتزلة- في هذا القول .
**«فقال الأشعري: ما الحكم على قولك بوجوب رعاية الأصلح في نفر ثلاثة مات أحدهم
 قبل البلوغ وبلغ الآخرا، مات أحدهما مؤمناً ومات الآخر كافراً؟
 قال الجبائي : أما المؤمن ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدرجات، وأما الطفل فمن
 أهل السلامة .**

**قال الأشعري : فإذا قال الطفل في طلب الأصلح له: يا رب، لم رفعت درجة هذا المؤمن
 على درجتني في الجنة؟**

**قال الجبائي : يقول الله سبحانه له : لأنه بلغ واجتهد في الطاعة .
 قال الأشعري : يقول الطفل : يارب أنت أمتني قبل البلوغ؟ فهلا أبقيتني حتى أجتهد
 مثله فأبلغ درجته؟**

**قال الجبائي : يقول الله سبحانه : علمت منك أنك لو بلغت لكفرت فكنت في النار
 فكان الأصلح لك أن أمتك قبل البلوغ.**

**قال الأشعري : فحينئذ ينادي الكافر من دركات اللظى وينادي معه جميع أهل
 الدرجات: يا ربنا فقد علمت أيضاً أننا إذا بلغنا كفرنا فهلا أمتنا قبل البلوغ فإننا رضينا
 بدون منزلة الصبي. بل فهلا لم تخلقنا فهو كان الأصلح لنا مما نحن فيه .
 فبهت الجبائي ولم يجد جواباً»^(١) .**

(١) السكوني: أبو علي عمر، عيون المناظرات ص ٢٢٦ . وذكر هذه المناظرة باختصار ومع اختلاف في
 الألفاظ الذهبي في سير أعلام النبلاء ٨٩/١٥، والسبكي : في طبقات الشافعية ٣/٣٥٦ .

ج : الرؤية :

مناظرة الإمام أبي الحسن الأشعري لأبي علي الجبائي المعتزلي :

ومن الآراء التي كان المعتزلة يعتقدونها مسألة رؤية الله عز وجل في الآخرة بالأبصار حيث إنهم ينفونها أشد النفي.

ومن المناظرات التي عقدت حول هذه المسألة ما جرى بين أبي الحسن الأشعري وأبي علي الجبائي بمحضر الخليفة حيث قال أبو الحسن للجبائي :

« ما دليلك على امتناع الرؤية؟ »

قال الجبائي : قول تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(١)

قال أبو الحسن : الاحتمال باطل في هذه الآية من خمسة أوجه، وإذا وقع الاحتمال سقط الاستدلال، فلا دليل لك في ذلك .

الاحتمال الأول : أن يكون تعالى أراد عدم الإدراك بالمكان والجهة كما ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾^(٢) ولذلك قيل : الرب تعالى يعلم ولا يحاط به ويرى ولا يدرك .

الاحتمال الثاني : أن يكون تعالى أراد أبصار الكافرين .

الاحتمال الثالث : أن يكون تعالى أراد {لا تدركه الأبصار} إذ هي صفات وإنما يدركه المبصرون بالأبصار.

الاحتمال الرابع : أن يكون تعالى تمدح بالاعتقاد على ذلك فإن عدم الرؤية لا مدح فيه إذ العدم لا يرى ولا يستحق بذلك مدحاً فكأنه تعالى يقول هو القادر على خلق الموانع في الأبصار والقادر على شيء قادر على ضده فهو تعالى قادر على خلق رؤية في الأبصار كما هو خالق الموانع .

(١) سورة الأنعام : جزء من الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الشعراء : جزء من الآية ٦١ .

الاحتمال الخامس : أن يكون معنى الآية [لا تدركه الأبصار] في الدنيا ولكن في الآخرة لقوله تعالى : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(١) .

فسقط استدلال الجبائي من يده وظهر انقطاعه وانفض الجمع^(٢) .

٣- الجهمية^(٣) :-

مناظرة الإمام الدارمي^(٤) لبعض الجهمية :

من الآراء والمعتقدات التي يؤمن بها الجهمية نفي الصفات الأزلية لله تبارك وتعالى ومن ذلك نفيهم استواء الله عز وجل عل العرش استواءً يليق بجلاله وسلطانه .

وكان مما عقد معهم من مناظرات حول هذه المسألة ما ذكره أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله، حيث يقول :

« فادعت هذه العصابة أنهم يؤمنون بالعرش ويقولون به لأنه مذكور في القرآن،

فقلت لبعضهم : ما إيمانكم به إلا كإيمان ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَكَمْ تَأْمَنُ قُلُوبُهُمْ﴾^(٥) وكالذين إذا : ﴿لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾^(٦) اتقرون أن لله عرشاً معلوماً موصوفاً فوق السماء السابعة تحمله الملائكة والله فوق كما وصف نفسه بآئن من خلقه ؟

فأبى أن يُقر به كذلك وتردد في الجواب وخلط ولم يصرح.

(١) سورة القيامة : الآيتان ٢٢، ٢٣ .

(٢) السكوني : عيون المناظرات ص ٢٢٩، ولم يذكر السكوني اسم الخليفة الذي جرت المناظرة بحضرته .

(٣) الجهمية : فرقة من الجبرية الخالصة، وهم أصحاب جهنم بن صفوان الراسبي وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية، وقال بالإجبار والاضطرار إلي الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها، وقال: إن الجنة والنار تفنيان. والإيمان عنده هو المعرفة بالله فقط، كما أن الكفر هو الجهل به فقط. (انظر الشهرستاني: الملل والنحل، ص ٨٦، وأمير مهنا: جامع الفرق والمذاهب الإسلامية، ص ٧٣).

(٤) هو الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد التميمي الدارمي صاحب المسند الكبير والتصانيف ، توفي رحمه الله سنة ٢٨٠هـ. (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء، ٣١٩/١٣).

(٥) سورة المائدة : جزء من الآية ٤١ .

(٦) سورة البقرة : الآية ١٤ .

قال أبو سعيد : فقال لي زعيم منهم كبير : لا ولكن لما خلق الله الخلق يعني السموات والأرض وما فيهن سمى ذلك كله عرشاً له واستوى على جميع ذلك كله .

قلتُ : لم تدعوا من إنكار العرش والتكذيب به غايةً وقد أحاطت بكم الحجج من حيث لا تدرين وهو تصديق ما قلنا : إن إيمانكم به كإيمان ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾^(١) . فقد كذبكم الله تعالى به في كتابه وكذبكم به الرسول ﷺ . أرايتم قولكم إن عرشه سماواته وأرضه وجميع خلقه فما تفسير قوله عندكم ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٢) أحملة عرش الله أم حملة خلقه ؟

وقوله ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ﴾^(٣) أيحملون السموات والأرض ومن فيهن أم عرش الرحمن ؟ فإنكم إن قدمتم قولكم هذا يلزمكم أن تقولوا : عرش ربك خلق ربك أجمع، وتبطلون العرش الذي هو العرش وهذا تفسير لا يشك أحد في بطوله واستحالته، وتكذيب بعرش الرحمن تبارك وتعالى.

فقال الله تبارك وتعالى : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(٤) وقال رسول الله ﷺ : «كان الله ولم يكن شيء وكان عرشه على الماء»^(٥) ففي قول الله تعالى وحديث رسول الله ﷺ دلالة ظاهرة أن العرش كان مخلوقاً على الماء إذ لا أرض ولا سماء .

(١) سورة المائدة : جزء من الآية ٤١ .

(٢) سورة غافر : جزء من الآية ٧ .

(٣) سورة الحاقة : جزء من الآية ١٧ .

(٤) سورة هود : جزء من الآية ٧ .

(٥) الحديث رواه الإمام البخاري عن عمران بن الحصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «... فقال : اقبلوا البشري يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم.

قالوا : قد قبلنا يا رسول الله. قالوا جئنا نسألك عن هذا الأمر .

قال : كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء. وخلق السموات والأرض ... » . (صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: {وهو الذي يهدى الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}، رقم الحديث «٣١٩١»، ٢٨٦/٦).

فلم تغالطون الناس بما أنتم له منكرون ولكنكم تُقرون بالعرش بألسنتكم تحرزاً من إكفار
الناس إياكم بنص التنزيل فتضرب عليه رقابكم وعند أنفسكم أنتم به جاحدون ولعمري لئن
كان أهل الجهل في شك من أمركم، إن أهل العلم من أمركم لعلّى يقين»^(١).

(١) الدارمي : عثمان بن سعيد، الرد على الجهمية، ص ٩٠ . ١٠ . (ط. الرابعة، المكتب الإسلامي، بيروت،
١٤٠٢هـ، تحقيق : زهير الشاويش).

المبحث الثالث

«تقويم أثر هذه الوسيلة»

من خلال ما سبق تبين لنا أن العلماء والدعاة في هذا العصر استخدموا وسيلة المناظرة مبيينين من خلالها لأصحاب الفرق والتيارات الثقافية المنحرفة ما يعتقدونه من حق وصواب. مستخدمين في ذلك الحجج الواضحة والأدلة القوية.

ومما لا شك فيه أنه كان -بحمد الله- لهذه الوسيلة الأثر الواضح في بعض من عقدت معهم تلك المناظرات خاصة وفي المجتمع الإسلامي عامة.

ويمكن لي أن أخص أهم آثار تلك المناظرات في النقاط التالية :

١- دخول غير المسلمين في الإسلام ونبذهم لما كانوا عليه من الكفر والضلال ، وقد تبين لنا هذا الأثر من خلال ما جرى بين محمد بن سحنون واليهودي في مصر حيث أشهر اليهودي إسلامه بعد انتهاء المناظرة مباشرة .

٢- التصدي للفرق والمذاهب المنحرفة المنتشرة في العالم الإسلامي آنذاك، والوقوف بقوة وثبات في وجهها وعدم تركها تعيث في عقول الناس فساداً وخراباً كما فعل مع الشيعة والمعتزلة ونحوهما .

٣- توعية الناس وتبصيرهم بخطر تلك المذاهب والفرق، الأمر الذي جعل عند عامتهم كره البدع وأهلها والحرص على التمسك بالكتاب والسنة .

ومن الأمثلة على ذلك أن البهلول بن عمر التجيبي نسب إليه القول بخلق القرآن، فلما مات رُمي نعشه بالحجارة وقال الناس : الوادي الوادي، أي ألقوها في الوادي^(١) .

(١) التميمي : أبو العرب محمد بن أحمد ، طبقات علماء افريقية وتونس ص١٧٥ ط. بدون، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨ تقديم وتحقيق على الشابي ونعيم اليافي).

وبلغ من شدة تمسكهم بالحق وإظهاره وبخاصة في هذه القضية التي كانت من أشهر القضايا وأكثرها انتشاراً بين الناس، أن بعضهم كان يوصي بالكتابة على قبره بعد وفاته عبارة تثبت أنه كان يؤمن بأن القرآن كلام الله غير مخلوق^(١).

٤- ومن آثار تلك المناظرات دفع ظلم بعض السلاطين عن أهل السنة وعدم إيدائهم وترك الحرية لهم باعتقاد الحق .

ويظهر ذلك من موقف الخليفة عندما أفحم شيخ من أهل السنة ابن أبي دؤاد عندما ناظره في خلق القرآن. حيث إن ابن أبي دؤاد سقط من عين الخليفة ولم يمتحن بعده أحداً^(٢).

وكذلك موقف الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب عندما أفحم سعيد بن الحداد قاضيه المعتزلي عبد الله بن الأشج حيث قال الأمير لابن الحداد: «أقول لك كما كنت أقول لابن طالب أنت لا تضطرنني إلى مذهبك وأنا لا أضطرك إلى مذهبي»^(٣).

٥- ومن آثار تلك المناظرات أيضاً نشاط الحركة العلمية في ذلك العصر حيث كثر التأليف والتصنيف في الرد على أهل البدع.

ومن أمثلة ذلك «الرد على الجهمية والزنادقة» للإمام أحمد بن حنبل، و«الرد على الجهمية» للإمام البخاري، و«الحجة على القدرية» للإمام محمد بن سحنون، و«الرد على من يقول بخلق القرآن» و«الرد على الجهمية والمشبهة» للإمام ابن قتيبة الدينوري، و«الرد على الجهمية» للإمام عثمان بن سعيد الدارمي، و«الرد على من يقول بخلق القرآن» للإمام ابن الحداد، وغيرها من الكتب .

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ١/١١، ومحمد زيتون : الدكتور، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ص ٣٣٨ ، (ط. الأولى، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٨هـ).

(٢) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/٣٢١ .

(٣) المالكي : رياض النفوس ٢/٧٣ .

وهكذا كان بحمد الله تعالى لهذه الوسيلة آثار طيبة في هذا العصر، ويرجى أن يكون لها بإذن الله هذا الأثر أيضاً في كل عصر .

ويَحْسُنُ بعد الحديث عن وسيلة المناظرة في هذا العصر أن أتطرق إلى ذكر أهم الأهداف التي ينبغي أن تسعى المناظرة لتحقيقها، والضوابط التي يجب أن تراعى فيها كي تؤدي هذه الوسيلة المهمة دورها بإذن الله على أكمل وجه وأحسن حال .

١- أهداف المناظرة :

١- الدعوة إلى الحق ومحاولة الوصول إليه. وذلك بالدعوة إلى العمل والتمسك بالكتاب والسنة والدفاع عن الإسلام وأهله وبيانه للناس خير بيان، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١) .

٢- إقامة الحججة على الخصوم وإفحامهم وإبطال حججهم حتى ينقطعوا . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس ولا أفاد كلامه العلم واليقين»^(٢) .

٣- تثبيت المؤمنين، وذلك بدفع شبهات الخصوم وتفنيدها وبيان ما هم عليه من باطل، فإن الخصم أحياناً يتبين له الحق ولكنه يكابر ويعاند ليشكك المؤمنين في إيمانهم، يقول الله عز وجل واصفاً حال كثير من أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

(٢) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ١/٣٥٧ (ط. الأولى ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١هـ، تحقيق : د. محمد رشاد سالم) ، ولعل المقصود بهذا القول، والله أعلم بالصواب هو أن كل من يناظر أهل الإلحاد والبدع لابد أن يكون قوى الحججة، لئلا يدخل الشك في قلوب الناس، فإذا ناظر الإنسان أهل البدع مناظرة لم يفحم الخصم فيها لضعفه هو فإنه لم يكن أعطى الإسلام حقه والواجب عليه ترك ذلك لأقوياء الحجج والبراهين .

(٣) سورة البقرة : جزء من الآية ١٠٩ .

٢- ضوابط المناظرة :

١- أن يكون المناظر على علم بما يناظر فيه فلا بد « أن يكون المناظر عالماً أو صاحب رأي، عنده القدرة على معرفة الدليل والنظر في الأدلة المختلفة واستخلاص الحكم منها ومعرفة وجه الحق فيها »^(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة ، إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة. فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار، فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة »^(٢).

٢- أن يكون هدف المناظر الوصول إلى الحق ونصرته متى ما تبين له وألا يكون هدفه نصره رأيه وهزيمة الرأي الآخر. فإن ذلك يؤدي به إلى المكابرة والمماراة بالباطل. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأما المناظرة المذمومة من العالم بالحق، فإن يكون قصده مجرد الظلم والعدوان لمن يناظره، ومجرد إظهار علمه وبيانه لإرادة العلو في الأرض، فإذا أراد علواً في الأرض أو فساداً كان مذموماً على إرادته »^(٣).

٣- أن تكون المناظرة والمجادلة بالحسنى لقوله تعالى : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ »^(٤) وقوله : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »^(٥) وأن تكون خالية من الإيذاء والسخرية والبذاءة والفحش، لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ

(١) توفيق الواعي : الدعوة إلى الله ص- ٣٠ .

(٢) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ١٧٣/٧ .

(٣) المرجع السابق : ١٦٨/٧ .

(٤) سورة العنكبوت : جزء من الآية ٤٦ .

(٥) سورة النحل : جزء من الآية ١٢٥ .

خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ
وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(١) ولقوله ﷺ: «ليس المؤمن بالطَّعَّانِ ولا
باللعان، ولا الفاحش ولا البذيء»^(٢).

- ٤- أن يكون موضوع المناظرة مما تجوز المناقشة فيه ضمن قواعد هذا الفن وضوابطه^(٣).
فمثلاً لا يناظر ولا يجادل في ذات الله عز وجل. قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله
«ونهى السلف رحمهم الله عن الجدل في الله جل ثناؤه في صفاته وأسمائه»^(٤).
- ٥- عند التنازع بين المتناظرين وعدم اتفاقهم يجب أن يردوا الأمر إلى حكم الله ورسوله
ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا^(٥)».

(١) سورة الحجرات : الآية ١١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٠٤/١ . ٤٠٥ . وقال الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة : «صحيح» ،
رقم الحديث « ٣٢٠ » ٢٦/١ .

(٣) توفيق الواعي : الدعوة إلى الله ص ٣١٣ .

(٤) ابن عبد البر القرطبي : يوسف ، جامع بيان العلم وفضله ٩٢٩/٢ (ط. الأولى، دار ابن الجوزي، الدمام
١٤١٤، تحقيق : أبي الأشبال الزهيري).

(٥) سورة النساء : جزء من الآية ٥٩ .

الفصل الثالث

الجهاد

الفصل الثالث

«الجهاد»

تمهيد :-

الجهاد في سبيل الله تعالى وسيلة عظيمة من وسائل الدعوة الإسلامية . وقد قام المسلمون في العصر العباسي الثاني باستخدام هذه الوسيلة داخل المجتمع الإسلامي وخارجه.

وفي هذا الفصل سأتحدث بعون الله تعالى عن هذا الأمر من خلال المباحث التالية :

- المبحث الأول : أهمية وسيلة الجهاد .
- المبحث الثاني : الجهاد ضد النصاري .
- المبحث الثالث : الجهاد ضد الزنج .
- المبحث الرابع : الجهاد ضد القرامطة .
- المبحث الخامس : الجهاد ضد الوثنيين .
- المبحث السادس : تقويم أثر هذه الوسيلة .

المبحث الأول

«أهمية وسيلة الجهاد»

مما يتميز به ديننا الإسلامي عن غيره من الأديان أنه دين عالمي شرعه الله للناس كافة في كل مكان وزمان، قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢). وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»^(٣).

وقال ﷺ أيضاً: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحر وأسود...»^(٤).

فإذا كان الأمر كذلك فلا بد إذاً أن يُبلِّغ هذا الدين للناس كافة بشتى الطرق والوسائل القولية والعملية لتقوم عليهم الحجة ويسقط عنهم العذر ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٥) «إلا أن الدعوة أحياناً تصل مع المدعو إلى مرحلة لا تجدي معها الكلمة مهما حملت من وضوح في الحجة، ومهما كانت ملجئة للعقل بالتسليم، ذلك أن بعض النفوس طبعت على الجدل بالباطل والمكابرة، كما أن بعض النفوس يمنعها الكبر عن قبول الحق، وقد يكون البعض الآخر يخشى من ضياع مصالحه إذا استجاب الناس من حوله لدعوة الرسل، لذلك يبذل جهوداً كبيرة في إبعاد الناس عن سماع الحق

(١) سورة سبأ: جزء من الآية ٢٨ .

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧ .

(٣) صحيح الإمام مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، رقم الحديث «١٥٣» ١/١٣٤ .

(٤) المرجع السابق، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث «٥٢١»، ١/٣٧٠ .

(٥) سورة النساء: جزء من الآية ١٦٥ .

وارتياد مجالسه، كما يختلق الأباطيل على دعوة الرسل، وينسب إليها زوراً وبهتاناً، ما يحمل الناس على الابتعاد عن الرسل وتكذيبهم، لذلك كان لابد من اللجوء إلى استعمال القوة، عندما لا يكون هنالك علاج سواها بعد أن يستعمل سائر الوسائل الأخرى في الدعوة»^(١).

لذا فقد فرض الله على هذه الأمة الجهاد في سبيل الله وجعله ذروة سنام الإسلام^(٢). وكان هذا الفرض على مراحل عدة كان آخرها الأمر بمجاهدة كافة المشركين، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾^(٣)، وأمرهم بإعداد العُدَّة حسب القدرة والاستطاعة، فقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾^(٤).

يقول العلامة الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية: اعلم أنه تعالى لما أوجب على رسوله ﷺ أن يشرّد من صدر منه نقض العهد، وأن ينبذ العهد إلى من خاف منه النقض، أمره في هذه الآية بإعداد لهؤلاء الكفار... فهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة، إلا أنه من فروض الكفايات... ثم إنه تعالى ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال: ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة

(١) عبد الوهاب بن لطف الديلمي: الدكتور، معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم ٥٩٤/١ (ط. الأولى، دار المجتمع، جدة، ١٤٠٦هـ).

(٢) جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» وهو قطعة من حديث طويل رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه (أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٣١/٥ والإمام الترمذي في سننه في أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة وقال «هذا حديث حسن صحيح» وقال الشيخ الألباني في إرواء الغليل: «صحيح» ١٣٨/٢، ط. الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩هـ).

(٣) سورة التوبة: جزء من الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنفال: جزء من الآية ٦٠.

والآلات خافوهم، وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة: أولها : أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام. وثانيها : أنه إذا اشتد خوفهم فرموا بالتزمو من عند أنفسهم بالجزية ، وثالثها : أنه ربما صار ذلك داعياً لهم إلى الإيمان. ورابعها : أنهم لا يعينون سائر الكفار، وخامسها : أن يصير ذلك سبباً لمزيد الزينة في دار الإسلام^(١).

ويقول الدكتور عبد الكريم زيدان : «والواقع أن الجهاد ضروري لبقاء المسلمين أمة قوية مرهوبة الجانب بعيدة عن أطماع الطامعين والحاقدين من الكافرين والمنافقين»^(٢).

ويقول الدكتور محمد نعيم ياسين متحدثاً عن أهمية الجهاد في سبيل الله وأنه وسيلة عظيمة من وسائل الدعوة إلى الله : فهو الوسيلة لتعريف الناس بالتصور الصحيح عن الخالق والكون والحياة، وهو الوسيلة لإقناع الناس بالعودة إلى ربهم، وعبادته وهو الوسيلة للحيلولة بين الطغاة والمستغلين وبين الناس، ولتمكينهم من الاختيار الحر، والنظر السليم، وتذوق طعم الدلائل والبراهين والآيات التي نصبها الله للعباد ... إلى أن قال : وبهذا نفهم لماذا سمى رسول الله ﷺ الجهاد ذروة سنام الإسلام، فإنه القوة الدافعة لهذه الدعوة الربانية نحو تعميم خيرها على البشر. وهو الرصيد المستمر، يجدد نشاطها ويظهر فاعليتها في الوجود، ولولاه لضم أثرها وانكششت وأفسحت المجال لغيرها من الدعوات الباطلة ، وهذا أمر يؤيده واقع تاريخ أمة الإسلام، فقد كان أثرها في الأمم، ونشر العدل والرخاء والسعادة يتناسب دائماً مع قوة جهادها وحركتها وبذلها وتضحيتها^(٣).

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير، ١٨٥/١٥-١٨٦.

(٢) عبد الكريم زيدان : الدكتور، أصول الدعوة، ص٢٦٣.

(٣) محمد نعيم ياسين : الدكتور، الجهاد ميادينه وأساليبه، ص٦٠٧. (ط. الرابعة، دار النفائس، عمان ،

أهداف الجهاد وغاياته :

لاشك أن الجهاد في سبيل الله إنما شرع لأهداف عظيمة وغايات جليلة، ويمكن أن تجمل تلك الأهداف والغايات تحت هدف رئيس ألا وهو «تعبيد الناس كافة لله رب العالمين وحده لا شريك له».

وتندرج تحت هذا الهدف الرئيس أهداف عدة منها :

١- رد اعتداء المعتدين على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

٢- إزالة الحجب والحواجز والعراقيل التي تقف أمام الدعوة الإسلامية بهدف منعها من الوصول إلى الناس قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^(٣).

٣- حراسة الحق وحمایته من أهل الباطل ، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَكَلْبَتُهُنَّ

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة : جزء من الآية ١٩٣ .

اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»^(١) إضافة إلى تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين دائماً وأبداً يحاول الكفار أن يفتنهم عن دينهم قال عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٢).

٤- تأديب ناكثي العهد من المعاهدين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكُوثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّهَوْنَ﴾^(٣). وينطبق هذا الهدف أيضاً على الباغي حتى وإن كان مسلماً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَقِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٤).

٥- إغاثة المظلومين والمستضعفين من المسلمين أينما كانوا والانتصار لهم من الظالمين. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ

(١) سورة الحج : جزء من الآية ٤٠ .

(٢) سورة البقرة : جزء من الآية ٢١٧ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١٢ .

(٤) سورة الحجرات : جزء من الآية ٩ .

لَدُنْكَ وَكِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا^(١) . وقال تعالى : ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٢) .

٦- ومن أهداف الجهاد قتل الكافرين وإبادتهم وقمعهم إذا لم يسلموا أو يخضعوا للحكم الإسلامي وذلك بعد عرض الدعوة عليهم . قال تعالى : ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَأَلْفِتْنَةً أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ^(٣) وقال سبحانه : ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ^(٤) . ومما يؤكد هذا الهدف ما جاء في السنة المطهرة عن بريدة رضي الله عنه أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال : «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.... إلى أن قال: فإن أبوا فسلهم الجزية، فإن هم

(١) سورة النساء : الآية ٧٥ .

(٢) سورة الأنفال : جزء من الآية ٧٢ .

(٣) سورة البقرة : جزء من الآية ١٩١ .

(٤) سورة الأنفال : جزء من الآية ٧ .

أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ... الحديث»^(١) .
 وبعد الحديث عن أهمية وسيلة الجهاد في الدعوة، وأهم أهدافها وغاياتها، سأتحديث الآن
 إن شاء الله تعالى عن وضع هذه الوسيلة في العصر العباسي الثاني، وما حققته من أهداف،
 وما توصلت إليه من غايات، داخل المجتمع الإسلامي وخارجه .

(١) صحيح الإمام مسلم : كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بأداب
 الغزو وغيرها، رقم الحديث «١٧٣١»، ١٣٥٧/٣ .
 وللرغبة في الاطلاع على تفصيل أكثر لأهداف الجهاد وغاياته انظر :
 أحمد بن محمد العدناني : الدكتور، دراسات في طريق الدعوة الإسلامية من ص ١٥٨ إلى ص ١٦٦ . (ط.
 بدون، مطابع الصفا، مكة المكرمة ، ١٤١٠هـ) وعلي نفيح العلياني : الدكتور، أهمية الجهاد في نشر
 الدعوة الإسلامية من ص ١٥٨ إلى ص ١٩١ (ط. الأولى، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٥هـ)، وعبد الله محمد
 الموسى: الدكتور، أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، من ص ٢٣٩ إلى ص ٢٤٣ (ط. الأولى،
 دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٥هـ).

المبحث الثاني

«الجهاد ضد النصارى»

بدأ المسلمون في الجهاد ضد النصارى منذ العصر النبوي الكريم حيث كانت غزوة مؤتة ضد الروم في شهر جمادى من السنة الثامنة من الهجرة^(١).

واستمر الجهاد ضدهم حتى هذا العصر، وقبل أن أتطرق إلى ما حدث بينهم وبين المسلمين من جهاد في هذا العصر أشير إشارات عاجلة إلى نماذج مما حدث بينهم وبين المسلمين من جهاد في العصر العباسي الأول تظهر فيها قوة المسلمين وتغلبهم عليهم .

فهذا هارون الرشيد لما نقض ملك الروم «نقفور» العهد الذي كان بينه وبين المسلمين وهدد المسلمين بالغزو؛ غضب هارون الرشيد واستفزه الغضب فدعا بدواة وكتب على ظهر كتاب «نقفور» «بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه . والسلام».

ثم شخص من يومه فغزا الروم ففتح وغنم وخرب وحرق حتى طلب «نقفور» الموادة على خراج يؤديه في كل سنة^(٢).

وهذا المأمون لما كتب إليه «توفيل» ملك الروم كتاباً يسأله الصلح فإن أبى فإنه شأن عليه الحرب بخيلها ورجالها .

فكتب إليه المأمون :

«أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من الموادة، وخلطت

فيه من اللين والشدة ... إلى أن قال :

(١) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤١/٤ .

(٢) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٠٨/٨ .

لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة، ينازعونكم عن
ثكلكم، ويتقربون إلى الله بدمائكم ...»^(١)

وهذا المعتصم حينما كتب إليه ملك الروم أيضاً كتاباً يتهدده فيه كتب إليه :-

«قد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكفار لمن
عقبى الدار»^(٢)

ولما بلغه أن امرأة مسلمة صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم «وامعتصماه» فأجابها وهو
جالس على سريره «لبيك لبيك» ونهض من ساعته وصاح في قصره «النفير النفير»^(٣).
فسار إلى بلاد الروم وفتح عمورية^(٤) وكانت عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من
القسطنطينية، وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً، وسبى مثلهم وكان في سبيه ستون بطريقاً^(٥).

مما سبق يتبين لنا قوة الخلافة والدولة الإسلامية في تلك الفترة وتألقها وخوف الأعداء
منها .

أمّا في هذا العصر الذي نحن بصدد الحديث عنه، فلم تكن الحال مثلما كانت في سابقه،
حيث ضعف المسلمون عن الجهاد ومقاتلة النصارى لضعف الخلافة وانشغالها بكثرة الفتن
والثورات الأمر الذي جعل الأعداء يطمعون فيها فبدؤوا يغزوننها وينتهكون حرمتها .

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦٢٩/٨ والشُّكل في قوله وثكلكم هو الموت والهلاك، انظر ابن منظور

: لسان العرب مادة «ثكل» ٨٨/١١ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٩٦/١٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٤٧/٥ .

(٤) عمورية : مدينة قديمة بآسيا الصغرى تقع على نهر كبير يصب في الفرات بينها وبين الخليج مائة وخمسة
وسبعون ميلاً وكانت منزلاً لبعض ملوك الروم . (انظر الحميري : الروض المعطار، ص٤١٣، الموسوعة
العربية الميسرة ١٢٣٩/٢).

(٥) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٤٧/٥، وابن كثير : البداية والنهاية ٢٩٦/١٠ .

والآن لنستعرض نماذج من قيام المسلمين بجهاد النصارى في هذا العصر ثم نستعرض نماذج أخرى من قيام النصارى بغزو المسلمين ومحاربتهم :

أ - جهاد المسلمين ضد النصارى :

قام المسلمون بجهاد النصارى في هذا العصر وكان هذا الجهاد إما على شكل منظم كالصوائف والشواتي^(١) وإما أن يكون رداً لعدوان أو تأديباً لنكث صلح أو نحو ذلك من الأسباب وها هي بعض النماذج والأمثلة :

١- ففي سنة (٢٣٧هـ) وثب أهل إرمينية بعاملهم يوسف بن محمد فقتلوه لإرساله بطريق البطارقة إلى الخليفة لطلبه الإمارة^(٢) مما أدى إلى إسلامه هو وابنه، فوجه إليهم المتوكل قائده «بغا الشرابي، فحاربهم فظفر بهم وقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً وسبى منهم خلقاً كثيراً»^(٣).

٢- وفي سنة «٢٤٤هـ» فتح المسلمون مدينة «قصريانة»^(٤) وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية، فأصاب المسلمون ما يعجز الوصف عنه وذلك الشرك يومئذ بصقلية ذلاً عظيماً^(٥).

(١) الصوائف والشواتي : هي حملات جهادية منظمة كان يبعثها عدد من الخلفاء لجهاد الروم النصارى فالتى تبعث في الصيف تعرف بـ «الصائفة» والتي تبعث في الشتاء تعرف بـ «الشتاتية» وجاء في لسان العرب: الصائفة الغزوة في الصيف وسميت غزوة الروم الصائفة لأن سنتهم أن يُغزوا صيفاً ويقفل عنهم شتاء قبل الشتاء لكان البرد والثلج . (انظر ابن منظور : لسان العرب، مادة «صيف» ٢٠٢/٩).

(٢) أي لطلب أن يكون الطريق أميراً على أرمينية بدلا من عاملها يوسف بن محمد .

(٣) انظر الطبري تاريخ الرسل والملوك ، ١٨٧/٩ - ١٨٨ .

(٤) قصريانة : مدينة من أعظم مدائن الروم بجزيرة صقلية، وأكثرها جمعاً، فتحت سنة ٢٤٤هـ (انظر الحموي:

معجم البلدان ، ٣٦٥/٤ ، والحميري : الروض المعطار ص٤٧٥ . ٤٧٦).

(٥) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٩٠/٥ .

٣- وفي سنة «٢٤٨هـ» أمر المنتصر بالله وصيفاً التركي بغزو الروم على رأس صائفة قوامها عشرة آلاف جندي، وكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر كتاباً يخبره بذلك ويحثه على حث المسلمين وترغيبهم في الجهاد في سبيل الله^(١).

٤- وفي سنة «٢٤٩هـ» غزا جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصناً ومطامير، وأستأذنه عمر ابن عبيد الله الأقطع في المسير إلى ناحية من الروم، فأذن له، فسار ومعه خلق كثير من أهل ملطية^(٢) فلقبه الملك في جمع من الروم عظيم فحاربه بمن معه محاربة شديدة قتل فيها خلق كثير من الفريقين ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفاً، فقتل عمر وألفاً رجل من المسلمين^(٣).

٥- وفي سنة «٢٦٤هـ» غزا عبد الله بن رشيد بن كاوس الروم في أربعة آلاف من المسلمين فغنموا ثم لما عادوا خرج عليهم جمع من الروم فأحدقوا بهم فقتل الروم منهم عدداً كبيراً وأسروا عبد الله بن رشيد^(٤).

٦- وفي سنة «٢٧٠هـ» أقبلت الروم في مائة ألف مقاتل يرأسهم بطريق البطارقة فنزلوا من طرسوس^(٥) فخرج إليهم المسلمون بقيادة «يازمان الخادم» فبيتوهم فقتلوا منهم نحواً من سبعين ألفاً وغنموا منهم غنيمة عظيمة^(٦).

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٤٠/٩-٢٤٣ .

(٢) مَلْطِيَّة : مدينة تقع الآن في شرق وسط تركيا وتقع عند سفح جبل طوروس وهي مدينة زراعية وتجارية هامة (الموسوعة العربية الميسرة ١٧٤١/٢).

(٣) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٦١/٩، والمسعودي : مروج الذهب ٢١٤/٤ .

(٤) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٣٣/٩ .

(٥) طرسوس: كلمة عجمية رومية، وهي اسم لمدينة تقع على الثغور الإسلامية الرومية، وتقع الآن جنوب تركيا على نهر طرسوس. (انظر الحموي: معجم البلدان، ٢٨/٤، والموسوعة العربية الميسرة، ١١٥٧/٢).

(٦) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٦٦٦/٩، وابن كثير : البداية والنهاية ٤٥/١١ .

٧- وفي سنة « ٢٨١هـ » غزا المسلمون الروم فكانت بينهم الحرب اثني عشر يوماً فظفر المسلمون وغنموا غنيمة كبيرة وانصرفوا^(١) .

٨- وفي سنة « ٢٨٥هـ » غزا « راغب الخادم » مولى الموفق في البحر، فأظفره الله بمراكب كثيرة، وبجميع من فيها من الروم، فضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم وأحرق المراكب وفتح حصوناً كثيرة من حصون الروم، وانصرفوا سالمين^(٢) .

٩- وفي سنة « ٢٩١هـ » غزا المسلمون الروم ففتحوا مدينة أنطاكية^(٣) - وهي تعادل القسطنطينية- فقتلوا خمسة آلاف رجل وأسروا مثلهم، واستنقذوا من الأسارى أربعة آلاف إنسان، وأخذوا للروم ستين مركباً فحملوها ما غنموا من الفضة ، والذهب، والمتاع، والرقيق، وقدر نصيب كل رجل ألف دينار^(٤) .

١٠- وفي سنة « ٢٩٤هـ » غزا المسلمون الروم فقتلوا مقتلة عظيمة منهم وغنموا نحواً من خمسين ألف رأس وانصرفوا سالمين، وكاتب أحد البطارقة « المكتفي » طالباً الأمان فأعطاه ما طلب^(٥) .

١١- وفي آخر سنة « ٢٩٦هـ » غزا « مؤنس الخادم » بلاد الروم من ثغر مكطية في جيش كثيف فظفر بهم وأسروا منهم خلقاً^(٦) .

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٨/١٠ .

(٢) انظر المرجع السابق : ٦٨/١٠ .

(٣) تقدم التعريف بها في ص ٥٨ .

(٤) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١١٧/١٠ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠٩/٦ .

(٥) المرجع السابق ١١٧/٦ .

(٦) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٤٣/١٠ .

١٢- وفي سنة «٣٠٢هـ» ورد كتاب إلى السلطان من بشر الخادم عامله على طرسوس، يذكر فيه غزوه أرض الروم، وما فتح فيها من الحصون، وما غنم وما سبي، وأنه أسر من البطارقة مائة وخمسين، وأن مبلغ السبي نحو من ألفي رأس^(١).

١٣- وفي شهر ربيع الأول من سنة «٣١٩هـ» غزا والي طرسوس بلاد الروم فواقعوهم فنصر الله المسلمين فقتلوا من الروم ستمائة وأسروا نحواً من ثلاثة آلاف وغنموا من الذهب والفضة والديباج شيئاً كثيراً^(٢).

١٤- وفي السنة نفسها أوقع بهم مرة ثانية، فتوغل المسلمون في بلاد الروم ينهبون ويقتلون، ويخربون حتى بلغوا «أنقرة» وعادوا سالمين لم يلقوا كيداً وبلغت قيمة السبي مائة ألف دينار وستة وثلاثين ألف دينار^(٣).

١٥- وفي السنة نفسها أيضاً كتب «ابن الديراني الأرمني» وغيره من الأرمن إلى الروم يحثونهم على الدخول إلى بلاد الإسلام ووعدهم النصر منهم والإعانة فدخلوا في جحافل عظيمة كثيرة جداً وانضم إليهم الأرمن فقتلوا وأسروا من المسلمين خلقاً كثيراً، فركب إليهم «مفلح» غلام يوسف بن أبي الساج واتبعه خلق كثير من المتطوعة فقتل منهم نحواً من مائة ألف وأسروا خلقاً كثيراً^(٤).

(١) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك : ١٥٠/١٠ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٥٠/٦ .
 (٢) و (٣) انظر المرجع السابق : ٢١٦/٦ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١١٦/١١ .
 (٤) انظر المرجعين السابقين ٢١٧/٦ و ١٦٦/١١ .

ب- غزو النصارى للمسلمين :-

قام النصارى في هذا العصر بغزو المسلمين واستباحة ديارهم، ودمائهم، وأموالهم، وها هي بعض النماذج والأمثلة التي تدل على ذلك وتوضحه :

١- في سنة «٢٣٨هـ» جاءت للروم ثلاثمائة مركب تحمل كل مركب ما بين الخمسين رجلاً إلى المائة قاصدين «مصر» من جهة «دمياط» فدخلوها فجأة فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وأحرقوا المسجد الجامع وسبوا من المسلمات والقبليات نحواً من ستمائة امرأة ، وأخذوا من الأمتعة والمال والأسلحة شيئاً كثيراً جداً، وفرّ الناس من كل جهة، وغرق في بحيرة «دمياط» من النساء والصبيان أكثر مما سباه الروم، ثم رحلوا ولم يعرض لهم أحد^(١).

٢- وفي سنة «٢٤١هـ» عرضت «تذورة» صاحبة الروم أم «ميخائيل» على من في إسارها من المسلمين النصرانية فمن أبى قتلته، فذكر أنها قتلت من الأسرى اثني عشر ألفاً وكان المسلمون قد قاربوا عشرين ألفاً وتنصر بعضهم وفودي البعض الآخر^(٢).

٣- وفي سنة «٢٤٢هـ» خرجت الروم إلى بلاد المسلمين فانتهبوا عدة قرى، وأسروا نحواً من عشرة آلاف إنسان، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، فخرج المسلمون في أثرهم فلم يلحقوا منهم أحداً^(٣).

٤- وفي سنة «٢٤٩هـ» ولما قتلت الروم «عمر بن عبيد الله الأقطع» ونحواً من ألفي رجل من المسلمين خرج إليهم علي بن يحيى فقتل في نحو من أربعمائة رجل^(٤).

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٩٣/٩، وابن كثير : البداية والنهاية ٣١٧/١٠ .

(٢) انظر المرجع السابقين : ٢٠٢/٩، و ٣٢٤/١٠ .

(٣) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٠٧/٩ .

(٤) انظر المرجع السابق : ٢٦١/٩ .

- ٥- وفي سنة « ٢٦٥هـ » خرج خمسة من بطارقة الروم في ثلاثين ألفاً إلى « أذنة »^(١) فقتلوا نحواً من ألف وأربعمائة رجل وأسروا نحواً من أربعمائة آخرين وانصرفوا في اليوم الرابع^(٢).
- ٦- وفي سنة « ٢٨٨هـ » قصد الروم « بلاد الرقة »^(٣) في جحافل عظيمة وعساكر من البر والبحر فقتلوا خلقاً وأسروا نحواً من خمسة عشر ألف إنسان^(٤).
- ٧- وفي سنة « ٢٩١هـ » بعث ملك الروم عشرة صلبان معها مائة ألف رجل، فغاروا على أطراف البلاد الإسلامية، وقتلوا خلقاً وسبوا نساءً وذرية وأحرقوا^(٥).
- ٨- وفي سنة « ٣١٤هـ » كتب ملك الروم « الدمستق » إلى أهل السواحل أن يحملوا إليه الخراج، فأبوا عليه فركب إليهم في جنوده، فعاث في الأرض فساداً، ودخل « مَلْطِيَّة » فقتل من أهلها خلقاً، وأسر وأقام بها ستة عشر يوماً، وقصد أهلها « بغداد » مستغيثين فلم يغاثوا فعادوا بغير فائدة^(٦).
- ٩- وفي السنة « نفسها وصل أيضاً « الدمستق » إلى أرمينية في ثلاثمائة ألف فحاصروا « خِلاط »^(٧)، فصالحه أهلها- بعدما قتل وسبى- على قطيعة وعشرة آلاف دينار فرحل عنهم بعد أن أخرج المنبر من الجامع وجعل مكانه صليبا^(٨).

(١) أذنة : مدينة بالشام بناها هارون الرشيد وفيها كانت منازل ولاية الثغور وهي على نهر « جيحون » ومن أذنة إلى طرسوس اثنا عشر ميلاً (الحميري : الروض المعطار، ص ٢٠).

(٢) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٤٤/٩، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٢/٦ .

(٣) بلاد الرقة : واسطة بلاد مضر ومن مدنها الرها وسروج وشمشاط ورأس العين وغيرها والرقة على شارة الفرات في الشمال منه . (الحميري : الروض المعطار، ص ٢٧٠).

(٤) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٨٥/١٠، وابن كثير : البداية والنهاية ٨٤/١١ .

(٥) انظر المرجعين السابقين : ٩٨/١١، ١١٦/١٠ .

(٦) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٨٥/٦، وابن كثير : البداية والنهاية ١٥٣/١١ .

(٧) خلاط : مدينة كبيرة مشهورة قسبة بلاد أرمينية وكلام أهلها العجمية والأرمنية والتركية. (انظر القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٥٢، والحميري : الروض المعطار ص ٢٢).

(٨) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٩٨/٦، وابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٢٢٠/٣ .

١٠- وفي سنة « ٣٢٢هـ » قصد ملك الروم ملطية في خمسين ألفاً فحاصروهم ثم أعطاهم الأمان حتى تمكن منهم فقتل منهم خلقاً كثيراً وأسروا ما لا يحصون كثرة^(١) .

١١- وفي سنة « ٣٣٠هـ » وصل الروم إلى قريش « حلب » فقتلوا خلقاً ونهبوا وخرّبوا البلاد وأسروا نحو خمسة عشر ألف إنسان^(٢) .

وهكذا كانت الحرب في هذا العصر سجالاتاً بين المسلمين والنصارى إلا أننا نلاحظ جرأة الروم في الدخول إلى البلاد الإسلامية ، وانتهاك حرمتها ، وهذا الأمر لم يكن معهوداً بهذه الصورة في العصور السابقة لهذا العصر ، وهذا يدل على استغلال النصارى الضعف العام الذي قد أصاب الدولة الإسلامية مما جعلها تنشغل أحياناً عن جهاد هؤلاء الأعداء الذين يتربصون بها الدوائر صباح مساء ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة فهم لا يحترمون العهد والمواثيق ، بل ولا يعرفون للأسارى حقوقهم فهم إما أن يفتنهم في دينهم ، أو يضعوا السيف في رقابهم حقداً وضحينة على الإسلام وأهله ، ولكن ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٧٧ .

(٢) انظر المرجع السابق : ١١/٢٠٣ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦/٢٨٨ .

المبحث الثالث

«الجهاد ضد الزنج»

تقدم في التمهيد التعريف بالزنج وبشيء من عقيدتهم، وفي هذا المبحث سأتحدث بعون

الله تعالى عن حركة الزنج وما قام به المسلمون من جهادهم وذلك من خلال النقاط التالية:-

- أ - نشأة حركة الزنج وتكوينها .
- ب - نماذج من الحروب التي قام بها الزنج .
- ج - نماذج من جهاد المسلمين ضد الزنج .
- د - أسباب صمود حركة الزنج .

أ - نشأة حركة الزنج وتكوينها :

قدم صاحب الزنج بلاد العراق واتصل ببعض بطانة الخليفة المنتصر، ثم سار في سنة «٢٤٩هـ» إلى «البحرين»^(١) ودعا إلى تحرير العبيد في «البصرة» وضواحيها، واستمال قلوبهم حتى إنهم تركوا مواليتهم وانضموا إليه، فعظم شأنه وقويت شوكته، ولقيت دعوته قبولاً بين أهالي «هجر» و«البحرين» و«العراق» ثم سار إلى «بغداد» سنة «٢٥٤هـ» وأقام هناك سنة، وكان يزعم بها أنه يعلم ما في ضمائر أصحابه وأن الله يعلمه بذلك فتبعه على ذلك جهلة من الطغام، وطائفة من الرعاع العوام .

ثم عاد إلى أرض «البصرة» فاجتمع معه بشر كثير، ومازال الزنج يلتفون حوله حتى كان يوم الفطر سنة «٢٥٥هـ» فخطبهم وصلّى بهم، وأعاد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعتت، ومتأهم الأمانى الطيبة من إطلاق حرياتهم، واستماعتهم بالأموال التي يغنمونها في حروبهم ونحو ذلك^(٢) .

واستطاع صاحب الزنج أن ينشر دعوته -إضافة إلى ما كسب من الزوج- بين الفلاحين، وسكان القرى، وكذلك الأعراب المتذمرين من الحكم العباسي، والذين يحبون النهب والسلب، واستطاع أيضاً أن يكسب الجنود السود الذين يعملون في جيش الحكومة فاجتمع له بذلك جيش كبير^(٣) .

(١) البحرين : بلاد البحرين بلاد واسعة شرقها ساحل البحر وجوفها متصل باليمامة وشمالها متصل بالبصرة وجنوبها متصل ببلاد عمان وقاعدتها هجر وقيل إن هجر ناحية بذاتها (الحموي : معجم البلدان، ٤٣٦/١، والحميري : الروض المعطار ص٨٢) أما دولة البحرين الحالية فهي جزء من بلاد البحرين وكانت تعرف قديماً باسم «أوال» . (انظر عبد الرحمن عبد الكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص١٧. ط. بدون، بغداد ١٣٩٣هـ، وحمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية - المنطقة الشرقية - ١٨٣/١ ط. الأولى، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٩هـ).

(٢) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٤٦/٥، وابن كثير : البداية والنهاية ١٨/١١، وحسن علي حسن : الدكتور، تاريخ الإسلام ٢١٠/٣ .

(٣) انظر يوسف العث : الدكتور، تاريخ عصر الخلافة العباسية ص١٢٤ ط. الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ).

ب- نماذج من الحروب التي قام بها الزنج :-

قام الزنج بعدة حروب وثورات هاجموا خلالها عدداً من المدن والقرى فقتلوا، ونهبوا، وأفسدوا في الأرض فساداً كبيراً. وهذه نماذج مما قاموا به:

١- في سنة «٢٥٥هـ» كانت للزنج وقعة مع أصحاب السلطان، وكانوا زهاء أربعة آلاف رجل أو يزيدون، فهُزم أصحاب السلطان وقُتل منهم زهاء ألف وخمسمائة، فتشجع الزنج بعد هذه الوقعة وعظم أمرهم ^(١).

٢- وفي نهاية السنة نفسها اجتمع أهل «البصرة» لقتال الزنج لما أحسوا بخطرهم، وكانوا عدداً كثيراً، لكن صاحب الزنج هزمهم وأكثر القتل فيهم ثم قوي عدو الله بعد هذا اليوم فخافه أهل «البصرة» وأمسكوا عن حربه .

فوجه السلطان «جعلان التركي» لحربه فوقعت بينه وبينهم مناوشات لكنه أظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حربهم ^(٢).

٣- وفي شهر رجب من سنة «٢٥٦هـ» دخل الزنج الأبلّة ^(٣) فقتلوا فيها خلقاً كثيراً وأضرموا النار فيها فلما رأى أهل عبادان ^(٤) ما فعل بالأبلّة استسلموا، وطلبوا الأمان من صاحب الزنج وسلموا إليه البلد. فلما فرغ من ذلك وفي شهر رمضان طمع الزنج في الأهواز ^(٥) فلما بلغوها هرب من فيها من الجند ومن أهلها، ولم يبق إلا القليل فدخلوها وأخربوها ^(٦).

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٢٤/٩، وابن كثير : البداية والنهاية ١٩/١١ .

(٢) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٣٥/٩، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٥٨/٥ .

(٣) الأبلّة : كورة قريبة من البصرة بينها وبين البصرة أربعة فراسخ وهي طيبة جداً كثيرة الأشجار متدفقة الأنهار (القزويني : آثار البلاد ص٢٨٦، والحميمي : الروض المعطار، ص٨).

(٤) عبادان : وتسمى عبادان وهي مدينة تقع الآن جنوب غرب إيران على جزيرة عبادان بدلتا شط العرب في رأس الخليج العربي (الموسوعة العربية الميسرة ١١٨٦/٢).

(٥) الأهواز : هي خوزستان وهي رامهرمز وبين الأهواز وأصبهان خمسة وأربعون فرسخاً وهي ناحية بين البصرة وفارس (القزويني : آثار البلاد، ص١٥٢، والحميمي : الروض المعطار : ص٦١، ٦٢).

(٦) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٥٩/٥ .

٤- وفي شهر شوال من سنة «٢٥٧هـ» دخل الزنج «البصرة» قهراً فقتلوا فيها خلقاً كثيراً، ثم نادوا من أراد الأمان فليحضر دار «إبراهيم المهلبى» -أحد قوادهم- فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملئوا الرحاب فأمر بإغلاق السكك لئلا يتفرقوا ثم غدر بهم وأمر أصحابه بقتلهم فوضعوا فيهم السيف فلا يُسمع إلا قول «أشهد أن لا إله إلا الله» من أولئك المقتولين، ثم أحرقوا المسجد الجامع، وأحرقوا الكلاً من الجبل إلى الجبل^(١). حتى قيل إنهم قتلوا أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان في البصرة وحدها، وأسروا منها عدداً كبيراً من النساء والصبيان^(٢).

٥- وفي سنة «٢٥٨هـ» وجّه الخليفة أخاه أبا أحمد الموفق بالله في جيش كثيف عدداً وعدة فاقتتلوا قتالاً شديداً مع الزنج لكنهم هزموا وقتل الزنج فيهم قتلاً ذريعاً وحملوا الرؤوس إلى أصحابهم^(٣).

٦- وفي نهاية سنة «٢٥٩هـ» أمر المعتمد قائده التركي «موسى بن بغا» بالمسير إلى حرب صاحب الزنج فجرت بينه وبينهم عدة حروب ومناوشات لكنه لما رأى شدة وكثرة المتغلبين على نواحي المشرق -من زنج وغيرهم- وأنه لا قوام له بهم، سأل أن يعفى من أعمال المشرق فأعفي منها وكان ذلك في سنة «٢٦١هـ»^(٤).

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٨١/٩، وابن كثير : البداية والنهاية ٢٨/١١ .

(٢) انظر المسعودي : مروج الذهب ٢٠٧/٤، وابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ٤٨/٣، وقد يكون في هذا العدد مبالغة إلا أن ذلك يعني أن عدد القتلى كان كبيراً وملفتاً للنظر.

(٣) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٦٥/٥، وابن كثير : البداية والنهاية ٣٠/١١ .

(٤) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥١٣، ٥٠٤/٩ .

٧- وفي سنة «٢٦٢هـ» كانت حروب كثيرة بين صاحب الزنج وجيش الخليفة^(١) كان منها ما أنفذه صاحب الزنج من جيوش إلى «البطيحة»^(٢) ، و«ميسان»^(٣) و«القادسية»^(٤) ، فقتلوا خلقاً وهزموا جيش الخليفة لقلته في تلك المناطق ولا نشغاله بحروب أخرى في الوقت نفسه مع غير الزنج^(٥) .

٨- وفي بداية سنة «٢٦٤هـ» تمكن الزنج من دخول مدينة «واسط»^(٦) وقتلوا فيها خلقاً كثيراً ونهبوا وأحرقوا^(٧) .

٩- وفي سنة «٢٦٦هـ» دخل الزنج «رامهرمز»^(٨) فاستباحوها وقتلوا خلقاً ثم إن واليها طلب من قائد الزنج «علي بن أبان» المسالمة فأجابته إلى ذلك على مائتي ألف درهم^(٩) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥/١١ .

(٢) البطيحة : هي قرى ومزارع بين واسط والبصرة سميت بذلك لتبطح الماء وسيلانه فيها بكثرة (الحموي : معجم البلدان ١/٤٥٠ ، والقزويني : آثار البلاد ص٤٤٦) .

(٣) ميسان : اسم كورة كثيرة القرى والنخيل بين البصرة وواسط (الحموي : معجم البلدان ٥/٢٤٢ ، والقزويني : آثار البلاد ص٤٦٤) .

(٤) القادسية : هي بلدة بقرب الكوفة على سابلة الحجاج سميت بذلك نسبة إلى رجل يدعى «قادس» قدم إليها وهو من أهل هراة (القزويني : آثار البلاد ص٢٣٩) .

(٥) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨/٦ .

(٦) واسط : مدينة بين الكوفة والبصرة من الجانب الغربي تشقها دجلة بناها الحجاج بن يوسف سنة ٨٤هـ وهي من أعمر بلاد العراق (القزويني : آثار البلاد ص٤٧٨ ، والحميري : الروض المعطار ص٥٩٩) .

(٧) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٦/٦ .

(٨) رامهرمز : هي الأهواز وقد تقدم التعريف بها في ص ١١٨ .

(٩) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٣/٦ .

١٠- وفي السنة نفسها سار «علي بن أبان» لمتوث^(١)، فلم يظفر بها لحصانتها، وكثرة من يدافع عنها من أهلها فرجع خائباً، لكن جيش الخلافة قدم من «الأهواز» فهزم الزنج أقبح هزيمة وقتل منهم خلقاً كثيراً^(٢).

وبعد هذه السنة بدأت ترجح كفة جيوش الخلافة بقيادة «الموفق بالله» وابنه «أبي العباس» على الزنج حيث توالى الانتصارات الواحدة تلو الأخرى حتى أراح الله عز وجل الأمة من شرهم وشتت شملهم.

ج - نماذج من جهاد المسلمين ضد الزنج :-

قيض الله للأمة «الموفق بالله» وابنه «أبا العباس» فقادوا جيوش الخلافة لحرب الزنج وجهادهم فاستطاعوا -بعون الله وتوفيقه- أن يقضوا على الزنج ويقتلوا زعيمهم وها هي نماذج من تلك الحروب :

١- ففي سنة «٢٦٧هـ» سقطت أولى مدن صاحب الزنج المسماة «المنيعه» حيث حاصرها «الموفق» و«أبو العباس» فعلا أصحاب أبي العباس سورها ووضعوا السيوف فيمن لقيهم ودخلوا المدينة فقتلوا فيها خلقاً كثيراً، وأسروا عالماً عظيماً وغنموا ما كان فيها، واستنقذوا من المسلمات زهاء خمسة آلاف امرأة سوى من ظفروا به من الزنجيات^(٣).

٢- وفي السنة نفسها أمر الموفق ابنه أبا العباس بالمسير إلى مدينة صاحب الزنج الثانية المسماة «المنصورة» ثم تبعه بجيشه فحاصروا المدينة وكان الزنج قد حصنوها، بسور

(١) متوث : بالفتح ثم التشديد، والضم، وسكون الواو وهي قلعة حصينة بين الأهواز وواسط (الحموي : معجم البلدان، ٥٣/٥).

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٤/٦ .

(٣) انظر المرجع السابق : ٢٨/٦ ، والطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٦٨/٩ .

كبير وخمسة خنادق، وخلف كل خندق سور، ليصعب اقتحامها، ولكن الله يسر لهم فاستطاعوا فتحها وإسقاطها، وقتلوا من الزنج خلقاً كثيراً، واستنقذوا من نساء «واسط» و«الكوفة» والقرى المجاورة وغيرها، وصبيانهم زهاء عشرة آلاف وقيل عشرين ألفاً^(١).

وبعد سقوط «المنصورة» كتب صاحب الزنج إلى قائده «المهلبى» وهو «بالأهواز» أن اقدم عليّ عاجلاً فتركها وكان معه زهاء ثلاثين ألف رجل^(٢).

٣- وفي شهر رجب من سنة «٢٦٧هـ» بدأ أبو أحمد الموفق بحصار آخر مدن صاحب الزنج المسماة «المختارة» فرأى من منعتها وحصانتها بالسور والخنادق المحيطة بها، وما عور من الطرق المؤدية إليها، ومن المجانيق وغيرها من آلات الحرب، ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعي السلطان، إضافة إلى ذلك كله كان في «المختارة» زهاء ثلاثمائة ألف مقاتل وليس مع أبي أحمد سوى خمسين ألف رجل أو يزيدون قليلاً^(٣). وابتنى أبو أحمد الموفق مدينة تجاه مدينة صاحب الزنج «المختارة» سماها «الموفقية» وذلك ليسهل عليه إحكام الحصار على «المختارة» مهما طالت المدة.

وكان أول ما عمل أبو أحمد أن كتب إلى صاحب الزنج كتاباً يدعو فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، وترك ما هو عليه ولكن صاحب الزنج لم يجبه^(٤).

عند ذلك نادى «الموفق» في الناس كلهم بالأمان إلا صاحب الزنج، فتحول خلق كثير من جيش صاحب الزنج إلى «الموفق» فصاروا على صاحب الزنج بعد أن كانوا معه وبلغ عدد من تحول قريباً من خمسين ألفاً من الأمراء الخوادم والأجناد^(٥).

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٧٣/٩، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٠/٦ .

(٢) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٧٥/٩ .

(٣) انظر المرجع السابق : ٥٨١/٩، ٥٨٤، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ١٥٢/٢ .

(٤) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٨١/٩ .

(٥) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٤١/١١ .

٤- وفي شهر ذي القعدة من السنة نفسها خرج الزنج بعشرة آلاف مقاتل فقاتلهم أصحاب «الموفق» فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا، وغرق منهم في النهر الكثير، وأخذ منهم نحواً من أربعمائة سفينة^(١).

٥- وفي سنة «٢٦٨هـ» أحكم «الموفق» الحصار على «المختارة» بحراً وبراً فضاقت عليهم المذاهب، واشتد عليهم الحصار^(٢).

٦- وفي سنة «٢٦٩هـ» اجتهد «الموفق» في تخريب «المختارة» فخرّب منها شيئاً كثيراً وتمكنت الجيوش من العبور إلى نواح منها، ولكن «الموفق» أصيب بسهم في صدره، فاضطرت الأحوال، وخاف الناس من صاحب الزنج، وأقام «الموفق» بمدينته «الموفقية» يتداوى، فأشير عليه بالذهاب إلى «بغداد» فلم يقبل، حتى من الله عليه بالعافية في شعبان^(٣).

٧- وفي منتصف شعبان من السنة نفسها تمكن «الموفق» من الوصول إلى قصر صاحب الزنج «بالمختارة» وإحراقه فخرج هارباً فانتهب أتباع «الموفق» ما لم تأت عليه النار من الأمتعة الفاخرة، والذهب، والفضة، والجواهر، وغير ذلك^(٤).

وبعد أن أحرق «الموفق» منازل صاحب الزنج تحول من غربي نهر أبي الخصيب إلى شرقيه، فضعف أمره ضعفاً شديداً، وتبين للناس زوال أمره فتهيّبوا جلب الميرة إليه، فانقطعت عنه كل مادة، فأكلوا الشعير، ثم أكلوا أصناف الحبوب، ثم لم يزل الأمر بهم إلى أن أكلوا لحوم الآدميين^(٥).

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٩٣/٩ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٤/٦ .

(٢) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦٠٦/٩ .

(٣) انظر المرجع السابق : ٦١٩/٩ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٤٢/١١ .

(٤) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦٠٦/٩ .

(٥) انظر المرجع السابق : ٦٣١/٩ .

٨- وفي شهر ذي العقدة من السنة نفسها تمكن «الموفق» من الدخول إلى الجانب الشرقي من «المختارة» في خمسين ألفاً من أصحابه فتلقاهم الزنج واشتد الحرب بينهم، وكثر القتل والجراح بين الفريقين، وحامى الزنج عن مدينتهم أشد المحاماة، ولكن الله من على أصحاب الموفق بالنصر، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا من مقاتليهم جمعاً كثيراً، واستنقذوا من النساء المأسورات الكثير^(١).

٩- وفي ثالث المحرم من سنة «٢٧٠هـ» خرج الموفق بجيش عظيم، وأمر الناس ألا يزحف أحد لقتال الزنج حتى يحرك علماً كان نصبه على دار، وحتى ينفخ في «بوق» بعيد الصوت. فلما فعل ذلك تحرك الناس، فقابلهم الزنج، لكنهم سرعان ما انهزموا فتبعهم أصحاب «الموفق» يقتلون ويأسرون فقتل منهم ما لا يحصى عدداً، وغرق منهم مثل ذلك، وحوى «الموفق» مدينة «المختارة» بأسرها ففتحها واستنقذ من كان بقي من الأسرى من الرجال والنساء والصبيان^(٢).

١٠- وبعد أن حوى «الموفق» «المختارة» هرب صاحب الزنج إلى نهر السفيناني طريداً شريداً فخرج «الموفق» في يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة «٢٧٠هـ» للقضاء على ما تبقى من الزنج، فقتل منهم الكثير وأسر منهم زهاء خمسة آلاف أسير كان منهم أقوى قواده وأشدهم بأساً مثل «سليمان بن جامع» و«إبراهيم بن جعفر الهمذاني»، وابن صاحب الزنج المسمى «انكلاي»، فاستبشر الناس وكبروا وحمدوا الله.

وفي أثناء ذلك أتى البشير فوافى «الموفق» برأس صاحب الزنج، فخر «الموفق» لله ساجداً، وسجد عامة قواده وغلمانه^(٣).

(١) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦٤٧/٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤٧/٦.

(٢) انظر المرجع السابق: ٥١/٦.

(٣) انظر المرجع السابق: ٥٢.٥١/٦، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦٥٨/٩-٦٦٠، وابن كثير: البداية والنهاية ٤٤/١١.

قال المحافظ ابن كثير: «وانتهت أيام صاحب الزنج المدعي الكذاب قبحة الله، وقد كان ظهوره في الأربعاء لأربع بقين من رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، وكان هلاكه يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين وكانت دولته أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام ولله الحمد والمنة»^(١).

د - أسباب صمود حركة الزنج :

لقد دامت حركة الزنج أكثر من أربعة عشر عاماً وهذا زمن ليس بالقليل، وقد يتبادر إلى الذهن سؤال وهو ما أسباب صمود هذه الحركة لهذه المدة الزمنية الطويلة، وبخاصة أن مقرها بالقرب من مركز الخلافة وعاصمتها؟

ذكر بعض المؤرخين والباحثين مجموعة من الأسباب منها :

- ١- غفلة الخلافة عن خطر الزنج في بداية حركتهم، مما أدى إلى استفحال أمرهم سريعاً^(٢).
- ٢- ضعف الخليفة «المعتمد على الله» وانشغاله بالملاهي واللذات^(٣).
- ٣- كثرة الفتن والثورات في البلاد الإسلامية آنذاك. يقول الأستاذ محمود شاكر: «وكانت سنوات حالكات على الدولة -أي العباسية- فالطولونيون يحاربونها من الغرب، والصفاريون يقاتلونهم من الشرق، والروم يغزون أطرافها من الشمال، والذعر ينتشر في جنوب العراق بسبب أعمال الزنج وأفعالهم الدنيئة»^(٤).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٤٤/١١ .

(٢) أحمد علي : ثورة الزنج ص٨٧ (ط. الأولى،، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م).

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧٣/٦، وابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص١٨٣، وابن كثير : البداية والنهاية ٦٥/١١ .

(٤) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي الدولة العباسية ٧٥/٢ . ط. الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت،

٤- قوة الزنج وسالتهم في القتال نظراً لطبيعتهم حيث كان يعيش معظمهم على شظف العيش وصعوبته مما ساعدهم على الصبر وتحمل مشاق القتال «حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحدهم السهم، أو الطعنة، أو الضربة فيسقط، فيجذبه الذي إلى جنبه، ويقف موقفه إشفاقاً من أن يخلو موقف رجل منهم فيدخل الخلل على سائر أصحابه»^(١).

٥- طبيعة الأرض التي يحاربون عليها حيث كان الزنج يحاربون على ميدان هم أدرى الناس به، ففيه الأدغال وغابات النخيل، والأنهار، والجداول المتفرعة، والقنوات، والسدود، وكان الزنج يعرفون مسالك هذه المنطقة ومتعرجاتها فنصبوا فيها الكمائن، لأعدائهم، وقادوها حرب عصابات أرهقت الدولة العباسية واستنزفت قواها^(٢).

يقول الإمام الطبري وهو يتحدث عن أصحاب «الموفق» في إحدى حروبه: «ولجئوا إلى تلك الأدغال، والمضايق فانقطعوا عن أصحابهم، فخرج عليهم كمناء الزنج...»^(٣).

٦- اهتمام الزنج بتحصين مدنهم، بوضع الأسوار الطويلة، وحفر الخنادق الكثيرة، إضافة إلى وجودها بين الأنهار والجداول مما أدى إلى صعوبة فتحها واقتحامها «فالمختارة» مثلاً بدأ الموفق بحصارها سنة «٢٦٧هـ» ولم تسقط تماماً إلا في بداية سنة «٢٧٠هـ».

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦١٨/٩، وانظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤١/٦.

(٢) انظر أحمد علي: ثورة الزنج ص ٩٣.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٠٠/٩، وانظر أيضاً ص ٤٧٠ و ص ٥٠٥ من الجزء نفسه.

المبحث الرابع «الجهاد ضد القرامطة»

تمهيد :

ما إن انتهت حركة الزنج حتى واجهت الخلافة حركة هي أشد منها وطأة، ألا وهي «حركة القرامطة» حيث إن هذه الحركة دامت قرابة قرنين من الزمان وانتشرت في أكثر من مكان، الأمر الذي جعل القضاء عليها ليس بالأمر اليسير .

وفي هذا المبحث سأحدث بعون الله تعالى عن الجهاد ضد القرامطة في هذا العصر من

خلال النقاط التالية:

أ- عقيدة القرامطة

ب- أهداف القرامطة

ج - قرامطة اليمن

د - قرامطة العراق

هـ - قرامطة الشام

و- قرامطة البحرين

أ - عقيدة القرامطة :

القرامطة هم فرقة باطنية من فرق الإسماعيلية تدعو في الظاهر إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأنه هو المهدي المنتظر الذي سيملاً الأرض عدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً^(١).

أما باطنهم فهم كما يقول الإمام ابن الجوزي «واعلم أن مذهبهم ظاهره الرفض وباطنه الكفر»^(٢).

وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين، ولا بشيء من كتب الله المنزلة، ولا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه، ولا بأن له ديناً

(١) انظر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٦٥-٢٦٧، والمقرزي : اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ص ٣٣٢ (ضمن مجموع : أخبار القرامطة، جمع وتحقيق د. سهيل زكار ط. الأولى، ١٤٠٠ هـ) ، وأمير مهنا : جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص ١٥٧ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ١١٥/٥ .

أمر به، ولا أن له داراً يجزي الناس فيها على أعمالهم غير هذه الدار»^(١).

وكما يقول الحافظ ابن كثير «وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك، وكانا يبيحان المحرمات .

ثم هم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل، وأكثر ما يفسدون من جهة الرافضة، ويدخلون إلى الباطل من جهتهم لأنهم أقل الناس عقولاً»^(٢).

ويقول الأستاذ محمود شاكر «والواقع أنه لم يكن للقرامطة عقيدة يدينون بها أو مبدأ يؤمنون به، وإنما كانت عقيدتهم تحقيق رغباتهم، وتأمين شهواتهم، وكان مبدؤهم تنفيذ مخططاتهم التي يعملون من أجلها، ومع هذا فقد كانوا ينادون ببعض الأفكار أو يظهرون أنهم يعملون من أجلها، وأنهم مرتبطون بفكرة معينة وذلك من أجل كسب المؤيدين لهم وإيجاد أتباع يصلون من وراءهم وعلى ظهورهم إلى أهدافهم التي يعملون لها»^(٣).

ب - أهداف القرامطة :

هذا عن عقيدة القرامطة وأما أهدافهم، فهدفهم الذي يعلنونه لأتباعهم هو استنقاذهم مما هم فيه من الذل والفقر وتقليكهم الأموال، فقد قال «حسين الأهوازي» وهو من مؤسسي حركة القرامطة، قال «لحمدان بن الأشعث قرمط» -الذي أصبحت تنسب له هذه الحركة فيما بعد- قال له «... وأمرت أن أشفي هذه القرية، وأغني أهلها، وأستنقذهم، وأملكهم أملاك أصحابهم»^(٤).

وكانوا يكتبون على أعلامهم في حروبهم الآية الكريمة: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٥).

(١) انظر ابن تيمية : أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى، ١٥٢ / ٣٥ . (ط. بدون، تنفيذ مكتبة النهضة

الحديثة، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ، إشراف: الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين).

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٦١/١١ .

(٣) محمود شاكر : القرامطة ص ٧١ .

(٤) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ص ٣٢٦ .

(٥) ابن سنان : ثابت ، تاريخ أخبار القرامطة ص ٥٢ (ضمن مجموع أخبار القرامطة، تحقيق د. سهيل زكار)

والآية الكريمة من سورة القصص رقم : ٥ .

أما هدفهم الحقيقي فهو القضاء على الإسلام وأهله والكيد له، ومن ثم الاستيلاء على أموالهم وخيراتهم. يقول الإمام ابن الجوزي - وهو يتحدث عن هدف القرامطة وغيرهم من المجوس والملحدين- «.. فأعملوا آراءهم، وقالوا : قد ثبت عندنا أن جميع الأنبياء « عليهم الصلاة والسلام» كذبوا وتخرقوا على أمهم، وأعظم الكلبية محمد ﷺ - معاذ الله تعالى- فإنه نبغ بين العرب الطعام، فخدعهم بناموسه، فبذلوا أموالهم، وأنفسهم ونصروه، وأخذوا ممالكنا، وقد طالت مدتهم، والآن قد تشاغل أتباعه، فمنهم مقبل على كسب الأموال، ومنهم على تشييد البنيان، ومنهم على الملاهي، وعلمائهم يتلاعنون، ويكفر بعضهم بعضاً، وقد ضعفت بصائرهم، فنحن نطمع في إبطال دينهم، إلا إنا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم، فليس الطريق إلا بإنشاء دعوة في الدين، والانتماء إلى فرقة منهم، وليس فيهم فرقة أضعف عقولاً من الرافضة، فندخل عليهم بذكر ظلم سلفهم الأشراف من آل نبيهم ودفعهم عن حقهم، وقتلهم وما جرى عليهم من الذل لنستعين بهؤلاء على إبطال دينهم، فتناصروا وتكاتفوا، وتواثقوا وانتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر الصادق»^(١).

ثم يقول في موضع آخر «ثم يبين أن غاية مقصدهم نقض الشرائع لأن سبيل دعوتهم ليس متعيناً في واحد، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيهم لأن غرضهم الاستتباع»^(٢).

ويقول الأستاذ محمود شاکر «تقوم حركة القرامطة على غاية أساسية وهي القضاء على الإسلام، بعد تسلّم الحكم والانتهاه من دولته، وهي بهذا لا تختلف عن بقية الثورات التي قامت في ذلك العصر»^(٣).

(١) ابن الجوزي : المنتظم ١١٠/٥ .

(٢) المرجع السابق : ١١٦/٥ .

(٣) محمود شاکر : القرامطة ص٨ .

هذا ما يتعلق بعقيدتهم وأهم أهدافهم والآن سأتطرق بإذن الله تعالى إلى الحديث عمّا ارتكبته هذه الحركة من قتل وسفك لدماء المسلمين، واستحلال أعراضهم وأموالهم، ولكن قبل أن أتطرق إلى هذا الأمر، أودُّ أن أنبه إلى أن حركة القرامطة قد انتشرت في أكثر من مكان. حيث انتشرت في اليمن، والعراق، والشام، والبحرين .

يقول الأستاذ محمود شاكر: «ولما كانت حركة القرامطة قد قامت في مناطق واسعة، وفي عدة بقاع، فقد نسب كل قسم إلى المنطقة التي قوي نفوذه فيها، فيقال قرامطة اليمن، وقرامطة البحرين، وقرامطة العراق، على الرغم من أن قيامهم كان في وقت واحد تقريباً، وبعضهم على صلة ببعض ومع هذا فلم يؤلفوا حكومة واحدة تشمل البقاع التي سيطروا عليها كلها إذ لم تكن لهم مركزية في الحكم، وما ذلك الاختلاف إلا بسبب الأطماع التي كانت في ذهن كل مجموعة منهم أو كل أسرة»^(١).

ج : قرامطة اليمن :

سأبدأ بالحديث عن قرامطة اليمن، لأنه يبدو من الناحية التاريخية أنهم من أول من دعى إلى هذا الأمر .

كان «ميمون القداح» يخدم ضريح الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقدم لزيارة الضريح «الحسن بن حوشب» الذي لقب فيما بعد بـ «منصور اليمن» وعلي بن الفضل، وكانا من الشيعة الاثني عشرية، فلما رأهما طمع فيهما، وجمعهما وياح لهما ما عنده من المذهب، وأخبرهما أن ابنه «عبد الله» إمام الزمان، وأنه لا بد له من دعاة، وذلك بعد أن أخذ عليهما العهود والمواثيق، ثم أمرهما بالتوجه إلى اليمن، فقصد كل منهما ناحية

(١) محمود شاكر : القرامطة : ص ٤٤ . ٤٥ . ولم يذكر الأستاذ محمود شاكر قرامطة الشام واعتبرهم ضمن قرامطة العراق لأن بدايتهم كانت من العراق، لكنهم انتقلوا إلى الشام بعدما حدث خلاف بين رئيسهم ورؤساء قرامطة العراق، وهنا سأجعل الحديث عن قرامطة الشام منفصلاً عن قرامطة العراق، حرصاً على توضيح الأمر وتسهيله ولانقطاع العلاقة فيما بينهم .

منه، واستطاعا أن يبشرا الدعوة، ويؤلبا حولهما الأنصار والأتباع. وقد تمكن «الحسين بن حوشب» عام «٢٦٦هـ» أن يؤسس أول دولة إسماعيلية .

وكذلك «علي بن الفضل» الذي فاق أتباعه أتباع «الحسن بن حوشب» وتمكن من الاستيلاء على «صنعاء» واستحكم له أمر اليمن. فلما رأى ذلك خلع طاعة «عبد الله المهدي» واختلف مع «الحسن بن حوشب» بل وحاربه حتى أذعن له، وافتتن بكثرة الناس حوله، وأدعى النبوة، وأباح المحرمات، وكان المؤذن يؤذن في مجلسه «وأشهد أن علي بن الفضل رسول الله» وأنشد شاعره :

وَعَنِّي هَزَارِكِ ثُمَّ اطْرَبِي	خُذِي الدُّفَّ يَا هَذِهِ وَالْعَبِي
وَهَذَا نَبِيُّ بَنِي يَعْزُبِ	تَوَلَّى نَبِيُّ بَنِي هَاشِمِ
وَهَاتَا شَرِيعَةً هَذَا النَّبِي	لِكُلِّ نَبِيٍّ مَضَى شَرِيعَةً
وَحَطَّ الصِّيَامَ وَلَمْ يُتَعَبِ	فَقَدْ حَطَّ عَنَّا فُرُوضَ الصَّلَاةِ
وَإِنْ صَوْمُوا فَكُلِّي وَأَشْرَبِي	إِذَا النَّاسُ صَلُّوا فَلَا تَنْهَضِي
مِنَ الْأَقْرَبِينَ أَوْ الْأَجْنَبِي	وَلَا تَمْنَعِي نَفْسَكَ الْمُعْرِسِينَ
وَصِرْتِ مُحَرَّمَةَ لِلْأَبِ	فَلِمَ ذَا حَلَلْتِ لِهَذَا الْقَرِيبِ
وَسَقَاهُ فِي الزَّمَنِ الْمُجْدِبِ	أَلَيْسَ الْغِرَاسُ لِمَنْ رَبُّهُ
حَلَالٌ فَقَدُوسَتَ مِنْ مَذْهَبِ	وَمَا الْحَمْرُ إِلَّا كَمَا السَّمَا

بل والعياذ بالله وصل به الحد أنه ، إذا كتب كتاباً يقول فيه «من باسط الأرض وداحيها، ومزلزل الجبال ومرسيها، علي بن الفضل إلى عبده فلان» وكفى بهذا دليلاً على كفره والحاده، وقُتل -لعنه الله- مسموماً سنة ٣٠٣هـ وبموته انتهت دولة القرامطة في

اليمن^(١) .

هذه خلاصة مركزة عن قرامطة اليمن أما موقف الخلافة العباسية منها ودورها في جهادها وقتالها، فقد كان سلبياً لعجزها، ولانشغالها بفتن وحركات كانت قريبة من عاصمتها كادت أن تطيح بها .

د : قرامطة العراق :

بدأت قرامطة العراق عن طريق داعية إسماعيلي يدعى «حسين الأهوازي» وقيل إن الذي أرسله إلى جنوب العراق هو «عبد الله بن ميمون القداح» فأخذ «حسين الأهوازي» يظهر التقشف والورع وكثرة العبادة حتى ذاع صيته، فبدأ يدعو إلى إمام من آل البيت هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق فأجابه أهل تلك الناحية وكان منهم «حمدان بن الأشعث قرمط»^(٢) .

والتقى «حسين الأهوازي» وقيل «حمدان قرمط» بصاحب الزنج سنة ٢٦٤ هـ يقول الإمام الطبري «وكان مصير قرمط إلى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزنج، وذلك أن بعض أصحابنا ذكر عن سلف زكرويه - وهو مؤسس قرامطة الشام فيما بعد- أنه قال : قال لي قرمط : صرت إلى صاحب الزنج، ووصلت إليه، وقلت له : إني على مذهب، وورائي مائة ألف سيف، فناظرني، فإن اتفقنا على المذهب ملت بمن معي إليك، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك. وقلت له تعطيني الأمان؟ ففعل .

(١) انظر الخزرجي : علي بن الحسن، المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ص٤١٣-٤٢٧ (ضمن مجموع أخبار القرامطة)، ومحمود شاکر : القرامطة ص٥٢-٥٤ .

(٢) انظر محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ص٣١-٣٣ (ط. بدون، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠م)، ومحمود شاکر : القرامطة ص٥٥-٥٧ .

قال : فناظرته إلى الظهر، فتبين لي في آخر مناظرتي إياه أنه على خلاف أمري، وقام إلى الصلاة، فانسللت، فمضيت خارجاً من مدينته، وصرت إلى سواد الكوفة»^(١).

فلما مات «حسين الأهوازي» تولى الدعوة بعده «حمدان بن الأشعث قرمط» وكا نشيطاً في دعوته، وأظهر مقدرة فائقة في تنظيمها وكان أكبر رجاله نسيبه «عبدان» والذي كان فطناً ذكياً فبدأ يوجه دعواته لبث دعوتهم، ونشرها بين الناس وكان من أبرزهم «ذكرويه بن مهرويه» -مؤسس قرامطة الشام- ونصّبهُ بسواد الكوفة، ومن أبرزهم أيضاً أبو سعيد الجنابي واسمه «الحسين بن بهرام الجنابي» والذي تزعم قرامطة البحرين فيما بعد- ونصبه في جنوب إيران، ثم لما اكتشف أمره أرسل إلى البحرين. ثم بدأ «حمدان بن الأشعث قرمط» يفرض سلسلة من الضرائب على أتباعه وذلك في سنة «٢٧٦هـ» ثم بنى لأتباعه في سنة «٢٧٧هـ» قرية قرب الكوفة سماها «دارالهجرة» .

وبعد أن تأكد «حمدان» من سيطرته على أتباعه أباح لهم ترك الصوم والصلاة، وأخبرهم أن ذلك موضوع عنهم، ثم أمر دعواته بجمع الرجال والنساء في ليلة معروفة، وأباح لهم الزنا وأخبرهم أن ذلك من صحة الود والألفة بينهم^(٢).

واستمرت هذه الدعوة تنتشر ويتزايد أتباعها على الرغم من علم الخلافة بها، فقد ذكر الإمام الطبري ذلك في حوادث سنة «٢٧٨هـ» حيث قال «ووقف الطائي أحمد بن محمد

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٧/١٠، وقد رجح الأستاذان محمد عليان ومحمود شاکر أن الذي التقى بصاحب الزنج هو «حسين الأهوازي» وقالوا إن ذلك حدث سنة «٢٦٤هـ» وضيف عليان أن المقصود بـ «قرمط» في رواية الطبري هو «حسين الأهوازي» لأن «حمدان قرمط» كان من أهل السواد ولم يند إلى الكوفة كما فعل الأهوازي . (انظر محمد عليان : قرامطة العراق ص٣٤، ومحمود شاکر : القرامطة ص٥٧) وعلى أية حال لا يهمنا كثيراً من هو الذي التقى بصاحب الزنج بقدر ما يهمنا معرفة محاولة القرامطة كسب الزنج وهم في أوج قوتهم .

(٢) انظر المقرئزي : اتعاظ الخنفا، ص٣٢٨، ٣٣٣، عبد العزيز الدوري : الدكتور، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص١٦١-١٦٣ (ط. بدون، شركة الرابطة للنشر، ١٩٤٥م) .

على أمرهم، فوظف على كل رجل منهم في كل سنة ديناراً، وكان يجبي من ذلك مالاً جليلاً، فقدم قوم من الكوفة فرفعوا إلى السلطان أمر القرامطة، وأنهم قد أحدثوا ديناً غير الإسلام، وأنهم يرون السيف على أمة محمد ﷺ إلا من بايعهم على دينهم، وأن الطائي يخفي أمرهم على السلطان. فلم يلتفت إليهم ولم يسمع منهم»^(١).

فهذه الرواية تفيد أن الخلافة علمت بهم في سنة «٢٧٨هـ» وقد ذكر الإمام الطبري قبل أن يورد هذه الرواية باشتهار أمرهم حيث قال «وفيها - أي في سنة ٢٧٨هـ - وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة»^(٢).

ثم انقطع ذكرهم حتى سنة «٢٨٤هـ» حيث ورد ذكر أول ثورة صغيرة لهم، قال الإمام الطبري «وفي يوم السبت لثمان بقين من شعبان من هذه السنة - أي سنة ٢٨٤هـ - وجه «كرامة بن مر» من الكوفة بقوم مقيدين، ذكر أنهم من القرامطة، فأقروا على «أبي هاشم ابن صدقه» الكاتب أنه كان يكاتبهم وأنه أحد رؤسائهم، فقبض عليه وقيد وحبس»^(٣).

أما قيام الخلافة بجهد هؤلاء وحريهم، فأول ما ذكر عن ذلك كان في ذي القعدة من سنة «٢٨٧هـ» حيث أوقع «بدر» غلام الطائي بالقرامطة على غرة منهم بنواحي «ميسان»^(٤) وغيرها وقتل منهم مقتله عظيمة، ثم تركهم خوفاً على السواد أن يخرب، إذ كانوا فلاحيه وعماله وطلب رؤسائهم في أماكنهم، فقتل من ظفر به منهم^(٥).

وفي سنة «٢٨٩هـ» انتشر القرامطة بسواد الكوفة، فوجه المعتضد إليهم «شبلأ» غلام «أحمد الطائي» فظفر بجماعة منهم وحملهم إلى باب السلطان^(٦). وظفر برئيس لهم يعرف

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٥/١٠.

(٢) المرجع السابق ٢٣/١٠.

(٣) المرجع السابق: ٦٤/١٠.

(٤) تقدم التعريف بها في ص ١٢٠.

(٥) المرجع السابق: ٨٢/١٠، وابن سنان: تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٦.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٨٦/١٠.

«بأبي الفوارس» فقال له المعتضد : «أخبرني هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه
تحلُّ في أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفِّقكم لصالح العمل؟

فقال له : يا هذا إن حلَّت روح الله فينا فما يضرُّك، وإن حلَّت روح إبليس، فما ينفعك،
فلا تسأل عما لا يعينك، واسأل عما يخلصك».

ثم أساء الأدب مع «المعتضد» فأمر بتعذيبه وقتله وصلبه^(١).

وبعد هذه الحادثة لم يكن لقرامطة العراق ذكر يمكن أن يذكر حتى جاءت سنة «٣١٦هـ»
حيث اجتمع عدد كبير منهم بسواد «واسط»^(٢) قُدِّرَ بأكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم
رجلاً يعرف بـ «حريث بن مسعود» واجتمعت طائفة أخرى منهم بـ «عين التمر»^(٣) وولوا
أمرهم رجلاً يعرف بـ «عيسى بن موسى» فبدؤوا ينهايون، ويسبون، ويقتلون، وكانوا من قبل
يكتُمون اعتقادهم، خوفاً من بطش الخلافة لقربهم منها، ولكنهم أظهروا ذلك في هذه السنة
لما رأوه من قوة قرامطة البحرين «الذين هددوا «بغداد» في هذه السنة وأقلقوا راحتها حتى
إنهم اشتبكوا مع جيش الخلافة على نحو ثلاثة فراسخ فقط من بغداد»^(٤).

فوجَّه إليهم «المقتدر بالله» جيشاً تمكن من التغلب عليهم وقتل وأسر الكثير منهم، ثم
اضمحل أمر قرامطة السواد وكفى الله الناس شرهم^(٥).

(١) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٧، ١٨ .

(٢) تقدم التعريف بها في ص ١٢٠ .

(٣) عين التمر : هي بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة (الحموي : معجم البلدان ٤/١٧٦) .

(٤) انظر المقرئبي : اتعاظ الحنفا ص ٣٥٩ .

(٥) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦/١٩٤ .

هـ : قرامطة الشام :-

هناك روايتان في نشأة قرامطة الشام، الأولى ذكرها الإمام ابن جرير الطبري وهي أن ذكرويه بن مهرويه - وهو أحد دعاة حمدان قرمط بسواد الكوفة- لما رأى تتابع جيوش المعتضد عليهم والإلحاح في طلبهم مما أدى إلى كثرة القتل فيهم، والتضييق عليهم، لما رأى ذلك سعى إلى نشر دعوته قرب الكوفة ولكنه لم يوفق فاضطر إلى إرسال أولاده إلى جماعة من « كلب » كانت تقطن بين الكوفة ودمشق، فلم يجيبهم إلا فخذ منهم يعرفون « ببني العليص بين ضمضم » فبايعوا ابنه يحيى بن زكرويه وذلك في آخر سنة ٢٨٩هـ بعدما أظهر لهم أنه من أولاد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق^(١).

والرواية الثانية ذكرها المقرئزي، وهي لا تختلف كثيراً عن رواية الإمام الطبري، وهي أن حمدان قرمط، كان يكاتب عبد الله بن ميمون القداح بسلمية^(٢)، فلما مات وخلفه ابنه من بعده كتب إلى حمدان فأنكر منه أشياء فبعث حمدان داعيته عبدان إلى سلمية فعرف أن من بها لا يدعون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان كما يعتقد، إنما يدعون إلى أبناء عبد الله بن ميمون القداح، عندئذ قطع حمدان صلته بسلمية فقدم أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح - وكان كبير الدعاة للإسماعيلية- قدم إلى الكوفة فعاتب حمدان وعبدان على شق عصا الطاعة إلا أن عبدان عنّفه وطرده من السواد فانصرف إلى زكرويه بن مهرويه ليواصل الدعوة في السواد، فقال له : إن هذا لا يتم مع عبدان لأنه داعي البلد كله والدعاة من قبله والوجه أن نحتال على عبدان حتى نقتله .

فتم لهما ذلك فطلب أصحاب حمدان زكرويه فاستتر وكان ذلك عام ٢٨٦هـ ولم يزل يطلبونه حتى عام ٢٨٨هـ عندئذ رأى أنه لا مجال لنشر دعوته في السواد، ففكر في نقل

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك / ١٠ / ٩٤ . ٩٥ .

(٢) سلمية: هي بليدة تقع الآن في سورية شرقي نهر العاصي، وكانت تعد من أعمال حماة. (انظر الحموي: معجم البلدان، ٣ / ٢٤٠، والموسوعة العربية الميسرة، ١ / ٩٩٩).

دعوته ونشاطه إلى الشام فأرسل أبناءه إلى هناك عام ٢٨٨هـ، ثم يتفق باقي هذه الرواية مع رواية الإمام الطبري^(١).

ويبدو لي أنه ليس هناك تعارض بين الروایتين سوى أن الطبري أغفل ذكر انفصال حمدان قرمط عن سلمية وسبب ذلك الانفصال ، كما أن المقرئزي أيضاً لم يشر إلى تضيق الخلافة على قرامطة السواد.

ولا يهمنا كثيراً سبب نشأة قرامطة الشام بقدر ما يهمنا معرفة نشأتها، وفي أي عام بدأت هناك .

والآن لنستعرض ما قامت به هذه الحركة في الشام من حروب ونحوها، وما قامت به الخلافة في سبيل جهادها والقضاء عليها .

ففي نهاية سنة «٢٨٩هـ» ولما كثر أتباع يحيى بن زكروية، وانتشر أمرهم بالشام وجه إليهم المعتضد جيشاً فالتقى بهم بالرصافة^(٢) ، من غربي الفرات لكن القرامطة استطاعوا التغلب عليهم وقتل أميرهم وعدد من أصحابه، ثم أحرقوا مسجد الرصافة، واعترضوا كل قرية اجتازوا بها يقتلون ويحرقون ، وينهبون، إلى أن وردوا أطراف دمشق فبرز إليهم عاملها فهزموه وقتلوا كثيراً من أصحابه، ثم حاصروا دمشق سبعة أشهر^(٣).

وفي سنة «٢٩٠هـ» جهز الخليفة جيشاً كبيراً كان فيه زهاء عشرة آلاف فارس التقى بالقرامطة على باب دمشق فقتل يحيى بن زكرويه وهزم أصحابه، وتفرقوا، ثم بايعوا بعده الحسن بن زكرويه فاستطاع أن يلم شملهم ويذعن القرامطة له بالطاعة فتلقب بأمير المؤمنين،

(١) انظر المقرئزي : اتعاظ الحنفا ص٣٤٢. ٣٤٣ ، وانظر أيضاً محمود شاکر : القرامطة، ص٥٩-٦١ .

(٢) الرصافة : هي مدينة بيادية تدمر بسورية الآن توفي ودفن بها الخليفة هشام بن عبد الملك، ومن ثم سميت رصافة هشام (الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨٧٠).

(٣) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٠/٩٥، والمقرئزي : اتعاظ الحنفا ص ٣٤٤ .

ثم تمكن من محاصرة دمشق مرة أخرى، فصالحه أهلها على مال، ثم سار إلى حمص، فافتتحها، وخطب له على منابرها، ثم سار إلى حماة ومعرة النعمان^(١) ففقر أهل تلك النواحي واستباح أموالهم وحریمهم^(٢). ثم توجه إلى بعلبك فقتل أهلها ولم يُبق إلا القليل، ثم سار إلى سلمية، فمنعه أهلها، ولم يقدر على مقاومتهم، فصالحهم وأمنهم وكان ذلك في مستهل رمضان من سنة «٢٩٠هـ» ثم غدر بهم بعدما فتحو له أبوابها، فقتل جميع من فيها من الشيوخ والصبيان والبهائم وخرج منها وليس بها عين تطرف، ثم دخل في القرى المجاورة لها يسبي ويقتل وينهب ويقطع السبيل^(٣).

وفي شهر شوال من السنة نفسها أوقع بدر مولى ابن طولون بالحسن بن زكرويه وأتباعه، وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً، وهرب من سلم منهم نحو البادية، فأرسل المكتفي في أثرهم عدداً من القواد^(٤).

وفي بداية المحرم من سنة «٢٩١هـ» التقى جيش الخليفة بالحسن بن زكرويه وأتباعه بموضع قرب حماة فاقتتلوا قتالاً شديداً فهزم القرامطة وقتل عامتهم وأسر منهم الكثير، فلما رأى ابن زكرويه ما حل بأصحابه وبنس من رجوعهم إلى الحرب مرة أخرى قصد الكوفة هو وثلاثة من أصحابه فقبض عليه قبل وصوله إليها، ثم قتل وأصحابه وجميع من أسر منهم وكانوا نحواً من ثلاثمائة وستين رجلاً^(٥).

وفي سنة «٢٩٣هـ» أنفذ زكرويه بن مهرويه - وهو مستتر بسواد الكوفة - أنفذ بعد قتل ابنه الحسن نصر بن عبد الله بن سعيد، فدار على بعض أحياء العرب، فاستغوى مجموعة

(١) معرة النعمان : هي بليدة بالشام بين حلب وحماة (القزويني : آثار البلاد ص٢٧٢) .

(٢) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٩٦/١١، والمقرئبي : اتعاظ الحنفا ص٣٤٤ . ٣٤٥ .

(٣) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص٢٠ .

(٤) انظر المرجع السابق : ص٢٢ .

(٥) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٠٨/١٠-١١٣، والمقرئبي : اتعاظ الحنفا، ص٣٤٦-٣٤٨ .

من بطون كلب وقصد بهم ناحية الشام، وهاجم مجموعة من المدن والقرى الواقعة جنوب دمشق، ثم أمنهم فلما استسلموا إليه قتل مقاتليهم، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، ثم قصد دمشق، فخرج إليه نائبها فهزمه القرامطة وقتكوا به فتكاً ذريعاً، ثم أمنوه هو ومن معه لكنهم غرروا به فقتلوه ثم أرادوا دخول دمشق فمنعهم أهلها فقصدوا طبرية^(١)، وانضم إليهم جماعة من أطراف البوادي المجاورة لدمشق وعند وصولهم طبرية خرج إليهم نائبها فهزموه شراً هزيمة ثم أمنوه وغدروا به وقتلوه، ونهبوا طبرية وأعملوا في أهلها السيف، وسبوا النساء، وقتلوا الشيوخ والأطفال.

فلما علم الخليفة بأخبارهم وجه إليهم جيشاً فانسحب القرامطة راجعين نحو السماوة^(٢)، ثم عزز الخليفة جيشة الأول بجيش ثان، فلما أحس الكلبيون بجيوش الخليفة قاموا إلى نصر ابن عبد الله -زعيمهم- فقتلوه وسار برأسه رجل منهم إلى الخليفة المكتفي وطلب الأمان فأمنه وأمر بالكف عن قتال قومه^(٣).

وبعدما علم زكرويه بما حل بنصر أنفذ إليهم داعية آخر يدعى القاسم بن أحمد، وأخبرهم أن موعد ظهور الإمام قد حان، وقد بايع له بالكوفة أربعون ألفاً، وأنه أمرهم أن يخفوا أمرهم ويقدموا إليه بالكوفة في يوم النحر من سنة «٢٩٣هـ» وأنه سيظهر إليهم، فأطاعوا القاسم وقدموا الكوفة، وكانوا ثمانمائة فارس مدججين بالأسلحة فدخلوا الكوفة وقت انصراف الناس عن مصلاهم، فقتلوا جماعة منهم فحمل عليهم أهل الكوفة حتى تقهقروا

(١) طبرية : مدينة بالشام تقع الآن شمال شرق فلسطين (الموسوعة العربية الميسرة ١١٥٣/٢).

(٢) السماوة : هي مفازة بين الكوفة والشام وقيل بين الموصل والشام وهي من أرض كلب (الحميري : الروض المعطار ص٣٢٢).

(٣) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص٢٥-٢٧، والمقريري : اتعاظ الحنفا ص٣٥١-٣٥٢.

نحو القادسية، ثم أخرج القرامطة زكروية من جب في الأرض بسواد الكوفة وحملوه وسموه ولي الله وسجدوا له، واجتمع إليه أهل دعوته بالسواد فعظم الجيش جداً . فسير إليهم المكتفى جيشاً كبيراً لكن القرامطة انتصروا عليهم وهزمهم ووضعوا فيهم السيف وقتلوا منهم نحواً من ألف وخمسمائة وغنموا غنائم كثيرة فقوى أمرهم بعد ذلك ^(١) .

وفي المحرم من سنة « ٢٩٤هـ » اعترض زكروية في أصحابه الحجاج من أهل خراسان وهم قافلون من مكة فقتلهم عن آخرهم، وقيل لم ينج منهم إلا القليل ممن تمكن من الهرب وأخذ أموالهم وسبى نساءهم، فكان قيمة ما أخذه منهم ألفي ألف دينار، وعدة من قتل عشرين ألف إنسان، وكانت نساء القرامطة يظفن بين القتلى من الحجاج وفي أيديهن الآنية من الماء يزعمن أنهن يسقين الجريح العطشان، فمن كلمهن من الجرحى قتلنه وأجهزن عليه ^(٢) .

ولما تطايرت الأخبار إلى الخليفة المكتفى وعلم بما جرى للحجاج عظم ذلك عليه، وعلى كافة المسلمين، فأنفذ أمره بتجهيز الجيوش وسيرها في ربيع الأول من السنة نفسها فلقبهم زكروية ومن معه من القرامطة في ثامن ربيع الأول فاقتتلوا قتالاً شديداً جداً، قتل من القرامطة خلق كثير ولم يبق منهم إلا القليل، وتمكن رجل من قتل زكروية فحملت جثته إلى بغداد ثم طيف برأسه في سائر بلاد خراسان، لئلا يمتنع الناس من الحج، ثم تتبع الخليفة من بقي منهم بالشام والعراق فقتلهم وحبس البعض منهم ^(٣) .

وهكذا باءت حركة قرامطة العراق والشام بالإخفاق والفشل وأراح الله المسلمين من

شرهم وكيدهم .

(١) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٢٨-٣٠، والمقرئبي : اتعاظ الحنفا ص ٣٥٢-٣٥٤ .

(٢) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٠/١٣٠-١٣٢، وابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٠١ .

(٣) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٣٤، ٣٥، وابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٠١ .

و : قرامطة البحرين :

ابتدأ أمر القرامطة بالبحرين عن طريق رجل يعرف بيحيى بن المهدي قصد القطيف في سنة « ٢٨١هـ » فأظهر التشيع وادعى أنه رسول المهدي، ثم بدأ ينشر دعوته فأجابه جماعة من شيعة القطيف، ثم وجه دعوته إلى سائر قرى البحرين فأجابوه وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي^(١).

وقيل إن أبا سعيد الجنابي قدم إلى البحرين ولم يكن من أهلها، فهو من أهل جنابة على ساحل فارس قبالة منطقة البصرة، وأن الذي أرسله إلى البحرين هو عبدان داعية حمدان قرمط^(٢)، وذلك بعد اكتشاف أمره حينما كان يبث دعوته في جنوب إيران^(٣).

المهم في الأمر أن أبا سعيد الجنابي هو الذي تغلب على أمر الشيعة في البحرين وأظهر فيهم القرمطة، فاستجابوا له والتفوا عليه، فتأمر عليهم وصار هو المشار إليه فيهم^(٤).

وفي بداية سنة « ٢٨٦هـ » قوي أمر أبي سعيد الجنابي، فقتل من حوله من أهل القرى، فهابه الناس وأجابه كثير منهم وعظم أمره في البحرين^(٥).

وفي سنة « ٢٨٧هـ » تفاقم أمر قرامطة البحرين فجهز لهم المعتضد جيشاً بلغ تعداده نحواً من ألفي رجل وأمر عليهم «العباس بن عمرو الغنوي» فاقتتلوا مع القرامطة قتالاً شديداً، تمكن القرامطة من هزيمتهم وأسر أميرهم العباس وسبعمائة من أصحابه، ثم أمر بهم أبو سعيد فقتلوا جميعاً أمام نظر العباس، ثم أمر بحطب فطرح عليهم وأحرقهم^(٦).

(١) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ١٢-١٣ .

(٢) انظر المقرئ : اتعاظ الحنفا ص ٣٣٤ .

(٣) انظر الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٦٣ .

(٤) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٨١/١١ .

(٥) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٧١/١٠، والمقرئ : اتعاظ الحنفا ص ٣٣٤ . ٣٣٥ .

(٦) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٧٧/١٠ . ٧٨ .

أما العباس بن عمرو فمكث أياماً عند أبي سعيد، ثم أطلقه وقال له «امض إلى صاحبك وعرفه ما رأيت»^(١).

وفي سنة «٢٩٠هـ» كبس^(٢) أمير البحرين حصناً للقرامطة، فظفر بمن فيه. ثم هاجم القطيف فافتتحها وقتل نائب أبي سعيد الجنابي وولي عهده من بعده^(٣).

وفي سنة «٣٠١هـ» قُتِلَ أبو سعيد الجنابي، قتله خادم له لما رآه لا يصلي ولا يصوم في شهر رمضان ولا في غيره، وقتل معه أربعة من رؤساء القرامطة. وكان قتله بالأحساء وكانت سنه يوم قتله نيفاً وستين سنة، أما الخادم فأمر به فشد بحبال وقرض لحمه بالمقاريض حتى مات^(٤).

وفي سنة «٣١١هـ» وكان أمر القرامطة لابن أبي سعيد الجنابي واسمه «سليمان» ويكنى بأبي طاهر وكان قد قوي أمره، فقصد البصرة في ربيع الآخر من هذه السنة في ألفين وسبعمائة - وقيل في ألف وسبعمائة - فوصلها ليلاً وتمكن من فتح أبوابها فوضع السيف في أهلها وهرب الناس وقتل منهم خلق كثير وأقام أبو طاهر بها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء، والصبيان ثم رجع إلى بلده^(٥).

وفي سنة «٣١٢هـ» اعترض أبو طاهر الحجيج وهم راجعون من الحج فقتل جماعة منهم وأخذ أموالهم وجمالهم وسبى نساءهم ثم عاد إلى هجر وتركهم في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً. وكانت سن أبي طاهر حينئذ سبع عشرة سنة^(٦).

(١) ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ١٥ .

(٢) كَبَسَ : أي اقتحم . جاء في لسان العرب : والتكبس، والتكبس : الاقتحام على الشيء . وقد تكبسوا عليه، ويقال : كبسوا عليهم . (انظر ابن منظور : لسان العرب، مادة «كبس» ١٩١/٦).

(٣) ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة : ص ٢٢، ٢٣ ، والطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٠/١٠٤ .

(٤) المقرئ : اتعاظ الحنفا ص ٣٣٩ . ٣٤٠ .

(٥) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٣٦ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦/١٧٥ .

(٦) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٣٧ .

وفي ذي القعدة من سنة «٣١٣هـ» خرج الحجاج للحج فاعترضهم أبو طاهر فرجع أكثرهم إلى بلدانهم وقاتله جيش الخلافة قتالاً شديداً، ولكن القرامطة تمكنوا من هزيمتهم ووضع السيف فيهم ثم دخل أبو طاهر الكوفة وأقام بها ستة أيام -وقيل أكثر- وحمل منها من الغنائم الشيء الكثير فانزعج أهل بغداد انزعاجاً شديداً^(١).

وفي سنة «٣١٤هـ» جاءت الكتب من مكة أنهم في غاية الانزعاج بسبب اقتراب القرامطة إليهم وقصدهم إياهم، فرحلوا منها إلى الطائف وتلك النواحي، ولما قدم الحجاج من خراسان إلى بغداد اعتذر إليهم مؤنس الخادم بسبب قصد القرامطة مكة فرجعوا ولم يتهياً الحج في هذه السنة من ناحية العراق بالكلية^(٢).

وفي شهر شوال من سنة «٣١٥هـ» التقى جيش الخلافة وكانوا نحواً من عشرين ألف مقاتل بقيادة «يوسف بن أبي الساج» التقى بأبي طاهر القرمطي وكان معه ألف وخمسمائة رجل فاستقلهم يوسف، وقال: ما قيمة هؤلاء الكلاب، فلما اقتتلوا ثبت القرامطة ثباتاً عظيماً وهزموا جيش الخلافة وأسروا يوسف وقتلوا خلقاً كثيراً، واستحذوا على الكوفة، فخاف أهل بغداد، وشاع بينهم أن القرامطة يريدون أخذها فجهز الخليفة جيشاً آخر فيه أربعون ألف مقاتل فسار نحو القرامطة فلما سمعوا به أخذوا عليه الطرقات فأراد دخول بغداد فلم يتمكن ثم التقوا معه فلم يلبث جيش الخليفة أن انهزم ورجع القرمطي من ناحية بغداد إلى الأنبار ثم انصرف عنها. فأكثر أهل بغداد الصدقة وكذلك الخليفة وأمه والوزير شكراً لله على صرفه عنهم^(٣).

(١) ابن سنان: تاريخ أخبار القرامطة: ص٤٤، وابن كثير، البداية والنهاية ١١/١٥٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٥٣، ١٥٤.

(٣) انظر المرجع السابق: ١١/١٥٥، ١٥٦.

وفي بداية سنة «٣١٦هـ» عاث أبو طاهر القرمطي في الأرض فساداً ولم تتمكن جيوش الخلافة من مجابهته لسرعة تنقله بين عدد من المدن والقرى فدخل بعضها وقتل من أهلها وامتنع عنه البعض الآخر وطلب منه آخرون الأمان فأمنهم واشترط عليهم شروطاً منها أن يحملوا إليه في هجر عن كل رأس ديناراً - وقيل أكثر - فخافه الناس حتى صاروا إذا سمعوا بذكره يهربون من سماع اسمه ^(١).

وبعد عدة أشهر تمكن مؤنس الخادم من مجابهته ونازله على نحو ثلاثة فراسخ من بغداد واشتد القتال بينهم، ثم إن مؤنساً أخذ يحتال على القرامطة في إرسال زوارق يُعدُّ فيها فاكهة مسمومة، فكان القرامطة يأخذونها فكثرت الميتة فيهم، فكروا راجعين، فدخلوا الكوفة لثلاث خلون من رمضان من سنة «٣١٦هـ» وأقاموا بها مدة من الزمن، فلم يقتلوا، ولم ينهبوا ثم رحلوا عنها ^(٢).

وفي يوم التروية من سنة «٣١٧هـ» داهم أبو طاهر القرمطي أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام في «٦٠٠» فارس و«٩٠٠» راجل فقتل في رحاب مكة وشعابها وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً ولم يحج أحد في هذه السنة، وجلس أبو طاهر -لعنه الله- على باب الكعبة والرجال تصرع حوله وهو يقول :

أَنَا بِاللَّهِ وَبِاللَّهِ أَنَا يَخْلُقُ الْخَلْقَ وَأُفْنِيهِمْ أَنَا

ثم أمر بقلع باب الكعبة، ونزع كسوتها عنها، ثم أمر بقلع الحجر الأسود، فقلع وكان الذي قلعه يقول : أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟ فأخذوه إلى بلادهم هجر فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة . وأقام القرامطة بمكة ستة أيام، وقيل إن عدد القتلى في المسجد الحرام وفي فجاج مكة زهاء ثلاثين ألفاً وسبى من النساء والصبيان والأموال الشيء الكثير ^(٣).

(١) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٥٠ . ٥١ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١١ / ١٥٧ .

(٢) انظر المقرئ : اتعاظ الحنفا ص ٣٥٨ . ٣٥٩ .

(٣) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٥ / ٣٢٠ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١١ / ١٦٠ .

وتعطل الحج من جهة درب العراق من سنة «٣١٧هـ» إلى سنة «٣٢٧هـ» خوفاً من القرامطة فشجع في الناس عند القرامطة رجل كان القرامطة يحبونه، في أن يمكنهم من الحج من هذا الدرب وأن يكون لهم على كل جمل خمسة دنانير وعلى المحمل سبعة دنانير، فوافق أبو طاهر على ذلك فخرج الناس إلى الحج على هذا الشرط^(١).

وفي سنة «٣١٩هـ» ولعشر بقين من شعبان نزل القرامطة المصلى بالكوفة وعسكروا به، وأقاموا، وسارت قطعة منهم في مائتي فارس فدخلوا الكوفة، وأقاموا بها خمسة وعشرين يوماً مطمئنين -وقيل بل خمسين ليلة- وقتلوا خلقاً كثيراً ونهبوا مخازن فيها غلات للسلطان وغيره ثم رجعوا إلى بلادهم^(٢).

وفي سنة «٣٢١هـ» عاد أبو طاهر إلى الكوفة ووافاها في ثلاثة آلاف راحلة، وقيل إنه نادى فيها بالأمان سوى أصحاب الخليفة «القاهر»، ولكن الخليفة لم يعمل شيئاً يذكر حيث كان غارقاً بين قواد الأتراك خائفاً من حيلهم وكيدهم^(٣).

وفي الثاني عشر من ذي القعدة من سنة «٣٢٣هـ» اعترض أبو طاهر القرمطي الحجاج فلم يعرفوه، فقاتلهم جند الخليفة، وأعانهم الحجاج، ثم التجؤوا إلى القادسية فخرج جماعة من العلويين بالكوفة، إلى أبي طاهر فسألوه أن يكف عن الحجاج، فكف عنهم، وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد، فرجعوا ولم يحجوا، وسار أبو طاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها^(٤).

واقترح أحد القرامطة على أبي طاهر أن لا يعترض الحجاج لئلا يكتسب مهانة الناس جميعاً، ويصير هو المانع من الحج، على أن يؤدي كل رجل منهم ديناراً. فاستصوب أبو

(١) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٨٩ .

(٢) انظر القرطبي : عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبري، ص١٣٩ (ط. الثالثة، دار المعارف، تحقيق، أبو الفضل إبراهيم) . المقرئ : اتعاظ الحنفا ص٣٥٩ .

(٣) انظر ابن مسكويه : أحمد بن محمد ، تجارب الأمم ١/٢٦٢-٢٦٣ (ط. بدون، نشر مكتبة المشنى، بغداد، وطبع بمصر سنة ١٣٣٢هـ) .

(٤) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص٥٤، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦/٢٤٩ .

ظاهر هذا الرأي ونادى من وقته في الناس بالأمان . وكان ممن استجاب لهذا العرض الخراسانية، وأهل مصر، وجماعة من أهل العراق، وكانت الرسوم تؤخذ بالكوفة^(١) .

وفي سنة «٣٢٥هـ» كبس أبو طاهر الكوفة، وقبض على أميرها، ثم بعثه إلى الخليفة ليعرفه أنهم صعاليك لا بد لهم من أموال وإلا أكلوا بأسيا فهم، ولكن الخليفة لم يستجب له فزاده انكساراً وسار عن البلد^(٢) .

وفي سنة «٣٢٦هـ» اختل أمر القرامطة وفسد حالهم، وقتل بعضهم بعضاً إلا أن أبا طاهر استطاع الاحتفاظ بمركزه، وتخلص من خصومه، وهذا الخلاف جعلهم يتمسكون في منطقتهم ويحافظون عليها، ويمكثون فيها مدة ويتركون الفساد في الأرض^(٣) .

وفي رمضان من سنة «٣٣٢هـ» هلك أبو طاهر القرمطي، حيث إن الله ابتلاه بالجدري فقتله، ثم قام بالأمر من بعده أخوته^(٤) . واستمر القرامطة في البحرين، وامتد نفوذهم إلى نجد، والحجاز، بل ووصلوا إلى بلاد الشام . ثم بدأ نفوذهم يضعف شيئاً فشيئاً إلى أن قبض الله أحد زعماء قبيلة بني عبد القيس في البحرين، وهو عبد الله بن علي العيوني للتصدي لهم وطلب من الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» ومن السلطان السلجوقي «ملكشاه» مساعدتهم في جهادهم، فأجاباه إلى طلبه، فتمكن بفضل الله تعالى من القضاء عليهم، وكسر شوكتهم، وتشتيت شملهم، وذلك في عام ٤٦٧هـ، فأراح الله منهم العباد والبلاد^(٥) .

(١) انظر المقرئبي : اتعاظ الحنفا ص ٣٦٠ . ٣٦١ .

(٢) انظر المرجع السابق : ص ٣٦١ .

(٣) انظر ابن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٥٦ . ٥٥ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٦٨/٦ ، ومحمود شاعر : الدولة العباسية ١٤٢/٢ .

(٤) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٨/١١ . ٢٠٩ ، والمقرئبي : اتعاظ الحنفا ص ٣٦١ .

(٥) انظر محمود شاعر : القرامطة ص ٦٩-٧٠ .

المبحث الخامس

«الجهاد ضد الوثنيين»

تمهيد :

قام المسلمون بجهاد الوثنيين في هذا العصر ودحرهم وصد غاراتهم التي استهدفت النيل من الإسلام والمسلمين .

وفي هذا المبحث سأتحديث بعون الله تعالى عن الجهاد ضد أولئك الوثنيين من خلال النقاط التالية:

أ- الجهاد ضد البجّة. ب- الجهاد ضد الترك.

ج - الجهاد ضد الروس.

أ : البُجّة^(١) :-

البجّة طائفة من سودان بلاد المغرب، وهم جنس من أجناس الحبش، وهم قوم مشركون يعبدون الأصنام ويسجدون لها، كانت بينهم وبين المسلمين هدنة على أن يحملوا في كل سنة إلى ديار مصر قدرأ معيناً من المعادن التي في بلادهم، فنقضوا الهدنة، وصرحوا بالخلاف، وامتنعوا من أداء ما عليهم سنين متعددة، ولم يكتفوا بذلك بل أغاروا في سنة « ٢٤١هـ » على المسلمين وقتلوا عدة منهم، وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم.

فلما علم المتوكل بذلك غضب غضباً شديداً وعزم على إرسال جيش لجهادهم وإخضاعهم، وشاور في ذلك، فأشير عليه بأن لا يفعل ذلك لبعدهم، ولصعوبة الوصول إليها، إضافة إلى أنهم بدو وأصحاب إبل ومواشٍ. فأمسك المتوكل عن حربهم ولكن أمرهم بدأ يزداد، وجرأتهم على المسلمين أصبحت تشتد حتى خاف أهل الصعيد من أرض مصر على أنفسهم، وذراريهم منهم، عندئذ ولّى المتوكل « محمد بن عبد الله القمي » محاربتهم وكتب إلى أهل مصر بمساعدتهم بالمال والرجال .

(١) ويطلق عليهم ابن الأثير في الكامل اسم «البجّة» ٢٩٥/٦ .

فخرج «القمي» بجيش كبير من الجنود والمتطوعة، فكانت عدة من معه نحواً من عشرين ألف إنسان ما بين فارس وراجل، وحمل معه أنواعاً من الطعام في مراكب سبعة، وأمر قادتها بها أن يلجوا بها في البحر فيوافوه إذا توسط بلاد البجة، ثم سار حتى دخل بلادهم، وصار إلى حصونهم وقلاعهم، وخرج إليه ملكهم واسمه «علي بابا» في جيش كثير وعدد أضعاف من كان مع «القمي» من الناس، فجعل الملك يطاول المسلمين، ويناوشهم، لعله تنفذ أزوادهم فيأخذونهم بالأيدي.

فلما نفذ ما عند المسلمين طمع البجة فيهم، فيسر الله وصول تلك المراكب السبعة فتزود المسلمون منها فيئس البجة من هلاكهم، فحملوا عليهم، واقتتلوا قتالاً شديداً تمكن المسلمون من وضع السيف فيهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذوا ملكهم بالأمان، وأدى ما عليه من الحمل التي كان يدفعها للمسلمين، ثم قدموا به إلى المتوكل فولاه المتوكل على بلاده كما كان ورجع وهو مقيم على دينه حيث إنه شوهد معه صنم من حجارة كهيئة الصبي يسجد له^(١).

وفي سنة «٢٥٩هـ» أقبلت البجة وقتلوا من المسلمين وغنموا، ثم عادوا سالمين، وفعلوا ذلك مرات.

فخرج جماعة من المسلمين تطوعاً وطلباً للجهاد في سبيل الله وحماية المسلمين يقودهم أحد أحفاد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه واسمه عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ووضعوا كميناً للبجة في طريقهم، فلما عادوا خرج عليهم المسلمون وقتلوا مقدمهم ومن معه، ودخلوا بلادهم فنهبوا، وقتلوا فيهم فأكثروا، ونهبوا، وسبوا ما لا يحصى، وتابعوا الغارات عليهم حتى أدوا الجزية لهم^(٢).

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٠٣/٩-٢٠٦، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٩٥/٥، ٢٩٦.

وابن كثير : البداية والنهاية ٣٢٤/١٠، ٣٢٥.

(٢) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٦٩/٥.

ب : الترك :-

الترك مجموعة من القبائل كانت تقطن آسيا الوسطى بين نهري جيحون وسيحون فتح المسلمون جزءاً كبيراً من بلادهم خلال مدة دامت عشر سنوات من سنة « ٨٦هـ » إلى سنة « ٩٦هـ » على يد القائد المسلم « قتيبة بن مسلم الباهلي » رحمه الله والذي يعد -بفضل الله تعالى- هو الفاتح الحقيقي لتلك البلاد^(١) ، مع أن هذا لا يعني إغفال جهود غيره من قواد المسلمين في فتح تلك المناطق .

وظل المسلمون بعد قتيبة يجاهدون في تلك المناطق ويغزونها إلى أن قامت الدولة السامانية^(٢) فتولت الجهاد فيها .

أما عن ديانة الأتراك وعقيدتهم فيكاد يكون هناك شبه اتفاق بين عدد من المؤرخين على أن غالب الأتراك وثنيون .

فالمسعودي يقول عنهم « وليس لهم دين، ومنهم من هو على دين المجوسية ومنهم من يتهود »^(٣) . وابن الفقيه الهمداني يقول : « والغالب على الأتراك مذهب الزنادقة »^(٤) .

(١) انظر زبيدة عطا : الدكتور، الترك في العصور الوسطى ص ٢٩ (ط. بدون، دار الفكر العربي) ، وحسن محمود : الدكتور، الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي ص ١٤٨ . ١٤٩ (ط. بدون، دار الفكر العربي).

(٢) الدولة السامانية : قامت بين عامي ٢٦١-٣٨٩هـ وذلك أن الخليفة العباسي المعتمد عيّن نصر بن أحمد الساماني على بلاد ما وراء النهر عام ٢٦١هـ ومن هذا التاريخ تأسست الدولة السامانية، ثم بسطت سلطانها على بلاد خراسان وطبرستان والري وسجستان واستطاع السامانيون أن ينشروا الحضارة الإسلامية في التركستان شرقي نهر جيحون وفي أواسط آسيا فدخل على أيديهم عدد كبير في الإسلام . (انظر حسن إبراهيم حسن: الدكتور، تاريخ الإسلام ٧١/٣-٨٢، وأحمد الشريف : الدكتور، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٤٦٥-٤٧٠ ط. الخامسة ، دار الفكر العربي، القاهرة).

(٣) المسعودي : أخبار الزمان ص ٧٥ (ط. الأولى، مطبعة عبد الحميد حنفي، مصر، ١٣٥٧هـ).

(٤) أحمد محمد الهمداني : المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٣٢٩ (ط. بدون، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ).

أما ابن فضلان وهو ممن رحل إلى مناطقهم، والتقى ببعض قبائلهم فيقول عنهم « .. وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل ولا يعبدون شيئاً، بل يسمون كبراءهم أرباباً فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له : يا رب إيش أعمل في كذا وكذا»^(١).

والآن لتتطرق إلى جهاد المسلمين لهؤلاء الأتراك، على الرغم من قلة ذلك وندرته، ولست أدري ما السبب في ذلك هل أن الدولة السامانية لم تكثر من جهاد هؤلاء وفتح بلادهم، أم أن المصادر التاريخية أغفلت ما قامت به هذه الدولة في هذا المجال لبعدها عن عاصمة الخلافة. وأميل أنا إلى السبب الأول، وذلك لأمرين :

الأول : انشغال الدولة السامانية بالخلافات بين البيت الساماني نفسه، إضافة إلى تكثيف جهودها في تثبيت سلطان الخلافة العباسية في المشرق، وقمع الخارجين على طاعة الخلافة، إلى جانب اهتمامها بالمحافظة على دولتها وحمايتها من الدويلات المجاورة لها كالدولة الصفارية في خراسان والعلوية في طبرستان^(٢).

الثاني : عدم تهديد الأتراك للدولة السامانية حيث إنهم لم يقوموا بغزو المسلمين غزواً منظماً سوى مرة واحدة حسبما جزم به «بارتولد» وهو من المهتمين بدراسة تلك المناطق حيث يقول « والحالة الوحيدة التي غزا فيها جيش كبير بلاد ما وراء النهر حدثت في عام ٩٠٤م » على عهد إسماعيل بن أحمد حين تم طرد الغزاة بمعاونة المطوعة من أراضي الإسلام»^(٣).

أي في سنة ٢٩١هـ وسأحدث عن هذه الغزوة بعد قليل إن شاء الله تعالى .

ففي سنة « ٢٨٠هـ » غزا إسماعيل بن أحمد الساماني بلاد الترك « وكانت دولته على الشجر»^(٤) ، وافتتح مدينة ملكهم وأسره وامراته ونحواً من عشرة آلاف، وقتل منهم خلقاً

(١) ابن فضلان : أحمد، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والجزر والروس والصقالبة ص ٩١

(ط. بدون، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٧٩هـ، تحقيق د. سامي الدهان).

(٢) انظر أحمد الشريف : الدكتور، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٤٦٦-٤٦٩ .

(٣) فاسيلي بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٣٩٢ (ط. الأولى، أشرف على طبعه

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠١هـ).

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٩٥/٦.

كثيراً، وغنم من الدواب دواب كثيرة لا يوقف على عددها، حتى إن الفارس من المسلمين أصاب من الغنيمة ألف درهم^(١). وقد ذكر المسعودي عند حديثه عن هذه الغزوة أن عدد الأسرى كان خمسة عشر ألفاً من الترك وأن عدد القتلى منهم عشرة آلاف^(٢).

وفي سنة «٢٩١هـ» قصد الترك بلاد ما وراء النهر في جحافل عظيمة حيث إنه كان في عسكرهم سبعمائة قبة تركية، ولا يكون ذلك إلا للرؤساء منهم، فوجه إليهم إسماعيل بن أحمد الساماني جيشاً كبيراً وتبعهم من المتطوعة خلق كثير، فساروا نحو الترك، وبيتوهم ثم كبسوهم مع الصبح فقتلوا منهم خلقاً عظيماً لا يحصون، وأنهزم الباقون، واستباح المسلمون عسكرهم، وغنموا منهم غنائم كثيرة، ثم انصرفوا سالمين غافين^(٣).

وفي سنة «٢٩٣هـ» ذكر ابن الأثير أن إسماعيل بن أحمد الساماني افتتح مواضع من بلاد الترك^(٤)، لكنه لم يذكر تلك المواضع ولا أية معلومات أخرى حول تلك الغزوات.

ونلاحظ أن جميع ما ذكر حول جهاد الدولة السامانية للترك كان في عهد الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني، وذلك راجع -فيما يظهر لي- إلى أن الأمير إسماعيل كان قوياً متمكناً من السيطرة على دولته، يقول الدكتور حسن «ولما مات نصر في سنة «٢٧٩هـ» آلت زعامة السامانيين إلى أخيه إسماعيل، وفي عهد إسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة»^(٥).

إضافة إلى أنه كان رجلاً صالحاً حيث يصفه الإمام الذهبي بقوله «كان ملكاً فاضلاً، عالماً، فارساً، شجاعاً، ميمون النقيبة، معظماً للعلماء»^(٦).

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٤/١٠ .

(٢) انظر المسعودي : مروج الذهب ٢٤٥/٤ .

(٣) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١١٦/١٠، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠٩/٦، وابن كثير : البداية والنهاية ٩٨/١١ .

(٤) انظر: ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١١٥/٦ .

(٥) حسن إبراهيم حسن : الدكتور، تاريخ الإسلام ٧٣/٣ .

(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ١٥٤/١٤ .

ج : الروس :-

أغار جماعة من الروس الذين كانوا يقيمون شمالي بلاد الخزر في سنة «٣٣٢هـ» على أذربيجان^(١) وكان الروس يدينون بالوثنية، وقد أوضح ذلك ابن فضلان في رسالته، حيث إنه زار مناطقهم ومكث بينهم مدة من الزمن، فيصف لنا بعضاً من طقوسهم وعباداتهم، فيقول «وساعة توفي سفنهم إلى هذا المرسى -من نهر في بلادهم- يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم ويصل ولبن ونبيد، حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة، لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صفار، وخلف تلك الصور خشب طوال، قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة، ويسجد لها، ثم يقول لها: يا رب قد جئت من بلد بعيد، ومعى من الجواري كذا وكذا رأساً... حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول: وجئتك بهذه الهدية. ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة، ويقول: أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم كثيرة فيشتري مني كل ما أريد ولا يخالفني فيما أقول. ثم ينصرف»^(٢).

ومما يدل على ذلك أيضاً أن ابن الأثير أورد في حوادث سنة «٣٥٧هـ» حادثة تدل على أن أول دخول النصرانية بالروس كانت في هذه السنة، وذلك حينما حوصرت القسطنطينية فراسل ملكاها ملك الروسية واستنجدها وزوجاه بأخت لهما إلا أنها امتنعت من تسليم نفسها إلى من يخالفها في الدين فتنصر الملك وتزوجها. عند ذلك قال ابن الأثير «وكان هذا أول النصرانية بالروس»^(٣).

وقد وصف ابن مسكويه الروس بقوله «وهؤلاء أمة عظيمة لهم خلق عظام، ولهم بأس شديد لا يعرفون الهزيمة، ولا يولي الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل...»^(٤).

(١) حسن إبراهيم حسن : الدكتور، تاريخ الإسلام ٢٤٤/٣ .

(٢) ابن فضلان : رسالة ابن فضلان ص ١٥٢، ١٥٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٢٧/٧ .

(٤) ابن مسكويه : تجارب الأمم ٦٢/٢ .

أما تفصيل هذه الغارة فهي أن الروس قدموا إلى أذربيجان عن طريق نهر بردعة^(١)، فخرج إليهم المسلمون في جمع من الديلم، والمطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل، فلقوا الروس فلم يكن إلا ساعة حتى حمل الروس حملة منكرة فهزموا المسلمين، وولت المطوعة، ولم يثبت إلا الديلم، فقتلوا عن آخرهم، ثم تبعهم الروس إلى البلد، فهرب من كان له مركوب وترك البلد فنزله الروس ونادوا فيه بالأمان، وقالوا للناس «لا منازعة بيننا وبينكم في الدين، وإنما نطلب الملك، وعلينا أن نحسن السيرة وعليكم حسن الطاعة».

وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم، وكان أهل بردعة يخرجون معهم فإذا حمل المسلمون عليهم كبروا ورجموا بالحجارة، فكانت الروس تصيح بهم وتنهاتهم عن ذلك فلم ينتهوا سوى العقلاء، أما سائر العامة والرعايا فكانوا لا يضبطون أنفسهم.

فلما طال عليهم ذلك نادى مناديتهم: بخروج أهل البلد منه، وأن لا يقيموا بعد ثلاثة أيام فخرج من كان له ظهر يحمله وبقي أكثرهم بعد الأجل، فوضعت الروس فيهم السلاح، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف إنسان، وجمعوا من بقي بالجامع وقالوا: اشتروا أنفسكم، وسعى لهم إنسان نصراني فقرر عن كل رجل عشرين درهماً فلم يقبل عامتهم، فقتلهم الروس عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا الشريد. وغنموا أموال أهلها واستعبدوا السبي واختاروا من النساء من استحسناها.

فلما فعل الروس ذلك بأهل بردعة استعظمه المسلمون وتنادوا بالنفير، وجمع المرزبان بن محمد بن مسافر الناس واستنفرهم، فبلغ عدة من معه ثلاثين ألفاً، وسار بهم، إلا أنه لم يتمكن من هزيمة الروس، وكان يفاديهم القتال ويراوحهم فلا يعود إلا مفلولاً. فبقيت الحرب بينهم كذلك أياماً كثيرة.

(١) بردعة: بلد في أقصى أذربيجان، وهي معربة بردة دار ومعناه بالفارسية موضع السبي (انظر الحموي: معجم البلدان ١/٣٧٩).

ومن تيسير الله ولطفه بالمسلمين أن الروس كانوا قد تبسطوا في أكل الفاكهة، وكان هناك أنواع كثيرة منها فمرضوا ووقع فيهم الوباء، لأن بلادهم شديدة البرد ولا تنبت فيها مثل هذه الأشجار .

عند ذلك التجأ المرزبان إلى الحيلة والمكيدة فرأى أن يكمن كميناً ثم يلقاهم في عسكره ويتطارد لهم، فإذا خرج الكمين عاد عليهم، فتقدم إلى أصحابه بذلك ورتب الكمين، ثم لقيهم واقتتلوا فتطارد لهم المرزبان وأصحابه وتبعهم الروس حتى جاوزوا موضع الكمين فاستمر الناس على هزيمتهم فصاح المرزبان بالناس ليرجعوا، فلم يفعلوا لما في قلوبهم من هيبة الروس، فرجع وحده ثم رجع سائر جيشه وخرج الكمين وصدقهم المسلمون القتال فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، منهم أميرهم، وهرب الباقون إلى حصن البلد فحاصرهم المسلمون مدة طويلة، ثم زاد الوباء بهم فخرجوا من الحصن ليلاً وقد حملوا على ظهورهم ما أرادوا من الأموال وغيرها، وعادوا من حيث أتوا، وعجز المسلمون عن اتباعهم وأخذ ما معهم، فتركهم وطهر الله البلاد منهم^(١) .

(١) انظر ابن مسكويه : تجارب الأمم، ٦٢/٢-٦٧، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٩٧/٦ . ٢٩٨ .

المبحث السادس

«تقويم أثر هذه الوسيلة»

من خلال المباحث السابقة في هذا الفصل تبين لنا أنه كان بحمد الله تعالى لوسيلة الجهاد في سبيل الله في هذا العصر آثار طيبة يمكن إجمالها في النقاط التالية :

١- انتشار الإسلام في عدد من مناطق ومواقع الترك، حتى إننا نلاحظ بعد انتهاء فترة عصرنا هذا بقليل أن جموعاً من الترك أقبلت فدخلوا في دين الله أفواجاً. فقد ذكر العلامة ابن الأثير في حوادث سنة «٣٤٩هـ» أن نحواً من مائتي ألف أسرة أسلمت من الترك^(١)، ولاشك أن هؤلاء لم يسلموا بين عشية وضحاها بل سبقت ذلك مراحل من الفتح والدعوة ونحو ذلك .

٢- تأمين حدود الدولة الإسلامية في معظم الأحيان وإرهاب الأعداء من التعرض لها وانتهاك حرمتها. إضافة إلى غزو الأعداء في عقر ديارهم حيث كانت الحملات المنظمة التي تعرف بالصوائف والشواتي وكانت شبه سنوية إضافة إلى الحملات الطارئة التي كانت الخلافة تسيرها كلما دعت الحاجة إليها .

٣- القضاء على عدد من الثورات ومن أهمها ثورة الزنج وقرامطة العراق والشام. على الرغم من قوتها واستفحال أمرها .

لكن هل هذه الآثار هي الآثار المطلوبة من هذه الوسيلة العظيمة التي شرعها الله للمسلمين لنصرة هذا الدين وحمايته ؟

من وجهة نظري المتواضعة أن هذه الآثار التي أحدثتها وسيلة الجهاد في هذا العصر لم تكن الآثار المطلوبة مقارنة بالعصور التي سبقت عصرنا هذا. ويبدو لي أن لذلك أسباباً يمكن أن أجملها فيما يلي :-

(١) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٥٨/٦ .

- ١- أن هذا العصر يتصف بصفة إجمالية بضعف الخلافة الإسلامية لضعف عدد من الخلفاء فيه، وتسلب القواد الأتراك عليهم في معظم الأحيان .
- ٢- أن هذا العصر اتسم بكثرة الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية، وهذا بالطبع له أثر كبير في تأثير هذه الوسيلة. حيث إنه بدل أن يكون جيش المسلمين جيشاً واحداً موحداً، تحت قيادة محددة أصبحت هناك عدة جيوش تحت قيادات متعددة، يهم كل واحد منها تحقيق أهدافه وغاياته الخاصة، دون النظر إلى تحقيق أهداف الخلافة الإسلامية وغاياتها.
- ٣- أن هذا العصر اتسم أيضاً بكثرة الفتن والثورات والقتال الداخلي. الأمر الذي أدى إلى إشغال الخلافة عن الجهاد في سبيل الله خارج المجتمع الإسلامي لنشر هذا الدين وإزالة العوائق والعقبات التي تعترض سبيله. ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، بل إن ذلك أطمع الأعداء في الدولة الإسلامية، فقد كتب ملك الروم إلى أهل الثغور أن يحملوا إليه الخراج مهدداً إياهم «إن فعلتم ذلك طائعين وإلا قصدتكم فقد صح عندي ضعفكم»^(١).
- ٤- أن عدداً من الناس لما رأى حال الدولة الإسلامية وما آلت إليه من ضعف بدأ ينشغل عن الجهاد في سبيل الله، وقد ذكر الحافظ ابن كثير وهو يترجم لملك من ملوك الروم كان من أغلظهم قلباً، وأقواهم بأساً، وأكثرهم قتالاً للمسلمين في زمانه، ذكر جملة من أسباب تسلط الروم وغلبتهم للمسلمين كان منها «تقصير أهل ذلك الزمان»^(٢) ويقول الأستاذ محمود شاكر «.... والناس في ترف فكري أشغلهم علم الكلام وزاد ترفهم القعود عن الجهاد وإهمال الحكم لهم، لذا كان العوام يسرون وراء كل من يحقق لهم مصالحهم، أو يدعي أنه يعمل لذلك»^(٣).

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ١/١٤٦ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٢٤٣ .

(٣) محمود شاكر : القرامطة ص ٦٦ .

الباب الثاني

أساليب الدعوة في العصر

العباسي الثاني

الباب الثاني

«أساليب الدعوة في العصر العباسي الثاني»

تمهيد :

إن الدعوة الإسلامية في كل زمان ومكان لا بد لها من استخدام عدد من الأساليب لتقوم من خلالها بدعوة الناس، وحثهم على الالتزام بتعاليم دينهم دقيقها وجليلها.

وفي العصر العباسي الثاني استخدم العلماء والدعاة عدداً من الأساليب في دعوتهم إلى الله تعالى .

وفي هذا الباب سأتحديث إن شاء الله تعالى عن تلك الأساليب من خلال

الفصول التالية :

الفصل الأول : أسلوب الموعدة الحسنة .

الفصل الثاني : أسلوب القدوة الحسنة .

الفصل الثالث : أسلوب التربية والتعليم.

الفصل الرابع : أسلوب الترغيب والترهيب .

الفصل الأول

أسلوب الموعظة الحسنة

الفصل الأول

«أسلوب الموعظة الحسنة»

تمهيد :

أسلوب الموعظة الحسنة من الأساليب المهمة في الدعوة إلى الله تعالى لما له من تأثير حسن في كثير من النفوس بفضل الله تعالى .

وفي العصر العباسي الثاني استخدم العلماء والدعاة هذا الأسلوب في دعوتهم للعالم وغير العالم، وللحاكم والمحكوم، وللصغير والكبير، فكان له بحمد الله تعالى العديد من الآثار الحسنة .

وفي هذا الفصل سأتحدث بعون الله تعالى عن هذا الأمر من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : أهمية أسلوب الموعظة الحسنة .

المبحث الثاني : وعظ الخلفاء والولاة .

المبحث الثالث : وعظ أهل العلم والعامّة .

المبحث الرابع : تقويم أثر هذا الأسلوب .

المبحث الأول

«أهمية أسلوب الموعدة الحسنة»

قبل أن أتطرق إلى أهمية أسلوب الموعدة الحسنة في الدعوة إلى الله تعالى أحب أن أذكر تعريفها في اللغة والاصطلاح .

ففي اللغة قال الراغب الأصفهاني: «الوَعْظُ زجر مقترن بتخويف. قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب. والعظة والموعظة الاسم قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^{(١)(٢)}.

وقال ابن منظور: «الوَعْظُ والعِظَةُ والموعِظَةُ: النصح والتذكير بالعواقب. قال ابن سيده «هو تذكيرك للإنسان بما يُلين قلبه من ثواب وعقاب» وقد وَعَظَهُ وَعَظًا وَعِظَةً، وأتَعِظُ هو: قبل الموعدة»^(٣).

وفي الاصطلاح: الموعدة: «هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب»^(٤). كما عرفها الإمام ابن القيم .

ويعرفها العلامة الألويسي بقوله «وهي الخطابات المقنعة والعبر النافعة التي لا يخفى عليهم - أي المدعوين - أنك تناصحهم بها»^(٥).

(١) سورة النحل: جزء من الآية ٩٠ .

(٢) الأصفهاني: الحسين بن محمد، المعروف بالراغب، المفردات في غريب القرآن، مادة «وعظ» ص ٥٢٧ . (ط. بدون، دار المعرفة، بيروت، تحقيق محمد سيد كيلاني).

(٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة «وعظ» ٤٦٦/٧ .

(٤) ابن القيم: محمد بن أبي بكر، التفسير القيم، ص ٣٤٤ . (ط. بدون، لجنة التراث العربي، بيروت، جمعه محمد الندوي، حققه محمد الفقي).

(٥) محمود شكري الألويسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢٥٤/١٤ (ط. بدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

ويعرفها الشيخ علي محفوظ بأنها «القول الحق الذي يُلين القلوب ويؤثر في النفوس، ويكبح جماح النفوس المتمردة ويزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية»^(١).

ويعدُّ أسلوب الموعدة الحسنة من الأساليب المهمة في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وذلك لما له من تأثير قوي في القلوب الغافلة، والنفوس الجامحة، فإنه كثيراً ما يهدي الله به القلوب الشاردة، ويؤلف به القلوب النافرة، ويهذب به النفوس الجامحة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ. فهو يحثها على المسابقة إلى فعل الخيرات، والطاعات، ويحذرها من ارتكاب المحرمات والمنكرات .

ولقد أمر الله تبارك وتعالى باستخدام هذا الأسلوب وحث عليه في غير موضع من كتابه الكريم، فقال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢).

كلام الإمام ابن القيم في بيان لمن يستخدم له أسلوب الموعدة الحسنة :

يقول العلامة ابن القيم عند حديثه عن هذه الآية : «جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق. فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بالحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة أو تأخر : يدعى بالموعدة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، والمعاند الجاحد : يُجادل بالتي هي أحسن»^(٣).

(١) علي محفوظ : هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة ص ٧١ (ط. التاسعة، دار الاعتصام، مصر ، ١٣٩٩هـ).

(٢) سورة النحل : الآية ١٢٥ .

(٣) ابن القيم : التفسير القيم ص ٣٤٤ .

كلام الشيخ ابن عاشور في بيان تقييد الموعظة الحسنه :

ويقول الشيخ ابن عاشور عند حديثه عن الآية نفسها : «وُقِيْدَتِ الموعظة بالحسنة، ولم تُقَيَّدِ الحكمة بمثل ذلك، لأن الموعظة لما كان المقصود منها غالباً ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيئة، أو عند توقع ذلك منه، كانت مظنة لصدور غلظة من الواعظ، ولحصول انكسار في نفس الموعوظ، أرشد الله رسوله ﷺ أن يتوخى في الموعظة أن تكون حسنة أي بإلانة القول، وترغيب الموعوظ في الخير»^(١).

وقال أيضاً سبحانه وتعالى آمراً وموجهاً موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(٢). فرنا تبارك وتعالى يحث في هذه الآية على استخدام هذا الأسلوب حتى مع هذا الطاغية المتجبر. يقول الحافظ ابن كثير «هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى عليه الصلاة والسلام صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»^(٣).

«وتليت هذه الآية عند يحيى بن معاذ^(٤)، فبكى وقال : هذا رفقك بمن يقول : أنا إله، فكيف بمن قال : أنت الإله؟ وهذا رفقك بمن قال «أنا ربكم الأعلى» فكيف بمن قال : سبحانه ربي الأعلى»^(٥).

(١) محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ١٤/٣٢٩ (ط. بدون، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٣٩٧هـ).

(٢) سورة طه : الآيتان ٤٣، ٤٤ .

(٣) ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٣/١٥٣ (ط. بدون، دار التراث، القاهرة).

(٤) هو يحيى بن معاذ الرازي، الواعظ من كبار المشايخ له كلام جيد ومواعظ مشهورة، توفي سنة ٢٥٨هـ .
(الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/١٥، وابن كثير : البداية والنهاية ١١/٣١).

(٥) النسفي : عبد الله بن أحمد، تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ٣/١٩٤، (ط. بدون، المكتبة الأموية، بيروت، مكتبة الغزالي، حماة).

ولو تعمنا وتدبرنا في كتاب الله عز وجل لوجدناه كثيراً ما يعرض لهذا الأسلوب، وبين لنا أن عدداً من الرسل عليهم الصلاة والسلام حرصوا على استخدامه في دعواتهم.

فها هو نوح عليه الصلاة والسلام يدعو قومه بأحسن أسلوب وألين عبارة؛ قائلاً لهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ابْلُغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

وها هو هود عليه الصلاة والسلام يدعو قومه بالأسلوب نفسه ﴿وَأَلِيَّ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ابْلُغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ . أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

أما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقد حرص على استخدام هذا الأسلوب والعمل به مع أبيه على الرغم من كفره وغلظته وتهديده بالرجم والهجر، قال سبحانه ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَّبِيًّا . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ يَتَّعِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾^(٣).

(١) سورة الأعراف : الآيات ٦١-٦٣ .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ٦٥-٦٩ .

(٣) سورة مريم : الآيات ٤١-٤٧ .

وهكذا شأن بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام ولو أردنا تتبع ذلك في دعواتهم لطلال بنا المقام .

أما رسولنا ﷺ فقد استخدم هذا الأسلوب في دعوته وحرص عليه أشد الحرص . قال عز وجل ممتناً عليه وواصفاً إياه : ﴿بِمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَكَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(١) .

فتراه ﷺ كثيراً ما يستخدم هذا الأسلوب كيف لا وقد أمره الله عز وجل بقوله : ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً﴾^(٢) ويقوله : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٣) .

روى العرياض بن سارية رضي الله عنه قال «وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقال له رجل : إن هذه موعظة مودع فيماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟

قال : أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرَ اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضواً عليها بالنواجذ»^(٤) .

(١) سورة آل عمران : جزء من الآية ١٥٩ .

(٢) سورة النساء : جزء من الآية ٦٣ .

(٣) سورة النحل : جزء من الآية ١٢٥ .

(٤) سنن الإمام الدارمي : المقدمة، باب اتباع السنة، رقم الحديث «٩٥» ٥٧/١، (ط. الأولى، دار الريان، القاهرة، ١٤٠٧هـ)، سنن الإمام أبي داود : كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم الحديث «٤٦٠٧» ٤/٢٠٠، سنن الإمام ابن ماجه : المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم الحديث : «٤٢» ١٥/١، سنن الإمام الترمذي : أبواب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، رقم الحديث : «٢٦٧٦» ٤٣/٥، وقال : «حديث حسن صحيح» . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، رقم الحديث : «٢٥٤٩» ٤٩٩/١ . وقد راعيت في ترتيب كتب السنة هنا تاريخ الوفاة فحسب .

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه فقال «خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين» (١).

إلا أنه كان ﷺ لا يديم وعظ أصحابه بل يتخولهم بها أحياناً كما روى الإمام البخاري عن أبي وائل قال: «كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يذكرنا كل يوم خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن إنا نحب حديثك ونشتهيهِ، ولوددنا أنك تحدثنا كل يوم، فقال: ما يعني أن أحدثكم كل يوم إلا كراهة أن أملككم، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا» (٢).

الموعظة في الأيام كراهة السامة علينا» (٣).

وهكذا كان رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم يستخدمون هذا الأسلوب كما استخدمه أيضاً من بعدهم من الدعاة إلى الله تعالى، وكان منهم الدعاة إلى الله في العصر العباسي الثاني حيث استخدموه في دعوتهم للخاصة كالخلفاء والأمراء والولاة ونحوهم، وللعمامة ولأهل العلم، وهذا ما سنراه فيما يلي إن شاء الله تعالى.

(١) صحيح الإمام مسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، رقم الحديث: «٢٣٥٩» ١٨٣٢/٤، وانظر صحيح الإمام البخاري مع الفتح، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، رقم الحديث «٦٤٨٥» ٣١٩/١١، حيث رواه بنحوه.

(٢) يتخولنا: التخول: التعهد، أي يتعهدنا فيطلب الحال التي نشط فيها للموعظة فيعظنا، ولا يكثر علينا خشية الملل.

(انظر ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر: مادة «خول» ٨٨/٢، وابن منظور: لسان العرب، مادة «خول» ٢٢٥/١١).

(٣) صحيح الإمام البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم الحديث «٦٨» ١٦٣/١، صحيح الإمام مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الاقتصاد في الموعظة، رقم الحديث «٢٨٢١» ٢١٧٢/٤.

المبحث الثاني «وعظ الخلفاء والولاة»

قهييد :

الخلفاء والأمراء والولاة وغيرهم من ولاة أمور المسلمين كغيرهم من الناس بحاجة إلى الموعظة الحسنة التي تأسر قلوبهم وتؤثر فيها، ومن ثم بإذن الله تعالى تلين جلودهم، وتخشع قلوبهم، وتطمئن نفوسهم إلى ذكر الله وما نزل من الحق. والعلماء والدعاة في العصر العباسي الثاني لم يغفلوا هذا الأمر أو يتناسوه، بل قاموا به متخوليينهم بالموعظة الحسنة وبالكلمة الطيبة، مما كان لذلك الأثر الحسن في أغلبهم ولله الحمد والمنة .

وفي هذا المبحث سأحدث إن شاء الله تعالى عن هذا الأمر تحت العناوين التالية :

أ - وعظ العلماء والدعاة للخلفاء والولاة .

ب- وعظ وتذكير الخلفاء من خلال الشعر .

ج - الخلفاء والوعظ .

أ - وعظ العلماء والدعاة للخلفاء والولاة :

هناك عدة نماذج تدل على قيام العلماء والدعاة في هذا العصر بوعظ الخلفاء والولاة

منها :

١ - وعظ رجل للمتوكل في مكة :

«في سنة ٢٣٥هـ حجَّ المتوكل فرُئي رجل يطوف بالبيت ويدعو على المتوكل، فأخذه

الحرس وجاؤوا به سريعاً، فأمر بمعاقبته، فقال له : والله يا أمير المؤمنين، ما قلت ما قلته إلا

وقد أيقنت بالقتل، فاسمع كلامي ومر بقتلي.

فقال : قل .

فقال : سأطلق لساني بما يرضي الله ورسوله وبغضبك يا أمير المؤمنين، قد اكتنفت دولتك كُتَّاب من الذمة أحسنوا الاختيار لأنفسهم، وأسأؤوا الاختيار للمسلمين، وابتاعوا دنياهم بأخرة أمير المؤمنين. خفتهم ولم تخف الله، وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا مسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أخسر الناس صفقة يوم القيامة من أصلح دنيا غيره بفساد آخرته، واذكر ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة، وأول ليلة يخلوا المرء في قبره بعمله.

فبكى المتوكل إلى أن غشي عليه، وطلب الرجل فلم يوجد»^(١).

ثم إن المتوكل بعد هذه الموعظة أصدر عدة أوامر تجاه أهل الذمة، قال راوي الحادثة: «فخرج أمره -أي المتوكل- بلبس النصارى واليهود الثياب العسليّة... ولا يستخدموا مسلماً في حوائجهم لنفوسهم وأفرد لهم من يحتسب عليهم وكتب بذلك كتاباً»^(٢).

وكان مما جاء في ذلك الكتاب :

«وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناساً لا رأى لهم ولا روية يستعينون بأهل الذمة في أفعالهم، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين، ويسلطونهم على الرعية فيعسفونهم، ويبسطون أيديهم إلى ظلمهم وغشهم، والعدوان عليهم، فأعظم أمير المؤمنين ذلك وأنكره وأكبره وتبرأ إلى الله منه، وأحب التقرب إلى الله تعالى بحسبه والنهي عنه، ورأى أن يكتب إلى عماله على الكُور^(٣) والأمصار، وولاية الثغور والأجناد في ترك استعمالهم للذمة في شيء من أعمالهم وأمورهم...»^(٤)

(١) ابن القيم : أحكام أهل الذمة ٢٢١/١ (ط. الأولى، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨١هـ، تحقيق : د. صبحي الصالح).

(٢) المرجع السابق : ٢٢٢/١ .

(٣) الكُور: جاء في لسان العرب، الكُورَةُ : المدينة والصُّعُ (ابن منظور: لسان العرب مادة «كور» ١٥٦/٥).

(٤) ابن القيم : أحكام أهل الذمة ٢٢٣/١، ٢٢٤ .

فهذا الرجل جاهر بالحق الذي يعتقد، ولم يخف في الله لومة لائم ، مما جعله يقدم على وعظ المتوكل ونصحه على الرغم من إيقانه بالقتل، إلا أن الله جل جلاله حفظه بحفظه، فلم يمس بسوء، بل إن موعظته أثرت في نفس المتوكل فبكى إلى أن غشي عليه. ليس هذا فحسب بل إنه اتخذ عدة إجراءات حسنة فيها ضبط وتنظيم لأوضاع أهل الذمة في المملكة الإسلامية .

٢- وعظ النقيه أحمد بن المعذل^(١) للمتوكل :-

«وجه المتوكل إلى أحمد بن المعذل وغيره من العلماء، فجمعهم في داره ثم خرج عليهم فقام الناس كلهم غير أحمد بن المعذل .

فقال المتوكل لعبيد الله^(٢) : إن هذا الرجل لا يرى بيعتنا .

فقال له : بلى يا أمير المؤمنين ولكن في بصره سوء .

فقال أحمد بن المعذل : يا أمير المؤمنين ما في بصري سوء ولكن نزهتك من عذاب الله . قال النبي ﷺ « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار »^(٣) . فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه^(٤) .

فمن خلال هذه الموعظة الحسنة استطاع ابن المعذل بحمد الله تعالى أن ينكر هذا المنكر، وأن يؤثر على المتوكل الذي لم يتمالك نفسه إلا أن جاء وجلس إلى جنبه تعبيراً عن امتثاله واستجابته لموعظته .

(١) هو أحمد بن المعذل بن غيلان بن حكم شيخ المالكية أبو العباس العبدي البصري كان من بحور الفقه، توفي سنة ٢٤٠هـ (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥١٩/١١، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٩٥/٢).

(٢) يظهر أنه وزيره «عبيد الله بن يحيى بن خاقان» .

(٣) سنن الإمام الترمذي : كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل رقم الحديث « ٢٧٥٥ »

٨٤/٥، وسنن الإمام أبي داود : كتاب الأدب، باب في قيام الرجل للرجل رقم الحديث « ٥٢٢٩ »

٣٥٨/٤ . وصححه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث « ٣٥٧ » ٨٢/١ .

(٤) الحميدي : محمد بن أبي نصر، الذهب المسبوك في وعظ الملوك، ص ٢٣٢ . (ط. الأولى، عالم الكتب،

الرياض، ١٤٠٢هـ).

٣- وعظ الإمام سخنون بن سعيد لابن الأغلِب^(١).

رأى الإمام سخنون بن سعيد الناس يقبلون يد الأمير محمد بن الأغلِب، فقال له : لا تعطهم يدك، لو كان هذا يقربك من الجنة ما سبقونا إليه^(٢).

فمن خلال هذه الموعظة أوضح الإمام سخنون لهذا الأمير أن تقبيل الناس ليداه لا ينفعه في آخرته، بل قد يضره، لما قد يدخل هذا الفعل في نفسه من الكِبَر والعُجْب.

٤- وعظ الشيخ أبي محمد الأنصاري^(٣) لزيادة الله بن الأغلِب^(٤).

جاء الأمير زيادة الله بن الأغلِب إلى دار أبي محمد الأنصاري في حشمه وأهل بيته وخدمه، فقال لخداميه : ادخلا جميعاً إلى هذا الرجل الصالح وأعلماه وقولا له : إمامك بالباب يريد الدخول إليك والسلام عليك. فدخلوا إليه وأعلماه بما أمرهما به زيادة الله .

فقال لهما : قولا له ينصرف عني إلى حال سبيله، فما له عندي حاجة ولا لي عنده حاجة. فخرجا إلى زيادة الله فأعلماه بما ردّ عليهما .

فاغتاط غيظاً عظيماً وقال لهما : ادخلا إليه وأخرجاه شاء أو أبى .

فدخلوا إليه فحمله قوم من أصحابه من الصالحين، حتى وقفوا به إليه .

فقال له زيادة الله : يا هذا أتيناك لتأمرنا بمعروف فنفعله ونسارع إليه وتنهانا عن منكر

فنتزجر عنه فجيّهتني وحجبتني عن نفسك وأنا إمامك ؟

(١) هو محمد بن الأغلِب تقدمت ترجمته في ص ٣٩.

(٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦٢٣/٢ .

(٣) هو أبو محمد الأنصاري الضرير، كان رجلاً صالحاً مستجاباً، وكان ضرير البدن، والبصر، توفي رحمه الله سنة ٢٥٠هـ، وقيل غير ذلك . (انظر المالكي: رياض النفوس ٤١١/١، والدبّاغ : معالم الإيمان ١١٣/٢).

(٤) هو أبو محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلِب التميمي أحد أمراء افريقية، توفي سنة ٢٢٣هـ. (انظر الزركلي : الأعلام ٥٦/٣).

فقال له أبو محمد الأنصاري : لو عملت بما علمت أنبأتك بما جهلت . اذهب عني لثلا
أشتكيك إلى الله عز وجل .

فقال زيادة الله : صدقت . ثم انصرف عنه . فأرسل إليه بَصِلة فلم يقبلها ^(١) .

ففي هذا المثال لما رأى أبو محمد الأنصاري رحمه الله غضب زيادة الله وادعاه أنه ما
أتى إلا لتحقيق مصلحة شرعية - وهي طلب أمره بمعروف أو نهيه عن منكر- لما رأى ذلك
وعظه بموعظة موجزة تناسب الحال والمقام، حيث قال له: « لو عملت بما علمت أنبأتك بما
جهلت » ففيها إشارة وتنبيه إلى أن المهم ليس العلم فقط بل الأهم منه العمل بهذا العلم
الذي يعلمه .

٥- وعظ الفقيه محمد بن يحيى ^(٢) لأحمد بن الأغلب ^(٣) :

عندما تكلم الأمير أحمد بن الأغلب بكلام يشعر بالكفر في حال سكره ندم بعد ما أفاق
من سكره وأعلم بذلك . وقال للفقهاء : هل لي من توبة، فصعبوها عليه . فقال له : محمد
ابن يحيى « إن كنت اعتقدت ما تكلمت به فهو عند الله عظيم وإن كنت لم تعتقده فالتوبة
مبسوطة، فتب إلى الله تعالى وتقرّب إليه بالصدقة » .

فقال له الأمير : جزاك الله خيراً كما دللتني على الله تعالى ولم تؤسني من رحمته
التي وسعت كل شيء .

(١) انظر المالكي : رياض النفوس ٤١٢/١ ، والديباغ : معالم الإيمان ١١٥/٢ ، ١١٦ .

(٢) هو محمد بن يحيى بن سلام التيمي ، كان فقيهاً ، فاضلاً ، ورعاً ، حافظاً ، قليل الكلام والخوض في أمور
الناس ، طويل الصلاة ، توفي سنة ٢٦٢ هـ . (انظر المرجع السابق ، ١٤٥/٢) .

(٣) هو أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب التميمي ولي إمارة إفريقية سنة ٢٤٢ هـ ، واستمر على
ذلك حتى توفي سنة ٢٤٩ هـ . (انظر الزركلي : الأعلام ٢٠٤/١) .

فظهرت من الأمير آثار جميلة من أفعال البر والصدقات وبناء المساجد والمواجل^(١) حتى مات ولم يترك في بيوت أمواله شيئاً^(٢).

فاستطاع هذا الفقيه بفضل الله تعالى من خلال هذه الموعظة أن يدلّ هذا الأمير على الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكه، وهو طريق التوبة والإنابة إلى الله تعالى، وأن يكثّر من الصدقة في سبيل الله لعلّ الله عز وجل أن يقبل توبته ويغفر زلته .

فتاب الأمير، وأكثر من الصدقة حتى ظهرت منه تلك الآثار الجميلة.

٦- وعظ القاضي ابن طالب^(٣) لإبراهيم بن الأغلب^(٤) :

قال الأمير إبراهيم بن الأغلب لأحد ندمائه، وقد دخل معه بستاناً له فيه ثمر كثير قد طاب «دخلت هذا الجنان مع ابن طالب، في مثل هذا الحين، فناولته من بعض ثمره، فقال لي: أيها الأمير، يجب لله عليك شكران أن بلغك غرسه، ثم أكلت ثمره . فقلت له : وما هذا الشكر؟

قال : أن تصلي ركعتين . فأمرت بحصيرين، فبسط لي واحد وله آخر، فصلينا ركعتين، ثم قال لي : وبقي آخر.

فقلت : وما هو ؟ قال : تبعث بصدقة إلى أهل «الدمنة»^(٥) فإنهم أهل زمانة وضعف . قال ففعلت .

(١) المواجل : جمع موجل وهي تشبه اليوم خزانات المياه. قال ابن منظور : والموجل : حفرة يستنقع فيها الماء . (ابن منظور : لسان العرب، مادة «وجل» ١١/٧٢٣).

(٢) الدباغ : معالم الإيمان ٢/١٤٦ .

(٣) هو عبد الله بن طالب التميمي تقدمت ترجمته في ص ٨٧.

(٤) تقدمت ترجمته في ص ٤٢.

(٥) الدُمَّنة : هو ما يشبه اليوم دور ومراكز الرعاية الاجتماعية. جاء في معالم الإيمان : الدُمَّنة : موضع سكنى المجذومين، (الدباغ : معالم الإيمان ٢/٢٥١)، وقال محقق رياض النفوس : «يفهم منها أنها تشبه ما سمي في المشرق بـ «البيمارستان» . (رياض النفوس، ١/٤١١ هامش رقم «٣» .)

قال : بقي آخر . قلت : وما هو ؟

قال : تعزل من عمالك من كان جائراً وتجعل مكانه من يعدل في الرعية . قال : فأمرت

بذلك .

ثم قال الأمير إبراهيم : فدخلت مع غيره، فلما ناولته من ثمره .

قال : الأمير يحب قاضيه والرعية تمتهنه . فجعلني ضربت وقتلت^(١) .

ففي هذه الحادثة نلاحظ حسن تصرف ابن طالب واستفادته من هذه الفرصة ليعظ الأمير

وينصحه.

كما نلاحظ في نهاية النص، الفرق بين القاضيين فالقاضي ابن طالب وعظ ونصح، أما

القاضي الثاني فلم يفعل شيئاً من ذلك بل سعى لمصلحته الخاصة حيث حرّض الأمير على

الرعية مما جعله يضرب فيهم ويقتل .

٧- وعظ الشيخ عبد الجبار السرتي^(٢) لإبراهيم بن الأغلب :

دعا ذات يوم الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب جماعة من العلماء والوجهاء بمناسبة

تختين مجموعة من أولاده، وكان فيمن أجاب هذه الدعوة عبد الجبار السرتي « فلما أتى إلى

الأمير أكبره وعظمه وسر برؤيته، وأخرج إليه أولاده فدعا لهم وبارك عليهم . ثم قال : أيها

الأمير هل علمت مقدار هذه النعمة التي أنعم الله تعالى عليك بها ؟ فإنه أعطاك مثل

(١) المالكي : رياض النفوس : ٤٧٨/١ .

(٢) هو عبد الجبار بن خالد السرتي، أبو حفص، كان صالحاً، متعبداً، طويل الصلاة، كثير الدعاء، مجتهداً

وكان من عقلاء شيوخ افريقية، توفي سنة ٢٨١ هـ . المرجع السابق ١/٦٦٣، والدباغ : معالم الإيمان

.(١٨٥/٢)

هؤلاء البنين، وعلمتهم كتاب الله عز وجل، وأحييت فيهم سنة رسول الله ﷺ وقد بلغني أنك بالغت فيما عملت من الأطفمة ودعوت إلى ذلك الأغنياء .

فقال له : أجل لموضع المسرة لا متاً بذلك .

فقال له عبد الجبار : فلو استكملت هذه المسرة بأن تذكر الفقراء فيها .

فقال له : صدقت وبررت . ثم دعا بكيس فيه خمسمائة دينار ودفعه لعبد الجبار وسأله أن يفرقه على الفقراء والمساكين، فأجابه عبد الجبار إلى ذلك .

فلما انصرف قال الأمير لكاتبه رجاء : يا رجاء، رأيت ما أعقله، وما أظرفه، أتعرف في رعيتي مثله؟ إنه قضى ذمامنا، وتعافى من طعامنا، وأخرج مالنا فيما يرضينا.

فتصدق عبد الجبار رحمه الله بجميع الدنانير على الفقراء والمساكين ولم يبق منها شيئاً^(١) .

ففي هذه الحادثة تظهر لنا فائدتان :

١- أهمية وفائدة الوعظ والنصح والتذكير وحاجة الناس إلى ذلك، وبخاصة من ولاهم الله شيئاً من أمور المسلمين .

٢- تقدير وتعظيم الأمير لهذا الشيخ لما رأى من إخلاصه وحسن تصرفه، فهو لا يسعى إلى مصلحة نفسه بل نبه وأرشد هذا الأمير إلى ما ينبغي أن يفعله وهو الإحسان إلى الفقراء وعدم نسيانهم في جميع الأوقات. لأنهم من رعيتهم وهو مسؤول عنهم أمام الله عز وجل .

(١) المالكي : رياض النفوس : ٤٦٦/١ ، والدباغ: معالم الإيمان ٢/١٩٠ .

٨- وعظ الشيخ محمد بن أبي حميد^(١) لابن الأغلِب :-

أتى الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلِب إلى سوسة^(٢) ، وقد بلغه عن أهلها أذى فأراد أن يخرّبها ، ويهدم سورها . فوصل إليها ليلاً فأتى إلى «الدمنة» فنزل في مسجدّها فاجتمع إليه أهل الدمنة ، فقال لهم : هل عندكم أحد يحفظ القرآن يخرج إليّ؟ فخرج إليه محمد بن أبي حميد ، فسلم عليه وجلس معه ساعة ، ثم قال له : ما أتى بك ؟ فقال له : بلغني أن أهل هذه المدينة تكلموا فيّ بالقبيح وآذوني ، فجئت معتمداً لإخرابها وإخراب سورها ، وعذاب أهلها .

فقال له ابن أبي حميد : يأذن لي الأمير أن أقرأ ، فقال له : اقرأ . فقرأ بعد أن تعود :
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) .

فبكى الأمير عند ذلك بكاءً عظيماً ، ثم قال : والله لا فعلت شيئاً مما كنت اعتقدت ، وركب من ساعته راجعاً إلى القيروان^(٤) .

فمن خلال هذه الموعظة استطاع بحمد الله تعالى هذا الشيخ أن يصرف الأمير ابن الأغلِب عن إخراج مدينتهم ، حيث نبه الأمير إلى أنه إن فعل ذلك وأخرّب مدينتهم ، فإن الله عز وجل سيعوضهم خيراً منها إن علم في قلوبهم خيراً .

(١) هو محمد بن أبي حميد السوسي ، أبو عبد الله من أصحاب الإمام سحنون بن سعيد كان عظيم القدر كبير الشأن توفي بسوسة سنة ثلاث وتسعين ومائتين . (انظر المالكي : رياض النفوس ٥/٢ ، والدبّاغ : معالم الإيمان ٢/٢٥٠) .

(٢) تقدم التعريف بها في ص ٤٣ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٧٠ .

(٤) المالكي : رياض النفوس ٩/٢ ، والدبّاغ : معالم الإيمان ٢/٢٥٣ .

٩- وعظ القاضي منذر بن سعيد^(١) للناصر لدين الله^(٢) :

ومن مواعظ الخلفاء والولاة المشهورة موعظة القاضي منذر بن سعيد البلوطي للخليفة عبد الرحمن الناصر حينما تكلف في عمارة مدينة الزهراء ويروي لنا هذه الحادثة أبو نصر الفتح بن محمد بن خاقان، فيقول: «كان الخليفة الناصر كلفاً بعمارة الأرض، وإقامة معالمها وانبساط مياهها واستجلابها من أبعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه، وعزة سلطانه وعلو همته، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى ابتناء مدينة الزهراء ... فأراد القاضي منذر بن سعيد رحمه الله وجه الله في أن يعظه ويقرعه في التأنيب، ويغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطابة، والتذكير بالإنابة، فابتدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿اتَّبِنُونَ بِكُلِّ رِيعِ آيَةٍ تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٣) ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، جاش به صدره وقذف به على لسانه بحره، وأفضى في ذلك إلى ذم المشيد والاستغراق في زخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، فجرى في ذلك طلقاً، وتلا فيه قوله تعالى: ﴿أَقْمِنَ أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٤) وأتى بما شاكل المعنى من التخويف بالموت

(١) هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن البلوطي الكزني أبو الحكم كان فقيهاً محققاً وخطيباً بليغاً، لم يكن بالأندلس أخطب منه، وكان رحمه الله ورعاً كثير العبادة لله تعالى. قيل إنه ولد سنة ٢٦٥هـ، وتوفي سنة ٣٥٥هـ. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦٣/١٦، والنباهي: أبو الحسن بن عبد الله، تاريخ قضاة الأندلس، ص٦٦، ط. الخامسة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٣هـ).

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المرواني الأموي الأندلسي بويج له سنة ٣٠٠هـ ودامت دولته خمسين سنة حيث توفي سنة ٣٥٠هـ. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/٥٦٢).

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٢٨-١٣٥.

(٤) سورة التوبة: الآيات ١٠٩ - ١١٠.

والتحذير منه، والدعاء إلى الله عز وجل في الزهد في هذه الدنيا الفانية والحض على اعتزالها والتبيين لظاهر معانيها والترغيب في الآخرة ومغانيها، والتقصير عن طلب اللذات، ونهي النفس عن اتباع الشهوات، وتلا من القرآن العظيم ما يوافقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله وبطابقه، حتى بكى الناس وخشعوا وضجوا وتضرعوا وأعلنوا الدعاء إلى الله تعالى في التوبة والابتغال في المغفرة .

فعلم الخليفة أنه هو المقصود به والمعتمد بسببه، فاستجدى وبكى، وندم على ما سلف منه من فرطه، واستعان بالله من سخطه، واستعصمه برحمته، إلا أنه وجد على منذر بن سعيد لغلظ ما قرعه به، فشكا ذلك إلى ولده الحكم بعد انصرافه، وقال : والله لقد تعمّدني منذر بخطبته وأسرف في ترويعي وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي وصيائتي عن توبيخه واستشاذ غيظاً عليه وأقسم أن لا يصلي خلفه الجمعة أبداً.

فقال له ابنه الحكم : وما الذي يمنعك من عزل منذر بن سعيد والاستبدال منه بغيره؟ فزجره وانتهره، وقال له : أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه - لا أم لك - يعزل في إرضاء نفس ناكبة عن الرشيد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله تعالى أن أجعل بيني وبينه شفيعاً في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد، ولكنه وقد نفسي وكاد أن يذهبها، والله لوددت أنني أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا فما أظننا نتعاض منه أبداً»^(١).

وللقاضي منذر بن سعيد رحمه الله موقف آخر مع الخليفة عبد الرحمن الناصر نفسه، حيث إنه اتخذ قبة أنفق عليها مالا جسيماً، وجعل سقفها صفراء فاقعة، إلى بيضاء ناصعة، تسلب الأبصار، بمطارح أنوارها المشعشة. وجمع ذات يوم قرابته، ومن حضره من الوزراء، وقال لهم «هل رأيتم قبلي أو سمعتم من فعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه؟

(١) ابن خاقان : الفتح بن محمد بن عبيد الله ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مَلح أهل الأندلس ٢٤٥-٢٤٨ . (ط. الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ، تحقيق محمد علي شوابكة).

فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين وإنك لأوحد في شأنك كله، ولا سبقك في مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره، فأبهجه قولهم، وبينما هو كذلك ساراً ضاحكاً إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجماً ناكس الرأس فلما أخذ مجلسه، قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف واقتداره على إبداعه، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته، وقال له :

والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله وفضلك على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين.

فاقشعر الخليفة من قوله وقال : انظر ما تقول، وكيف أنزلي منازلهم؟

قال : نعم، أليس الله تبارك وتعالى يقول: **﴿وَكَلَّوْنَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَكَيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾** (١)

فوجم الخليفة ونكس رأسه ملياً ودموعه تجري على لحيته خشوعاً لله تبارك وتعالى وندماً.

ثم أقبل على منذر وقال له : جزاك الله تعالى يا قاضي خيراً عنا وعن المسلمين والدين وكثر في الناس أمثالك، فالذي قلت والله الحق وقام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى، وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قرمدها (٢) تراباً (٣).

(١) سورة الزخرف : الآيتان ٣٣، ٣٤ .

(٢) قرمدها : جاء في اللسان، القرمذ : كل ما طلي به للزينة. (ابن منظور : لسان العرب، مادة «قرمد» .(٣٥٢/٣)

(٣) ابن خاقان : مطمح الأنفس ٢٥٧-٢٥٩، والنهاي : تاريخ قضاة الأندلس ٧١-٧٢ .

ففي هاتين الحادثتين يتبين لنا فوائد عدة منها :

- ١- أن الموعظة لا بد أن تكون بأحسن أسلوب وألطف عبارة، وقد يلجأ الواعظ إلى الغلظة والتقريع متى ما رأى أن في ذلك مصلحة .
- ٢- عظم مكانة القاضي عند الخليفة لعلمه بصلاحه وورعه، وحسن قصده فلم يؤذ به بشيء بل ويخ ابنه وزجره عندما عرض عليه عزله عن الخطابة .
- ٣- سرعة تأثير هاتين الموعظتين في نفس الخليفة مما جعله يبكي ويندم على ما فعل .
- ٤- أهمية المجلس الصالح، ووجوب الحرص عليه لاسيما في حق من ولأهم الله شيئاً من أمور المسلمين لأنه يدلهم على الخير ويحثهم عليه .

ب - وعظ وتذكير الخلفاء من خلال الشعر :

لم يقتصر أسلوب الموعظة الحسنة في العصر العباسي الثاني على النثر فقط بل كان هناك الشعر أيضاً فنرى عدداً من الشعراء قاموا باستخدام هذا الأسلوب في وعظ الخلفاء والولاة .

١- وعظ علي الهادي^(١) للمتوكل :

ذكر للمتوكل أن بمنزل علي الهادي بن محمد الجواد سلاحاً فوجه إليه ليلاً من يقبض عليه، فوجدوه جالساً مستقبلاً القبلة وعليه مدرعة من صوف، وهو على التراب ليس دونه حائل.

(١) هو علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو أحد أحفاد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه كان عابداً زاهداً، نقله المتوكل إلى سامراء فمات بها سنة ٢٥٤هـ . (ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٥).

فأخذوه إلى المتوكل وهو على شرابه، فلما مثل بين يديه أجله وأعظمه وأجلسه إلى جانبه وناوله الكأس الذي في يده فقال :

يا أمير المؤمنين لم يدخل باطني ولم يخالط لحمي ودمي قط، فاعفني منه. فأعفاه ثم قال له: أنشدني شعراً، فأنشده :

بَاتُوا عَلَى قُلُلٍ ^(١) الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ	غَلَبُ ^(٢) الرِّجَالِ فَمَا أَغْتَنَّهُمُ الْقُلُلُ
وَاسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عَزْزٍ عَنِ مَعَاقِلِهِمْ	فَأُودِعُوا حَفْرًا يَا بئسَ مَا نَزَلُوا
نَادَى بِهِمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوا	أَيْنَ الْأَسْرَةُ وَالتَّيْجَانُ وَالْحُلُلُ
أَيْنَ الْوَجُوهُ الَّتِي كَانَتْ مُنْعَمَةً	مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَالْكِلَلُ ^(٣)
فَأَفْصَحَ الْقَبْرُ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَ لَهُمْ	تِلْكَ الْوَجُوهُ عَلَيْهَا الدُّودُ يَقْتَتِلُ
قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا لَبَسُوا	فَأَصْبَحُوا بَعْدَ طَوْلِ الْأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا

فبكى المتوكل حتى بل الثرى، وبكى من حوله بحضرته، وأمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار، وتحلل منه وردّه إلى منزله مكرماً^(٤).

(١) قُلُلٌ : جمع قُلَّة ، وقُلَّة كل شيء رأسه وأعله والمراد هنا أعالي الجبال. (ابن منظور : لسان العرب، مادة «قلل» ٥٦٥/١١).

(٢) غَلَبُ الرِّجَالِ : المراد هنا أقوياء الرجال. يقال رجلٌ غَلْبَةٌ وغَلْبَةٌ : أي غالب كثير الغلبة. (المرجع السابق : مادة «غلب» ٦٥١/١).

(٣) الكِلَلُ : جمع كِلَّة وهي ستر وغشاء من ثوب رقيق يتوقى به من البعوض . (المرجع السابق : مادة «كلل» ٥٩٥/١١).

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٥ .

٢- وعظ البياضي^(١) للراضي بالله :

لما كثرت الشكاية من أهل الذمة في زمن الخليفة الراضي بالله وعظه الشعراء في ذلك
وكان منهم مسعود بن الحسين الشريف البياضي، حيث قال :

يا بن الخلائف من قريش والأولى	طهّرت أصولهم من الأذناسِ
قلدت أمر المسلمين عدوهم	ما هكذا فعلت بنو العباسِ
حاشاك من قول الرعية إنّه	ناس لقاء الله أو مُتناسِ
ما العذر إن قالوا غداً هذا الذي	وَلِي الْيَهُودَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ
أتقولُ كانوا وفروا الأموال إذ	خانوا بكفرهم إله الناسِ
لا تذكرن إحصاءهم ما وفروا	ظلماً وتَنسى مُحصيَ الأنفاسِ
وخفِ الإلهَ غداً إذا وُقِيت	مَا كَسَبَتْ يَدَاكَ الْيَوْمَ بِالْقِسْطِ
في موقفٍ ما فيه إلا شاخصُ	أو مُهْطِعُ أو مَقْنَعُ لِلرَّأْسِ
أعضاؤهم فيه الشهودُ وسجنهم	نارٌ وحارسُهم شديدُ البأسِ
إن تُمِطَلِ الْيَوْمَ الدُّيُونَ مع الغنى	فغداً تُؤدِّيها مع الإفلاسِ
لا تَعْتَذِرْ عَن صَرْفِهِمْ بِتَعَذُّرِ	المتصرفين الحذق الأكياسِ ^(٢)
ما كنتَ تَفْعَلُ بعدهم لو أهلكوا	فافعلْ وَعَدُّ الْقَوْمِ فِي الْأَرْمَاسِ ^(٣)

(١) لم أظفر له بترجمة فيما اطلعت عليه من كتب السير والتراجم والطبقات ونحو ذلك .

(٢) الأكياس : جمع كَيْس أي العاقل والكيس العقل . (ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر مادة «كيس» ٢١٧/٤).

(٣) الأرماس : جمع رَمْس وهو القبر وأصل الرمس : الستر والتغطية . (المرجع السابق : مادة «رمس» ٢٦٣/٢) وذكر هذه الآيات العلامة ابن القيم : في أحكام أهل الذمة ٢٢٥/١ .

ج - الخلفاء والوعظ :-

كان بعض الخلفاء ممن يقولون الشعر ويحسنونه يقولون قصائد وعظية لاسيما في حالة الاحتضار ومفارقة هذه الدنيا التي طالما ما تنعموا بها. ومن هؤلاء الخليفة المعتضد بالله حيث قال حينما حضرته الوفاة :

تمتّع من الدنيا فإنك لا تبقى	وخذْ صَفوها ما إن صَفَتْ ودَع الرُّنقا ^(١)
ولا تأمنن الدهرَ إني أمنتَهُ	فلم يُبق لي حالاً ولم يرع لي حقاً
قتلتُ صناديد الرجال فلم أدعْ	عدواً ولم أمهل على ظنّةِ خلقنا
وأخليتُ دورَ الملك من كل نازلٍ	وشتتُهُم غريباً ومزقتهم شرقاً
فلما بلغتُ النُّجم عزاً ورفعة	ودانت رِقابُ الخلق أجمعُ لي رقاً
رما الرُّدي سهماً فأخمدَ جَحرتي	فها أنا ذا في حُفرتي عاجلاً مُلّقي
فأفسدتُ دُنياي ودينِي سَفاهةً	فمن ذا الذي مَنّي بمصرعه أشقى
فيا ليتَ شعري بعد موتي ما أرى	إلى نِعمةِ لله أم نارهُ ألقى ^(٢)

(١) الرُّنقا : الرُّنق هو الكدر يقال ماء رُنق، أي كدر . (انظر ابن منظور : لسان العرب، مادة «رنق» ١٢٧/١٠).

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٤٣٦. وذكر الأبيات ابن الأثير : في الكامل في التاريخ ٦/١٠٠، وابن كثير في البداية والنهاية ٩٤/١١، مع اختلاف في عددها وبعض ألفاظها .

وقال الخليفة الراضي بالله واعظاً ومذكراً، وكان أديباً شاعراً :

كُلُّ صَفْوٍ إِلَى كَدْرٍ كُلُّ أَمْنٍ إِلَى حَازِرٍ
 وقصيرُ الشبابِ للموتِ فيه أو الكِبَرِ
 دَرٌّ دَرٌّ المشيبِ مِنْ واعظٍ يُنذِرُ البَشَرِ
 أيها الأملُ الذي تاه في لُجَّةِ العُسرِ
 أينَ من كانَ قَبْلنا درسَ العَينِ والأثرِ
 سَيردُ المَعَادَ مَنْ عَمُرُهُ كُلُّهُ حَظَرِ
 ربُّ إنِّي ادْخَرْتُ عِنْدَكَ أَرْجوكَ مُدْخَرِ
 ربُّ إنِّي مَؤمِنٌ بِمَا بَينَ الوحيِ في السَّورِ
 واعترافي بتركِ نَفسي وإيثارِ الضَّررِ
 ربُّ فاغفر لي الخَطيئةَ يا خَيرَ مَنْ غَفَرَ^(١)

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦/٢٧٦، وابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٩٧ .

المبحث الثالث

«وعظ أهل العلم والعامّة»

قام الدعاة في العصر العباسي الثاني باستخدام هذا الأسلوب فوعظوا من شعروا بحاجته إلى الموعدة، سواء كان ذلك الموعوظ من أهل العلم، أو من عامة الناس. وكانت مواعظهم تلك عن طريق مجالات متعددة، كالمواعظ الشخصية المباشرة، ومجالس الوعظ والتذكير، بالإضافة إلى الخطب المنبرية، كخطب الجمعة، والعيدين، والاستسقاء، ونحو ذلك .

وفي هذا المبحث سأتمحدث إن شاء الله تعالى عن تلك المواعظ تحت العناوين التالية :

أ - وعظ الدعاة لأهل العلم .

ب - وعظ الدعاة للعامّة .

ج - الوعظ والتذكير من خلال الخطب .

د - الوعظ والتذكير من خلال الشعر .

هـ - أشهر الوعّاظ .

أ - وعظ الدعاة لأهل العلم :

وعظ الشيخ حاتم الأصم^(١) لرجلين من أهل العلم :-

من تلك المواعظ ما قام به الشيخ حاتم الأصم رحمه الله، حيث وعظ رجلين من أهل العلم رأى أنهما قد أسرفا في أشياء متعددة وكان الأولى بهما عدم الإسراف والاقتصار على ما تمس إليه الحاجة والزهد فيما سواه، لأنهما ممن ينسب للعلم وأهله فالواجب عليهما أن يكونا قدوة حسنة لغيرهما .

أما الأول منهما فهو القاضي محمد بن مقاتل^(٢) حيث عاده حاتم الأصم، ومعه جماعة من أصحابه لما علموا أنه عليل، فلما دخلوا عليه رأى حاتم ما هاله من مظاهر البذخ والإسراف والتكلف في منزله فبقى حاتم متفكراً، ثم دخل إلى المجلس الذي فيه ابن مقاتل، فإذا بفرش وطيشة، وإذا هو راقد عليها، وعند رأسه غلام ومُدِيَّة . فأومأ إليه ابن مقاتل أقعد .

فقال : لا أقعد .

فقال له ابن مقاتل : لعل لك حاجة .

قال : نعم . قال : وما هي ؟

قال : مسألة أسألك عنها .

قال : سلني . قال : نعم فاستو حتى أسألكها، فأمر غلامه فأسندوه.

فقال له حاتم : علمك هذا من أين جئت به ؟

(١) هو حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي الواعظ له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم، كان يقال له : لقمان هذه الأمة ، توفي سنة ٢٣٧هـ. (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء، ١١/٤٨٤).

(٢) هو محمد بن مقاتل الرازي ذكره ابن بابويه في تاريخ الري. وقال مات سنة ثمان وأربعين ومائتين وقيل في التي بعدها (انظر ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ٩/٤٦٩ ط. الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد، ١٣٢٧هـ).

قال : الثقات حدّثوني به، قال : عن من ؟

قال : عن أصحاب رسول الله ﷺ .

قال : رسول الله ﷺ من أين جاء به ؟ قال : عن جبريل عليه السلام .

قال حاتم : ففيم أدّاه جبريل عن الله، وأدّاه إلى رسول الله ﷺ ، وأدّاه رسول الله ﷺ إلى أصحابه، وأدّاه أصحابه إلى الثقات، وأدّاه الثقات إليك، هل سمعت في العلم من كان في داره أمير أو منعة أكثر كانت له المنزلة عند الله أكثر ؟

قال : لا . قال : فكيف سمعت من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كان له عند الله المنزلة أكثر ؟

ثم قال حاتم : فأنت بمن اقتنعت بالنبي ﷺ وأصحابه والصالحين ؟ أم بفرعون وغمروذ أول من بنى بالجص والآجر . يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها، فيقول : العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شراً منه.

وخرج من عنده، فزاد ابن مقاتل مرضاً، فبلغ ذلك أهل الري^(١) وما جرى بينه وبين ابن مقاتل .

فقالوا لحاتم : يا أبا عبد الرحمن، إن الطنافسي^(٢) بقزوين^(٣) أكثر شيء من هذا . فسار إليه متعمداً فدخل عليه .

(١) الريّ : مدينة كان اسمها القديم راغا تقع أطلالها بالقرب من مدينة طهران عاصمة إيران، فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (الموسوعة العربية الميسرة ١/٩٠٤).

(٢) هو علي بن محمد بن اسحاق الطنافسي أبو الحسن محدّث قزوين كان ثقة صدوقاً ، توفي سنة ٢٣٥هـ وقيل بعدها بقليل أو قبلها بقليل . (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١١/٤٥٩، وابن حجر : تهذيب التهذيب ٣٧٨/٧).

(٣) قزوين : مدينة كبيرة تقع شمال غرب إيران كانت عاصمة فارس . (الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٣٧٨).

فقال له : رحمك الله، أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني أول مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي، كيف أتوضأ للصلاة .

قال الطنافسي : نعم وكرامة، يا غلام إناء فيه ماء . فأتي بإناء فيه ماء فقعد فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال : يا هذا هكذا فتوضأ .

قال حاتم : مكانك يرحمك الله حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد، فتوضأ حاتم ثلاثاً ثلاثاً حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعاً فقال له الطنافسي : يا هذا أسرفت .

قال له حاتم : في ماذا ؟ قال : غسلت ذراعيك أربعاً .

قال حاتم : يا سبحان الله أنا في كف من ماء أسرفت، وأنت في هذا الجمع كله لم تسرف؟

فعلم الطنافسي أنه أراد به بذلك، ولم يرد أن يتعلم منه شيئاً^(١) .

وعندما قدم حاتم الأصم بغداد بلغ الإمام أحمد بن حنبل كلاماً نُسب إليه فاستحسنه الإمام أحمد وقال : سبحان الله ما أعقله قوموا بنا حتى نسير إليه، فلما دخلوا قالوا له : أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا؟

قال حاتم : يا أبا عبد الله -يعني الإمام أحمد- لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال . قال : أي شيء هي يا أبا عبد الرحمن ؟

قال : تغفر للقوم جهلهم، وتمنع جهلك عنهم، وتبذل لهم شيئك، وتكون من شيئهم آيساً، فإذا كان هذا سلمت^(٢) .

(١) الأصبهاني : أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٨/٨٠-٨٢ . (ط. الخامسة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ).

(٢) المرجع السابق : ٨/٨٢ .

فمما سبق تبين لنا حسن وعظ حاتم رحمه الله وقدرته -بفضل الله تعالى- على التأثير في الموعوظ مع اللجوء إلى الأسلوب غير المباشر في الوعظ، فهو رحمه الله حينما بادر إلى وعظ العالمين لم يقصد التشهير بهما أو الخط من قدرهما والاستعلاء عليهما، بل بادر إلى ذلك لما رأى حالهما وما اتصفا به من إسراف وترف حتى اشتهر عنهما ذلك، لما رأى ذلك بادر إلى وعظهما ونصحهما كي يكونا قدوة صالحة لغيرهما، فإن الناس إذا رأوهما على هذه الحالة احتجوا بفعلهما، بل قد يبادرون إلى تقليدهما والتأسي بهما . وهذا ما أكد عليه حاتم رحمه الله حينما قال لابن مقاتل : مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها، فيقول : العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شراً منه.

فأهل العلم خاصة يجب أن يكونوا قدوة صالحة لغيرهم في أقوالهم وأفعالهم .

ب - وعظ الدعاة للعامة :

١- وعظ الشيخ يحيى بن معاذ^(١) لعامة الناس في الزهد في الدنيا :

من تلك المواعظ ما كان يقوم به يحيى بن معاذ الرازي، حيث كان رحمه الله كثير الوعظ للعامة حتى اشتهر عنه ذلك فمن مواعظه في ذم الدنيا وعدم الاغترار بها ما ذكر عنه أنه قال «الدنيا أميرٌ من طلبها، وخادمٌ من تركها، الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلبها رفضته ومن رفضها طلبته، الدنيا قنطرة الآخرة فاعبروها ولا تعمروها، ليس من العقل بنيان القصور على الجسور، الدنيا عروس وطلبها ماشطتها، وبالزهد ينتف شعرها، ويُسودُّ وجهها، ويُمزق ثيابها. ومن طلق الدنيا فالآخرة زوجته . فالدنيا مُطلقة الأكياس^(٢) ، لا تنقضي عدتها أبداً، فخلّ الدنيا ولا تذكرها، واذكر الآخرة ولا تنسها، وخذ من الدنيا ما يُبلغك الآخرة، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك الآخرة»^(٣) .

(١) تقدمت ترجمته في ص ١٦١ .

(٢) الأكياس : العقلاء .

(٣) الأصبهاني : حلية الأولياء . ٥٤ . ٥٣ / ١٠ .

٢- وعظ الشيخ أحمد بن معتب^(١) لأناس اجتمعوا على منكر :

وكان الدعاة رحمهم الله في هذا العصر يبادرون إلى إنكار المنكر ووعظ صاحبه متى ما رأوا ذلك . فمن ذلك أن أحمد بن معتب، رحمه الله مرّ بدار فسمع فيها غناء، ففرع الباب فخرج إليه صاحب الدار، فاستأذنه في الدخول فاستحيا صاحب الدار واعتذر . فقال: لا بد، فدخل صاحب الدار قبله، وغيب ما كان بين أيديهم من شراب ثم أذن له . فدخل وسلم ثم قال : من المتكلم ؟ فقالوا : هذا .

فقال : سألتك بالله إلا أعدت ما سمعت منك، فقال مُغْنِيهِمْ :

العفو أولى بمن كانت له القدر لا سيّما العفو عن من ليس ينتصرُ
أقرُّ بالذنب إجلالاً لسيدهِ وقامَ بينَ يديهِ وهو يعتذرُ

فبكى أحمد وخرّ وأنّ فرده مراراً، ثم قال «تاب الله عليكم، أخذ الله بأيديكم» فأمن صاحب الدار، ثم خرج أحمد، فقال صاحب الدار «والله لا عصيت الله بعدما رأيت هذا الشيخ أبدأ» فتاب هو ومن كان معه في المجلس^(٢) .

نعم هؤلاء اجتمعوا على منكر، لكنهم تفرقوا على توبة ورجوع إلى الله عز وجل . حيث منّ الله عليهم وسخّر لهم هذا الرجل الصالح ليعظهم ويذكرهم بالله والدار الآخرة بحاله ومقاله، فقد تأثر بما سمع وبكى وأجهش بالبكاء، كيف هؤلاء يقولون هذا الكلام ويرددونه، ومع ذلك لم ينتفعوا به حيث اجتمعوا على الغناء والشراب .

ونلاحظ أن الشيخ رحمه الله لم يزرهم ولم يوبخهم ويغلظ لهم القول، بل ألانه لهم، حيث دعا لهم بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى. وهكذا يجب أن يفهم الداعية إلى الله تعالى أن الأصل في الدعوة اللين والرفق ولا يعدل عنهما إلا عند الحاجة إلى غيرهما .

(١) هو أحمد بن معتب بن أبي الأزهر بن عبد الوارث بن حسن الأزدي كان من أصحاب الإمام سحنون بن سعيد كان عالماً فقيهاً صالحاً زاهداً، توفي رحمه الله سنة ٢٧٧هـ. (انظر المالكي : رياض النفوس ٤٧٠/١، والديباغ : معالم الإيمان ١٧٧/٢).

(٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢٣٢/٣، والديباغ : معالم الإيمان ١٧٨/٢ .

٣- وعظ الشيخ عبد الجبار السرتي^(١) لشاب كاد أن يرتكب منكراً :

خرج عبد الجبار السرتي من داره يوم الجمعة لصلاة الجمعة، فإذا شاب جميل له هيئة حسنة ولباس جميل وقد اتبع صبية يمشي خلفها، فلما رآه عبد الجبار شق عليه ذلك، فاتكأ برجله على رجله الأخرى فقطع شسع^(٢) نعله، فصاح: يا شاب يا شاب، فالتفت الشاب ووقف فمشى إليه عبد الجبار وقال له: قد كبرت سنّي وضعف بصري، وقد انقطع شسع نعلي فأصلحه لي. فأصلحه له.

ثم نظر عبد الجبار إلى الصبية وقد أمسكت في مشيتها، فأخذ النعل من الشاب وأدخله في رجله، وتمادى الشاب في أثر الصبية، فاتكأ عبد الجبار على نعله ثانية فقطعه، ثم صاح: يا شباب يا شاب - وكانت لعبد الجبار هيئة عظيمة - فعاد إليه الشاب فقال له: أصلح النعل يا مبارك، ما أصلحته إصلاحاً جيداً، أظنك أصلحته وأنت مستعجل. فأخذه الشاب وأصلحه، فعطف عليه عبد الجبار وقال: يا شاب أنا قطعت النعل في المرة الأولى والثانية، وإنما فعلت ذلك إشفاقاً عليك ورحمةً لك، وخفت والله يا بني على هذا الشباب الصبيح من لفتح النار.

ويكى عبد الجبار ويكى الشاب. ثم قال له:

جزاك الله خيراً، فوالله لا عدت إلى ما كان مني أبداً.

ثم صحب عبد الجبار إلى الجامع وتاب وحسنت تويته وإنابته. وكان من فضلاء أهل وقته، ونفعه الله عز وجل بنية عبد الجبار ويتلطفه وترفقه^(٣).

(١) تقدمت ترجمته في ص ١٧٦.

(٢) الشَّسْعُ: أحد سيور النعل وهو الذي يُدخَل بين الأصبعين ويُدخَل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل.

(ابن منظور: لسان العرب، مادة «شسع» ١٨٠/٨).

(٣) المالكي: رياض النفوس: ٤٦٥/١، والقاضي عياض: ترتيب المدارك ٢٦٢/٣.

ففي هذه الموعظة لجأ الشيخ عبد الجبار رحمه الله إلى الحيلة في وعظ هذا الشاب، حيث قطع شسع نعله ليجعل من ذلك مدخلاً لوعظه عن ارتكاب ما حرم الله عليه من منكر .
فلو وعظه مباشرة قد لا يستجيب الشاب له مثلما استجاب له هنا . فما أجمل ما عمل!
وما أحسن ما كسب !

ج - الوعظ والتذكير من خلال الخطب :

ما تقدم ذكره كانت عبارة عن نماذج لمواعظ شخصية مباشرة وجهت لأناس معينين لأسباب مختلفة ومتعددة .

وهنا سأطرق إن شاء الله تعالى إلى المواعظ التي كان يلقيها العلماء والدعاة عن طريق الخطب كالجمعة والعيد والاسْتِسْقَاء .

فمن خلال هذه الخطب يقوم الخطباء بدور كبير في وعظ العامة ونصحهم وتذكيرهم بالله عز وجل، متى ما وُقِّقوا إلى حسن استخدامها والاستفادة منها . حيث إن هذه الخطب المتعددة تكون أشبه بمحطات تزود يتزود الناس منها بالمواعظ والنصائح بين حين وآخر .

وعظ القاضي منذر بن سعيد الناس من خلال خطبة الاستسقاء :

ومن تلك الخطب خطب القاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله الذي اشتهر ببلاغة وعظه وحسن تأثيره في الناس.

أذكر منها خطبته للاستسقاء، حيث إن الناس في عهد الخليفة الناصر لدين الله قحطوا فأمره الخليفة بالاستسقاء بالناس فلما اجتمع الناس في المصلى، وغصت بهم ساحاته، خرج نحوهم ماشياً متضرعاً، مخبتاً، متخشعاً، وقام ليخطب .

فلما رأى يَدَارَ النَّاسِ إِلَى ارْتِقَابِهِ، وَاسْتِكَانَتِهِمْ مِنْ خِيفَةِ اللَّهِ، وَإِخْبَاتِهِمْ لَهُ، وَابْتِهَالِهِمْ إِلَيْهِ، رَقَّتْ نَفْسُهُ، وَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَاسْتَغْفَرَ، وَبَكَى حِيناً ثُمَّ افْتَتَحَ خُطْبَتَهُ بِأَنْ قَالَ :

«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» ثُمَّ سَكَتَ، وَوَقَّفَ شَبِيهَ الْحَصْرِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَتِهِ، فَنَظَرَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَا يَدْرُونَ مَا عَرَاهُ، وَلَا مَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ، ثُمَّ انْدَفَعَ تَالِيًا بِقَوْلِهِ :

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)

اسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ وَتَوَيَّأُوا إِلَيْهِ وَتَزَلَّفُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ لَدَيْهِ. فَهَاجَ النَّاسُ بِالْبُكَاءِ، وَجَارُوا بِالْإِعْتِازِ، وَمَضَى عَلَى تَمَامِ خُطْبَتِهِ، فَفَرَعَ النَّاسُ بُوْعُظَهُ، وَانْبَعَثَ الْإِخْلَاصُ بِتَذْكِيرِهِ، فَمَا أَتَمَّ خُطْبَتَهُ حَتَّى بَلَغَهُمُ الْغَيْثُ، وَلَمْ يَنْقُضِ النَّهَارَ حَتَّى أَرْسَلَ اللَّهُ السَّمَاءَ بِمَاءٍ مِنْهُمْ^(٢).

وَكَانَ لَهُ فِي خُطْبِ الْاسْتِسْقَاءِ اسْتِفْتَاجٌ عَجِيبٌ، وَمِنْهُ أَنْ قَالَ يَوْمًا وَقَدْ سَرَّحَ طَرَفَهُ فِي مَلَأِ النَّاسِ، عِنْدَمَا شَخَّصُوا إِلَيْهِ بِأَبْصَارِهِمْ، فَهَتَفَ بِهِمْ كَالْمُنَادِي :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وَكَرَّرَهَا عَلَيْهِمْ، مُشِيرًا بِيَدِهِ فِي نَوَاحِيهِمْ ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾^(٣).

فَاشْتَدَّ وَجَلَ النَّاسِ وَانْطَلَقَتْ أَعْيُنُهُمْ بِالْبُكَاءِ وَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ^(٤).

(١) سورة الأنعام : جزء من الآية ٥٤ .

(٢) ابن خاقان : مطمع الأنفس ٢٤٩ . ٢٥٠ ، والنباهي : تاريخ قضاة الأندلس ٧٠ ، ٧١ .

(٣) سورة فاطر : الآيات ١٥-١٧ .

(٤) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ٧١ .

د - الوعظ والتذكير بالشعر :

لم يقتصر وعظ العامة في هذا العصر على النشر فقط، بل استخدم عدد من الشعراء هذا الأسلوب في وعظ العامة وتذكيرهم ودعوتهم إلى الله عز وجل، فمن ذلك :

١- ما قاله يزيد بن محمد المهلبي^(١) عندما نكب المتوكل أحمد بن أبي دؤاد^(٢) رأس المعتزلة في زمانه حيث عزله وأخذ أمواله، ولطالما امتحن ابن أبي دؤاد هذا أهل السنة وضيق عليهم .

فقال المهلبي واصفاً حاله ومذكراً غيره بما آل إليه بعد ذلك :

تَزُودُ مِنْ مَعَاشِكَ لِلْمَعَادِ	وَتَقْوَى اللَّهَ فَاعْلَمْ خَيْرُ زَادِ
وَلَا تَجْمَعُ مِنَ الدُّنْيَا كَثِيراً	فَبَعْضُ الْجَمْعِ أَسْرَعُ لِلنُّقَادِ
وَقُلْ لِمَطَالِبِ الدُّنْيَا رُوَيْدَاً	أَمَا وَعَظْتِكَ فِي ابْنِ أَبِي دُؤَادِ
أَقَامَ يُدَبِّرُ الْأَفَاقَ حِينَا	وَيَصْطَنِعُ الصَّنَائِعَ فِي الْعِبَادِ
فَأَصْلَحَ أَمْرُهُ عِشْرِينَ عَامَاً	فَكَانَ صَلاَحُهُ سَبَبَ الْفَسَادِ
فَبُدِّلَ مِنْ قَوَائِدِهِ الرُّزَايَا ^(٣)	وَكَانَ الْأَوْلِيَاءَ هُمْ الْأَعَادِي
فَحَسْبُكَ مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ دِينَا	مَوَاعِظُ لَوْ تُوَافِقُ ذَا فُؤَادِ ^(٤)

(١) هو يزيد بن محمد بن المهلب بن المغيرة من بني المهلب بن أبي صفرة، المعروف بالمهلب، شاعر مجيد من أهل البصرة، اشتهر ومات ببغداد سنة ٢٥٩ هـ . (الزركلي : الأعلام ٨/١٨٧).

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٨٤.

(٣) الرزايا : جمع رزية وهي المصيبة . (ابن منظور : لسان العرب مادة «رزأ» ١/٨٦).

(٤) الضبي : محمد بن خلف «الملقب بوكيع» ، أخبار القضاة ٣/٣٠٠-٣٠١ . (ط. بدون، عالم الكتب، بيروت).

٢- وما قاله عبد الله بن المعتز^(١) في التحذير من التهاون بالذنوب وعدم احتقارها ، حيث قال :

خَلُّ الذُّنُوبِ صَغِيرَهَا	وَكَبِيرَهَا فَهُوَ التَّقَى
كُنْ مِثْلَ مَا شِ فَوْقَ	أَرْضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً	إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى ^(٢)

٣- وما قاله أيضاً عبد الله بن المعتز في الحث على التوبة وعدم التسويف فيها ، حيث قال :

يَا نَفْسُ مَا الدَّهْرُ إِلَّا مَا عَلِمْتَ فَكَمْ	أَلَسْتَ حَدَّثْتَنِي أَنِّي أَتُوبُ فَكَمْ
إِيَّاكَ مِنْ «سَوْفَ» فَكَمْ خَدَعْتَ	وَأَهْلَكَتْ أُمَّماً مِنْ قَبْلِنَا وَأُمَّمَ
إِذَا دُعِيتِ إِلَى التَّقْوَى صَمِمْتَ وَإِنْ	نَادَاكَ دَاعِيَ الْهَرَى وَالْغَى قُلْتَ نَعَمْ
تُوبِي يَكُنْ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ جَاهُ تُقَى	وَقَدِّمِي مِنْ فِعَالِ الصَّالِحِينَ قَدَّمَ
يَا وَافِداً لِلْبَلَى حَثَّ الْمَشِيبُ بِهِ	الآنَ كُنْ خَائِفاً لَا تَقْعُدَنَّ وَقُمَّ
لَا يُعْجِبَنَّكَ سُلْطَانٌ وَمَقْدِرَةٌ	كَمْ غُيِبَتْ الْعِزُّ وَالسُّلْطَانُ ثُمَّ رُجِمَ ^(٣)

(١) هو عبد الله بن محمد بن المعتز بالله بن المتوكل العباسي ، شاعر مبدع ، توفي سنة ٢٩٦هـ . (الزركلي : الأعلام ١١٨/٤).

(٢) ابن المعتز : شعر عبد الله بن المعتز ١٨٤/٤ . (عني بتصحيحه ، ب ، لوين ، استانبول ، مطبعة المعارف ١٩٤٥م).

(٣) المرجع السابق : ٢٣٠/٤ .

٤- ومنها ما قاله ابن دريد^(١) في الحث على مراقبة الله عز وجل وعدم خشية سواه، وأنه يجب على المرء عدم الاهتمام بثناء الناس أو بذمهم إذا كان محتشلاً لأوامر الله مجتنباً نواهيه، حيث قال :

وَمَا أَحَدٌ مِنَ ألسِنِ النَّاسِ سَالِمًا	وَلَوْ أَنَّهُ ذَاكَ النَّبِيُّ الْمُطَهَّرُ
فَإِنْ كَانَ مَقْدَامًا يَقُولُونَ أَهْجٌ ^(٢)	وَإِنْ كَانَ مِفْضَالًا يَقُولُونَ مُنْزَرٌ ^(٣)
وَإِنْ كَانَ سَكِّيتًا يَقُولُونَ أَبْكُمْ	وَإِنْ كَانَ مِنْطِيقًا يَقُولُونَ مِهْذَرٌ ^(٤)
وَإِنْ كَانَ صَوَامًا وَيَاللَّيْلِ قَائِمًا	يَقُولُونَ زَرَأَفٌ ^(٥) يُرَائِي وَيَمْكُرُ
فَلَا تَحْتَفِلْ فِي النَّاسِ بِالذَّمِّ وَالثَّنَا	وَلَا تَخْشَ غَيْرَ اللَّهِ فَاللَّهُ أَكْبَرُ ^(٦)

(١) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي من أئمة اللغة والآداب . كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء، وأعلم الشعراء، توفي ببغداد سنة ٣٢١هـ. (الزركلي: الأعلام، ٦/٨٠).

(٢) أهوج : من الهوج وهو التسرع والحمق . (انظر ابن منظور : لسان العرب مادة «هوج» ٢/٣٩٤).

(٣) مُنْزَرٌ : من التَّزْرُ والإلحاح في السؤال، أي لا يعطي إلا إذا ألحَّ عليه في السؤال والطلب. (انظر المرجع السابق، مادة «نزر» ٥/٢٠٣). وجاء في رواية «مُبْدَرٌ» بدلاً من «مُنْزَرٌ» . ولعلها هي الأنسب للمعنى.

(٤) مِهْذَرٌ : من الهذر وهو الكلام الكثير الردي الذي لا يعبأ به . (انظر المرجع السابق، مادة «هذر» ٥/٢٥٩).

(٥) زَرَأَفٌ : من الزرف وهو الكذب، يقال يزرف في الحديث أي يزيد فيه . (انظر المرجع السابق : مادة «زرف» ٩/١٣٤).

(٦) ابن دريد : محمد بن الحسن أبو بكر، ديوان ابن دريد، ص٢١. (ط. بدون، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٣م دراسة وتحقيق عمر بن سالم).

هـ - أشهر الوعّاظ :

اشتهر بالوعظ والتذكير جماعة من العلماء -غير من سبق ذكرهم- وكانت لهم مجالس للوعظ والنصح، أذكر منهم :

أحمد بن عاصم الأنطاكي^(١)، وخطاب بن بشر بن مطر^(٢)، ومحمد بن حبّش^(٣)،
ومحمد بن الفضل بن العباس البلخي^(٤)، وأحمد بن أبي أحمد الطبري^(٥)، وعلي بن محمد
البغدادي المصري^(٦).

فكان بإذن الله تعالى لهؤلاء ولغيرهم من العلماء والدعاة آثار حسنة على العامة
وغيرهم من خلال تلك المجالس الوعظية التي كانوا يعقدونها في المساجد وفي غيرها من
الأماكن المناسبة لها .

-
- (١) هو أحمد بن عاصم الأنطاكي، أبو عبد الله، الإمام القدوة، الزاهد، واعظ دمشق، قيل إنه توفي سنة ٢٣٩هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٠٩/١١، وابن كثير : البداية والنهاية ٣١٨/١٠).
- (٢) هو خطاب بن بشر بن مطر، أبو عمر البغدادي. قال الخلال : كان رجلاً صالحاً يقص على الناس، وكنت إذا سمعت كلامه كأنه نذير قوم، وأحسب أنه كان آخر القصاص الذين يفرح بهم ويعتد بقولهم، توفي سنة ٢٦٤هـ . (ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ١٥٣/١).
- (٣) هو محمد بن حبش ، أبو بكر، الواعظ الضرير كان رجلاً صالحاً مقبولاً عند الناس وكان لوعظه وقع في قلوبهم، توفي بمصر سنة ٣١٤هـ . (الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢٩٠/٢).
- (٤) هو محمد بن الفضل بن العباس البلخي الواعظ، أبو عبد الله الزاهد، العلامة نزيل سمرقند مات سنة ٣١٩هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٢٣/١٤، وابن كثير : البداية والنهاية ١٦٧/١١).
- (٥) هو أحمد بن أبي أحمد الطبري ثم البغدادي أبو العباس، الإمام الفقيه، شيخ الشافعية، صاحب مصنفات مات مرابطاً بطرسوس سنة ٣٣٥هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٧١/١٥).
- (٦) هو علي بن محمد بن أحمد بن الحسن البغدادي، أبو الحسن الإمام المحدث الواعظ كان ثقة عارفاً، توفي سنة ٣٣٨هـ . (انظر المرجع السابق : ٣٨١/١٥، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٢/١١).

المبحث الرابع

«تقويم أثر هذا الأسلوب»

من خلال ما سبق تبين لنا أنه بحمد الله كان لأسلوب الموعظة الحسنة الأثر الحسن في العصر العباسي الثاني ويمكن تلخيص ذلك الأثر في النقاط التالية :

١- ترقيق القلوب القاسية، وتنبيه العقول الغافلة، فنرى كثيراً ممن وُعطوا سرعان ما ينقادون إلى الحق طواعية من غير إكراه ويعبرون عن ذلك بالندم والبكاء وذرف الدموع .

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً أذكر منها بكاء المتوكل حينما وعظه الواعظ وهو بمكة، وبكاء الناصر لدين الله وغيره ممن حضر موعظة القاضي منذر بن سعيد البلوطي حينما بنى الناصر مدينة الزهراء وتكلف فيها .

٢- أن كثيراً من تلك الموعظ ساهمت في إنكار كثير من المنكرات والقضاء عليها، سواء كانت تلك المنكرات قائمة أو كادت أن تحدث. ومن أمثلة ذلك موعظة أحمد بن معتب للذين اجتمعوا على الغناء والشراب فتابوا وحسنت توبتهم . وكذلك موعظة عبد الجبار السرتي للشباب حسن الهيئة الذي كان يمشي خلف فتاة .

٣- ومن آثار تلك الموعظ إحسان بعض ولاية الأمور إلى رعايهم بأنواع المحاسن . ومن أمثلة ذلك موعظة محمد بن يحيى بن سلام للأمير أحمد بن محمد بن الأغلب . حيث حثه على التوبة وعدم اليأس من رحمة الله حينما تفوه بكلام يشعر بالكفر وهو سكران. فظهرت من الأمير آثار جميلة من أفعال البر والصدقات وبناء المساجد ونحوها مما انتفع الناس به حتى مات ولم يترك في بيوت أمواله شيئاً .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما فعل الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب حينما وعظه عبد الجبار السرتي فأعطاه مبلغاً من المال ليتصدق به على الفقراء والمساكين ففعل ذلك .

٤- ومن آثار تلك المواعظ دفع ظلم بعض الظالمين، ووقاية الناس من شرهم ويطشهم . ومن أمثلة ذلك ما جرى مع الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب حينما وعظه محمد بن أبي حميد وكان عازماً على تخريب مدينة سوسة وهدم سورها مما جعله يبكي بكاءً عظيماً ويحلف بالله أن لا يفعل شيئاً مما كان عازماً على فعله .

٥- ومن آثار تلك المواعظ توعبية وتنبيه بعض الخلفاء فيما ارتكبوه من أخطاء في حق رعاياهم مما جعلهم يتراجعون عن أخطائهم . ومن أمثلة ذلك فعل المتوكل مع أهل الذمة حينما وعظه واعظ وهو بمكة . مما جعله يأمر بعدم تولية أهل الذمة شيئاً من أمور المسلمين . ليس هذا فحسب بل أصدر أوامر متعددة تجاه أهل الذمة .

ويحسن في هذا المقام أن أذكر عدداً من الضوابط التي ينبغي أن تضبط بها الموعدة كي تتصف بالحسن، ويعظم تأثيرها في العامة والخاصة بإذن الله عز وجل . منها :

١- لا بد أن تكون الموعدة بأحسن أسلوب وألطف عبارة كما أمر الله موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بذلك، حيث قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(١) .

إلا أنه في حالات معينة قد يرى الواعظ أن الإغلاظ في القول أنسب وأصلح من إلاتته للموعوظ في هذا المقام عندئذ له ذلك ولكن عليه أن لا يسرف فيه كي لا ينفر الموعوظ من الموعدة ويترتب على ذلك مفاصد كبيرة .

(١) سورة طه : الآية ٤٤ .

٢- يجب على الواعظ أن يراعي أحوال الموعوظين، فيختار الموضوع المناسب للموعظة، كما أنه لا بد أن يكون موضوع الموعظة واضحاً لدى الموعوظين. وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»^(١).

كما يجب على الواعظ أن يهتم بالتوقيت المناسب للموعظة فلا يعظ الناس، وقد شُغلت أذهانهم، وأجسادهم بأشياء أخرى، مما يجعل تأثير الموعظة محدوداً ومنفعتيها قليلة.

٣- يجب على الواعظ أن لا يطيل ولا يطنب في موعظته . إلا إذا رأى أن المصلحة في الإطناب فيطنب على أن لا يشقّ على السامعين ويثقل عليهم .

٤- كما يجب على الواعظ أن يتخوّل الناس بالموعظة ولا يكثّر عليهم، فإنّ النفوس تملّ فيعظهم بين الحين والآخر، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه «إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا»^(٢) مع أنهم أفضل القرون وخير الناس بعد الأنبياء والرسل . فغيرهم أولى وأحرى بالتخوّل بالموعظة .

٥- كما يجب على الواعظ أن تكون أفعاله مطابقة لأقواله بقدر استطاعته فلا تخالف أفعاله أقواله . أي يجب عليه أن يكون قدوة حسنة لغيره في أقواله وأفعاله . وهذا ما سأطرق إليه بالتفصيل المناسب في الفصل القادم بإذن الله تعالى .

(١) صحيح الإمام البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا .

رقم الحديث «١٢٧» ٢٢٥/١ .

(٢) تقدم تخريجه في ص ١٦٤ .

الفصل الثاني

أسلوب القدوة الحسنة

الفصل الثاني

«أسلوب القدوة الحسنة»

تمهيد :

أسلوب القدوة الحسنة من أهم الأساليب في الدعوة إلى الله تعالى، لأنّ تأثر الناس بالأفعال والسلوك غالباً ما يكون أشدّ وأكثر من تأثرهم بالأقوال فقط .

وفي العصر العباسي الثاني، وجد هذا الأسلوب حيث كان العلماء والدعاة قدوة حسنة في معظم الخصال الكريمة، والصفات الحسنة، فأثروا بفضل الله تعالى على عدد من الناس بأفعالهم وسلوكهم، قبل أقوالهم وألفاظهم.

وفي هذا الفصل سأتحدث بعون الله تعالى عن هذا الأمر من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : أهمية أسلوب القدوة الحسنة .

المبحث الثاني : القدوة في قوة الإيمان وإظهار السنّة .

المبحث الثالث : القدوة في العبادة والإكثار منها لله تعالى .

المبحث الرابع : القدوة في الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى .

المبحث الخامس : القدوة في الجهاد وبذل النفس .

المبحث السادس : القدوة في الورع .

المبحث السابع : القدوة في الزهد .

المبحث الثامن : القدوة في العدل .

المبحث التاسع : القدوة في المعاملة الحسنة .

المبحث العاشر : تقويم أثر هذا الأسلوب .

المبحث الأول

«أهمية أسلوب القدوة الحسنة»

قبل أن أتطرق إلى أهمية أسلوب القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله تعالى أحبُّ أن أُبيِّن المراد بالقدوة في اللغة والاصطلاح .

ففي اللغة : قال العلامة الجوهري : القِدْوَةُ : الإِسْوَةُ . يقال : فلان قِدْوَةٌ يُقْتَدَى بِهِ . وقد يُضْمُ فيقال : لي بك قِدْوَةٌ وَقِدْوَةٌ وَقِدَّةٌ^(١) .

وقال العلامة ابن منظور : القِدْوُ : أصل البناء الذي يتشعَّب منه تصريف الاقتداء . يقال : قِدْوَةٌ، وَقِدْوَةٌ لما يُقْتَدَى بِهِ . قال ابن سيده : القِدْوَةُ والقِدْوَةُ ما تَسَنَّنْتَ بِهِ . والقِدَى : جمع قِدْوَةٍ^(٢) .

وقال العلامة الفيروزآبادي : القِدْوَةُ : ما تَسَنَّنْتَ بِهِ واقْتَدَيْتَ بِهِ . وتَقَدَّتْ بِهِ دَابَّتُهُ لَزِمَتْ سَنَنُ الطَّرِيقِ، وتَقَدَّى هُوَ عَلَيْهَا^(٣) .

وفي الاصطلاح : قال الإمام الخازن : وأصل الاقتداء طلب موافقة الثاني للأول في فعله^(٤) .

وقال العلامة الشوكاني : الاقتداء : هو طلب موافقه الغير في فعله^(٥) .

(١) الجوهري : إسماعيل بن حماد، الصحاح، مادة «قدا» ٢٤٥٩/٦ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب، مادة «قدا» ١٧١/١٥ .

(٣) الفيروز آبادي : محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، فصل القاف باب الواو ٣٧٨/٤ .

(٤) الخازن : علي بن محمد، لباب التأويل ٣٢/٢ . (ط. الأولى، مطبعة الإستقامة، القاهرة ١٣٧٤هـ) .

(٥) محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير ١٣٧/٢ . (ط. بدون، دار الفكر، ١٤٠١هـ) .

وقال العلامة ابن عاشور : والقُدوة : هو الذي يعمل غيره مثل عمله^(١) .

ويمكن أن نخلص مما سبق إلى أن المراد بالقُدوة الحسنة: هو أن يتحلى المرء بالأخلاق الحسنة، والصفات الحميدة، وأن تكون أقواله وأفعاله موافقة لما جاء به الشرع الحنيف وقرره .

ويُعدُّ أسلوب القُدوة الحسنة من الأساليب المهمة -إن لم يكن أهمها- في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وذلك لأن طبيعة البشر تتأثر -غالباً- بالأفعال والسلوك أكثر من تأثرها بالأقوال فقط .

وفي السنة المطهرة العديد من الوقائع والأحاديث التي تبين لنا أهمية القُدوة الحسنة وعظم تأثيرها .

ومن ذلك أن الرسول ﷺ لما فرغ من قضية الكتاب في صلح الحديبية قال للصحابة رضوان الله عليهم « قوموا فانحروا ثم احلقوا . قال الرواي : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس . فقالت له : يا نبي الله أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنتك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج ﷺ فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً^(٢) .

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ٣٥٦/٧ .

(٢) البخاري مع الفتح، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحروب وكتابة الشروط، رقم الحديث « ٢٧٣١ » ٣٢٩/٥ .

ففي هذه الحادثة دلالة واضحة على أهمية القدوة وعظم تأثيرها فالصحابا رضوان الله عليهم لما وقع لهم من الهمّ حيث إنهم منعوا من العمرة لم يمتثلوا لأمر الرسول ﷺ وقد كرر عليهم ذلك ثلاث مرات، فما كان من أم سلمة رضي الله عنها إلا أن أشارت عليه بفعل ذلك، لأن الفعل إذا انضم إلى القول كان أبلغ من القول المجرد .

ومن ذلك أيضاً أن الرسول ﷺ كان يحث أصحابه على الاقتداء بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، حيث قال: «إني لا أدري ما قدر بقائي فاقتدوا باللذين من بعدي، وأشار إلى أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمّار، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه»^(١).

قال العلامة المباركفوري «وكان الاقتداء أعم من الاهتداء حيث يتعلّق به القول والفعل، بخلاف الاهتداء فإنه يختص بالفعل»^(٢).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال: «إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير - يعني إلى اللحم - وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة»^(٣).

ولأهمية القدوة وعظم تأثيرها على الآخرين نجد أن أحد الصحابة رضي الله عنه كان يصلي بالناس وهو لا يريد إلا أن يعلمهم كيف كان النبي ﷺ يصلي .

فقد روى الإمام البخاري عن أبي قلابة قال «جاءنا مالك بن الحويرث رضي الله عنه فصلى بنا في مسجدنا هذا فقال: إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة، ولكن أريد أن أرىكم كيف رأيت النبي ﷺ يصلي...»^(٤).

(١) سنن الإمام الترمذي: أبواب المناقب، مناقب عمار بن ياسر رضي الله عنه، رقم الحديث «٣٨٨٧» ٣٣٣/٥ . ومستدرک الإمام الحاكم: ٧٥/٣، وصححه ووافقه الإمام الذهبي في التلخيص، ٧٥/٣.

(٢) محمد عبد الرحمن المباركفوري: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ٣٠٠/١٠ . (ط. بدون، نشر المكتبة السلفية، المدينة النبوية، ضبط عبد الرحمن محمد عثمان).

(٣) ابن سعد: محمد البصري، الطبقات الكبرى ٢٠٧/١، (ط. بدون، دار صادر، بيروت)، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٠٧/٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥٨/٣ .

(٤) صحيح الإمام البخاري مع الفتح: كتاب الأذان، باب من صلى بالناس وهو لا يريد إلا أن يعلمهم صلاة النبي وسنته، رقم الحديث «٦٧٧» ١٦٣/٢.

فهنا تنبه هذا الصحابي رضي الله عنه إلى أن التطبيق العملي أمام الآخرين أبلغ وأكثر تأثيراً من القول، ففعل ذلك رضي الله عنه .

وإن السيرة الحسنة تقوم على أصليين كبيرين، وهما :

١- حسن الخلق .

٢- موافقة العمل للقول .

فإذا تحقق هذان الأصلان حسنت سيرة الداعي وكانت سيرته الطيبة دعوة صامتة إلى الإسلام . وإن فاته هذان الأصلان ساءت سيرته، وصارت دعوة صامتة منفرة عن الإسلام^(١) .

ويحسن هنا أن أتطرق إلى الأصل الثاني من هذين الأصلين بشيء من التفصيل والإيضاح ، لقوة صلته بما نحن بصدد الحديث عنه .

الأصل الثاني : موافقة العمل للقول :-

يجب على كل مسلم وبخاصة من تصدى للعلم والدعوة إلى الله أن يوافق ويطابق عمله قوله، حسب قدرته واستطاعته إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لأن النفس البشرية مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه .

ولقد حذر الله عز وجل ووبّخ من يخالف عمله قوله في غير موضع من كتابه الكريم فقال سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢) .

(١) انظر عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة ص ٤٦٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٤٤ .

يقول الإمام الخازن في تفسيره « قيل إنها نزلت في علماء اليهود حيث كانوا يأمرون الناس بالطاعة والصلاة والزكاة، وأنواع البر ولا يفعلونه فوبخهم الله بذلك»^(١).

ويقول الحافظ ابن كثير «والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبهم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾»^(٢).

وقال أيضاً سبحانه وتعالى واعظاً وزاجراً من خالف فعله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣).

وقد كان نبينا ﷺ شديد الامتثال لأوامر الله عز وجل ونواهيه، يقول الشيخ سليمان الندوي «فكل حكم جاء به القرآن قد امتثله الرسول ﷺ ومثله للناس بفعله وبينه بقوله».

ويقول أيضاً «وما من حكم أو توجيه في القرآن إلا وقد بينه الرسول ﷺ بقوله وعمله وخلقه هدياً وسمتاً»^(٤).

لذلك كان ﷺ لا يأمر بشيء إلا فعله ولا ينهى عن شيء إلا تركه حتى اشتهر عنه ذلك فعرفه الداني والقاصي، حتى إن ملك عمان لما دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام، قال «والله لقد دلتني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا

(١) الخازن : لباب التأويل ٥٤/١ .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٨٢/١ ، والآية من سورة هود : ٨٨ .

(٣) سورة الصف : الآيات ٢ ، ٣ .

(٤) سليمان الندوي : الرسالة المحمدية ١٦٨ ، ١٦٩ . (ط. الثالثة، نشر مكتبة دار الفتح، دمشق ١٤٠١هـ).

كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويُغلب فلا يضجر، وفي بالعهد، ويُتجز الموعود،
وأشهد أنه نبي»^(١).

ولأهمية هذا الأمر ووجوب حرص المسلم عليه، حذر الرسول ﷺ أيضاً من مخالفة العمل
للقول، وبيّن لأمتة عظم هذا الأمر وخطورته فقال ﷺ «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في
النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه
فيقولون أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر قال كنت أمرم
بالمعروف ولا آتية، وأناهاكم عن المنكر وآتية»^(٢).

وقال أيضاً ﷺ: «مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة تضيء للناس
وتُحرق نفسها»^(٣).

وكثيراً ما كان السلف رحمهم الله تعالى ينبهون إلى هذا الأمر ويحذرون من الوقوع
فيه، فقد قال مالك بن دينار رحمه الله «العالم الذي لا يعمل بعلمه بمنزلة الصفا إذا وقع
عليه القطر زلق عنها»^(٤).

وقال ابن القيم رحمه الله «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس
بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس : هلموا، قالت أفعالهم :

(١) اليحصبي السبتي : القاضي عياض بن موسى، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ٤٨٤/١ . (ط. بدون،
نشر مكتبة الغارابي ومؤسسة علوم القرآن، دمشق) .

(٢) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقه، رقم «٣٢٦٧»
٣٣١/٦، وصحيح الإمام مسلم : كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى
عن المنكر ويفعله رقم الحديث «٢٩٨٩» ٤/٢٢٩٠ .

(٣) الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم العمل، رقم الحديث «٧١» ص٥٠، وقال الشيخ الألباني «حديث
صحيح» . (ط. الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٨٩، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني).

(٤) الأصبهاني : حلية الأولياء ٣٧٢/٢ .

لا تسمعوا منهم. فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء^(١) وفي الحقيقة قُطَاعِ طَرِقٍ^(٢).

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله :

مَوَاعِظُ الْوَاعِظِ لَنْ تُقْبَلَا حَتَّى يَعْيَهَا قَلْبُهُ أَوْلَا
يَا قَوْمُ مَنْ أَظْلَمُ مِنْ وَاغِظِ خَالَفَ مَا قَدْ قَالَهُ فِي الْمَلَا
أَظْهَرَ بَيْنَ النَّاسِ إِحْسَانَهُ وَبَارَزَ الرَّحْمَنَ لِمَا خَلَا^(٣)

وقال سليمان بن معبد رحمه الله :

يَا أَمَرَ النَّاسِ بِالْمَعْرُوفِ مُجْتَهِدَا وَإِنْ رَأَى عَامِلًا بِالْمُنْكَرِ انْتَهَرَا
أَبْدَاً بِنَفْسِكَ قَبْلَ النَّاسِ كُلِّهِمْ فَأَوْصَهَا وَاتْلُ مَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ
مَنْ كَانَ بِالْعُرْفِ أَمَارًا وَتَارِكُهُ فَذَاكَ يَسْبِقُ مِنْهُ سَيْلُهُ مَطْرَةً^(٤)

فما تقدم تبين لنا أهمية القدوة الحسنة وضرورة تحلى المسلم بها وبخاصة من ندب نفسه للعلم والدعوة إلى الله تعالى .

(١) والأدلاء : جمع دليل وهو ما يستدلُّ به جاء في لسان العرب: والدليل الدالُّ ، وقد دلَّه على الطريق يدلُّه دلالة ودلالة ودكولة، والفتح أعلى، والجمع أدلة وأدلاء. (انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة «دلل» ٢٤٨/١١).

(٢) ابن القيم : الفوائد ص ١١٢ . (ط. الأولى، نشر مكتبة دار البيان ، تحقيق محمد بشير عيون، ١٤٠٧هـ).

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ١٦/٥ .

(٤) انظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٥٢/٩ .

المبحث الثاني

«القدوة في قوة الإيمان وإظهار السنة»

قوة الإيمان وصلابته من الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها العلماء والدعاة كي يكونوا قدوة صالحة لغيرهم من الناس .

وفي العصر العباسي الثاني نجد هذه الصفة متوفرة في عدد من العلماء والدعاة، فاستطاعوا بحمد الله أن يظهروا السنة، ويتمسكوا بها، ويحاربوا البدع وأهلها .

وفيما يلي أذكر بعون الله تعالى بعض النماذج الدالة على ذلك :

١- فهذا الإمام سحنون بن سعيد^(١) رحمه الله يصفه أبو بكر المالكي بقوله « كان لا يقبل من أحد شيئاً، سلطان أو غيره، ولم يكن يهاب سلطاناً في حق يقوله. سليم الصدر للمؤمنين، شديد على أهل البدع»^(٢) .

ولما تولى القضاء كان هو أول من شرّد أهل الأهواء والبدع من المسجد الجامع بأفريقية حيث كانوا يعقدون فيه الحلق^(٣) .

٢- وهذا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله الذي ظل صامداً -بفضل الله تعالى- أمام المحن والفتن كالطود الشامخ. فثبت وأظهر السنة يوم فتنة خلق القرآن، لأنه كان يعتقد أنه لو قال بهذا حتى ولو على سبيل التورية لافتتن الناس بذلك.

قال الإمام أحمد قال لي محمد بن نوح « يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي. أنت رجل يُقتدى بك . قد مدّ الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله»^(٤) .

(١) تقدمت ترجمته في ص ٣٩ .

(٢) المالكي : رياض النفوس ١/٣٤٦ .

(٣) انظر ابن تميم : طبقات علماء افريقية ص ١٨٤ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١/٢٤٢ .

وثبت الإمام أحمد رحمه الله على ما يعتقده وأظهر السنة، وحرص على تطبيقها والتمسك بكل دقيقة وجليلة منها، وها هو يحدث عن شدة حرصه على ذلك فيقول «ما كتبت حديثاً عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به، حتى مرّ بي في الحديث أن النبي ﷺ احتجم واعطى أبا طيبة ديناراً، فأعطيت الحجام ديناراً حين احتجمت»^(١).

وكان رحمه الله شديد النفور من المنكرات، فكان إذا رأى منكراً قام وخرج من المكان الذي هو فيه^(٢).

يقول ابنه صالح «دعى رجل جماعة من أصحاب الحديث، وطلب إلى أبي أن يحضر، فمضوا ومضى أبي بعدهم وأنا معه، فلما دخل أجلس في بيت ومعه جماعة من أصحاب الحديث، فقال له رجل: يا أبا عبد الله هاهنا آنية من فضة، فالتفت فإذا كرسي، فقام فخرج وتبعه من كان في البيت.

وأخبر الرجل -صاحب الدار- فخرج فلحق أبي، وحلف أنه ما علم بذلك ولا أمر به، وجعل يطلب إليه فأبى وكلمه بعض أصحابه فأبى أن يرجع، ونزل بالرجل أمر عظيم^(٣).

وفي رواية أنه لما لحقه صاحب الدار نفى الإمام أحمد يده في وجهه وقال: زي المجوس زي المجوس وخرج»^(٤).

(١) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد، ص ١٧٩. وانظر حادثة حجم أبي طيبة للرسول ﷺ في صحيح الإمام البخاري مع الفتح، كتاب البيوع، باب ذكر الحجام، رقم «٢١٠٢» ٤/٣٢٤. وفي صحيح الإمام مسلم: كتاب المساقاة، باب حلّ أجره الحجام، رقم «١٥٧٧» ٣/١٢٠٤.

(٢) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١١/٢٢٦.

(٣) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد، ص ٢٧٩.

(٤) المرجع السابق: الصفحة نفسها.

٣- **وها هو الإمام محمد بن أسلم الطوسي** ^(١) رحمه الله الذي كان شديد التمسك بسنة

النبي ﷺ يقول عنه الحافظ إسحاق بن راهويه: «لم أسمع عالماً منذ خمسين سنة كان أشد تمسكاً بأثر النبي ﷺ من محمد بن أسلم» ^(٢).

٤- **وها هو الإمام الدارمي** ^(٣) رحمه الله يصفه الحافظ ابن حبان بقوله «كان الدارمي من

الحفاظ المتقنين، وأهل الورع في الدين ممن حفظ وجمع، وتفقه، وصنّف وحدث، وأظهر السنة ببلده، وذبح عن حريمها، وقمع من خالفها» ^(٤).

٥ - **وها هو الإمام أحمد بن محمد الروذي** ^(٥) رحمه الله يقول عنه إسحاق بن داود «لا

أعلم أحداً أقوم بأمر الإسلام من أبي بكر الروذي» ^(٦) ويقول عنه أبو بكر بن صدقة «ما علمت أحداً أذب عن دين الله من الروذي» ^(٧).

ويقول عنه الحافظ الذهبي «كان إماماً في السنة شديد الاتباع . له جلالة عجيبة

^(٨) ببغداد» .

(١) هو محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد الخراساني الطوسي، الإمام الحافظ شيخ الإسلام، يكنى بأبي الحسن ، توفي بنيسابور سنة ٢٤٢هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/١٩٥).

(٢) المرجع السابق: ١٢/١٩٧ .

(٣) هو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الله الدارمي السمرقندي الحافظ الإمام، مات سنة «٢٥٥هـ» وهو ابن خمس وسبعين سنة . (المرجع السابق ١٢/٢٢٤، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٥/٢٩٤).

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/٢٢٧ ويلده هي سمرقند .

(٥) هو أبو بكر أحمد بن الحجاج الروذي الإمام القدوة شيخ الإسلام قال عنه الخطيب هو المقدم من أصحاب الإمام أحمد لورعه وفضله، وكان أحمد يأنس به، وينبسط إليه، توفي رحمه الله سنة ٢٧٥هـ . (انظر: المرجع السابق ١٣/١٧٣).

(٦) و(٧) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٨) المرجع السابق : ١٣/١٧٥ .

٦- وها هو أحمد بن محمد الأشعري^(١) الذي يلقب بحمديس القطان، فقد كان علماً في الفضل، ومثلاً في الخير، مع شدة في مذهب أهل السنة، وقد لهج الناس بفضله، وكان لا يُسَلَّم على أحد من أهل الأهواء^(٢).

٧- وها هو جبلة بن حمود الصدفي^(٣) رحمه الله الذي كان شديداً على أهل البدع، لا يداري في ذلك أحداً. حينما «دخل عبيد الله الشيعي القيروان، وخطب بها أول جمعة. وكان جبلة جالساً عند المنبر، فلما سمع كفرهم قام قائماً، وكشف عن رأسه حتى رآه الناس، وخرج يمشي إلى آخر الجامع وهو يقول: قطعوها قطعهم الله، فما حضر أحد من أهل العلم بعد ذلك»^(٤).

وجاء إليه رحمه الله رسول من عند القاضي محمد بن عمر المروزي -قاضي الشيعة- يأمره بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم، وزيادة «حي على خير العمل» في الأذان. فقال له جبلة «قم قَبِّحَ اللهُ من أرسلك وقَبِّحَكَ». فلما رجع الرسول وأخبره بذلك، قال له «إنا ما أرسلناك إلى جبلة، تأتي إلى أولياء الله تتعرض في دعائهم»^(٥).

(١) هو أحمد بن محمد الأشعري. يقال إنه من ولد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، كان يعمل في القطن ويبدو أن ذلك هو سبب تلقيبه بـ «حمديس القطان»، مات سنة ٢٨٩ هـ. (انظر القاضي عياض: ترتيب المدارك ٢٥٤/٣، والديباغ: معالم الإيمان ٢٠١/٢).

(٢) المرجع السابق: ٢٠٢/٢.

(٣) هو جبلة بن حمود بن عبد الرحمن الصدفي، يكنى بأبي يوسف، كان الإمام سحنون إذا أقبل جبلة يقول: إن عاش هذا الشاب فسيكون له نبأ وهو أزهد أهل زمانه، توفي جبلة سنة ٢٩٧ هـ. (انظر المالكي: رياض النفوس ٢٧/٢، والديباغ: معالم الإيمان ٢٧٠/٢).

(٤) القاضي عياض: ترتيب المدارك ٢٥٢/٣، والديباغ: معالم الإيمان ٢٧٣/٢.

(٥) المرجعان السابقان: المدارك ٢٥٢/٣، والمعالم: ٢٧٧/٢.

٨- وها هو الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة^(١) رحمه الله الذي كان شديد الحرص على

التأسي برسول الله ﷺ والافتداء به والأخذ بسنته^(٢).

يقول ابن خزيمة «كنت عند الأمير إسماعيل بن أحمد، فحدثت عن أبيه بحديث وهم في

إسناده، فرددته عليه. فلما خرجت من عنده قال لي القاضي : قد كنا نعرف أن هذا

الحديث خطأ منذ عشرين سنة فلم يقدر واحد منا أن يردّه عليه.

فقلت له : لا يحل لي أن أسمع حديثاً لرسول الله ﷺ فيه خطأً أو تحريف

فلا أردّ»^(٣).

٩- وها هو الإمام البرهاري^(٤) رحمه الله قال عنه الحافظ الذهبي «كان قوالاً بالحق داعية

إلى الأثر لا يخاف في الله لومة لائم»^(٥).

ويصفه الحافظ ابن كثير فيقول «كان شديداً على أهل البدع والمعاصي، وكان كبير

القدر تعظمه الخاصة والعامة»^(٦).

(١) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن بكر السلمي كان يُلقب بإمام الأئمة . وكان بحراً من بحور العلم، فكتب الكثير وصنف وجمع ، توفي سنة ٣١١ هـ . (السبكي : عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٩/٣ ، ط . الأولى ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٨٤ هـ تحقيق: عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي) ابن كثير : البداية والنهاية (١١/١٤٩).

(٢) انظر السبكي : طبقات الشافعية ١١١/٣ .

(٣) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٤) هو أبو محمد ، الحسن بن علي بن خلف البرهاري، شيخ الحنابلة، الزاهد الفقيه، الواعظ، توفي سنة

٣٢٨ هـ، وقيل ٣٢٩ هـ، وكان عمره يوم مات ستاً وتسعين سنة . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٩٠/١٥،

وابن كثير : البداية والنهاية (١١/٢٠١).

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٩٠/١٥ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية (١١/٢٠١).

١٠- وها هو القاضي محمد بن الحبلي^(١) رحمه الله قاضي مدينة برقه^(٢) يبذل نفسه رخيصة في سبيل اتباع السنة والتمسك بها.

فقد أتاه أمير بَرْقَة وقال له : غداً العيد .

فقال القاضي : حتى نرى الهلال، ولا أفطر الناس وأتقلد إثمهم .

فقال الأمير : بهذا جاء كتاب المنصور^(٣) - وكان هذا من رأي العبيديّة، يُفطرون بالحساب ولا يعتبرون رؤية- فلم يُرَ الهلال فأصبح الأمير بالطبول وأهبة العيد .

فقال القاضي : لا أخرج ولا أصلي .

فأمر الأمير رجلاً خطب، وكتب بما جرى للمنصور، فطلب القاضي إليه فأحضر .

فقال له : تنصّل^(٤) وأعفو عنك . فامتنع .

فأمر الأمير به فعُلّق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث العطش فلم يُسَق . ثم صلبوه على خشبة^(٥) رحمه الله وتقبّله في الشهداء فهو لم يرجع عن الحق الذي يعتقد ويؤمن به، بل جاهر به وثبت عليه وبذل في سبيل ذلك روحه التي بين جنبيه.

وهكذا تبين لنا مما تقدم قوة إيمان أولئك العلماء والدعاة رحمهم الله تعالى وحرصهم على إظهار السنة والعمل بها، فكانوا بحق قدوة حسنة ينبغي أن يقتدى بها ويحذى حذوها .

(١) هو محمد بن إسحاق الحبلي، أبو عبد الله، كان فقيهاً صالحاً فاضلاً ، عالماً، حسن الأخلاق سمحاً . (الدَّبَاغ : معالم الإيمان، ٤٩/٣).

(٢) بَرْقَة : مدينة كبيرة قديمة بين الإسكندرية وأفريقية بينها وبين البحر ستة أميال، افتتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة «٢١هـ» (الحموي : معجم البلدان ٣٨٨/١، الحميري : الروض المعطار ص٩١).

(٣) هو إسماعيل بن محمد بن عبّيد الله المهدي أحد خلفاء الدولة العبيدية كان يُلقَّب بالمنصور بنصر الله توفي سنة ٣٤١هـ. (الزركلي الأعلام ٣٢٢/١).

(٤) تنصّل : أي ارجع عن هذا الرأي وتبرأ منه قال ابن منظور «تنصّل فلان من ذنبه أي تبرأ» . (ابن منظور : لسان العرب مادة «نصل» ٦٦٤/١١).

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٧٤/١٥ .

المبحث الثالث

«القدوة في العبادة والأكثر منها لله تعالى»

العبادة لله عز وجل تأتي في مقدمة الأعمال الصالحة التي ينبغي للمسلم أن يلتزم بها ويحرص عليها، وليس هناك شيء يتقرب به العبد إلى خالقه وبارئته أحب إليه من أداء ما افترضه عليه كما جاء في الحديث القدسي «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه»^(١).

ولكن المرء بحاجة إلى عمل المزيد من النوافل والطاعات ليتقرب بها إلى رب الأرض والسموات، فيجبر بها الكسر، ويكمل بها النقص. ليحظى ويفوز إن شاء الله تعالى بحب خالقه ورضاه. وجاء في تكملة الحديث القدسي السابق «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...»

فالعبادة لله تعالى تصل العبد بربه ومولاه، وتقوي إيمانه به وترسخه، وتزكي نفسه وتهذبها بإذن الله عز وجل.

فرسول الله ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على الله تعالى كان يقوم الليل حتى تفتطرت قدماه. ولما قيل له في ذلك قال «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٢).

وكان ﷺ «يصوم حتى يقال إنه لا يفطر»^(٣).

وفي العصر العباسي الثاني كان هناك العديد من العلماء والدعاة ممن اتصفوا بهذه الصفة وتحلوا بها.

(١) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم الحديث «٦٥٠٢» ١١/٣٤٠.

(٢) المرجع السابق : كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ الليل، رقم الحديث «١١٣٠» ٣/١٤، وصحيح الإمام مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم الحديث «٢٨١٩» ٤/٢١٧١.

(٣) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب الصوم، باب ما يذكر من صوم النبي ﷺ وإفطاره، رقم الحديث «١٩٧١» ٤/٣١٥، وصحيح الإمام مسلم : كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان رقم الحديث «١١٥٦» ٢/٨١٠.

فكانوا يحرصون على النوافل والمندوبات وكأنها فرائض وواجبات. وفي هذا المبحث سأطرق إن شاء الله تعالى إلى ذكر نماذج من ذلك وهي كالتالي :

١- قال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل عن أبيه : كان أبي ينام نومة خفيفة بعد العشاء، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو^(١) .

٢- وكان الإمام محمد بن إسماعيل البخاري^(٢) رحمه الله يكثر من التهجد لاسيما في شهر رمضان، حيث كان يختم القرآن في تهجده مرة في كل ثلاث ليال^(٣) .

ودعي رحمه الله إلى بستان بعض أصحابه، فلما صلى بهم الظهر قام يتطوع، فلما فرغ من صلاته، رفع ذيل قميصه وقال لبعض من معه : انظر هل ترى تحت قميصي شيئاً؟ فإذا زنبور^(٤) قد أبره - أي لسعه - في ستة عشر أو سبعة عشر موضعاً. وقد تورم من ذلك جسده.

فقال له بعض القوم : كيف لم تخرج من الصلاة أول ما أبرك؟!

قال رحمه الله : كنت في سورة، فأجبت أن أتمها^(٥) .

٣- وكان محمد بن سحنون^(٦) رحمه الله ممن يكثر من التهجد والبكاء عند تلاوة القرآن الكريم، فقد مرّ رجل ذات ليلة ببيت فسمع قارئاً يقرأ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ، فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾^(٧) ويردها ويبكي فمضى إلى حاجته فقضاها، ثم لما

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١/٢١٤-٢١٥ .

(٢) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي، قال عنه الإمام ابن خزيمة: «ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ وأحفظ له من محمد بن إسماعيل». توفي رحمه الله سنة ٢٥٦هـ. (انظر المرجع السابق: ١٢/٣٩١).

(٣) انظر المرجع السابق ١٢/٤٣٩، والسبكي : طبقات الشافعية ٢/٢٢٣ .

(٤) الزنبور : هو ضرب من الذباب لسّاع . (ابن منظور : لسان العرب مادة «زنبير» ٤/٣٣١).

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٢، السبكي طبقات الشافعية ٢/٢٢٣ .

(٦) تقدمت ترجمته في ص ٤١ .

(٧) سورة الأعراف : الآية ٢١، وجزء من الآية ٢٢ .

- رجع إلى ذلك البيت فإذا القارئ على حاله يرددها ويبكي، فلما كان آخر الليل عاد الرجل إلى ذلك البيت فإذا القارئ على حاله يرددها ويبكي، فانتظر حتى حضرت صلاة الصبح وخرج القارئ، وقد ستر وجهه، فإذا به محمد بن سحنون رحمه الله^(١).
- ٤- وكان أحمد بن معتب^(٢) رحمه الله فقيهاً صالحاً له صلاة طويلة بالليل وبكاء . حتى كان يسمع جيرانه بكاءه ونحيبه^(٣).
- ٥- وكان محمد بن نصر المروزي^(٤) رحمه الله، حسن الصلاة، كثير الخشوع. قال عنه أحمد ابن إسحاق: ما رأيت أحسن صلاة منه، ولقد بلغني أن زنبوراً قعد على جبهته، فسال الدم على وجهه ولم يتحرك^(٥).
- وقيل عنه أيضاً : كنا نتعجب من حسن صلاته، وخشوعه، وهيبته للصلاة، كان يضع ذقنه على صدره، فينتصب كأنه خشبة منصوبة^(٦).
- ٦- وكان الإمام أحمد بن علي النسائي^(٧) رحمه الله كثير الاجتهاد في العبادة بالليل والنهار، كثير المواظبة على الحج والجهاد، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً^(٨).

(١) المالكي : رياض النفوس ١/٤٤٦ .

(٢) تقدمت ترجمته في ص ١٨٧ .

(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/٢٣٠ ، والديباج : معالم الإيمان ٢/١٧٧ .

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي الإمام الجليل الفقيه الحافظ . قال الخطيب : صنف الكتب الكثيرة ورحل إلى الأمصار في طلب العلم وكان من أعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام واتفقوا أنه مات سنة ٢٩٤ هـ . (ابن حجر : تهذيب التهذيب، ٩/٤٨٩).

(٥) السبكي : طبقات الشافعية ٢/٢٤٨ .

(٦) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٧) هو الإمام أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي أبو عبد الرحمن صاحب السنن. قال ابن يونس : كان النسائي إماماً في الحديث ثقة ثباتاً حافظاً ، توفي سنة ٣٠٣ هـ . (ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٢٣).

(٨) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

٧- وروي عن حماس بن مروان^(١) رحمه الله أنه كان كثير العبادة والزهد^(٢).

وروي عنه أيضاً : أنه خرج ذات ليلة من بيته -أي من غرفته- وابنه سالم يتهجّد في بيته، وابنه محمد يتهجّد في بيته، والعجوز والدة هما في بيتهما تقرأ القرآن، وتركع وتبكي، والخادم تصلي، فوقف في القاعة فقال:

يا آل حماس ألا هكذا فكرونا^(٣).

وذكر أنهم باعوا الخادم، فاشتراها قوم، فرأتهم لا يصلون بالليل، وظنت أن من لم يُصل بالليل ليس بمسلم.

فهرت من دراهم إلى مواليتها آل حماس وقالت لهم: أيحل لكم تبيعوني من قوم يهود لا يصلون بالليل^(٤).

فمواظبة آل حماس على قيام الليل قد أثر في الخادم حتى ظنته أنه من الواجبات التي لا يسع المسلم تركها. فله درهم ما أجمل عملهم، وما أحسن صنعهم.

٨- وكان أبو محمد المسوحي^(٥) المتعبّد رحمه الله من أهل الجدّ والتعبّد، والخوف من الله والانقطاع إليه والإخبات له، عز وجل صام حتى اسودّ، وصلى حتى أقعد، وبكى حتى عمش. فلما حضرته الوفاة قال «واحزني إلى أين يسلك بي»^(٦).

(١) تقدمت ترجمته في ص ٤٤.

(٢) الدباغ : معالم الإيمان ٣٢١/٢ .

(٣) المرجع السابق : ٣٢٥/٢ .

(٤) المرجع السابق : ٣٢٥/٢ - ٣٢٦ .

(٥) أبو محمد المسوحي المتعبّد من أصحاب سحنون بن سعيد كان زاهداً متعبداً مات رحمه الله سنة ست وثلاثمائة . (الدباغ : معالم الإيمان ٣٣٤/٢).

(٦) المرجع السابق : ٣٣٤/٢ .

سبحان من أعطاهم هذا وخصهم به. هذا زهده ، وهذه عبادته لله عز وجل ومع ذلك يخاف أن يُسلك به إلى النار.

هكذا يجب أن يكون المسلم يعمل ويجتهد في العمل، ثم لا يتكل عليه. بل يسأل الله القبول، ويرجو رحمة ربه، ويخاف عذابه وعقابه، وقد قال ﷺ « ما من أحد يدخله عمله الجنة . فقيل : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني ربي برحمة»^(١).

٩- وكان الإمام أبو عمران الجويني^(٢) رحمه الله يقوم الليل ويصلي ويبكي طويلاً^(٣).

١٠- وقام عبد الله بن محمد النيسابوري^(٤) رحمه الله الليل أربعين سنة لم ينم إلا جاثياً^(٥).

١١- وكان محمد بن عبد الله بن دينار^(٦) رحمه الله زاهداً عابداً . قال عنه الإمام الحاكم : كان يصوم النهار، ويقوم الليل، ويصبر على الفقر ما رأيت في مشايخ أصحاب الرأي أعبد منه^(٧).

(١) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل. رقم الحديث « ٦٤٦٣ » ٢٩٤/١١، وصحيح الإمام مسلم : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى . رقم الحديث « ٢٨١٦ » ٢١٦٩/٤ .

(٢) هو الإمام الحافظ أبو عمران موسى بن العباس الجويني توفي رحمه الله بجوين سنة ٣٢٣ هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٣٥/١٥).

(٣) المرجع السابق : ٢٣٦/١٥ .

(٤) هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل بن ميمون النيسابوري قال الدارقطني : لم ير في مشايخنا أحفظ منه للأسانيد والمتون. توفي سنة ٣٢٤ هـ عن ست وثمانين سنة . (ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٨٦).

(٥) المرجع السابق : ١٨٦/١١ ومعنى جاثياً : أي جالساً على ركبتيه . (انظر ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر مادة «جثا» ٢٣٩/١).

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن دينار النيسابوري الحنفي الإمام الفقيه الزاهد العابد قال عنه الخطيب : ثقة، توفي في غرة صفر سنة ٣٣٨ هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٨٢/١٥).

(٧) المرجع السابق : ٣٨٣/١٥ .

هكذا كان أولئك رحمهم الله تعالى قدوة في العبادة والتقرب إلى الله عز وجل بها .
وكانوا يتلذذون بها ، فلا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يتركها أو يتخلى عنها ، لأنها كانت
قلأ قلوبهم بمعاني العبودية لله تعالى ، وتصلهم بربهم وخالقهم .
فنسأل الله عز وجل أن يتقبل منهم ما قدموا وأن يجمعنا بهم في جنات ونهر في مقعد
صدق عند مليك مقتدر .

المبحث الرابع

«القدوة في الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى»

لقد حث الإسلام على الصدقة والإنفاق في سبيل الله ورغب في ذلك كثيراً، فمن ذلك قول الله عز وجل ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٢).

وجاء في الحديث القدسي أن الله عز وجل قال : «أنفق يا بن آدم أنفق عليك»^(٣).

وقال ﷺ «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»^(٤).

وقال ﷺ : «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(٥).

وقد كان ﷺ قدوة حسنة في الصدقة والإنفاق في سبيل الله . قال أنس بن مالك رضي الله عنه . ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه . قال : فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة^(٦) .

(١) سورة البقرة : جزء من الآية ٢٧٢ .

(٢) سورة سبأ : جزء من الآية ٣٩ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح : كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم الحديث «٥٣٥٢»
٤٩٧/٩، وصحيح الإمام مسلم : كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، رقم الحديث «٩٩٣» ٦٩٠/٢ .

(٤) سنن الإمام الترمذي : أبواب الصلاة، باب ما ذكر في فضل الصلاة رقم الحديث «٦١٤» ٥١٢/٢، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله ثقات . ٢٣٠/١٠ .

(٥) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب الزكاة، باب فأما من أعطى واتقى، رقم الحديث «١٤٤٢»
٣٠٤/٣، وصحيح الإمام مسلم : كتاب الزكاة، باب المنفق والممسك رقم الحديث «١٠١٠» ، ٧٠٠/٢ .

(٦) المرجع السابق : كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا وكثرة عطائه . رقم الحديث «٢٣١٢» ١٨٠٦/٤ .

وقد كان العلماء والدعاة في العصر العباسي الثاني قدوة حسنة في الصدقة والإنفاق في سبيل الله سرّاً وعلانية وفيما يلي عدد من الأمثلة والنماذج التي تدل على ذلك :

١- كانت غلة الإمام سحنون بن سعيد رحمه الله في زيتونه خمسمائة دينار في السنة فما تنقضي السنة إلا والديون عليه لكثرة صدقته ومعروفه ^(١) .

٢- وكان أبو الوليد مروان بن شحمة البلوي ^(٢) رحمه الله يعمل الطوب بيده، فيتصدق بثلاث ما يربح وينفق ثلاثاً على عياله ويردّ في التبن ثلاثاً ^(٣) .

٣- وكان الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله كثير الصدقة شديد الحرص على إخفائها . قال محمد بن أبي حاتم : « كان يتصدق بالكثير، يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث، فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقلّ وأكثر، من غير أن يشعر بذلك أحد، وكان لا يفارقه كيسه. ورأيتُه ناول رجلاً مراراً صرةً فيها ثلاثمائة درهم. فأراد أن يدعو. فقال له أبو عبد الله : ارفق، واشتغل بحديث آخر. كيلا يعلم بذلك أحد » ^(٤) .

فرحم الله الإمام البخاري ما أحرصه على صدقة السر التي جاء في فضلها أن الرسول ﷺ قال: « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... وذكر منهم : ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » ^(٥) .

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦١٩/٢ .

(٢) هو أبو الوليد مروان بن شحمة البلوي الأفريقي قال أبو العرب : كان ثقة مستجاباً فاضلاً وكان سحنون يعرف فضله. وكان ورعاً زاهداً متقللاً من الدنيا من المجتهدين في العبادة، مات سنة ٢٤٢ هـ . (المالكي : رياض النفوس ٣٩٢/١، والدباغ : معالم الإيمان ١٠٥/٢) .

(٣) المرجع السابق ١٠٥/٢، وكأنه رحمه الله يقتدي بالرجل الذي كان يتصدق بثلاث ما يخرج من حديثه وينفق على عياله ثلاثاً ويرد فيها الثلث الباقي فوكلّ الله ملكاً بالسحابة يأمرها بسقي حديثه كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين، رقم الحديث « ٢٩٨٤ » ٢٢٨٨/٤ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٥٠/١٢ .

(٥) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم الحديث « ١٤٢٣ » ٢٩٢/٣، وصحيح الإمام مسلم : كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم الحديث « ١٠٣١ » ٧١٥/٢ .

وقال أيضاً ﷺ «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصله الرحم تزيد في العمر»^(١).

٤- وكان القاضي عبد الله بن طالب^(٢) رحمه الله غنياً إلا أنه كان كثير الصدقة والإنفاق في سبيل الله فقد ولي القضاء ومعه ثمانون ألف دينار فتصدق بجميعها أيام قضاؤه^(٣).

وله رحمه الله حوادث متعددة تدل على جوده وكرمه وحرصه على الصدقة والإنفاق في سبيل الله فمن ذلك :

أنه رأى في يومٍ شاتٍ مطير شيخاً كبيراً ضعيفاً، معه دُوْبَةٌ عليها حطب يكاد يسقط والشيخ يحاول منعه من السقوط . فرق له ابن طالب وقال له :

يا شيخ في مثل هذا اليوم ؟

قال : فما حيلتي؟ لي بنات وعيال أبيع هذه الشبكة -يعني من الحطب- فأشتري منها شعيراً وعلفاً ولو تركت هذا اليوم بقينا بغير شيء .

فطلب منه ابن طالب أن يأتي إليه من الغد، فلما جاء الشيخ قال لوكيله : امض فاشتر لهذا الشيخ كذا وكذا من الطعام، واشترله ولعياله جُبَّةً وكساء لكل واحد منهم . قم يا شيخ، فقام الشيخ وقال : الحمد لله رب العالمين .

فقال ابن طالب : واشتر له زوجاً يحرق له من البقر، وكذا وكذا من الزريعة^(٤) . قال

الشيخ: الحمد لله رب العالمين.

(١) الطبراني: سليمان بن أحمد، المعجم الكبير: رقم الحديث «٨٠١٤» ٣١٢/٨، (ط. بدون، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي)، ورواه أيضاً الدمياطي : عبد المؤمن بن خلف ، في المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح، باب فضل صدقة السر، رقم الحديث «٥٧٥» ص١٤٧، وقال الدمياطي : إسناده حسن . (ط. الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤١٠، بيروت) ، وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : إسناده حسن ١١٥/٣ .

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٨٧.

(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢٠٠/٣، والدباج : معالم الإيمان، ١٧٠/٢ .

(٤) الزريعة : هو الحب الذي يبذر ويزرع . (انظر ابن منظور : لسان العرب، مادة «زرع» ١٤١/٨).

قال ابن طالب : واشتر له غلاماً يحرث له . قال الشيخ : الحمد لله رب العالمين .

قال ابن طالب : واشتر له مائة شاة من الغنم . قال الشيخ : الحمد لله رب العالمين . قال ابن طالب : واشتر له كذا وكذا حتى عدّ الراوي أشياء كثيرة والشيخ يحمد الله إلى أن قال الشيخ : أغنيتني وأغنيت أهلي فعل الله بك وفعل .

فقال ابن طالب : يا شيخ لو دُمت في الحمد لريك لأنفدتُ عليك جميع ما أملك^(١) .

الله أكبر، ما أعظم تعظيمهم وإجلالهم لله عز وجل، وما أحبههم لحمدته والثناء عليه ، أما الثناء عليهم، فهم أبعد الناس للإعراض عنه والزهد فيه .

٥- وكان بقيُّ بن مخلد^(٢) رحمه الله يتصدّق حتى بما يلبس، فقد قال أسلم بن عبد العزيز « كنت أمشي معه في أزقة قرطبة فإذا نظر في موضع خال إلى ضعيف محتاج أعطاه أحد ثوبه»^(٣) .

٦- وكان محمد بن إبراهيم بن عبدوس^(٤) رحمه الله كثير الصدقة، حتى إنه ربما أنفق جميع غلته من ضيعته على الفقراء والمحتاجين. يقول محمد بن بسطام « كنت في بيتي في ليلة شتوية إذ دقّ عليّ الباب ، وإذا محمد بن عبدوس وعليه جُبّة صوف، وقلنسوة من قُرو، فقلت : ما جاء بك في هذا الوقت؟ فقال : ما بتُّ الليلة غمّاً بفقراء

(١) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/٢٠٠ وللإطلاع على المزيد من النماذج والأمثلة التي تدل على كثرة صدقته وإنفاقه في سبيل الله انظر : المرجع السابق ٣/١٩٩-٢٠٧، ورياض النفوس : ٤٧٤/١ . ٤٧٥، ومعالم الإيمان ٢/١٦٤ - ١٧٢ .

(٢) هو أبو عبد الرحمن بقيُّ بن مخلد بن يزيد الأندلسي الإمام القدوة، الحافظ الكبير وكان رجلاً صالحاً عابداً زاهداً مجاب الدعوة ، توفي سنة ٢٧٦هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/٢٨٥، وابن كثير : البداية والنهاية ١١/٥٦).

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩٢ .

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبدوس، قال أبو العرب : كان ثقة إماماً في الفقه ذا ورع وتواضع. توفي رحمه الله سنة ٢٨٣هـ . (انظر المالكي : رياض النفوس ١/٤٥٩).

أمة محمد ﷺ ، هذه مائة دينار وهي غلّة ضيعتي، احذر أن تمسي الليلة وعندك منها شيء ثم انصرف»^(١) .

وهكذا يجب أن يكون الداعية إلى الله تعالى، يهتم بأمور إخوانه المسلمين، ويسعى دائماً لمواساتهم، وتفقد أحوالهم .

٧- وكان أحمد بن نصر الخفاف^(٢) رحمه الله زاهداً عابداً، تصدّق سرّاً وعلانية بأموال كثيرة^(٣) .

وقال الإمام ابن الجوزي إنه تصدّق بخمسة آلاف درهم^(٤) .

وذكر أيضاً أنه وقف سائل على بابه فأمر له بدرهم .

فقال الرجل : الحمد لله . فقال أحمد لصاحبه: اجعلها خمسة .

فقال الرجل : اللهم لك الحمد .

فقال : اجعلها عشرة . فلم يزل الرجل يحمد الله ويزيده أحمد إلى أن بلغ مائة درهم،

فقال الرجل : جعل الله عليك واقية باقية .

فقال أحمد : لو لم يرجع من الحمد إلى غيره، لبلغت به عشرة آلاف درهم^(٥) .

(١) الدباغ : معالم الإيمان ٢/١٤٠ .

(٢) هو أبو عمرو أحمد بن نصر بن إبراهيم الحافظ المعروف بالخفاف . كان زاهداً متعبداً كثير الصيام رحل في طلب العلم ولقي الشيوخ ، توفي في شعبان سنة ٢٩٩ هـ . (ابن الجوزي : المنتظم ٦/١١٠ ، وابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٣/١٧٨) .

(٣) المرجع لسابق : ٣/١٧٨ .

(٤) و (٥) ابن الجوزي : المنتظم ٦/١١٠ .

٨- وكان هاشم بن مسرور التميمي^(١) رحمه الله كثير الصدقة يتصدق بالسنة بالمال العظيم، ويفك السبايا ويزودهن^(٢).

ومن مواقفه التي تدل على كثرة تصدقه وإنفاقه في سبيل الله أنه خرج ذات يوم في السّحر إلى الحمام وعليه فروّ ثمين ويده سطل ومثزر، فمرّ بشيخ يرعد من البرد، فرمى بالفرو والقميص عليه، وخلّله بمنديل وأعطاه السطل والمثزر، ثم تناول حصيراً كان على الشيخ فاستتر به، ورجع إلى داره^(٣).

وكان رحمه الله يذهب إلى دار الجذمي بالدّمنة^(٤)، فيصنع الحلوى في الفطر والأضحى، ويجعلهم صفوفاً فيطعمهم بيده، ويفلي خرقهم، ويدهن رؤوسهم، ويدعو لهم وينصرف^(٥).

وكان رحمه الله إذا حضر جنازة جلس على شفير القبر، فإذا نظر إلى اللحد قال : ما أحوج هذا القبر إلى فراش فينصرف فيتصدق بخير ثيابه، وإذا نظر إلى التراب يُهال على الميت . قال : ما أحوج هذا القبر إلى ضياء ونور .

فيذهب فيتصدق بالزيت على الأرامل والضعفاء^(٦).

ويروى أنه كان عنده ألف دينار فتصدق بها حتى لم يبق إلا خمسة دنانير، ثم إنه اتجر بها إلى أن عادت ألفاً، وخرج عنها ثانياً، ثم ثالثاً قال : فعلمت أن الله أوقفني لعباده، فأنا أدفع ولا أتوقف^(٧).

(١) هو أبو عمرو هاشم بن مسرور التميمي كان رجلاً صالحاً كثير الصدقة، كثير التعبد لله تعالى. توفي في شعبان سنة ٣٠٧هـ، وهو ابن أربع وسبعين سنة . (الدباغ : معالم الإيمان ٣٤١/٢).

(٢) المرجع السابق ٣٤١/٢ .

(٣) المرجع السابق : ٣٤٢/٢ .

(٤) تقدّم التعريف بها في ص ١٧٠.

(٥) و (٦) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٧) المرجع السابق : ٣٤٤/٢ . وله رحمه الله مواقف أخرى تدل على كثرة تصدقه وإنفاقه . انظر: المرجع

السابق ٣٤١/٢-٣٤٤ .

فصدق الله إذ يقول ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾^(١).

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول « ما نقصت صدقة من مال »^(٢).

٩- وكان يوسف بن يعقوب بن إسحاق^(٣) رحمه الله خشن العيش، كثير الصدقة. قال ابنه أحمد: سمعت أبي يقول: خرج عن يدي إلى سنة خمس عشرة وثلاثمائة نيف وخمسون ألف دينار في أبواب البر^(٤).

إلا أن هذا المبلغ قد تضاعف فيما بعد فلم يمت رحمه الله إلا وقد تصدق بمائة ألف دينار، قال الحافظ ابن كثير: «يقال إنه تصدق بمائة ألف دينار، وكان أماراً بالمعروف نهياً عن المنكر»^(٥).

١٠- وكان حسن بن محمد الخولاني^(٦) رحمه الله كثير المعروف، باع ضياعه كلها وتصدق بها. جاء في ترتيب المدارك أنه كانت له رباح^(٧) نفيسة باعها كلها وتصدق بثمانها على الفقراء^(٨).

وجاء فيه أيضاً أنه كان له خمس سوان^(٩) باعها واحدة واحدة، وما باع منها واحدة بأقل من خمسين ديناراً أو مائة وأنفقها على المساكين^(١٠).

(١) سورة سبأ: جزء من الآية ٣٩.

(٢) صحيح الإمام مسلم: كتاب البر والصله، باب العفو، رقم الحديث «٢٥٨٨» ٢٠٠١/٤.

(٣) هو أبو بكر يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول التنوخي يلقب بالأزرق لأنه كان أزرق العينين. قال القاضي التنوخي: كان يوسف الأزرق كاتباً جليلاً متصرفاً وكان متخشناً في دينه أماراً بالمعروف، توفي سنة ٣٢٩هـ. (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٨٩/١٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٢٠١/١١).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٨٩/١٥.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ٢٠١/١١.

(٦) هو أبو الحسن حسن بن محمد بن حسن الخولاني، كان رجلاً صالحاً فاضلاً فقيهاً، مشهوراً بالعلم، كان أبو العباس الأبياني إذا ذكره يقول: ذلك العالم حقاً، توفي رحمه الله ٣٤٧هـ. (القاضي عياض: ترتيب المدارك ٣/٣٦٧).

(٧) رباح: الرباع هي المنازل. (ابن منظور: لسان العرب، مادة «ربح» ١٠٢/٨).

(٨) القاضي عياض: ترتيب المدارك ٣/٣٧٢.

(٩) سوان: جمع سانية وهي الناقة يستقى عليها. (ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر مادة «سنا» ٤١٥/٢).

(١٠) القاضي عياض: ترتيب المدارك ٣/٣٧٢.

ولما مات رحمه الله لم يوجد له إلا دينار ونصف كُفِّنَ به ^(١).

وكما كان العلماء والدعاة قدوة في الصدقة والإنفاق في سبيل الله نجد أيضاً العديد من الأمراء والولاة ممن اتصف بمثل ذلك .

١١- فقد كان الأمير أحمد بن محمد بن الأغلب ^(٢) أبو إبراهيم يركب من قصره وبين يديه دواب تحمل أكياس الدراهم، وهو يأمر بإعطاء الضعفاء والمساكين منها، ويظل كذلك حتى يصل إلى المسجد الجامع، والناس حوله يدعون له خير الدعاء .

كما كان رحمه الله يقصد دور العلماء والصالحين فيأمر بقرع أبوابهم، فإذا خرجوا إليه أمر بإعطائهم من ذلك المال ^(٣).

١٢- وكان الأمير أحمد بن طولون ^(٤) من حفاظ القرآن المتقنين حفظه . وكان يحب حفظ القرآن ويكثر مواصلتهم بصلاته .

قال أبو جعفر المروزي «دعاني الأمير ابن طولون يوماً وقال لي : أتعرف إماماً يصلي في موضع كذا وكذا؟ فقلت له : نعم أنا أعرف المسجد، وما أعرف الرجل .

فقال لي : إنه حسن الصوت جيد الحفظ، فخذ معك خمسين ديناراً وامض إليه، فإنني لا أشك أنه في ضيقة . فصل خلفه، فإذا فرغ وخلا، فوانسه حتى ينسبط إليك، والطف به حتى يأنس بك، فإذا أنس فادفع هذه الدنانير إليه، وسله عن دين إن كان عليه، فإن ذكره لك فاقضه عنه، وعرفني ما يكون منك في أمره فإنني أراعيه .

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك : ٣ / ٣٧٠ .

(٢) تقدمت ترجمته في ص ١٦٩ .

(٣) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ١ / ١١٢، وسعد زغلول : الدكتور، تاريخ المغرب العربي ٢ / ١٠١ . (ط. بدون، نشر منشأة المعارف، الإسكندرية).

(٤) هو الأمير أبو العباس أحمد بن طولون التركي ولي الديار المصرية سنة ٢٥٤ هـ وظل والياً عليها حتى توفي سنة ٢٧٠ هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣ / ٩٤).

فبكرت في السّحر إلى المسجد، وصليت خلف الرجل، فسمعت إماماً طيباً حسن الصوت. فلما فرغ من الصلاة وانصرف الناس جلست أحادثه ، فلم أزل أوانسه وأذكر له أخبار الصالحين، وما يصلح أن أحده لمثله، حتى أنس وانبسط، وسألني عن حديثي وعن حالي وقال : قد آنستني فأحبّ ألا تقطع مؤانستك، فقد سررت بك.

فسألته عن أحواله، فشكا إضاقة، وقال : أغلظ ما حلّ بي أنني وقفت في المحراب أمس أصلي، فغلطت في قراءتي وما جرى عليّ هذا قبل ذلك.
فقلت : هذا يدل على شغل قلب وغمّ .

فقال لي : نعم منزلي خلف قبلة هذا المسجد، فجئت إلى الصلاة، وزوجتي تُطلق، فلما وقفت في المحراب سمعت صياحها من شدة الطلق ، ففكرت أنه ليس لها في البيت دقيق ولا خبز ولا زيت ولا معي شيء أنفقه عليها فغلطت.

فقلت : موضع يا سيدي، ما تلام على ذلك، فأخرجت له الدنانير وقلت له : هذه الدنانير من جهة صالحة ترضاها، فخذها وتفترج بها. فتوقف عن أخذها. فحلفت له أنها من جهة مرضية، ليس عليه فيها تبعة .

فأخذها وحمد الله جل اسمه وأثنى عليه، وانبسط وجهه بعدما كان كالناعس وأنا أحدثه، وكأنه في موضع آخر مشغول القلب والفكر .

ثم سألته عن دين إن كان عليه. فقال : نعم عليّ دين، وكان أيضاً قلبي به متعلقاً لتأخيره عن أصحابه، والساعة أبتدى بقضائه .

فقلت له : كم هو ؟ فقال خمسة عشر ديناراً.

فدفعتها إليه وقلت له : اقضها ولا تثلم هذه الدنانير، واتسع أنت وعيالك بها .

فزاد في حمد الله عز وجل وشكرني، وسألني من أيّ جهة هي. فلم أذكرها له كما أمرني أحمد بن طولون .

فأخبرت ابن طولون من الغد بما جرى بيننا فقال لي :

صدق، ولقد وقفت خلفه مراراً فما سمعت منه غلطاً إلاّ أوّل أمس، فإني رددت عليه في ثلاثة مواضع، وصليت اليوم خلفه فقرأ القراءة التي أعرفها منه . فحمدت الله جلّ اسمه على ما وفقني له في أمره .

ثم أمرني بإثبات اسمه في الدفتر الذي فيه أسماء المستورين والمستورات الذين يجري عليهم في كل شهر خمسة دنانير على كل رجل وامرأة، وأجرى عليه مثلهم»^(١).

(١) البلوى : عبد الله بن محمد المدني، سيرة أحمد بن طولون ص١٨٦-١٨٩ . (ط. بدون، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، تحقيق محمد كرد علي) وللإطلاع على مزيد من النماذج والأمثلة التي تدل على كثرة صدقته وإنفاقه، انظر المرجع السابق ص١٩٧-١٩٩ .

المبحث الخامس

«القدوة في الجهاد وبذل النفس»

الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى ربه عز وجل. وجاء في الكتاب والسنة العديد من الآيات والأحاديث التي تبين ذلك وتحث المسلم وترغبه في الجهاد في سبيل الله فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيْبِعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»^(١). وقوله سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(٢).

وقال ﷺ حينما سئل أي الناس أفضل «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ... الحديث»^(٣).

وقال أيضاً ﷺ «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»^(٤).

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٢) سورة الصف: الآيتان ١٠، ١١.

(٣) صحيح الإمام البخاري مع الفتح: كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله رقم الحديث «٢٧٨٦» ٦/٦.

(٤) المرجع السابق: باب فضل رباط يوم في سبيل الله رقم الحديث «٢٨٩٢» ٨٥/٦.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يتحدث عن فضل الجهاد :

«وهذا باب واسع، لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه. وهو ظاهر عند الاعتبار، فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ومشمول على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتمل من محبة الله تعالى، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر الله، وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر»^(١).

وفي العصر العباسي الثاني كما كان عدد من العلماء والدعاة رحمهم الله في جهاد مع أنفسهم لحملها على الطاعة وبذل المال وإنفاقه في سبيل الله، ونحو ذلك من الطاعات، كان منهم أيضاً من كان في جهاد مع نفسه فحملها على الجهاد في سبيل الله وقتال أعداء الله. وفي هذا المبحث سنتعرف إن شاء الله على عدد من النماذج والأمثلة التي تبين لنا ذلك :

١- يحدث محمد السمين^(٢) رحمه الله عن نفسه وجهاده للروم، فيقول «خرجت إلى الغزو مع المسلمين فكثر العدو عليهم وتقاربوا ولزم المسلمين من ذلك خوف لكثرة الروم . فرأيت نفسي في ذلك الموطن وقد لحقها روع فاشتد ذلك عليّ فجعلت أوبخها وأؤنبها. ووقع في نفسي أن أنزل إلى النهر فأغتسل فخلعت ثيابي واتزرت ودخلت النهر واغتسلت، وخرجت وقد اشتدت لي عزيمة لا أدري ما هي، فخرجت بقوة تلك العزيمة ولبست ثيابي وأخذت سلاحي ودنوت من الصفوف وحملت -بفضل الله تعالى- بقوة تلك العزيمة حملة وأنا لا أدري كيف أنا، فخرقت صفوف المسلمين و صفوف الروم حتى

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣٥٣/٢٨ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن حاتم بن ميمون المروزي ثم البغدادي السمين، وثقه ابن عدي والدارقطني ، مات في آخر سنة ٢٣٥هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١/٤٥٠).

صرت من ورائهم ثم كبرت تكبيرة، فسمع الروم ذلك وظنوا أن كميناً قد خرج عليهم من ورائهم فولوا وحمل عليهم المسلمون فقتل من الروم بعد ذلك نحو أربعة آلاف وجعل الله عز وجل ذلك سبب النصر والفتح»^(١).

٢- وكان أحمد بن إسحاق السرماري^(٢) رحمه الله عابداً مجاهداً يضرب بشجاعته المثل . قال الإمام البخاري رحمه الله « ما نعلم في الإسلام مثله » وقال الحافظ ابن حبان « كان من الغزائين، وكان من أهل الفضل والنسك مع لزوم الجهاد ».

وقال عبيد الله بن واصل سمعته -يعني أحمد بن إسحاق- يقول وقد أخرج سيفه « أعلم يقيناً أنني قتلت به ألف تركي ولولا أن يكون بدعة لأمرت أن يدفن معي»^(٣).

٣- وكان محمد بن سحنون^(٤) رحمه الله يرباط على الثغور لحراسة المسلمين وحمايتهم من الأعداء . وفي ذات يوم هاجمت الروم المسلمين من ثغر على ساحل البحر كان محمد بن سحنون من المرابطين فيه فتصايح الناس عندما علموا بذلك ، ولم يكن مع بن سحنون إلا بغل، فخاف إن بعث إلى سوسة في طلب فرس أن ينال الروم من المسلمين بغيتهم، فأخذ سلاحه، وركب ذلك البغل الذي معه، واجتمع إليه الناس في جماعة من المرابطين ومن حولهم من أهل البوادي، وقمادى بمن معه إلى الروم فوجدهم قد أشرفوا على نهب الأموال، وسبي الحرير، فكبر عليهم هو ومن معه وقد ناشبوهم القتال، فهزمهم الله على يديه، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأتبعهم بالهزيمة حتى أدخلهم البحر هارين، فحلف محمد بن سحنون بعد ذلك أنه لا يخرج إلى الحرس إلا بفرس^(٥).

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٣١/٥ .

(٢) هو أحمد بن إسحاق بن الحصين بن جابر السلمي السرماري من أهل سمراري من قرى بخارى الإمام الزاهد العابد المجاهد فارس الإسلام ، مات سنة ٢٤٢ هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٧/١٣ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ١٣/١).

(٣) المرجعان السابقان : الذهبي : ٣٧/١٣ ، وابن حجر : ١٣/١-١٤ .

(٤) تقدمت ترجمته في ص ٤١ .

(٥) المالكي : رياض النفوس ٤٤٦/١ .

٤- وتقدم في فصل الجهاد أن عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم خرج مع جماعة من أصحابه وأتباعه لجهاد البجة غضباً لله وحماية للمسلمين . فدخل بلادهم فنهبها، وقتل فيهم فأكثر، ونهب وسبى ما لا يحصى، وتابع عليهم الغارات حتى أدوا إليه الجزية^(١) .

٥- وكان الفضل بن عبد الصمد الأصفهاني^(٢) رحمه الله رجلاً جليلاً لزم طرسوس^(٣) - وهي ثغر على بلاد الروم- إلى أن مات في الأسر، وأسر رحمه الله مرتين^(٤) .

٦- وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام^(٥) ذا فضل وديانة وعلم وفصاحة، وإقدام وشجاعة، وكان كثير الغزو والتوغل في بلاد الروم يبقى السنة والسنتين قتلاً وسيياً^(٦) .

٧- وخرج أبو بكر أحمد بن محمد المروزي^(٧) رحمه الله إلى الغزو فشيعة الناس إلى سامراء فجعل يردهم فلا يرجعون . فحرزوا فإذا هم بسامراء سوى من رجع نحو خمسين ألف إنسان .

ف قيل له : يا أبا بكر أحمد الله، فهذا علم قد نشر لك .

فبكى ثم قال : ليس هذا العلم لي إنما هذا علم أحمد بن حنبل^(٨) .

(١) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٦٩/٥ .

(٢) هو الفضل بن عبد الصمد الأصفهاني يكنى بأبي يحيى من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وروى عنه . لزم طرسوس ، وكان له جلالة عظيمة عند أهلها . مات بعد سنة ٢٧١هـ في الأسر . (انظر ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ٢٥٤/١) .

(٣) تقدم التعريف بها في ص ١١٠ .

(٤) المرجع السابق الجزء والصفحة نفسيهما .

(٥) هو الأمير أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي القرطبي كان ذا فضل وديانة، توفي في صفر سنة ٢٧٣هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/١٧١) .

(٦) المرجع السابق : ١٧١/١٣-١٧٢، وابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٣/٧٠ .

(٧) تقدمت ترجمته في ص ٢٠٨ .

(٨) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ٥٧/١، ٥٨، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/١٧٤ .

٨- وكان بقي بن مخلد^(١) رحمه الله إماماً مجتهداً صالحاً رأساً في العلم والعمل، وكان

كثير الجهاد، يذكر عنه أنه رابط اثنتين وسبعين غزوة^(٢).

٩- وكان جبلة بن حمود الصدفي^(٣) رحمه الله كثير المرابطة في سبيل الله شديد المجاهدة

للمرافضة. يقول أبو بكر المالكي «ولم يكن في وقته أكثر اجتهاداً منه في مجاهدة

عبيد الله وشيعته، كان لا يداري في ذلك أحداً من الخلق فسلمه الله عز وجل منهم

وحماه من كيدهم ومكرهم»^(٤).

ولما دخل عبيد الله الشيعي إلى افريقية وملكها ونزل برقادة^(٥) ترك جبلة سكنى الرباط

وأتى إلى القيروان فسكنها فكلم في ذلك وقيل له كنت تحرس المسلمين وترابط فتركت

الرباط والحرس ورجعت إلى هاهنا.

فقال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي حلّ

بساحتنا لأنه أشدّ علينا من الروم، فكان إذا أصبح وصلى الصبح خرج إلى طرف القيروان

من ناحية رقّاده ومعه سلاحه وجلس محاذياً لرقّاده فيقيم نهاره أجمع في ذلك الموضع فإذا

كان عند غروب الشمس رجع إلى داره^(٦).

(١) تقدمت ترجمته في ص ٢٢١.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٢٩٢/١٣.

(٣) تقدمت ترجمته في ص ٢٠٩.

(٤) المالكي: رياض النفوس ٣٨/٢.

(٥) رقّادة: مدينة تقع على بعد تسعة كيلومترات جنوب القيروان أسسها إبراهيم الأغلبي وصارت قاعدة الأمراء الأغالبة في افريقية (الموسوعة العربية الميسرة: ٨٧٦/١).

(٦) المالكي: رياض النفوس ٣٧/٢، وانظر القاضي عياض: ترتيب المدارك ٢٥١/٣.

- ١٠- وكان الإمام أحمد بن علي النسائي^(١) رحمه الله من المواظبين على الجهاد في سبيل الله قال الحافظ محمد بن مظفر «سمعت مشايخنا بمصر يعترفون له بالتقدم والإمامة، ويصفون من اجتهاده في العبادة بالليل والنهار ومواظبته على الحج والجهاد»^(٢).
- ١١- وكان محمد بن عبد الله بن دينار^(٣) رحمه الله يحج في كل عشر سنين ويغزوا كل ثلاث سنين^(٤).
- ١٢- واجتمع عدد كبير من العلماء والدعاة في القيروان لقتال الرافضة أتباع بني عبيد لما أظهروا كفرهم، وسبهم للنبي ﷺ وأصحابه، وحثوا الناس على جهادهم فخرج معهم الكثير، فحملوا على الرافضة، إلا أنهم لم يستطيعوا الانتصار عليهم، فقتل منهم خمسة وثمانون نفساً من العلماء والزهاد رحمهم الله وتقبلهم في الشهداء عنده^(٥).

(١) تقدمت ترجمته في ص ٢١٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٢٣.

(٣) تقدمت ترجمته في ص ٢١٦.

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٥/٣٨٣.

(٥) انظر المرجع السابق : ١٥/١٥٣، والقاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/٣١٨-٣٢١.

المبحث السادس

«القدوة في الورع»

الورع في اللغة: قال العلامة ابن الأثير: الورعُ في الأصل: الكفُّ عن المحارم والتحرُّج منه. يُقال: ورِعَ الرَّجُلُ يَرِيعُ، بالكسْرِ فيهما، ورَعاً ورِيعَةً، فهو ورِيعٌ، وتورَع من كذا، ثم استعير للكفُّ عن المباح والحلال^(١).

وقال العلامة ابن منظور: الورعُ: التحرُّج، تورَع عن كذا أي تحرَّج. والورع بكسر الراء: الرجل التقي المتحرِّج. يقال فلان سيء الرِّعة أي قليل الورع^(٢).

الورع في الاصطلاح:

هو اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات^(٣).

والورع من الأمور التي حث عليها النبي ﷺ ورغب فيها بقوله وفعله. فقد قال ﷺ: «.. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام...» الحديث^(٤).

وقال أيضاً ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٥).

(١) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر مادة «ورع» ١٧٤/٥.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة «ورع» ٣٨٨/٨.

(٣) الجرجاني: التعريفات ص ٣٠٧.

(٤) صحيح الإمام البخاري مع الفتح: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث «٥٢» ١٢٦/١، وصحيح الإمام مسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم الحديث «١٥٩٩» ١٢١٩/٣.

(٥) سنن الإمام الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب رقم «٦٠» رقم الحديث «٢٥١٨» ٥٧٦/٤، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الشيخ الألباني في إرواء الغليل: صحيح، رقم الحديث «٢٠٧٤» ١٥٥/٧.

وروى الشيخان أنه ﷺ وجد تمرة فقال : « لولا أن تكون من الصدقة لأكلتها »^(١) .

وروى الإمام البخاري عن الصديق رضي الله عنه أنه لما أكل أكلاً جاء به غلامه، قال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقال أبو بكر : وما هو؟

قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أنني خدعته فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه. فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه^(٢) .

والورع من الصفات الحسنة التي كان يتصف بها العديد من العلماء والدعاة في العصر العباسي الثاني، وها هي عدد من النماذج والأمثلة التي تبين ذلك وتوضحه :

١- فقد كان الإمام سحنون بن سعيد رحمه الله شديد الورع، حتى إنه لم يأخذ على قضائه أجراً وكان يقول رحمه الله : « .. فوالله لقد ابتليت بهذا القضاء، وبهم. والله ما أكلت لهم لقمة، ولا شربت لهم شربة، ولا لبست لهم ثوباً، ولا ركبت لهم دابة، وما أخذت لهم صلة »^(٣) .

٢- وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله لا يقبل من السلطان شيئاً . بل بلغ به الأمر إلى أشد من ذلك . فقد ذكر الحافظ الذهبي أنه أتى عليه ثلاثة أيام ما طعم فيها، فبعث إلى صديق له فاقترض منه دقيقاً، فجهزوه بسرعة ، فقال : كيف ذا؟ قالوا تنور صالح مُسَجَّر، فخبزنا فيه .

(١) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب البيوع، باب ما يتنزه من الشبهات، رقم الحديث « ٢٠٥٥ »
٢٩٣/٤، وصحيح الإمام مسلم : كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون غيرهم، رقم الحديث « ١٠٧١ » ٧٥٢/٢ .

(٢) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية رقم الحديث « ٣٨٤٢ »
١٤٩/٧ .

(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦١٦/٢، والدبائغ : معالم الإيمان ٩٧/٢ .

فقال : ارفعوا ، وأمر بسد باب بينه وبين صالح .

قال الحافظ الذهبي : لكونه أخذ جائزة المتوكل ^(١) .

وحضر جماعة من أصحاب الحديث عند الإمام أحمد - وكان بعسكر المتوكل - فاشترى لهم بما كان عنده من النفقة وأطعمهم ، وصبر على مقدار ربع سويق ثمانية عشر يوماً حتى أتته النفقة من بغداد لا يذوق من مائدة المتوكل شيئاً ^(٢) .

٣- وكان الإمام محمد بن أسلم ^(٣) رحمه الله شديد الورع ، فلا يحب أن يظهر عليه شيء من آثار العبادة خوفاً من الرياء . قال محمد بن القاسم « كان محمد بن أسلم يدخل بيتاً له ، ويغلق بابه ، ولم أدر ما يصنع حتى سمعت ابناً له صغيراً يحكي بكاءه . فنهته أمه . فقلت لها : ما هذا ؟

قالت : إن أبا الحسين يدخل هذا البيت ، فيقرأ ويبكي فيسمعه الصبي ، فيحكيه ، وكان إذا أراد أن يخرج ، غسل وجهه واكتحل ، فلا يرى عليه أثر البكاء » ^(٤) .

٤- وكان عيسى بن مسكين ^(٥) رحمه الله شديد الورع وجّه إليه الأمير إبراهيم بن الأغلب ليوليه القضاء بعدما استشار عدداً من العلماء ، فأشاروا عليه به . فلما حضر قال له الأمير : أتدري لم بعثت إليك ؟

فقال : لا . قال : لأشاورك في رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء ، وألم به شعث هذه الأمة فامتنع ؟

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢١٤/١١ .

(٢) انظر ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ٢٦٥/١ .

(٣) تقدمت ترجمته في ص ٢٠٨ .

(٤) الأصبهاني : حلية الأولياء ٢٤٣/٩ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٠١/١٢ .

(٥) هو عيسى بن مسكين بن منصور بن جريج بن محمد الأفريقي ، كان من أهل الفقه والورع وكان مهيباً وقوراً ، مات رحمه الله سنة ٢٧٥ هـ . (القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢١٢/٣) .

قال : ألزمه أن يلبي : قال : تمنع .

قال : يجبر على ذلك . قال : امتنع ؟

قال : يجلد . قال قم فأنت هو .

قال : ما أنا بالذي وصفت ، وتمنع .

فأخذ الأمير بمجامع ثيابه، وقرب السيف من نحره. فتقدم إليه عيسى بنحره، فجمع من حوله ثيابهم كي لا يصيبهم من دمه. ولكن الأمير لم يزل به حتى ولي^(١).

ولم يأخذ ابن مسكين رحمه الله في مدته على القضاء أجراً^(٢).

وكلف ابن مسكين إنساناً شراء زيت له، فاشترى له من نصراني زيتاً طيباً الأصل، وأخبره أنه زاده فيما اشتراه عشرة أقفزة حين علم أنه له . وذلك بعد صرفه عن القضاء. فأطرق ملياً ثم رفع رأسه إليه، فقال : شكر الله سعيه، لعلك تتم أجمالك بصرف زيتك إليه، وتأتيني بديناري بعينه. وإلا فاترك الزيت له. وخذ منه ديناراً، وتصدق به. ففعل ذلك. ثم اعتذر له عيسى . لثلا يقع في نفسه شيء .

وقال : خفت حكم الآية في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية^(٣).

٥- وكان القاضي عبد الله بن طالب^(٤) رحمه الله عالماً ورعاً قال القصري : « كان ابن طالب، يذكر تنازع أصحابنا في المسائل، فرما ذكر في المسألة خمسة أقوال أو ستة. ثم تسيل دموعه، ويضع خده على الأرض ، ويقول: يا فتى أردت أن يقال فقيه. فهل

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك : ٢١٥/٣ .

(٢) المرجع السابق : ٢١٩/٣ .

(٣) المرجع السابق ٢٢٤/٣ ، والآية من سورة المجادلة رقم : ٢٢ .

(٤) تقدمت ترجمته في ص ٨٧ .

معك عمل صالح، تنجو به من عذاب الله، وإلا فما يغني هذا عنك. وما رأيت أكثر دموعاً عند ذكر الرسول ﷺ منه»^(١).

٦- وكان الحافظ إبراهيم الحربي^(٢) رحمه الله إماماً في العلم والزهد والورع قال عنه الحافظ الدارقطني : إبراهيم الحربي إمام مصنف، بارع في كل علم، صدوق، كان يقاس بأحمد بن حنبل في زهده وورعه وعلمه^(٣). ومما يروى عن ورعه رحمه الله: أن المعتضد بعث إليه بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها وردّها، فرجع إليه الرسول وقال : يقول لك الخليفة فرقها على من تعرف من فقراء جيرانك .

فقال : هذا شيء لم نجمعه ولا نسأل عن جمعه، فلا نسأل عن تفريقه . قل لأمير المؤمنين إما يتركنا وإمّا نتحول من بلدنا^(٤).

٧- وكان حمديس القطان^(٥) رحمه الله ورعاً لا يُسَلَّم على أحد من أهل الأهواء والبدع^(٦)، استحضره الأمير إبراهيم بن الأغلب فسأله عن مسألة فلم يجبه. فقال : مالي أسألك ، فلا تجيبني؟ والله لئن ضربت مخالبي فيك لأفعلن كذا وكذا. فقال حمديس : والله لهو أهون عليّ من أن يمسخ على ديني . إنما سؤالك تنكيت ليس ليعمل به^(٧).

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك : ٢٠٣/٣ . ٢٠٤ .

(٢) هو إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير البغدادي الحربي الإمام الحافظ صاحب التصانيف كان زاهداً عابداً توفي رحمه الله سنة ٢٨٥هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٥٦/١٣، وابن كثير : البداية والنهاية ٧٩/١١).

(٣) انظر المرجع السابق : ٧٩/١١ .

(٤) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٥) تقدمت ترجمته في ص ٢٠٩ .

(٦) الدباغ : معالم الإيمان ٢/٢٠٢ .

(٧) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢٥٧/٣ .

وقال له أيضاً الأمير إبراهيم بن الأغلب : من أين عيشتك؟ وفي كم أنت من العيال؟
فقال حمديس: في ستة ونحن من الله في ستر جميل . ثم قال : لي عند الأمير حاجة .

فنشط الأمير إليها وقال : اذكر حاجتك؟

فقال حمديس : تعافيني من المجيء إليك بعد هذا المجلس، فإنك لست تجدني ما
تريد.

فسكت الأمير ساعة ثم قال : قد فعلت^(١) .

٨- وكان جبلة بن حمود الصدفي رحمه الله ورعاً زاهداً . قال عبد الله بن سعيد : « كان
جبلة لا يحب ما ظهر من الأعمال، وكانت أعماله كلها خفية، ما خلا الزهد فإنه كان
يظهر عليه»^(٢) .

قال المالكي «ومات والد جبلة، وكان ذا يسار- وترك نعمة عظيمة فلم يرث جبلة منها
شيئاً ، فكلم جبلة على تركه ميراث أبيه فقال: ما علمت من أبي إلا خيراً ما كان يقول
ببدعة لكنني رأيتُه يقتضي من ثمن الطعام طعاماً^(٣) وهو عنده جائز وعندنا غير جائز
فتركته تنزها»^(٤) .

(١) انظر الدباغ : معالم الإيمان ٢/٢٠٣ .

(٢) المالكي : رياض النفوس ٢/٢٩ .

(٣) أي يبيع الطعام بالطعام. ويبيع الطعام بالطعام إذا كانت الأصناف واحدة - كبيع تمر بتمر، يشترط لجوازه
توفر شرطين، الأول : المماثلة، كصاع بصاع ونحو ذلك . والثاني : أن يكون يداً بيد .

أما إذا كانت الأصناف مختلفة فلا بد من توفر شرط واحد وهو أن يكون البيع يداً بيد. روى الإمام مسلم
أن النبي ﷺ «نهى عن بيع الطعام بالطعام إلا مثلاً بمثل» (صحيح الإمام مسلم: كتاب المساقاة، باب
بيع الطعام بالطعام مثلاً بمثل، رقم الحديث «١٥٩٢» ٣/١٢١٤). وروى رحمه الله أيضاً أن النبي ﷺ
قال : «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً
بمثل، سواء بسواء، يداً بيد. فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد» (صحيح
الإمام مسلم : كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الورق بالذهب نقداً، رقم الحديث «١٥٨٧» ٣/١٢١١).
انظر أيضاً عبد الرحمن بن محمد القاسم : حاشية الروض المربع ٤/٤٩٥-٤٩٨ . ط. الثالثة، ١٤٠٥هـ).

(٤) المالكي : رياض النفوس ٢/٣١ .

٩ - وكان بنان بن محمد بن حمدان^(١) رحمه الله زاهداً عابداً لا يقبل من السلطان شيئاً وله منزلة كبيرة عند الناس^(٢).

١٠ - وكان القاضي علي بن الحسين بن هوب^(٣) رحمه الله عالماً ورعاً قوالاً بالحق. قال عنه منصور بن إسماعيل الفقيه عندما سئل عنه « رأيت رجلاً عالماً بالقرآن والفقه، والحديث، والاختلاف ووجوه المناظرات، وعالماً باللغة، والعربية، وأيام الناس، عاقلاً، ورعاً، زاهداً، متمكناً^(٤) ».

ومما يروى عنه في ورعه رحمه الله: أنه حركه البول ذات يوم فعدل إلى بستان فنزل وبال، واستنجى وتوضأ من مائه، ثم انصرف، ثم سأل بعد أيام عن البستان، فقيل: لفلانة. فأرسل إليها يستأذنها على الحضور إليها فارتاعت لذلك، وقالت: أنا أركب إليه. فأبى، وركب إليها، فقال لها: البستان لك وحدك بلا شريك؟ فقالت: نعم. وأنا الذي أسقيه من مائي.

فقال: فأنا نزلت في أرضه، وتوضأت من مائه، فخذني ثمن ذلك. فبكت، وقالت: أيها القاضي: أنت في حل، ولو علمت أن القاضي يقبله هدية لأهديته إليه.

(١) هو بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد، يكنى بأبي الحسن ويعرف بالجمال كان زاهداً عابداً وكانت له كرامات كثيرة، مات رحمه الله سنة ٣١٦ هـ. (ابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٥٨).

(٢) انظر المرجع السابق: الجزء والصفحة نفسيهما، وانظر أيضاً الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/٤٨٨.

(٣) هو علي بن الحسين بن حرب بن عيسى البغدادي، أبو عبيد القاضي العلامة والمحدث الثبت، ولي قضاء واسط ثم مصر ثم استعفى من القضاء فأعفى، مات رحمه الله سنة ٣١٩ هـ (الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/٥٣٦).

(٤) السبكي: طبقات الشافعية ٣/٤٤٨.

فقال لها : عن طيب نفسٍ تركت، ولم تتركي ذلك لأجل القاضي وحرمته؟

فقلت : نعم . فانصرف ^(١) .

١١- وكان الإمام الحسن بن علي البرهاري ^(٢) رحمه الله عالماً زاهداً شديد الورع، ترك

ميراث أبيه وكان سبعين ألفاً لأمر كرهه ^(٣) .

(١) السبكي : طبقات الشافعية : ٤٥٠/٣ .

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٢١٠ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٩٢/١٥ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٢٠١/١١ .

المبحث السابع

«القدوة في الزهد»

الزهد في اللغة :

الزهد في اللغة هو : الترك والإعراض .

يقال : زهد في الشيء وزهد عنه زهداً وزهادة، بمعنى تركه وأعرض عنه، فهو زاهد والجمع زُهَاد، وهو ضد الرغبة والحرص على الدنيا. والزهد : هو الشيء القليل والمُزْهِد : هو قليل المال^(١) .

الزهد في الاصطلاح :

قيل هو : عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه^(٢) .

وقيل هو : بغض الدنيا والإعراض عنها.

وقيل هو : ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة^(٣) .

وقيل هو : أخذ قدر الضرورة من الحلال المتيقن الحل^(٤) .

وذكر العلامة ابن القيم الفرق بين الزهد والورع، فقال: «والفرق بين الزهد وبين الورع أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يُخشى ضرره في الآخرة . والقلب المعلق بالشهوات لا يصلح له زهد ولا ورع»^(٥) .

(١) انظر ابن زكريا : أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة «زهد» ٣/٣٠ ، وابن منظور : لسان العرب، مادة «زهد» ٣/١٩٦، والفيومي : أحمد محمد، المصباح المنير، مادة «زهد» ١/٢٧٦ .

(٢) ابن قدامة المقدسي : أحمد بن عبد الرحمن، مختصر منهاج القاصدين ص٢٨٢، (ط. الأولى، دار التراث العربي، القاهرة، ١٤٠٢هـ) .

(٣) الجرجاني : التعريفات ص١٥٢ .

(٤) محمد أعلى التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ٣/٦١٠ .

(٥) ابن القيم : الفوائد ص٢١٥ .

وقال العلامة التهانوي بعدما ذكر تعريف الزهد السابق ذكره «والزهد أخص من الورع لأن الورع ترك المشتبه»^(١).

وقال في موضع آخر «وقد يُفرَّق بين الورع والزهد بأن الورع ترك الشبهات والزهد ترك ما زاد عن الحاجة»^(٢).

وإن المتعمّن في كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه ﷺ يجد الكثير من الآيات والأحاديث التي ترغب في الزهد وتحث عليه . قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلًا﴾^(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثْنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٤).

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية «فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد»^(٥).

وروى الإمام مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير وقد أثر الحصير في جنبه، ولم يجد في خزانته شيئاً يذكر فبكى رضي الله عنه. فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقال: يا نبي الله، وما لي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك . فقال ﷺ: يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟^(٦).

(١) و(٢) التهانوي: كشف اصطلاحات الفنون: ٦١٠/٣، ١٤٨٠/٦.

(٣) سورة النساء: جزء من الآية ٧٧.

(٤) سورة طه: الآية ١٣١.

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٦٦/٣.

(٦) صحيح الإمام مسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخبيرهن، وقوله تعالى ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ رقم الحديث «١٤٧٩» ١١٠٥/٢.

وأخرج عائشة رضي الله عنها كساء وإزاراً غليظاً وقالت : « قُبِضَ رسول الله ﷺ في هذين »^(١) .

وكان أصحابه ﷺ أزهد الناس في الدنيا، روى فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس، يخرُّ رجالاً من قامتهم في الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب : هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم، فقال : « لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى، لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة »^(٢) .

وقد حذر ﷺ من الاغترار بالدنيا، وحث على الزهد فيها، فقال: « من كانت الدنيا همّه، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة »^(٣) .

وفي العصر العباسي الثاني كان هناك العديد من العلماء والدعاة ممن زهد في الدنيا ورغب فيما عند الله عز وجل . وهاهي بعض النماذج والأمثلة على ذلك :

١- مات الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وما خلف إلا أقل من درهم، قال إسحاق بن هاني : « مات أبو عبد الله، وما خلف إلا ست قطع أو سبعاً، كانت في خرقة كان يمسح بها وجهه، قدر دانقين »^(٤) .

(١) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب اللباس، باب الأكسية والخمائنص، رقم الحديث « ٥٨١٨ » ، ٢٧٧/١٠، وصحيح الإمام مسلم : كتاب اللباس والزينة، باب التواضع في اللباس، رقم الحديث « ٢٠٨٠ » ١٦٤٩/٣ .

(٢) سنن الإمام الترمذي : كتاب الزهد، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ، رقم الحديث « ٢٣٦٨ » ٥٨٣/٤ . وقال الترمذي « هذا حديث صحيح » وابن بلبان: علاء الدين بن علي : الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان، رقم الحديث « ٧٢٢ » ٥٣/٢ . وقال الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي : « صحيح » رقم الحديث « ١٩٣٠ » ٢٧٨/٢، ط. الأولى نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٨هـ .

(٣) سنن الإمام ابن ماجه، أبواب الزهد، باب الهم بالدنيا، رقم الحديث « ٤١٠٥ » ١٣٧٥/٢، وقال الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: « إسناده صحيح ورجاله ثقات » رقم الحديث « ٩٥٠ » ٥٤٨/٢ .

(٤) ابن أبي يعلى : طبقات المتأثرين ١/١٠٩، والدانق : سدس الدرهم (الرازي: محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مادة « دنق » ص ٢١٢ . ط. بدون، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ، ترتيب وتحقيق محمود خاطر وزميله).

ولما أجرى المتوكل على ولده وأهله أربعة آلاف درهم في كل شهر . بعث إليه الإمام أحمد : إنهم في كفاية فبعث إليه المتوكل : إنما هذا لولدك، مالك ولهذا؟

وكان إسحاق عم الإمام أحمد اعترض على فعله هذا فقال له الإمام: يا عم، ما بقي من أعمارنا ؟ كأنك بالأمر قد نزل، فالله الله، فإن أولادنا إنما يريدون يتأكلون بنا، وإنما هي أيام قلائل، لو كشف للعبد عما قد حجب عنه لعرف ما هو عليه من خير أو شر، صبر قليل، وثواب طويل، إنما هذه فتنة^(١) .

وجاء شاب إلى الإمام أحمد وهو في منزله فسأله قائلاً : يا أبا عبد الله أخبرني ما الزهد في الدنيا؟ فقال له الإمام : حدثنا سفيان عن الزهري : أن الزهد في الدنيا قصر الأمل. فقال له : يا أبا عبد الله، صفه لي . - وكان الفتى قائماً في الشمس، والفيء بين يديه- فقال له الإمام : هو أن لا تبلغ من الشمس إلى الفيء .

فأراد أن يذهب الشاب. فقال له الإمام : قف.

فدخل فأخرج له صرة فدفعها إليه .

فقال : يا أبا عبد الله، من لا يبلغ من الشمس إلى الفيء، إيش يعمل بهذه ؟ ثم تركه وولى^(٢) .

٢- كان محمد بن أسلم الطوسي^(٣) رحمه الله عالماً زاهداً، حتى إنّه خرج من الدنيا ولم يدع شيئاً . قال لمحمد بن القاسم قبل موته بأربعة أيام « .. وأعلم أنى أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثاً غير كسائي ولبيدي^(٤) ، وإنائي الذي أتوضأ فيه وكتبي هذه . فلا

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ١١/١ .

(٢) المرجع السابق : ١٠٧/١ .

(٣) تقدمت ترجمته في ص ٢٠٨ .

(٤) لبيدي : اللبدي هو نوع من البسط تفرش على الأرض . (انظر ابن منظور : لسان العرب مادة «لبد»

تكلفوا الناس مؤنة، وكان معه صرة فيها ثلاثين^(١) درهماً . فقال : هذا لا بني أهدها قريب له، ولا أعلم شيئاً أحلّ لي منه، لأن النبي ﷺ قال « أنت ومالك لأبيك »^(٢) وقال « أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه »^(٣) ، فكفنونني منها. فإن أصبتم لي بعشرة ما يستر عورتني، فلا تشتروا بخمسة عشر وابسطوا على جنازتي لبدي، وغطوا عليها كسائي، وأعطوا إنائي مسكيناً^(٤) .

ولما مات رحمه الله وأخرجت جنازته جعل النساء يثنين على زهده وتقواه من فوق الأسطح^(٥) .

٣- وكان أبو الوليد مروان بن شحمة البلوي^(٦) رحمه الله فقيهاً صالحاً، ورعاً، زاهداً، متقللاً من الدنيا، من العاملين الخائفين المتبتلين، المجتهدين في العبادة^(٧) .

ومن زهده رحمه الله أنه لم يكن لديه في بيته سرير ينام عليه، فكان ينصب الطوب وينام عليه^(٨) .

(١) هكذا في الأصل « ثلاثين درهماً » ولكن لعله خطأ مطبعي وصحة العبارة هي « ثلاثون درهماً » .

(٢) سنن الإمام أبي داود : كتاب البيوع ، والإجازات، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم « ٣٥٣٠ »
٨٠١/٣، سنن الإمام ابن ماجه، أبواب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم « ٢٣١٢ » ٣٤/٢ .
وأخرجه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه وقال : « حديث صحيح » برقم « ١٨٥٥ » ٣٠/٢ . (ط. الثانية، مكتب التربية العربي، ١٤٠٨هـ).

(٣) المرجعان السابقان : الكتابان والبايان نفسيهما، سنن الإمام أبي داود رقم الحديث « ٣٥٢٨ » ٨٠٠/٣،
وسنن الإمام ابن ماجه رقم الحديث « ٢٣١ » ٣٤/٢، وقال الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه
« حديث صحيح » رقم الحديث « ١٨٥٤ » ٢٩/٢ .

(٤) الأصبهاني : حلية الأولياء ٢٤١/٩، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٩٩/١٢ .

(٥) الأصبهاني : حلية الأولياء ٢٤١/٩ .

(٦) تقدمت ترجمته في ص ٢١٩ .

(٧) الدباغ : معالم الإيمان ١٠٥/٢ .

(٨) المرجع السابق : ١٠٥/٢، والمالكي : رياض النفوس ٣٩٣/١ .

٤- وكان المحافظ إبراهيم الحسري^(١) رحمه الله زاهداً عابداً . قال عنه أبو بكر الخطيب البغدادي « كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد »^(٢) وقال الإمام الدارقطني : « كان يقاس بأحمد بن حنبل في زهده وورعه وعلمه »^(٣) .

٥- وكان أبو عقاب غلبون بن الحسن بن غلبون^(٤) رحمه الله - وهو من بني الأغلب أمراء أفريقية- كان في رفاهية عظيمة، وكان شديد المجون إلا أنه تاب وحسنت توبته .

قال محمد بن الكاتب « كنا نشرب عند أبي عقاب بن غلبون في داره، فلما كان بعد العصر خرج عنا من المجلس، وقد طينا .

فقال لغلامه : امض فاشتر لي جبة من صوف وعباءة وكساءً ومئزرًا من صوف^(٥) . فحسب الغلام أنه إنما يريد أن يكسوها لأحد . فأتى بها إليه فنزع ثيابه تلك الناعمة النظاف ودخل إلى والدته، فقالت له : ما هذا يا أبا عقاب أخولت في عقلك يا بني؟! فقال لها : يا أماه والله لا عصيته بعد هذا اليوم أبداً إلا أن يقدر علي، وانصرف كل واحد منا، فهكذا كانت توبته. فباع كل ما كان له من دار وعقار وتصدق به »^(٦) .

فتجرد رحمه الله من الدنيا وزهد فيها، ثم جد واجتهد ، حتى كان من كبار العباد، وأفاضل الزهاد ، وأرى على أهل الجد والاجتهاد^(٧) .

(١) تقدمت ترجمته في ص ٢٣٨ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٥٧/١٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٧٩/١١ .

(٤) هو غلبون بن الحسن بن غلبون، وقيل اسمه آداب ويكنى بأبي عقاب كان من الحفاظ النبلاء والفصحاء والأدباء الشعراء ثم أصبح من العباد الزهاد مات رحمه الله وهو ساجد في المسجد الحرام سنة ٢٩١ هـ . (الدباغ: معالم الإيمان ٢/٢١٤) .

(٥) ليس من شروط التوبة إلى الله تعالى ليس الصوف أو الحشن من الثياب، وفعله رحمه الله هنا لعله ردة فعل لما كان يلبسه من ثياب ناعمة وفاخرة أثناء غفلته وإعراضه عن الله تعالى ، ومهما يكن السبب لفعله فإن هذا ليس من شرع الله تعالى .

(٦) المالكي : رياض النفوس ٥٢٨/١ . وذكر الدباغ في معالم الإيمان ٢/٢١٥ ، رواية أخرى في سبب توبته .

(٧) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

٦- وكان جبلة بن حمود الصدفي^(١) رحمه الله فقيهاً زاهداً واحد زمانه في الزهد والورع، فاق أصحاب الإمام سحنون في الزهد والعبادة^(٢).

قال ابن حارث الحشني: «كان من أهل الخير البين، والعبادة الظاهرة، والورع والزهد، وكان الغالب عليه النسك والزهد»^(٣).

وقال القاضي موسى القطان «من أراد أن يدخل إلى دار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فليدخل دار جبلة بن حمود»^(٤) يعني لزهده وتقلله.

وقال أبو العرب بن تميم «خرج علينا جبلة في غلالة، وسراويل، ومنديل، كأن ثيابه أكلها الجراد، فقوم بعض الطلبة جميع ما عليه بثلاثة أرباع درهم»^(٥).

٧- ورشح الوزير علي بن عيسى أبا العباس أحمد بن عمر بن سريح البغدادي^(٦) للقضاء فامتنع أشد الامتناع.

فقال: إن امتثلت ما مثلته لك، وإلا أجبرتكم عليه.

قال: افعل ما بدا لك.

فأمر الوزير حتى سُمِّر^(٧) عليه بابه، وعاتبه الناس على ذلك. فقال: أردت أن يتسامح الناس أن رجلاً من أصحاب الشافعي عومل على تقلد القضاء بهذه المعاملة، وهو مُصرٌّ على إباته زاهداً في الدنيا^(٨).

(١) تقدمت ترجمته في ص ٢٠٩.

(٢) الدباغ: معالم الإيمان: ٢٧٠/٢.

(٣) و (٤) المرجع السابق: ٢٧١/٢.

(٥) المرجع السابق: ٢٧١/٢-٢٧٢.

(٦) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن سريح البغدادي الشافعي الإمام صاحب المصنفات، مات رحمه الله سنة ٣٠٣ هـ. (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠١/١٤).

(٧) سُمِّر عليه بابه: أي أغلق بابه بالمسامير، جاء في لسان العرب: السُمْرُ: شدُّك شيئاً بالمسمار. والمسمار: ما شدُّ به. (ابن منظور: لسان العرب، مادة «سمر» ٣٧٨/٤).

(٨) السبكي: طبقات الشافعية ٣١/٣.

فزهّد رحمه الله في منصب القضاء على الرغم من عظم مكانته ومنصبه، وكثرة أجوره وصلاته^(١).

٨- وكان الحسن بن نصر السوسي^(٢) رحمه الله من الذين اشتهروا بالورع والزهد، قال أبو عبد الله الخراط «كان شيخاً صالحاً، فاضلاً، ثقة، ورعاً، زاهداً، ققيهاً»^(٣).

وقال عنه الزويلي «كان طويل الصلاة، لا تذكر الدنيا في مجلسه، وكان زاهداً فيها راغباً في الآخرة»^(٤).

فرحم الله الجميع، ويلفهم ما كانوا يطمعون به، ويسعون إليه.

(١) لا بد للأمة من قضاة يقضون بينها، ولكن يجب على المرء ألا يطلب هذا الأمر، أو يحرص عليه. وإذا تيقن المرء أنه سيعدل ويعمل بالحق، وكان من أهل العلم، ولا يوجد سواه، فيجب عليه أن يتولى القضاء. قال العلامة ابن قدامة المقدسي: والقضاء من فروض الكفايات، لأن أمر الناس لا يستقيم بدونهم، فكان واجباً عليهم، كالجهاد والإمامة. قال أحمد: لا بُدُّ للناس من حاكم، أتذهب حقوق الناس! .. والناس في القضاء على ثلاثة أضرب، منهم من يجب عليه، وهو من يصلح للقضاء، ولا يوجد سواه، لأنه فرض كفاية، لا يقدر على القيام به غيره فيتعين عليه .. وفيه فضل عظيم لمن قوى على القيام به، وأداء الحق فيه ... وفيه خطر عظيم ووزر كبير لمن لم يُؤدِّ الحق فيه، ولذلك كان السلف رحمهم الله يمتنعون منه أشد الامتناع، ويخشون على أنفسهم خطره. (انظر ابن قدامة: عبد الله بن أحمد، المغني ١٤/٥-٩، ط. الأولى، دار هجر، القاهرة، ١٤١٠هـ. تحقيق: د. عبد الله التركي، ود. عبد الفتاح الحلوي).

(٢) هو أبو علي الحسن بن نصر السوسي، مولى امرأة من أهل قسطنطينية ومنها أصله ثم انتقل إلى سوسة، اشتهر بالعلم والزهد والعبادة توفي رحمه الله سنة ٣٤١هـ وقد جاوز السبعين من عمره. (انظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، ٣/٣٦٣).

(٣) المرجع السابق: الجزء والصفحة نفسيهما.

(٤) انظر المرجع السابق: ٣/٣٦٤.

المبحث الثامن

«القدوة في العدل»

العدل سمة من سمات الإسلام البارزة . ولقد أمر الله عز وجل به حتى مع غير المسلم، مهما بدر منه من ظلم وعدوان. قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

وفي السنة المطهرة العديد من الأحاديث التي تأمر به وتحث عليه، وتبين فضله وثوابه.

قال ﷺ «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا»^(٢).

وقال أيضاً ﷺ: «سبعة يظلمهم الله في ظل يوم لا ظل إلا ظله...» وذكر منهم «إمام عادل»^(٣).

وقال أيضاً ﷺ: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدّق موفّق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفّف ذو عيال»^(٤).

(١) سورة المائدة : الآية ٨ .

(٢) صحيح الإمام مسلم : كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية، رقم الحديث «١٨٢٧» ١٤٥٨/٣ .

(٣) تقدم تخريجه في ص ٢١٩ ، وقد رواه الإمامان البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى .

(٤) صحيح الإمام مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار . رقم الحديث «٢٨٦٥» ٢١٩٧/٤ .

وفي العصر العباسي الثاني وجد العديد من العلماء والدعاة والأمراء ونحوهم ممن اتصفوا بهذه الصفة الحسنة، وتحلوا بها وهذه بعض النماذج والأمثلة على ذلك :

١- عندما أجبر الأمير الأغلب الإمام سحنون بن سعيد رحمه الله على أن يولييه القضاء؛ اشترط عليه الإمام شروطاً كثيرة كان منها أنه قال له «إني أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك فإن قبلكم ظلمات للناس منذ زمن طويل».

فقال له الأمير «نعم لا تبتدى إلا بهم وأجر الحق على مفرق رأسي»^(١).

وعمل سحنون بتلك الشروط فأكثر من ردّ ظلمات بني الأغلب، فشكوه إلى الأمير . فأحبّ الأمير أن يتراجع عن شرطه، فأرسل إلى سحنون بأن لا ينظر في أمرهم . فقال سحنون للرسول : ليس هذا الذي بيني وبينه^(٢) .

وجاءه ذات يوم رسول الأمير محمد بن الأغلب يأمره بردّ نسوة من السبي كان قد أمر سحنون بأخذهن من رجل يدعى «حاتم» لأنه يرى أنهن حرائر ولسن سبياً. فقال سحنون : إن كن إماء فمثل حاتم لا يؤقن على الفروج. فانصرف ثم رجع. فقال : يقول لك لا تعبت . ارددهن، كما أمرتك .

فكتب الإمام سحنون إلى الأمير كتاباً فما قرأه لم يستحسنه إلا أنه قال فيما بعد لجلسائه: ما أظن هذا الرجل يريد بنا إلا خيراً، ونحن لا نعلم، ارسلوا إليه يرسل إلينا المحتسبة، لنكتب لهم السجلات، حتى يذهبوا بها إلى أقصى عملي، ليأخذوا من يجوده من

(١) الدباغ : معالم الإيمان ٨٥/٢ .

(٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦٠٣.٦٠٢/٢ .

الحرائر. فكان ذلك^(١).

٢- وكان القاضي أحمد بن بديل بن قريش^(٢) رحمه الله ممن يحرص على العدل، والحكم به مهما كانت منزلة الخصم ومكانته.

يقول عبيد الله بن سليمان « كنت أكتب لموسى بن بغا - وهو من كبراء الأمراء والقواد الأتراك - وكناً بالري^(٣) ، وقاضياها إذ ذاك أحمد بن بديل الكوفي، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعة هناك كان فيها سهام ويعمرها، وكان فيها سهم ليتيم، فصرت إلى أحمد بن بديل، وخاطبته في أن يبيع علينا حصّة اليتيم ويأخذ الثمن، فامتنع وقال : ما باليتيم حاجة إلى البيع، ولا آمن أن أبيع ماله وهو مستغن عنه، فيحدث على المال حادثة فأكون قد ضيعته عليه.

فقلت : إننا نعطيك في ثمن حصته ضعف قيمتها.

فقال : ما هذا لي بعذر في البيع، والصورة في المال إذا كثر مثلها إذا قلّ.

فأدركته بكل لون وهو يمتنع ، فأضجرني فقلت له : أيها القاضي ألا تفعل فإنه موسى

ابن بغا .

فقال لي : أعزك الله، إنّه الله تبارك وتعالى.

(١) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦٠٤/٢ .

(٢) هو أحمد بن بديل بن قريش بن بدير بن الحارث اليامي أبو جعفر قاضي الكوفة ثم همدان . عالم دين فاضل، لما تقلد القضاء قال : خذلت على كبر السن. مات رحمه الله سنة ٢٥٨ هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٣١/١٢).

(٣) تقدم التعريف بها في ص ١٨٤.

قال : فاستحييت من الله أن أعاوده بعد ذلك وفارقتة. فدخلت على موسى فقال : ما عملت في الضيعة؟

فقصت عليه الحديث، فلما سمع إنّه الله تبارك وتعالى بكى، وما زال يكررها ثم قال : لا تعرض لهذه الضيعة وانظر في أمر هذا الشيخ الصالح. فإن كانت له حاجة فاقضها .

قال : فقلت له : إن الأمير قد أعفك من أمر الضيعة، وذلك أني شرحت له ما جرى بيننا، وهو يعرض عليك قضاء حوائجك .

قال : فدعا له وقال : هذا الفعل أحفظ لنعمته، ومالي حاجة إلا إدرار رزقي فقد تأخر منذ شهر وأضرني ذلك»^(١) .

٣- وكان القاضي عبد الله بن طالب^(٢) رحمه الله دائماً يتحرى العدل في أحكامه ويحرص عليه، حتى إنّه كان إذا حكم بحكم قال : حكمت بقول فلان وفلان، ثم يقول لصاحب الحكم : في البلد علماء وفقهاء اذهب إليهم فإن أنكروا عليك، فارجع إليّ .

وكان يكتب القضية ويقول لصاحبها : أرها لكلّ من له علم بالقيروان، ثم ارجع إليّ بما يقولون لك لأن يسألني الله عن وقفك، أيسر عليّ، من أن يسألني لم جسرت^(٣) .

وكان رحمه الله إذا فرغ من القضاء بين الناس وقف وحول وجهه إلى القبلة، ثم بسط كفيه، فتجري دموعه على خديّه، ولحيته، ويقول : اللهم إن كان مني زلّة أو هفوة،

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤/ ٥١٠٠٠ .

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٨٧ .

(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/ ٢٠٦ .

أوأصغيت بأذني، إلى خصم دون خصم، أو مالت نفسي إلى خصم دون خصم، فأسألك أن تغفر لي ذلك، ولا تؤاخذني، ولا تنتقم مني. إنك على كل شيء قدير، ثم يصلي على النبي ﷺ وينصرف . هكذا يعمل في كل مجلس^(١).

٤- وكان القاضي إبراهيم بن إسحاق بن أبي العنيس^(٢) رحمه الله ثقة فاضلاً صالحاً . لما تولى قضاء مدينة «المنصور» طلب منه الأمير الموفق أن يقرضه أموال الأيتام فقال له: لا والله، ولا حبة فعزله وردّه إلى قضاء الكوفة^(٣).

٥- ولما كتب المعتضد إلى القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الأزدي^(٤) رحمه الله يأمره بفك الحجر عن غلام لأن حظيته^(٥) طلبت منه ذلك لما بينهما من قرابة، وبعث بالكتاب مختوماً مع وزيره. فلما وصل به إلى القاضي، فكّه، وكتب على ظهره، وختمه وردّه مع الوزير. فلما وصل به إلى المعتضد، وفتح و نظر فيه، بكى - وكان بعيد الدمعة- ثم رمى به إلى الوزير، وقال: انظر بما كتب إلينا إسماعيل.

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك ٢٠٥/٣.

(٢) هو إبراهيم بن إسحاق بن أبي العنيس الزهري الكوفي أبو إسحاق الإمام المحدث قاضي الكوفة قال الخطيب: كان ثقة خيراً فاضلاً ديناً صالحاً. مات رحمه الله سنة ٢٧٧هـ. (الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩٨/١٣).

(٣) المرجع السابق ١٩٨/١٣. ١٩٩.

(٤) هو إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد الأزدي كان فاضلاً عالماً متفتناً فقيهاً. توفي رحمه الله سنة ٢٨٢هـ. (القاضي عياض: ترتيب المدارك ١٦٨/٣).

(٥) أي زوجته يقال حظيت المرأة عند زوجها: أي سعدت به، ودنت من قلبه وأحبها (ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر مادة «حظا» ٤٠٥/١).

فإذا هو قد كتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ... الآية﴾^(١) .

وقال : قل لإسماعيل يعمل ما يرى فلا أعترض عليه^(٢) .

٦- وكان القاضي عبد الحميد بن عبد العزيز السكوني^(٣) رحمه الله ممن اشتهر بالحرص

على العدل والعمل به، وكان لا يهاب في تحقيقه سلطاناً ولا غيره .

ومن مواقفه التي تدلُّ على ذلك، أن المعتضد وجَّه إليه قائلاً «إن لي على فلان مالاً،

وقد بلغني أن غرماءه أثبتوا عندك، وقد قسطن لهم من ماله، فاجعلنا كأحدهم.

فقال القاضي وكان يكنى بأبي خازم : قل له أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- ذاك لما

قال لي وقت قلدي : إنه قد أخرج الأمر من عنقه وجعله في عنقي، ولا يجوز لي أن أحكم

في مال رجل لمدَّع إلا ببيته، فرجع إليه فأخبره .

فقال : قل له فلان وفلان يشهدان -يعني رجلين جليدين- .

فقال : يشهدان عندي، وأسأل عنهما؟ فإن زكيا قبلت شهادتهما، وإلا أمضيت ما قد

ثبت عندي.

فامتنع أولئك من الشهادة فزعاً، ولم يدفع إلى المعتضد شيئاً^(٤) .

(١) سورة ص : جزء من الآية ٢٦ .

(٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ١٧٥/٣ .

(٣) هو عبد الحميد بن عبد العزيز السكوني البصري ، ثم البغدادي الحنفي ، أبو خازم، القاضي الفقيه العلامة. قال الحافظ الذهبي : كان المعتضد يحترم أبا خازم ويجلّه . قال الطحاوي : مات ببغداد في جمادى الأولى سنة ٢٩٢هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٣٩/١٣).

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ٥٣/٦، والسيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٤ .

ومن مواقفه أيضاً ما حدث به وكيع القاضي حيث قال : « كنت أتقلد لأبي خازم وقوفاً في أيام المعتضد منها وقوف الحسن بن سهل، فلما استكثر المعتضد من عمارة القصر الحسيني أدخل إليه بعض وقوف الحسن بن سهل التي كانت مجاورة للقصر وبلغت السنة إلى آخرها وقد جبيت مالها إلا ما أخذه المعتضد فجئت إلى أبي خازم فعرفته اجتماع مال السنة واستأذنته في قسمته في سبيله .

فقال لي : فهل جبيت ما على أمير المؤمنين؟

فقلت له : ومن يجسر على مطالبة الخليفة ؟

فقال : والله لا قسمت الارتفاع أو تأخذ ما عليه، والله لئن لم يزح العلة لا وليت له عملاً .

ثم قال : امض إليه الساعة فطالبه .

فقلت : من يوصلني ؟

قال : امض إلى صافي الحرمي، وقل له إنك رسول أنفذتك في مهم فإذا توصلت تعرفه ما قلت لك .

فجئت فقلت لصافي ذلك فأوصلني وكان آخر النهار، فلما مثلت بين يدي الخليفة ظن أن أمراً عظيماً قد حدث وقال : هيه قل، كأنه متشوف .

فقلت له : إني ألي لعبد الحميد قاضي أمير المؤمنين، وقوف الحسن بن سهل، ومنها ما قد أدخله أمير المؤمنين إلى قصره، ولما جبيت مال هذه السنة امتنع من تفرقتة إلا أن أجيء بما على أمير المؤمنين، وأنفذني الساعة قاصداً لهذا السبب، وأمرني أن أقول إني حضرت في مهم لأصل.

فسكت ساعة ثم قال : أصاب عبد الحميد . يا صافي : هات الصندوق . فأحضر صندوقاً لطيفاً ، فقال : كم يجب لك؟

فقلت : الذي جيبت عام أول من ارتفاع هذه العقارات أربعمئة دينار .

فقال : كيف حدقت بالنقد والوزن؟ قلت : أعرفهما .

قال : هاتوا ميزاناً ، فجيء بميزان وأخرج من الصندوق دنانير عيناً فوزن لي منها أربعمئة دينار ، فقبضتها وانصرفت إلى أبي خازم بالخبر ، فقال : أضفها إلى ما قد اجتمع من مال الوقف عندك وفرقه في سبيله في غد ولا تؤخر ذلك .

ف فعلت وكثر شكر الناس لأبي خازم بهذا السبب وإقدامه على الخليفة بمثل ذلك ، وشكرهم للمعتضد في إنصافه»^(١) .

٧- وكان القاضي يوسف بن يعقوب بن إسماعيل^(٢) رحمه الله ثقة عفيفاً مهيباً عالماً بصناعة القضاء .

قال عنه ابنه محمد الذي تولى القضاء فيما بعد «قدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي في حكم فجاء فارتفع في المجلس فأمره الحاجب بموازاة خصمه فلم يفعل ، إدلالاً بعظم محله من الدولة . فصاح أبي عليه وقال : قفاه ، أيؤمر بموازاة خصمه فيمتنع . يا غلام عمرو بن أبي عمرو والنخاس الساعة لأتقدم إليه ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين .

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٥٣/٦-٥٤ . وله موقف ثالث مع المعتضد انظر المرجع السابق ٥٥/٦ .

(٢) هو يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد ، كان ثقة من أكابر العلماء وأعيانهم ولي قضاء البصرة وواسط والجانب الشرقي من بغداد وكان عفيفاً توفي رحمه الله في رمضان من سنة ٢٩٧ هـ . (المرجع السابق : ٩٦/٦ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١١٢/١١) .

ثم قال لحاجبه : خذ بيده وسوِّ بينه وبين خصمه . فأخذَ كرهاً وأجلس مع خصمه . فلما انقضى الحكم انصرف الخادم فحدّث المعتضد بالحديث وبكى بين يديه . فصاح عليه المعتضد وقال : لو باعك لأجزت بيعه ولا رددتك إلى ملكي أبداً وليس خصوصك بي يزيل مرتبة الحكم، فإنه عمود السلطان وقوام الأديان»^(١) .

٨- وكان القاضي أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي^(٢) رحمه الله عدلاً ثقة، فقيهاً، نبيلاً . من مواقفه المشهورة في حرصه على العدل والعمل به، ما ورد أن والدة الخليفة المقتدر بالله وقفت وقفاً وكان كتاب الوقف عند القاضي أحمد بن إسحاق فأرادت أن تنقض ذلك الوقف، فطلبت من القاضي أن يحضر كتاب الوقف لتأخذه منه وتملك الوقف .

فما كان منه رحمه الله إلا أن أعلنها صريحة حيث قال لها : اتقي الله، هذا والله ما لا طريق إليه أبداً . أنا خازن المسلمين على ديوان الحكم، فإن مكنتموني من خزنه كما يجب؛ وإلا فاصرفوني، وتسلموا الديوان دفعة واحدة فاعملوا فيه ما شئتم . وأما أن يفعل شيء من هذا على يدي فوالله لا كان ذلك أبداً ولو عرضت على السيف .

فلما علم الخليفة بالأمر قال للقاضي : مثلك يا أحمد من قُلْد القضاء أقم على ما أنت عليه بارك الله فيك ولا تخف أن ينثلم مَحْلُك عندنا .

فتمَّ له ما أراد . ورضيت والدة الخليفة بحكمه وشكرته على ذلك . فقال القاضي رحمه الله بعد ذلك : من قدّم أمر الله على أمر المخلوقين كفاه الله شرهم^(٣) .

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٩٦/٦، وابن كثير : البداية والنهاية ١١٢/١١ .

(٢) هو أحمد بن إسحاق بن البهلول بن حسان بن أبي سنان التنوخي، أبو جعفر القاضي الحنفي العدل الثقة، الرضي، كان عالماً بالنحو فصيح العبارة جيد الشعر محموداً في الأحكام. توفي رحمه الله سنة ٣١٨هـ، وقد جاوز الثمانين. (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٩٧/١٤، وابن كثير : البداية والنهاية ١١٦٥/١١) .

(٣) انظر ابن الجوزي : المنتظم ٢٣٣/٦ . ٢٣٤، وابن كثير : البداية والنهاية ١٦٥/١١ .

٩- وكان القاضي منذر بن سعيد البلوطي^(١) رحمه الله من ذوي الصلابة في أحكامه، والمهابة في أقضيته، وقوة القلب في القيام بالحق في جميع ما يجري على يديه، لا يهاب في ذلك أحداً إلا الله عز وجل .

ومن مشهور ما جرى له في ذلك أن الخليفة الناصر لدين الله احتاج إلى شراء دار بقرطبة لحظية من نسائه تَكْرُم عليه، فوقع استحسانه على دار كانت لأيتام كانوا في حجر القاضي منذر بن سعيد .

فأرسل الخليفة من قومها، ثم أرسل إلى القاضي منذر في بيع الدار. فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه، منها الحاجة، ومنها الوهي^(٢) الشديد، ومنها الغبطة^(٣) .

فأما الحاجة، فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع . وأما الوهي، فليس فيها وهي . وأما الغبطة، فهذا مكانها فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع، وإلا فلا .

فنقل جوابه هذا إلى الخليفة فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً أن يتوخى رغبته فيها وخاف القاضي أن يُظلم الأيتام ويجبروا على البيع، فأمر وصي الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها . ففعل ذلك وبيع الأنقاض، وكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان. فاتصل الخبر به، فعزّ عليه خرابها، وأمر بتوقيف الوصي على ما أحدثه فيها فأحال الوصي على القاضي أنه أمره بذلك .

(١) تقدمت ترجمته في ص ١٧٤ .

(٢) الوهي : الضعْف، أو الشق في الشيء . يقال : وهي الحائط إذا ضعُف وهم بالسقوط . (ابن منظور: لسان العرب، مادة «وهي» ٤١٧/١٥) .

(٣) الغبطة : أي يُعطون من المال ما يُغبطون عليه. والغبُط هو : أن يتمنى المرء مثل مال أخيه. يقال : غبَطْتُ الرجل أغبَطه غبَطاً، إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ما له، وأن يدوم عليه ما هو فيه . (ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة «غبط» ٣٣٩/٣ .

فأرسل عند ذلك للقاضي منذر بن سعيد ، وقال له : أنت أمرت بنقض الدار؟ فقال له :
نعم .

قال له : وما دعاك إلى ذلك ؟

قال : أخذت فيها بقول الله تبارك وتعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي
الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾^(١) مقوموك لم
يقدروها إلا بكذا ، وبذلك تعلق وهمك ، فقد نضّ في أنقاضها أكثر من ذلك ، وبقيت القاعه
والحمّام فضلاً ، ونظر الله تعالى للأيتام .

فصبر الخليفة على ما أتى من ذلك وقال : نحن أول من انقاد إلى الحق ، فجزاك الله
تعالى عنّا وعن أمانتك خيراً^(٢) .

مما تقدم تبين لنا حرص أولئك العلماء رحمهم الله على العدل والعمل به مهما كلفهم
ذلك من مخاطر ومتاعب.

وكما اشتهرت هذه الصفة الحسنة لدى أولئك نجد أنها أيضاً كانت توجد لدى عدد من
الخلفاء والأمراء والوزراء وها هي بعض النماذج على ذلك :

١- كان الخليفة المهدي بالله ورعاً ، عادلاً ، صالحاً ، متعبداً ، قوياً في أمر الله^(٣) قال عنه
الخطيب « وكان من أحسن الخلفاء مذهباً ، وأجودهم طريقة ، وأكثرهم ورعاً ، وعبادة
وزهادة»^(٤) .

ومن أشهر أعماله أنه حسم أصحاب السلطان عن الظلم^(٥) بل إنه رحمه الله جلس
بنفسه للعامّة وردّ المظالم^(٦) .

(١) سورة الكهف : الآية ٧٩ .

(٢) انظر ابن خاقان الأشبيلي : مطمح الأنفس ، ص ٢٥٢-٢٥٤ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٣٦/١٢ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣/١١ .

(٥) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٣٧/١٢ .

(٦) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٠٦/٩ .

ومن مواقفه رحمه الله أن رجلاً استعان به على خصمه فحكم بينهما بالعدل فأنشأ الرجل يقول :

حَكَّمْتُمُوهُ فَقَضَى بَيْنَكُمْ أبلجُ مثلُ القمرِ الزاهرِ
لا يقبلُ الرشوةَ في حكمه ولا يُبالي غُبنَ الخاسرِ

فقال له المهتدي بالله : أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك، ولست أغترُّ بما قلت .
وأما أنا فباني ما جلست مجلسي هذا حتى قرأت ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(١) .
فبكى الناس حوله فما روي أكثر باكياً من ذلك اليوم^(٢) .

٢- ولما علم الأمير أحمد بن طولون بأن أحد عماله قد ظلم شيخاً كبيراً، حيث إن الشيخ جاء إليه يشتكى قائلاً « ما ترك لي ابن دشومة بذات الساحل^(٣) شيئاً أرجع إليه، وكنت مستوراً فهتكني، وكنت غنياً فأفقرني حتى صرت بين المزارعين مرحوماً فقيراً، بعد أن كنت موجداً موسراً فدخلت مستغيثاً إلى الأمير أيده الله» .

فأمر ابن طولون بإحضار ابن دشومة . فلما حضر أمره بإنصاف الشيخ من ظلامته .
فطار عقل ابن دشومة وأحضر أعوانه، وأسقط عن الشيخ ما شكاه من الغبن عليه، وبلغوا له فوق ما يحبه. ثم أمر ابن طولون بإحضارهم إليه جميعاً وسأل الشيخ : هل أنصف من ظلامته ؟

فقال الشيخ : « نعم أيها الأمير، جعل الله عليك واقية، وسترك في الدنيا والآخرة .
فلما سمع ابن طولون قوله «والآخرة» بكى وخرَّ ساجداً لله، ثم قال له : زال عنك ما كرهت، وبلغت ما أحببت؟

(١) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣/١١ .

(٣) ذكر محقق كتاب سيرة أحمد بن طولون في صـ ١٩٠ أن ذات الساحل كانت من عمل الجيزة وهي إلى شمال الفسطاط قريبة من أم دينار .

قال : نعم أيها الأمير أحسن الله إليك كما أحسنت إليّ.

فقال : ما شاء الله فعل بك، ذاك بمنّته وكرمه. ثم أمر له بصلة»^(١).

٣- وكان الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني^(٢) يأمر المنادي أن ينادي في الناس -وكان يرفع الحجاب ويزيح البواب- ليجيء كل من له ظلامة ويقف على جانب البساط، ويخاطبه ويعود مقضي الحاجة.

وكان يقضي بين الخصوم مثل القضاة إلى أن تفنى الدعاوى، ثم يقوم من موضعه ويقبض على محاسنه ويوجّه وجهه نحو السماء ويقول: إلهي هذا جهدي وطاقتي قد بذلتها، وأنت عالم الأسرار تعلم نيتي ولا أعلم على أيّ عبد من عبادك حفت ولا لأيّهم ظلمت. وما أنصفت أنا واحداً من أصحابي . فاغفر لي يا إلهي من ذلك ما لا أعلم^(٣).

٤- وكان الوزير علي بن عيسى ممن وصّف بالعدل والإنصاف . قال الحافظ الذهبي عنه «الإمام المحدث الصادق الوزير العادل»^(٤).

وقال عنه الصولي « لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفتّه، وزهده، وحفظه للقرآن، وعلمه بمعانيه، وكان يصوم نهاره، ويقوم ليله، وما رأيت أعرف بالشعر منه، وكان يجلس للمظالم، وينصف الناس، ولم يروا أعفّ بطناً ولساناً وفرجاً منه»^(٥).

وهكذا تبين لنا بحمد الله أن عدداً من العلماء والخلفاء ونحوهم في هذا العصر، كانوا قدوة حسنة في العدل والعمل على إقامته وتنفيذه بين الناس.

(١) انظر البلوي : سيرة أحمد بن طولون ص. ١٩٠-١٩١ .

(٢) هو الأمير إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان بن نوح، كان فاضلاً، عالماً، فارساً، ميمون النقيبة . كان هو وأباؤه أمراء بخارى وسمرقند. توفي سنة ٢٩٥هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٤/١٥٤).

(٣) الغزالي : أبو حامد محمد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص. ٩٠ . (ط. الأولى، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٧٨هـ).

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٥/٢٩٨ .

(٥) المرجع السابق : ١٥/٢٩٩ .

المبحث التاسع

«القدوة في المعاملة الحسنة»

بعد أن قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

أمر سبحانه بالمعاملة الحسنة، وحث عليها لأنها غالباً ما تجعل العدو صديقاً عزيزاً، وولياً حميماً، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢).

يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره «فكأنه قال : يا محمد فعلك حسنة، وفعلهم سيئة، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، بمعنى أنك إذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجباً للتعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة، وهم بالضد من ذلك، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة.

ثم قال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني ادفع سفاهتهم، وجهالتهم بالطريق الذي هو أحسن الطرق، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب، ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاء استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة.

ثم قال ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يعني إذا قابلت إساءتهم بالإحسان وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة»^(٣).

(١) و(٢) سورة فصلت : الآيتان ٣٣، ٣٤ .

(٣) الفخر الرازي : التفسير الكبير ٢٧/١٢٦، ١٢٧ .

فالمعاملة الحسنة إذا من الصفات التي يجب أن يتَّصف بها الداعية إلى الله تبارك وتعالى، وقدوتنا في ذلك، نبينا ﷺ الذي كان أحسن الناس معاملة وأفضلهم أخلاقاً.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبتة، ثم قال: يا محمد، مُرّ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء»^(١).

وكما دعا ﷺ إلى حسن الخلق والمعاملة الحسنة، بفعله نراه ﷺ يوجّه أصحابه إلى ذلك بقوله . فقد قال ﷺ: «إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمنين يوم القيامة خلق حسن وإن الله يبغض الفاحش البذي»^(٢).

فتأصلت هذه الصفة في أصحابه ﷺ حتى أصبحوا من أحسن الناس أخلاقاً، وأفضلهم معاملة . فتراهم كثيراً ما يعفون عن من ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويحلمون على من جهل عليهم .

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سُرق له مال فجعل أصحابه يدعون على السارق، فقال : «اللهم إن كان حملته على أخذها حاجة فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه»^(٣).

(١) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي يعطي المؤلفه قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه رقم الحديث «٣١٤٩» ٢٥١/٦، وصحيح الإمام مسلم : كتاب الزكاة، باب إعطاء من يسأل بغلظة، رقم الحديث «١٠٥٧» ٧٣٠/٢ .

(٢) سنن الإمام أبي داود : كتاب الأدب، باب في حسن الخلق رقم الحديث «٤٧٩٩» ١٤٩/٥، وسنن الإمام الترمذي : أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث «٢٠٠٣» ٢١٣/٦ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح، وقال الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي : صحيح. رقم الحديث «٢٠٨٧» ١٩٤/٢ .

(٣) محمد جمال الدين القاسمي : موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ص ٢٣٩ . (ط. بدون، دار المعرفة، بيروت).

وفي العصر العباسي الثاني نرى كثيراً من العلماء والدعاة ممن اتصف بهذه الصفة، مما أدى إلى حسن تأثير دعوتهم في المدعوين ، وسرعة استجابتهم لذلك.

وفيما يلي سأعرض إن شاء الله تعالى لعدد من النماذج والأمثلة على ذلك :

١- كان أبو البشر ، زيد بن بشر الأزدي^(١) رحمه الله يمشي يوماً يريد الجامع وحوله الطلبة، فإذا بشاب يقول لصاحبه « ما رأيت أوحش من هذا الشيخ، ولا أوحش لباساً منه ». فلما سمع ذلك زيد نكس رأسه وتمادى إلى الجامع . فلما انصرف من الجامع عاوده الشاب بقبيح اللفظ، فانصرف زيد ولم يلتفت إليه، فاتفق طلبه زيد على أنهم يضربون الشاب . فلما بلغ ذلك زيدا قال : ما هذا الذي أردتم؟ وما الذي بلغني أنكم تنفستم به في شأن الشاب ؟

فقالوا : هو ما قيل لك، أصلحك الله، لاستخفافه بحقك وامتهانه لقدرك وعلمك .

فقال لهم : أعطي الله عهداً إن تقدم إليه أحد منكم إلا بالتي هي أحسن ما وطئ لي بساطاً. أنا أصلح شأن الشاب.

فصرَّ صرَّةً فيها عشرة دراهم، وجعلها في جيبته، واستعمل لفردة نعل من نعليه قبلاً^(٢) واهياً، ثم توجه إلى الجامع. فلما مرَّ بالشاب عاوده اللفظ القبيح حسب عادته، فلما حاذاه اتكأ على القبال فقطعه، ثم مال إلى الشاب فسلم عليه ثم قال : أي بني، لعل عندك قبلاً . فأعطاه قبلاً، فدفن إليه بالصرَّة، فقال له الشاب: ما بال هذه الصرَّة؟

فقال: إنك صنعت لي هذا القبال، فهو مكافأة لك عليه وانصرف مع الطلبة إلى الجامع. فلما انصرف من الجامع وقرب من حانوت الشاب قام الشاب على قدميه وقال : الحمد لله

(١) هو زيد بن بشر الأزدي المالكي، أبو البشر العلامة فقيه المغرب. كان من أهل مصر ثم رحل إلى المغرب بسبب محنة خلق القرآن، توفي رحمه الله سنة ٢٤٢هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١/٥٢١).

(٢) القبال: زمام النعل، وهو السير الذي يكون بين الاصبعين . (ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة « قبل » ٨/٤).

الذي اختص بلدنا بهذا الشيخ الفاضل، ثم قال : اللهم أبقه لنا واحرزه للمسلمين، فلقد انتفع به شبابنا وحظي به شيوخنا. ليت في بلدنا آخر مثله ^(١).

فهنا انقلبت إساءة هذا الشاب لأبي البشر إلى إحسان. ليس هذا فحسب بل إلى الحرص على الدعاء له والرغبة في الإكثار من أمثاله .

٢- وجاءت إلى الإمام البخاري رحمه الله جارية وأرادت دخول المنزل، فعثرت على محبرة بين يديه، فقال لها : كيف تمشين؟ قالت : إذا لم يكن طريق، كيف أمشي؟ فبسط يديه، وقال لها: اذهبي فقد أعتقتك.

ف قيل له فيما بعد : يا أبا عبد الله، أغضبتك الجارية؟

قال : إن كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت ^(٢).

فالإمام هنا لم يقابل إساءة تلك الجارية بإساءة، ولا جهلها بغضب، بل قابل إساءتها بإحسان، و جهلها بحلم، وبذل لها أكثر مما يملك تجاهها وهو العتق لوجه الله عز وجل .

٣- وكان محمد بن سحنون رحمه الله حسن المعاملة جيّد الخلق، حليماً حتى على من يجهل عليه. قال القاضي عيسى بن مسكين «كان العراقيون قد استعملوا رجلاً يسبُّ محمد بن سحنون، وكانوا يصلونه على ذلك . فكان ذلك الرجل إذا لقي محمداً مخلياً سبّه علانية، وإذا لقيه في أصحابه سبّه سراً في أذنه، وفي كل ذلك لا يرد عليه محمد شيئاً، صبراً منه على الأذى رجاءً لثواب الله عز وجل .

فأتاه يوماً فوجده مع أصحابه ، فسبّه في أذنه، فلما فرغ من سبّه خاف محمد من أصحابه أن يبطنوا به، فقال له: نعم وكرامة إذا أنا تفرغت تعود إليّ تقضي حاجتك إن شاء الله. وأوهم الحاضرين أنه إنما سأله حاجة.

(١) المالكي : رياض النفوس ١/ ٣٩٠. ٣٩١ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٥٢ .

فبلغ ذلك العراقيين وقيل لهم : أظننتم أن فلاناً يسبُّ محمد بن سحنون، وهو إنما حادثه في أذنه وسأله حاجة.

فاتفقوا على قطع صلته، فضاع الرجل وضاع أهله ووعيلاه ووصل إليهم الضرر، فشكا ما نزل به إلى بعض الصالحين فقال : إن فعلت ما أمرك به حسنت عاقبتك وعاقبة أهلك في الدنيا والآخرة .

قال : وما هو ؟ فقال : عليك بصاحبك الذي كنت تسبه فأطلعه على أمرك .

فقبل نصيحته ومضى إلى ابن سحنون فوجده في مجلسه والناس حوله، فأصغى إليه بأذنه على العادة فقال له: أصلحك الله، ما جئت لهذا، وإنما جئت تائباً منيباً مما كان مني إليك، فقال له : اجلس، فجلس فلما انقضى المجلس أخذ بيده ومضى إلى داره ودفع إليه صرةً فيها عشرون ديناراً عيناً، وقال له: اتسع بهذه إلى حين يلطف الله عز وجل لنا .

ثم كتب محمد بن سحنون ثلاثين كتاباً إلى ثلاثين رجلاً مياسير من أصحابه بالساحل، يسأل كل واحد منهم في شراء جارية وتوجيهها إليه. فوصل إليه ثلاثون جارية في مدة يسيرة، فأمر ببيع خمس منهن وكسا بثمانهن الخمس والعشرين الباقيات وحلاهن وأجلسهن صفاً واحداً، ثم احضر الرجل العراقي، فلما دخل أقبل عليه وقال له : ما أبطأ بك عنا، أصلحك الله؟

فقال : استحياءً منك لما سلف من قبح فعلي وسوء لفظي، وعظيم إحسانك إليّ.

فدفع إليه الجواربي وخرج من دار محمد بخمس وعشرين جارية^(١) .

إن ابن سحنون رحمه الله لم يقتصر على العفو والصفح عن هذا الذي كان يسيء إليه سراً وعلانية. بل أحسن إليه، وبالغ في ذلك حتى كأنه صاحب فضل عليه.

(١) المالكي : رياض النفوس ١/٤٥١-٤٥٢، والقاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/١١٤ .

وهكذا ينبغي أن يكون الداعية، هيناً ليناً، حليماً رقيقاً، فهذه هي أخلاق الإسلام،
وتعاليمه العظام .

٤- وكان الأمير أحمد بن طولون يحرص أن يُقلد قائد الشرطة الثقات من قواده، ويوصيه بالرفق بالرعيه، وإحسان معاملتهم فقد قال لقائد من قواده ارفق بالرعية ، وانشر العدل عليهم، واقض حوائجهم، وأظهر إكرامهم وصيانتهم، وتفقد مصالحهم، فإني أسير بالليل في محالهم فكل موضع أمر به، لا يخلو من قارئ ، أو متهجد أو داع، أو ذاكر لله عز وجل، فوفرّ علينا دعاؤهم، واحرسنا من أن يكون دعاؤهم علينا»^(١) .

٥- وكان القاضي عبد الله بن طالب رحمه الله، حليماً رقيقاً، حسن المعاملة، لا يقابل الإساءة بمثلهما. قال محمد بن عمر : «كان رجل من العراق ينال من ابن طالب ، فتوفيت أم ولده، وكان مُقلاً . فقال له بعض إخوانه لو قصدت ابن طالب أن يصلي على جنازتك، نلت منه خيراً.

قال الرجل: كيف أقصد لمن سبق مني فيه غير جميل .

فقبيل له : الرجل كريم - وكان ذلك الوقت ابن طالب معزولاً عن القضاء عزلته الأولى- فمضى إلى ابن طالب، وعرفه وسأله الصلاة. فوعده بالمجيء وقت الصلاة، ففعل. فلما كان اليوم الرابع، وجّه ابن طالب إليه، فأتاه.

فقال له : أكرمك الله. صرت لنا كالأخ، وأحببت أن أكلفك ببعض حوائجي، وذلك أن تشتري لي جارية نظيفة أديبة، على ما يحسن عندك .

فمضى الرجل وأجهد نفسه رجاء التقرب إليه، واشترى له جارية بنحو ثمانين ديناراً . وأتاه بها.

(١) البلوي : عبد الله بن محمد ، سيرة أحمد بن طولون ص ٢٠٥ .

فأعجبت ابن طالب فقال له : هي هبة مني إليك، فاتخذها موضع أم ولدك، بارك الله لك، وأعطاه دينارين لكسوتها»^(١).

٦- وهذا الإمام سعيد بن إسماعيل الحيري^(٢) رحمه الله يروي حادثة وقعت له تظهر من خلالها حسن معاملته، وعظم خلقه وحدثت بهذه الحادثة امرأته فقالت: «صادفت من أبي عثمان خلوة فاغتنمتها فقلت: يا أبا عثمان أي عمل؛ أرجى عندك؟ فقال: يا مريم لما ترعرعت وأنا بالري^(٣) وكانوا يريدونني على الزواج فأمتنع، جاءتني امرأة فقالت: يا أبا عثمان قد أحببتك حباً أذهب نومي وقراري، وأنا أسألك بمقلب القلوب، وأتوسل به إليك أن تتزوج بي .

قلت : ألك والد؟

قالت: نعم فلان الخياط في موضع كذا وكذا .

فراسلت أباها أن يزوجه مني ففرح بذلك وأحضرت الشهود فتزوجت بها فلما دخلت بها، وجدتها عوراء، عرجاء، مشوهة الخلق. فقلت اللهم لك الحمد على ما قدرته لي. وكان أهل بيتي يلومونني على ذلك، فأزيدها براً واکراماً، إلى أن صارت بحيث لا تدعني أخرج من عندها فتركت حضور المجالس إيثاراً لرضاها، وحفظاً لقلبها. ثم بقيت معها على هذه الحال خمس عشرة سنة، وكأني في بعض أوقاتي على الجمر، وأنا لا أبدي لها شيئاً من ذلك إلى أن ماتت.

فما شيء أرجى عندي من حفطي عليها ما كان في قلبها من جهتي»^(٤).

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/ ٢٠٠ .

(٢) هو سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري الحيري، أبو عثمان، الشيخ الإمام المحدث الراعظ قال الحاكم : ولم يختلف مشايخنا أن أبا عثمان كان مجاب الدعوة وكان مجمع العباد والزهاد، توفي رحمه الله سنة ٢٩٨ هـ . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٢).

(٣) تقدم التعريف بها في ص ١٨٤.

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ٦/ ١٠٧ .

فمن خلال هذه الحادثة تبين لنا حرص الإمام سعيد على الاتصاف بهذه الصفة ومجاهدة نفسه على ذلك، فهو لم يُبدِ لها أي شيء يدلّ على استيائه منها، بل على العكس من ذلك أكثر من برها وإكرامها احتساباً لوجه الله تبارك وتعالى، حتى إنه جعل هذا العمل من أرجى الأعمال التي يحتسبها عند الله عز وجل.

٧- ومن حسن المعاملة أيضاً ستر المسلم، والحرص على عدم إظهار عوراته للناس. ومما يروى في ذلك أن العابد الزاهد أحمد بن مهدي بن رستم^(١) رحمه الله قال :

«جاءتني ذات ليلة امرأة فقالت لي: إني قد امتحنت بمحنة وأكرهت على الزنا وأنا حبلى منه، وقد تسترت بك وزعمت أنك زوجي، وأن هذا الحمل منك، فاسترني سترك الله، ولا تفضحني.

فَسَكَّتْ عنها فلما وضعت جاني أهل المحلة، وإمام مسجدهم يهثوثني بالولد، فأظهرت البشر، وبعثت فاشترت بدينارين شيئاً حُلُواً وأطعمتهم، وكنت أوجه إليها مع إمام المسجد في كل شهر دينارين صفة نفقة للمولود، وأقول : أقرئها مني السلام فإنه قد سبق مني ما فرّق بيني وبينها.

فمكثت كذلك سنتين، ثم مات الولد فجأؤوني يعزونني فيه، فأظهرت الحزن عليه، ثم جاءتني أمّه بالدنانير التي كنت أرسل بها إليها نفقة الولد، قد جمعتها في صُرّة عندها. فقالت لي : سترك الله وجزاك خيراً، وهذه الدنانير التي كنت ترسل بها.

فقلت : إني كنت أرسل بها صلة للولد وقد مات وأنت ترثينه فهي لك ، فافعلي بها ما شئت، فدعت وانصرفت^(٢).

(١) هو أبو جعفر أحمد بن مهدي بن رستم الأصبهاني الإمام القدوة العابد الزاهد، قال ابن النجار : كان من الأئمة الثقات، وذوي المروءات رحل إلى الشام، ومصر، والعراق. توفي رحمه الله سنة ٣١٨هـ وقيل غير ذلك . (الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٩٧/١٢، وابن كثير : البداية والنهاية ١٦٣/١١).

(٢) المرجع السابق ١٦٣/١١ .

فما أجمل ما عمل، وما أحسن ما صنع، كيف لا، وقد ثبت أن الرسول ﷺ قال «من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة»^(١). فهذه المرأة المسكينة قد أكرهت على الزنا إكراهاً فهي حبلى منه، ولو علم الناس بذلك ربما نالها من الأذى -بأنواعه المختلفة- الشيء الكثير.

ولكن الله هياً لها هذا العابد الزاهد، فستر عورتها، وحافظ على كرامتها، ليس هذا فحسب، بل إنه أكرمها ووصلها بالمال. فرحمه الله وجزاه خير الجزاء.

ومما لا شك فيه أنه لا بد أن يكون لهذه الحادثة الأثر الكبير، والوقع العظيم، في نفس هذه المرأة التي كادت أن تُلطَّخ سمعتها بعد أن امتحنت في نفسها وهتك عرضها .

(١) صحيح الإمام مسلم : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر رقم الحديث «٢٦٩٩» ٤/٢٠٧٤ .

المبحث العاشر

«تقويم أثر هذا الأسلوب»

من خلال ما تقدم تبين لنا بحمد الله أهمية أسلوب القدوة الحسنة، وأنه لا يعدله شيء في حسن التأثير.

ويمكن لي أن أخص أهم آثار هذا الأسلوب في النقاط التالية :

١- من آثار هذا الأسلوب، إظهار السنة والمحافظة عليها، مع مقت البدعة ومحاربتها، ونبذ أهلها، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً . منها حرص الإمام أحمد على السنة وتطبيقها، والدعوة إليها، وهجر ونبذ من يخالفها. وكذلك طرد الإمام سحنون لأهل الأهواء والبدع من المسجد الجامع بأفريقية ونحو ذلك .

٢- ومن آثار هذا الأسلوب ، أن اتصاف أولئك العلماء والدعاة بتلك الصفات الحسنة التي تمّ ذكرها، تجعل الناس تُصدّقهم، وتؤمن بدعوتهم، وتوقرهم. بل إن توقيرهم وإجلالهم كان حتى من بعض من يخالفهم في المذهب والمعتقد، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث لجبلبة بن حمود الصدفي رحمه الله مع قاضي العبيدية الرافضة محمد بن عمر المروذي حينما أرسل إليه رسولاً يأمره بأوامر تخالف السنة، فزجر الرسول، وانتهره . فلما عاد إلى القاضي قال له : «إنا ما أرسلناك إلى جبلبة تأتي إلى أولياء الله تتعرض في دعائهم».

٣- ومن آثار هذا الأسلوب، التأثير بحسن عبادة أولئك العلماء والدعاة، وكثرتها لله تعالى، من صلاة وصيام، وقراءة للقرآن ونحو ذلك .

فالإمام البخاري رحمه الله تعالى كان قدوة حسنة في ذلك، فتعجب أصحابه من بعض أفعاله، وحرصه على حسن العبادة وإتقانها ، فالزنبور لسعه سبع عشرة مرة حتى ترك

آثاراً عظيمة في بدنه، ومع ذلك لم يلتفت إليه حتى أكمل صلاته، والإمام محمد بن نصر المروزي قال عنه أحمد بن إسحاق «كُنَّا نتعجب من صلاته وخشوعه وهيبته للصلاة كان يضع ذقنه على صدره، فينتصب كأنه خشبة منصوبة» وغير ذلك كثير مما تقدم ذكره .

ليس هذا فحسب. بل إن إكثار أولئك العلماء والدعاة من النوافل والطاعات والحرص على المواظبة عليها جعل بعض الناس يظنها من الواجبات التي لا بد من فعلها وأنه لا يسع المسلم تركها. ومثال ذلك ما حدث لخادم آل حماس الذين كانوا من المواظبين على قيام الليل فلما باعروها إلى قوم لا يصلون بالليل هربت من دارهم ورجعت إلى آل حماس وقالت لهم «أيحل لكم تبيعوني من قوم يهود لا يصلون بالليل» .

٤- ومن آثار هذا الأسلوب تأثر الناس بجهد أولئك العلماء والدعاة وحرصهم على المراقبة في الشغور، ومجاهدة أعداء الله، فكثيراً ما نسمع عن فرق المتطوعة التي خرجت للجهاد مع العلماء والدعاة. ومن أمثلة ذلك الفرقة التي خرجت لجهاد البجة مع حفيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكذلك مع علماء القيروان حينما خرجوا لجهاد الدولة العبيدية الراضية .

٥- ومن آثار هذا الأسلوب ، أن حرص أولئك العلماء والدعاة على الصدقة والإنفاق في سبيل الله كان له ولله الحمد الآثار الطيبة على الفرد والمجتمع، فكم من فقير معدم ووسي، وكم من مصاب جبر في مصيبتته، وكم من يتيم عطف عليه وكفل.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً . فالقاضي عبد الله بن طالب رحمه الله ولي القضاء ومعه ثمانون ألف دينار فتصدق بجميعها في أيام قضائه على الفقراء والمحتاجين، أما هاشم بن مسرور التميمي رحمه الله فله مواقف متعددة تم ذكرها في الصدقة على الفقراء والإحسان إلى اليتامي والمرضى والمحتاجين .

٦- ومن آثار هذا الأسلوب أن اتصاف أولئك العلماء والدعاة بالورع والزهد في الدنيا، كان له أثر كبير في مجاهرتهم بالحق والعمل به والدعوة إليه . فهم لا يتطلعون إلى صلات ولا يطلبون مالاً، لأنهم تورعوا عن ذلك وزهدوا فيه، فكثيراً ما نراهم يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون في الله لومة لائم .

فالإمام سحنون بن سعيد والقاضي عيسى بن مسكين رحمهما الله حينما أجبرا على تولي القضاء لم يأخذا على ذلك أجراً مما كان لذلك الأثر البالغ في صدعهما بالحق والعمل به.

٧- ومن آثار اتصاف أولئك العلماء والدعاة بالورع والزهد في الدنيا سرعة تأثر عامة الناس بأحوالهم.

فالإمام أحمد بن حنبل حينما وصف للشاب الزهد تأثر في موقفه ذلك ورفض ما أعطي من مال، والإمام محمد بن أسلم الطوسي حينما خرج من الدنيا ولم يترك ميراثاً إلا ما كفن به أثر ذلك في الناس حتى ذكرت ذلك النساء من فوق الأسطح .

٨- ومن آثار هذا الأسلوب تأثر غير المسلمين بأولئك العلماء والدعاة ومحبتهم وتوقيرهم ، فالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال له نصراني حينما أدخله عليه أبو بكر المروزي «إني لأشتهي أن أراك منذ سنين، ما بقاؤك صلاح للإسلام وحدهم، بل للخلق جميعاً، وليس من أصحابنا أحد إلا وقد رضي بك .

فقال أبو بكر للإمام أحمد : إني لأرجو أن يكون يدعى لك في جميع الأمصار، فقال يا أبا بكر : إذا عرف الرجل نفسه، فما ينفعه كلام الناس^(١) .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢١١/١١ .

وكذلك ما حدث للقاضي عيسى بن مسكين رحمه الله مع النصراني الذي زاد له في الزيت وأعطاه أطيب ما عنده على الرغم من أنه في ذلك الوقت كان قد عزل عن القضاء .

٩- ومن آثار هذا الأسلوب أن اتصاف أولئك العلماء والدعاة بالعدل، وحرصهم عليه ، مع الحاكم والمحكوم، والشريف والوضيع، والغني والفقير، كل ذلك، يظهر عظمة الإسلام، ويوضح للناس كافة محاسنه ومزاياه مما يجعلهم يقبلون عليه، ويؤمنون بمبادئه وتعاليمه.

فالإمام سحنون بن سعيد حينما تولى القضاء بدأ بأهل بيت الأمير، فرد مظالمهم، والقاضي عبد الحميد السكوني رحمه الله لم يقبل تظلم الخليفة المعتضد لأنه ليس لديه بيئة على تظلمه، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

١٠- ومن آثار هذا الأسلوب أن حلم أولئك العلماء والدعاة وصفحهم عن الآخرين، ومعاملتهم معاملة حسنة، ومقابلة إساءتهم بإحسان، كان لكل ذلك الأثر الواضح فيمن تعاملوا معه، حيث أدى بهم بحمد الله إلى قبول الحق والرجوع إليه، فمن كان يسيء إليهم بالأقوال والأفعال، أصبح ممن يحبهم ، ويدعو لهم، ويتمنى أن يكون في مجتمعه الكثير منهم، ومن أمثلة ذلك جادثة زيد بن بشر الأزدي رحمه الله مع الشاب الذي كان يوذيه ويتعرض له.

وكذلك حادثة محمد بن سحنون رحمه الله مع الرجل العراقي الذي كان يسبه سراً وعلانية .

فما أحوج الأمة إلى مثل أولئك العلماء والدعاة، الذين كانوا بحق قدوة حسنة في أقوالهم وأفعالهم .

الفصل الثالث

أسلوب التربية والتعليم

الفصل الثالث

«أسلوب التربية والتعليم»

تمهيد :

أسلوب التربية والتعليم من أنجع الأساليب وأهمها في الدعوة إلى الله تعالى، كيف لا، وقد استخدمه في دعوته، خير البرية، وهادي البشرية، إمام المعلمين، وقدوة المرين رسولنا محمد ﷺ، حيث علم أصحابه رضوان الله عليهم، وحثهم على أن تكون سلوكهم وأخلاقهم وفق ما علموه وتعلموه .

وفي العصر العباسي الثاني، اهتم العلماء والدعاة بهذا الأسلوب، فكان أحد أساليبهم في دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى، حيث حرصوا على تعليم العلم لكافة الناس، ودعوتهم إلى العمل بما علموا .

وفي هذا الفصل سأحدث بعون الله تعالى عن هذا الأمر من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : أهمية أسلوب التربية والتعليم .

المبحث الثاني : التعليم العام .

المبحث الثالث : التعليم الخاص .

المبحث الرابع : تقويم أثر هذا الأسلوب .

المبحث الأول

«أهمية أسلوب التربية والتعليم»

إن أسلوب التربية والتعليم من الأساليب المهمة في الدعوة إلى الله تعالى. والداعية إلى الله لا غنى له عن هذا الأسلوب، حيث إنه من خلاله يستطيع بإذن الله أن يؤثر على المدعو ويجعله يجمع بين العلم والعمل به.

فالتعليم وحده لا يكفي بل لابد من السعي إلى حث المدعو على العمل بما علم، وصياغة سلوكه بموجب ذلك ومقتضاه .

ولقد حث الإسلام على طلب العلم النافع وتعلمه وتعليمه، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَكِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١).

ورفع منزلة العلم والعلماء، فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٣).

وكان الرسول ﷺ هو أول معلم لهذه الأمة، حيث قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤).

(١) سورة التوبة: جزء من الآية ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨ .

(٣) سورة المجادلة: جزء من الآية ٦ .

(٤) سورة الجمعة: الآية ٢ .

وكان ﷺ في العهد المكي يتخذ من دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه مقراً لتدريس وتعليم الصحابة رضوان الله عليهم أمور دينهم^(١).

وكثيراً ما نجد ﷺ يحث أصحابه على تعلم العلم وتعليمه للناس، فقد قال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم قال ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت؛ ليصلون على معلم الناس الخير»^(١).

وقال ﷺ: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»^(٣).

والأحاديث في فضل طلب العلم وتعلمه وتعليمه كثيرة جداً. ونراه ﷺ يترجم هذا الحرص والحث على تعلم العلم وتعليمه إلى واقع عملي. ففي غزوة بدر افتدى جماعة من أسرى المشركين ممن يحسنون القراءة والكتابة على أن يعلم كل واحد منهم عشرة من غلمان المسلمين القراءة والكتابة^(٤).

ولما أسلم عمير بن وهب رضي الله عنه قال ﷺ لأصحابه: «فقهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن»^(٥).

(١) انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ٣/٣٠. ٣١ ومهدي رزق الله أحمد: الدكتور، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ١٩٥.

(٢) سنن الإمام الترمذي: كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة، رقم «٢٨٢٦» ١٥٤/٤، وقال: حسن غريب صحيح، وقال الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي: «حديث صحيح»، رقم الحديث «٢١٥٩» ٣٤٢/٢.

(٣) صحيح الإمام مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم الحديث «٢٦٩٩» ٢٠٧٤/٤.

(٤) انظر مسند الإمام أحمد: رقم الحديث «٢٢١٦» ٢٢١٨/٤ وقال الشيخ أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح، والسهيلي: عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ٨٤/٣، (ط. بدون، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ضبط: طه عبد الرؤوف).

(٥) انظر الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/٢٨٥. ٢٨٦ وقال: «إسناده جيد» وابن كثير: البداية والنهاية ٣/٣١٤.

وإذا قبل الإسلام قوم وآمنوا به كان ﷺ يرسل إليهم من يعلمهم أمور دينهم^(١) .
بل إننا نجد ﷺ يحرص كل الحرص على تعليم الجاهل والإجابة على ما لديه من أسئلة
واستفسارات ولا يؤخر ذلك حتى وإن كان يخطب.

فقد قال أبو رفاعة تميم بن أسيد رضي الله عنه « انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب،
فقلت يا رسول الله: رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، قال: فأقبل عليّ
رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأتي بكرسي حسبت قوائم حديداً، قال:
فقعده عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتّم آخرها^(٢) .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحرصون على تعلم العلم والعمل به.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « كان الرجل متاً إذا تعلم عشر آيات لم
يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ^(٣) .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي « حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من
النبي ﷺ ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل،
فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً^(٤) .

وفي العصر العباسي الثاني استخدم العلماء والدعاة إلى الله تعالى هذا الأسلوب ،
فتعلموا العلم، وعلموه للناس، خاصتهم وعامتهم، صغيرهم وكبيرهم، فكانت مجالسهم
وحلقاتهم عامرة بطلاب العلم ومحبيه .

وهذا ما سنراه فيما يلي بإذن الله تعالى.

(١) انظر صحيح الإمام البخاري مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، رقم
الحديث « ٣٩٢٥ » ٢٥٩/٧-٢٦٠، وفتح الباري: ٣٨٠/٧ .

(٢) صحيح الإمام مسلم : كتاب الجمعة، باب حديث التعليم في الخطبة، رقم الحديث « ٨٧٦ » ٥٩٧/٢ .

(٣) و (٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٣/١ .

المبحث الثاني «التعليم العام»

تمهيد :

من أنواع التعليم في هذا العصر، تعليم عامة الناس. وهذا التعليم كان يمر بمرحلتين:
فالمرحلة الأولى : مرحلة تعليم الصبيان وهي مرحلة تأسيسية حيث يتعلم الطفل من خلالها القراءة والكتابة، وبعض العلوم التي يحتاجها، وهذا المرحلة من مهمة الكُتّاب .
أما المرحلة الثانية : فهي مرحلة تعليم الكبار مختلف العلوم التي يحتاجونها، وهذه المرحلة كان يقوم بها العلماء في عدة أماكن كالمساجد والمنازل ونحو ذلك .

وفي هذا المبحث سأتمحدث إن شاء الله تعالى عن هاتين المرحلتين من خلال المطلبين

التاليين :

المطلب الأول : تعليم الصبيان .

المطلب الثاني : تعليم الكبار.

المطلب الأول

«تعليم الصبيان»

هناك عدد من القضايا المتعلقة بمرحلة تعليم الصبيان في هذا العصر، وفي هذا المطلب سأتحدث بعون الله تعالى عن أهم تلك القضايا تحت العناوين التالية :

- أ - سن ابتداء التعليم وانتهائه .
- ب- مكان التعليم .
- ج- أوقات التعليم .
- د - مراد الدراسة.
- هـ- آداب المعلم .
- و - أجرة التعليم .
- ز - تعليم البنات .

أ - سن ابتداء التعليم وانتهائه :

تعليم الصبيان يُعدُّ المرحلة الأولى من مراحل التعليم، وهو ما يشبه اليوم «المرحلة الابتدائية» إلا أن سن ابتداء التعليم في هذه المرحلة لم يكن محدداً على وجه الدقة.

لكن يمكن استنتاج ذلك من خلال ما كتبه بعض من تحدث عن تعليم الصبيان في هذا العصر.

قال محمد بن سحنون «وينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بني سبع

سنين»^(١).

فسنّ التعليم كما يظهر من هذا النص أنه يبدأ قبل السابعة.

(١) ابن سحنون: محمد آداب المعلمين ص ٨٥ (ط. بدون، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، تحقيق

د. محمود عبد المولى).

أما ابن الجزار^(١) فقد كان يرى ضرورة تأديب وتعليم الأطفال في الصغر، فيقول «لقد أمرنا أن يُؤدَّب الصبيان وهم صغار لأنهم ليس لهم عادات تصرفهم لما يؤمرون به من المذاهب الجميلة، والأفعال الحميدة، والطرائق المثلى، إذ لم تغلب عليهم بعد عادة رديئة تمنعهم من اتباع ما يُراد بهم من ذلك...»^(٢).

ويقول الدكتور أحمد الأهواني «والواقع أنه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل في تلقي العلم، وإنما كان الأمر متروكاً لتقدير آباء الصبيان، فإذا وجدوا أن الطفل بدأ في التمييز والإدراك دفعوا به إلى الكتاب»^(٣).

ويذكر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في مقدمته لتحقيق كتاب آداب المعلمين لابن سحنون رأيه في هذه المسألة، فيقول «وإذا بلغ الصبي الخامسة أو السادسة من العمر ساقه أبوه إلى الكتاب»^(٤).

أما السن التي تنتهي عندها هذه المرحلة، فهي أيضاً غير محددة، إلا أنها تنتهي غالباً قبل سن الاحتلام.

(١) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزار وكان من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم توفي سنة ٣٦٩هـ.

(انظر ابن جلجل: سليمان بن حسان الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء ص ٨٨-٩١ ط. الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ، تحقيق فؤاد رشيد).

(٢) ابن الجزار : سياسة الصبيان وتدريبهم ص ١٣٥، (ط. بدون، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٦٨م).

(٣) أحمد فؤاد الأهواني : الدكتور، التربية في الإسلام، ص ٥٩ (ط. بدون، نشر دار المعارف، القاهرة) والدكتور هنا يتحدث عن عصر الإمام أبي الحسن القابسي الذي عاش في القرن الرابع لأن كتابه هذا «التربية في الإسلام» تعليق على «الرسالة المفصلة» للإمام القابسي.

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : مقدمة آداب المعلمين ص ٣١، (ط. الثانية، مطبعة المنار، تونس، ١٣٩٢هـ، مراجعة محمد المطري).

يقول أبو الحسن القاسبي^(١): «وإنه لينبغي للمعلم أن يحترس الصبيان بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فسادهم، يناهز الاحتلام، أو يكون له جرأة»^(٢).

«والشرط السابق يدل على أن أغلبية الصبيان لا يصلون إلى مرحلة البلوغ، وأن بعضهم فقط هم الذين كانوا يظلون في الكتاب حتى سن الاحتلام، وهذا السن تتراوح عند الذكور بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة... ولهذا نستطيع أن نقول إن الصبي -في الأرجح- كان يبقى في الكتاب حتى سن الثانية عشرة أو ما دون ذلك»^(٣).

وقد ذكر عن الإمام البخاري رحمه الله أنه خرج من الكتاب بعد أن أتمّ عشر سنوات من عمره، وأنه اختلف إلى مجالس المحدثين وردّ على أحدهم وهو ابن إحدى عشرة سنة^(٤).

ب- مكان التعليم :

كان الصبيان يتعلمون في هذه المرحلة في مكان يعرف بـ «المكاتب» جمع «مَكْتَب» ويقال له أيضاً «الكُتَّاب» وهو مكان يستأجره المعلم للتعليم، قال ابن سحنون «وسئل مالك رحمه الله عن تعليم الصبيان في المسجد. فقال : لا أرى ذلك يجوز، لأنهم لا يتحفظون من النجاسة»^(٥).

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بالقاسبي كان عالماً عاملاً جمع العلم والعبادة والورع والزهد، وكان إماماً في علم الحديث وفنونه وأسانيده، توفي سنة ثلاث وأربعمئة وله من العمر ثمانون سنة (انظر الدباغ: معالم الإيمان ٣/١٣٤، ومحمد محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص٩٧ ط. بدون، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة، ١٣٤٩هـ).

(٢) القاسبي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ص٣١١، وهي رسالة ملحقة بكتاب التربية في الإسلام للدكتور أحمد الأهواني من ص٢٦١ إلى ٣٤٧ .

(٣) الأهواني : التربية في الإسلام ص٦٠ .

(٤) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/٣٩٣ .

(٥) ابن سحنون : آداب المعلمين ص٨٧ (تحقيق محمود عبد المولى).

وكان ابن سحنون يفتي بهذا القول. قال محمد بن سالم القطان: قلت لمحمد بن سحنون: «هل يباح للمعلم أن يُعَلِّم الصبيان في المسجد؟ قال: لا، وعلى المعلم كراء البيت للتعليم، وكذلك كان يفعل سحنون رحمه الله يكره بيتاً يعلم فيه الصبيان»^(١).

وقال أبو الحسن القاسمي «فلا يترك لمعلم الصبيان أن يجلس بهم في المسجد»^(٢).

أما ابن عبدون الأشبيلي فيرى أن «المساجد هي بيوت الله، ومواضع الذكر، ومواضع العبادة، مشهورة بالطهارة .. ويجب أن لا يؤدب فيها الصبيان، فإنهم لا يتحفظون من النجاسات بأرجلهم ولا من ثيابهم، فإن كان ولا بد ففي السقائف»^(٣) (٤).

وواضح من خلال النصوص السابقة أن سبب كراهة العلماء لتعليم الصبيان في المساجد هو الخشية من النجاسة التي قد يحدثها الصبيان في المساجد.

«والمكتب عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال، وقد يكون غرفة في منزل، أو حانوتاً يُكْتَرى، أو فناء، ولم يكن له مكان معين يقام فيه، ولقد كان عادة يقام بالقرب من المسجد»^(٥).

(١) ابن سحنون : آداب المعلمين ص ٨٧ هامش رقم « ١٣١ » (تحقيق : محمود عبد المولى) .

(٢) القاسمي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ص ٣٢٣ .

(٣) السقائف : يبدو أنها مواضع كانت تلحق بالمساجد، جاء في لسان العرب : السقيفة : الصُّفَّة، ومنه سقيفة بني ساعدة. (ابن منظور : لسان العرب، مادة «سقف» ١٥٥/٩).

(٤) ابن عبدون الأشبيلي : رسالة في القضاء والحسبة ص ٢٤، وهي ضمن كتاب «ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب» (ط. بدون، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، اعتنى به المستشرق إ. ليثي بروقنسال).

(٥) محمد عبد الحميد عيسى : الدكتور، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٢٢ (ط. الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢م).

فالمعلم حزم القرطبي^(١) كان يتخذ من بيته غرفة يستقبل فيها الصبيان، وكان يساعده في ذلك ابنه وابنته^(٢).

أما المعلم إبراهيم بن مبشر البكري^(٣) فقد كان يقرئ الصبيان في دكانه ويُعلم المبتدئين^(٤).

وقد كانت المكاتب منتشرة في القرى والمدن. يقول الدكتور أحمد شلبي «وازداد عدد الكتاتيب، وعدد المعلمين في القرن الثاني الهجري وما تلاه من قرون، وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب بل ربما وجد فيها أكثر من كتاب»^(٥).

بل إن ابن حوقل الموصللي ذكر أنه في مدينة «بكرم»^(٦) وحدها ما يقارب ثلاثمائة معلم ولم ينقص من ذلك إلا القليل^(٧).

(١) لم أظفر له بترجمة، بل ظفرت لابنه محمد الذي كان يعلم معه، حيث قال ابن الفرضي عنه : محمد بن حزم المعلم من أهل قرطبة سمع من أبان بن عيسى بن دينار ويقي بن مخلد وغيرهم، وكان مجتهداً في طلب العلم فاضلاً. (ابن الفرضي: عبد الله بن محمد الأزدي، تاريخ علماء الأندلس ٢/٢٥، ط. بدون. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م). ولم يذكر ابن الفرضي تاريخ وفاته إلا أنه هو ووالده حزم من علماء العصر لأن محمداً سمع من الإمام بقي بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦هـ.

(٢) انظر ابن الأثير : محمد بن عبد الله القضاعي ، التكملة لكتاب الصلة ، ٢٨١/١ ، رقم الترجمة «٧٤٩» (ط. بدون، عني بنشره عزت الحسيني ١٣٧٥هـ).

(٣) هو إبراهيم بن مبشر بن شريف البكري الأندلسي يكنى بأبي إسحاق توفي سنة ٣٩٥هـ. (ابن بشكوال : خلف بن عبد الملك، الصلة، ٨٨/١، ط. بدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م).

(٤) انظر المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٥) أحمد شلبي : الدكتور، تاريخ التربية الإسلامية ص٥٤ (ط. الخامسة، مكتب النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م).

(٦) بكرم : بفتح أوله وثانيه وسكون الراء والميم، معناه بكلام الروم المدينة، وهي أعظم مدينة في جزيرة صقلية وهي اليوم عاصمتها وتسمى «بالرمو» وتقع الجزيرة في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من إيطاليا. (انظر الحوي : معجم البلدان ١/٤٨٣، والموسوعة العربية الميسرة ٢/١١٢٦).

(٧) ابن حوقل : محمد بن علي، صورة الأرض «المسمى المسالك والممالك» ص١٢٠، (ط. بدون، نشر مكتبة الحياة، بيروت) وذكر ابن حوقل في ص١٢٣ من الكتاب نفسه أنه رأى كُتَّاباً واحداً يقوم بالعمل فيه خمسة من المعلمين .

ج - أوقات التعليم :

كانت أيام التعليم في المكاتب تبدأ من يوم السبت إلى صلاة العصر من يوم الخميس .
وأما بقية يوم الخميس ويوم الجمعة يُعطل فيها الصبيان .

قال القابسي «وأما بطالة الصبيان يوم الجمعة . فقال سحنون يأذن في يوم الجمعة وذلك سنة المعلمين منذ كانوا»^(١) .

وقال أيضاً «وأما تخلية الصبيان يوم الخميس من العصر فهو أيضاً يجري عرف الناس، إن كان قد عرف من شأن المعلمين، فهو كما عُرف من شأنهم في يوم الجمعة . فأما بطالتهم يوم الخميس كله، فهذا بعيد»^(٢) .

أما الجدول الزمني اليومي للدراسة، فيقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب «أما أوقات التعليم فيما مضى، فليس لدينا ما ينبئ على تعيين ابتدائها صباحاً، ولا وقت انتهائها مساءً وغاية ما نعلمه في خصوصها : ما روي عن أحد مشاهير علماء القيروان، قال الونشريسي: وسئل أبو طيب عبد المنعم بن خلدون الكندي، هل يجلس المعلم من الصبح إلى المغرب، أو عند طلوع الشمس إلى الإسفار، فأجاب: أما وقت جلوس المعلم، وقيامه فبحسب العرف، وما تعاهده أهل التعليم في كل بلد»^(٣) .

إلا أن القابسي قد بين ذلك وحدّده، حيث يقول : «إنما دراسة الصبيان أحزابهم وعرضهم إياه على معلمهم في عشي يوم الأربعاء، وغدو يوم الخميس، إلى وقت الكتابة

(١) القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق : الصفحة نفسها .

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : مقدمة آداب المعلمين لابن سحنون، ص ٤٦ .

والتخاير^(١) إلى قبل انقلابهم نصف النهار، ثم يعودون بعد صلاة الظهر للكتاب، والخيار إلى صلاة العصر، ثم ينصرفون إلى يوم السبت يبكرون فيه إلى معلمهم^(٢).

ويقول الدكتور محمد عيسى « كان من العادة أن يذهب الطفل إلى الكتاب مبكراً، حيث يظل هناك إلى منتصف النهار، ويعود الطفل إلى منزلة للغذاء والراحة قليلاً، بعد ذلك يتجه إلى الكتاب مرة ثانية لكي يبدأ الدراسة فترة ثانية من وسط النهار حتى بعد العصر بقليل، فينصرف إلى منزله على أن يعود في صباح اليوم التالي»^(٣).

فالיום الدراسي في المكاتب يبدأ إذاً من الصباح الباكر، ويستمر حتى صلاة العصر وتتخلله فترة قصيرة تكون في الظهيرة للراحة قليلاً ولتناول الغذاء .

د - مواد الدراسة :

مواد الدراسة أو ما يمكن أن نسميه بالمناهج أو المقررات الدراسية التي كانت تدرس للصبيان في المكاتب، كانت تختلف من مصر إلى آخر، إلا أن القرآن الكريم كان في جميعها أساسياً ولا يمكن التخلي عنه.

-
- (١) لعله يقصد بالتخاير المواد الأخرى التي يقوم المعلم بتدريسها للصبيان غير القرآن الكريم، وقد ذكر الدكتور أحمد الأهواني كلاماً عن توزيع المواد التي يدرسها المعلم للصبيان على اليوم المدرسي يوضح ذلك حيث يقول «وتوزيع هذه العلوم على اليوم المدرسي يجري كالنظام الآتي :
- ١- يدرس الصبيان القرآن من أول النهار في وقت مبكر حتى الضحى.
 - ٢- يتعلمون الكتابة من الضحى إلى الظهر .
 - ٣- ينصرف الصبيان إلى بيوتهم لتناول الغذاء ويعودون بعد صلاة الظهر.
 - ٤- تدرس بقية العلوم كالنحو والعربية والشعر وأيام العرب والحساب من بعد الظهر إلى آخر النهار» .
- الأهواني : التربية في الإسلام ، ص١٧٩ .
- (٢) القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ، ص٣١٤ .
- (٣) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ، ص٢٤١ .

يقول الإمام أبو بكر بن العربي الأندلسي وهو يتحدث عن المناهج الدراسية في مكاتب المشرق الإسلامي: «وللقوم في التعلم سيرة بديعة، وهي أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب، فإذا عبر المكتب أخذه بتعليم الخط والحساب والعربية، فإذا حذقه كله، أو حذق منه ما قدر له، خرج إلى المقرئ فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب، أو نصفه، أو حزباً، حتى إذا حفظ القرآن خرج إلى ما شاء الله من تعليم العلم أو تركه»^(١).

ويقول عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته متحدثاً عن مناهج التعليم في المكاتب في عدد من الأمصار الإسلامية: «فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه».

«وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب».

«وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستنظار الولدان إيّاه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك».

(١) ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله، أحكام القرآن ٤/١٨٨٣. (ط. الثانية، عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٨هـ، تحقيق علي محمد البجاري).

وقد يشعر القارئ بوجود شيء من التعارض بين كلام الإمام ابن العربي وكلام الدكتور الأهواني في الصفحة السابقة ومن وجهة نظري المتواضعة أنه لا تعارض بينهما لأن الدكتور الأهواني يتحدث عن المكاتب في أفريقية وبرنامجها الزمني اليومي أما الإمام ابن العربي فهو يتحدث عن المناهج الدراسية في المشرق الإسلامي عامة وفي شبه الجزيرة العربية بوجه خاص.

«وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدري بم عنايتهم منها والذي يُنقل لنا أنّ عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفرادهم كما تُتعلّم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان»^(١).

أما ابن سحنون وأبو الحسن القاسبي، فقد تحدثا بشيء من التفصيل عن المناهج والمقررات الدراسية التي كان على معلم الكتاب أن يعلمها للصبيان، ويمكن تقسيم ذلك إلى قسمين :

١- قسم إجباري:

كتعلّم القرآن الكريم، وما يتعلّق به من علوم، يقول ابن سحنون «وينبغي أن يعلمهم إعراب القرآن وذلك لازم له، والشكل، والهجاء، والخط الحسن، والقراءة الحسنة، والتوقيت، والترتيل يلزمه ذلك»^(٢).

ويقول القاسبي «وما زال المسلمون وهم يرغبون في تعليم أولادهم القرآن وعلى ذلك يربونهم، وبه يبتدونهم وهم أطفال لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً»^(٣).

كما أن المعلم مطالب بتعليم الصبيان بعض العبادات وبخاصة الصلاة وما يتعلق بها، يقول ابن سحنون «ويلزمه أن يعلمهم الوضوء والصلاة، لأن ذلك دينهم، وعدد ركوعها وسجودها، والقراءة فيها، والتكبير، وكيف الجلوس، والإحرام، والسلام»^(٤).

بل إن المعلم مطالب بأمرهم بالصلاة والمحافظة عليها.

(١) ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ص ٥٣٨ . ٥٣٩ ، (ط. الأولى ، دار القلم ، بيروت ،

١٩٧٨م)

(٢) ابن سحنون : آداب المعلمين ص ٨٢ .

(٣) القاسبي : الرسالة المفصلة ص ٢٨٣ .

(٤) ابن سحنون : آداب المعلمين ص ٨٥ .

قال ابن سحنون «وينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشرة»^(١).

ويُضيف ابن سحنون واجبات أخرى على المعلم، فيقول: «وينبغي له أن يعلمهم سنن الصلاة مثل ركعتي الفجر، والوتر، وصلاة العيدين، والاستسقاء، والخسوف، حتى يعلمهم دينهم الذي تعبدهم الله به وسنة نبيهم ﷺ»^(٢).

«ومما يجب على المعلم أيضاً تجاه الصبيان؛ أن يحسن أدبهم ويعلمهم الأدب، لأن ذلك من النصيحة لهم وحفظهم ورعايتهم»^(٣).

٢- قسم اختياري:-

هناك بعض المواد لا يجبر المعلم على تعليمها للصبيان، وإن علمهم إياها فهو من باب التطوع ومن أهمها: الحساب، والشعر، والغريب، والعربية، والخط، وجميع النحو، والخطابة. يقول ابن سحنون «وينبغي أن يعلمهم الحساب، وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط ذلك عليه، وكذا الشعر، والغريب، والعربية، والخط، وجميع النحو، وهو في ذلك متطوع»^(٤). ويقول أيضاً «ولا بأس أن يُعلمهم الخطب إن أرادوا»^(٥).

فما سبق تبين لنا أن المكاتب كانت في هذا العصر تهتم بتعليم الصبيان ما يحتاجون إليه من مواد وبخاصة ما يتعلق بعلوم القرآن الكريم الذي كان محور العلوم وأساسها. كما أنهم لم يهملوا القراءة، والكتابة، والحساب، والعربية، والنحو، والشعر، فينشأ الصبي وقد تزود بقسط من العلوم يستطيع من خلالها بإذن الله مواصلة طلب العلم وتحصيله.

(١) ابن سحنون: آداب المعلمين ص ٨٥.

(٢) المرجع السابق: ص ٨٦.

(٣) انظر: المرجع السابق: ص ٨٣، والقاسبي: الرسالة المفصلة ص ٣٠٠.

(٤) ابن سحنون: آداب المعلمين ص ٨٢.

(٥) المرجع السابق: ص ٨٣.

هـ - آداب المعلم :

من مظاهر اهتمام العلماء والمربين في هذا العصر بتعليم الصبيان أنهم اشترطوا في المعلم أن يتأدب بمجموعة من الآداب، كي يكون قدوة حسنة لمن يعلمهم ويؤدبهم من الصبيان، لاسيما وأنهم يمكثون عنده معظم النهار من الصباح الباكر وحتى صلاة العصر أو بعدها بقليل، طيلة سنوات تعليمهم التي تقارب الست سنوات.

ومن أهم تلك الآداب ما يلي :

- ١- أن يكون المعلم حسن الدين سليم الاعتقاد، فالإمام سحنون بن سعيد لما تولى القضاء نهى أهل البدع أن يكونوا معلمين للصبيان^(١).
- ويقول أبو إسحاق الجبنياني -وهو أحد العلماء الذين مارسوا تعليم الصبيان- «لا تعلموا أولادكم إلا عند رجل حسن الدين، فدين الصبي على دين معلمه»^(٢).
- ويقول ابن عبدون الأشبيلي «ويجب ألا يكون المؤدب عزياً ولا شاباً بل يكون شيخاً خيراً ديناً عفيفاً ورعاً قليل الكلام والشهوة إلى استماع ما لا يعنيه»^(٣).
- ٢- أن يعدل بين الصبيان فيعلمهم بالسوية ولا يحابي أحداً على أحد. وقد عقد ابن سحنون باباً في ذلك سماه «ما جاء في العدل بين الصبيان» وذكر فيه بعض أقوال السلف في ذلك^(٤).
- ويقول أبو الحسن القاسبي «ومن حقهم عليه أن يعدل بينهم في التعليم، ولا يفضل بعضهم على بعض وإن تفاضلوا في الجُعل»^(٥).

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢/٦٠٠، والدباغ : معالم الإيمان ٢/٨٧. ٨٨.

(٢) عياض : ترتيب المدارك ٣/٥١٥ .

(٣) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة ص ٢٥ .

(٤) ابن سحنون : آداب المعلمين ص ٧٤ .

(٥) القاسبي : الرسالة المفصلة، ص ٣١١. والجُعل : أي الأجر .

٣- أن يكون المعلم حسن المعاملة للصبيان رفيقاً بهم حلماً عليهم، ولا يعني هذا أن يكون متساهلاً معهم، بل عليه أن يضع الأمور مواضعها.

يقول أبو الحسن القاسبي : « فقولك هل يستحب للمعلم التشديد على الصبيان، أو ترى أن يرفق بهم ولا يكون عبوساً، لأن الأطفال كما علمت تدخل في هذه الوصية المتقدمة، ولكن إذا أحسن المعلم القيام، وعنى بالرعاية، وضع الأمور مواضعها لأنه هو المأخوذ بأدبهم، والناظر في زجرهم عما لا يصلح لهم، والقائم بإكراههم على مثل منافعهم، فهو يسوسهم في كل ذلك بما ينفعهم، ولا يخرجهم ذلك من حسن رفقهم بهم، ولا من رحمته إياهم، فإنما هو لهم عوض من آبائهم، فكونه عبوساً أبداً من الفظاظة المقوتة، ويستأنس الصبيان بها فيجرؤون عليه، ولكنه إذا استعملها عند استئصالهم الأدب، صارت دلالة على وقوع الأدب بهم، فلم يأنسوا إليها، فيكون فيها إذا استعملت أديباً لهم في بعض الأحيان دون الضرب، وفي بعض الأحيان يوقع الضرب معها، بقدر الاستئصال الواجب في ذلك الجرم. ولكن ينبغي له ألا يتبسط إليهم تبسط الاستئناس في غير قبض موحش في كل الأحيان، ولا يضاحك أحداً منهم على حال ولا يبتسم في وجهه وإن أراضاه وأرجاه على ما يجب، ولكنه لا يغضب عليه فيوحشه إذ كان محسناً»^(١).

ويقول ابن عبدون الأشبيلي « والتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودرية ولطف، فإنه كالرياضة للمهر الصعب الذي يحتاج إلى سياسة ولطف حتى يرتاض ويقبل التعليم»^(٢).

(١) القاسبي : الرسالة المفصلة ، ص ٣٠٩ .

(٢) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، ص ٢٥ .

و - أجره التعليم :-

اختلف العلماء في جواز أخذ الأجره على تعليم القرآن الكريم عموماً^(١). وهنا سأطرق إن شاء الله تعالى إلى قضية محددة وهي أجره تعليم الصبيان في المكاتب، من حيث النقاط التالية :

١- مشروعيتها، ومعرفة آراء المهتمين بتعليم الصبيان في عصر البحث؟

٢- حالة معلمي الكتاب المالية؟

٣- مقدار أجره التعليم وهل هي محددة أم لا ؟

١- مشروعية أجره معلم الصبيان :

رجح ابن سحنون وأبو الحسن القابسي في كتابيهما آداب المعلمين والرسالة المفصلة جواز أخذ الأجره على تعليم الصبيان في المكاتب ومما استشهدوا به على جواز ذلك وفيه نص على معلمي الصبيان ما يلي :

(١) قول ابن مسعود رضي الله عنه « ثلاث لا بد للناس منهم: وذكر منهم «ولا بد للناس من معلم يعلم أولادهم، ويأخذ على ذلك أجراً ولولا ذلك لكان الناس أميين»^(٢).

(١) اختلف العلماء في جواز أخذ الأجره على تعليم العلم الشرعي ولا سيما القرآن الكريم على عدة أقوال : الأول تحريم ذلك مطلقاً. الثاني : جواز ذلك ما لم يشترط. الثالث : جواز ذلك مطلقاً. وكل فريق استدلل بأدلة على قوله. والراجع والله أعلم بالصواب هو قول من قال بجواز ذلك مطلقاً اشترط أو لم يشترط. وذلك لقوة أدلتهم، وصحة ثبوتها، وصراحتها في جواز أخذ الأجره على تعليم القرآن وغيره. وللإطلاع على تلك الأقوال وأدلتها ، انظر النووي : شرح صحيح مسلم ١٤/١٨٨ (ط. الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ)، والتبيين في آداب حملة القرآن ص٤٠. ٤٥ (ط. الأولى، دار البيان، دمشق، ١٤٠٥هـ)، ابن قدامة : محمد بن أحمد الشرح الكبير على متن المقنع ٣/٣٣٣ (ط. بدون، نشر جامعة الإمام، محمد شمس الحق العظيم آبادي : عون المعبود شرح سنن أبي داود ٩/٢٨٣. ٢٨٤ (ط. الثانية، المكتبة السلفية، المدينة النبوية، ١٣٨٨هـ).

(٢) ابن سحنون : آداب المعلمين ص٧٣، القابسي : الرسالة المفصلة، ص٢٩٣ .

(٢) أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «قدم برجل من العراق يُعَلِّمُ أبناءهم الكتاب بالمدينة ويعطونه الأجر»^(١).

(٣) قول الإمام مالك رحمه الله «لا بأس بما يأخذ المعلم على تعليم القرآن وإن اشترط شيئاً كان له حلالاً جائزاً. ولا بأس بالاشتراط في ذلك وحق الختمة له واجب اشترطها أو لم يشترطها وعلى ذلك أهل العلم ببلدنا في المعلمين»^(٢).

ويخلص أبو الحسن القاسبي إلى النتيجة التالية قائلاً : «ولما ترك أئمة المسلمين النظر في هذا الأمر، وكان مما لا بد منه للمسلمين أن يفعلوه في أولادهم، ولا تطيب أنفسهم إلا على ذلك، واتخذوا لأولادهم معلماً يختص بهم، ويداومهم، ويرعاهم حسب ما يرعى المعلم صبيانه، ويُعَدُّ أن يمكن أن يوجد من الناس من يتطوع للمسلمين فيعلم لهم أولادهم ويحس نفسه عليهم، ويترك التماس معاشه، وتصرفه في مكاسبه وفي سائر حاجياته، صلح للمسلمين أن يستأجروا من يكفيهم تعليم أولادهم، ويلازمهم لهم، ويكتفي بذلك عن تشاغله بغيره، ويكون هذا المعلم قد حمل عن آباء الصبيان مؤونة تاديبهم، ويبصرهم استقامة أحوالهم، وما ينمي لهم في الخير أفهامهم، ويُبعد عن الشر مالهم، وهذه عناية لا يكثر المتطوعون بها، ولو انتظر من يتطوع بمعالجة تعليم الصبيان القرآن، لضاع كثير من الصبيان، ولما تعلم القرآن كثير من الناس، فتكون هي الضرورة القاعدة إلى السقوط في فقد القرآن من الصدور، والداعية التي تُثَبِّتُ أطفال المسلمين على الجهالة، فلا وجه لتضييق ما لم يأت فيه ضيق، ولا ثبت فيه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يدل على التنزيه عنه»^(٣).

(١) ابن سحنون : آداب المعلمين، ص٧٣ .

(٢) المرجع السابق : ص٧٣، ٧٤، القاسبي : الرسالة المفصلة ، ص٢٩٨ .

(٣) المرجع السابق : ص٢٩٢ .

٢- حالة معلمي الكتاب المالية :

أمّا عن حالة معلمي الكتاب المالية فهي غالباً ما تكون ضعيفة لأن مهنة تعليم الصبيان لم تكن تدر شيئاً كثيراً من المال لذا نجد أن ابن حوقل ينعى معلمي الكتاب في صقلية لرضاهم بشظف العيش وقلة الدخل، إذ ما كان يتجاوز إيراد الواحد منهم عشرة دنانير في العام، بل ربما لا يصل إيراده إلى هذا الحدّ، فنراه يقول «فإن فيهم الكثير تمرّ به السنة فلا يصيب من جميع صبيانه وهم كثير عشرة دنانير»^(١).

أما عن مقدار أجره التعليم وهل هي محددة أم لا؟

يقول الدكتور أحمد شلبي «لم تكن الأجور التي يدفعها الصبيان إلى معلمي الكتاب محددة، بل كانت متروكة لحالة الطفل نفسه، وطاقة أهله المالية»^(٢).

ويؤكد ذلك الدكتور محمد عيسى قانلاً «لم أجد من البيانات ما أستطيع أن أحدد به بالضبط ما كان يدفع من أجر للمعلم، ولكن الشائع هو أن ذلك كان يختلف من معلم إلى آخر حسب المكانة الاقتصادية لوالد الطفل وشهرة المعلم»^(٣).

ولم تكن جميع الأجرة تدفع إلى المعلم مالمّا بل كان يدفع له أحياناً أشياء مما يأكله الناس وينتفعون به. ولذلك كانت «رغفان المعلم» مثلاً يضرب في الاختلاف وشدة التفاوت، لأنها تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان في الغنى والفقير، والجود والبخل^(٤).

هذا ووجد بعض المعلمين ممن يعلمون الصبيان احتساباً لوجه الله ولا يأخذون على ذلك أجراً، وبخاصة إذا كان الصبي يتيماً أو فقيراً.

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص-١٢٠ .

(٢) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص-٢٤٠ .

(٣) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ص-٢٥٩ .

(٤) انظر أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص-٢٤٠ . ٢٤١ .

وكان منهم المعلم إبراهيم بن أحمد الجبيني الذي يكنى بأبي إسحاق، حيث كان يعلم اليتامي وأبناء الفقراء احتساباً لوجه الله وابتغاء مرضاته^(١).

ز - تعليم البنات :

اهتم الإسلام بتعليم المرأة وحثها على ذلك، قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(٢). وخصص النبي ﷺ يوماً لتعليمهن أمور دينهن. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «قالت النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن»^(٣).

وفي رواية أخرى «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله. فقال : اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا. فاجتمعن ، فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله»^(٤).

وحدث العلماء والمربون في العصر العباسي الثاني على تعليم البنات، بل نجد منهم من يلزم بذلك، يقول القاسبي : «واعلم أن الله جل وعز قد أخذ على المؤمنات فيما عليهن كما أخذ على المؤمنين فيما عليهم، وذلك في قوله جل وعز: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا...﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ...﴾^(٦) وجمعهما في

(١) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٥١٦/٣ .

(٢) سورة الأحزاب : جزء من الآية ٣٤ .

(٣) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب العلم، باب هل يُجعل للنساء يوم على حدة في العلم، رقم الحديث «١٠١» ١٩٥/١ .

(٤) المرجع السابق : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب تعليم النبي ﷺ أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ، رقم الحديث «٧٣١» ٢٩٢/١٣ .

(٥) سورة الأحزاب : جزء من الآية ٣٦ .

(٦) سورة التوبة : الآية ٧١، سورة النور : الآية ١٢ ، وسورة الأحزاب : الآيات ٣٥ . ٥٨ . ٧٣ وغيرها من الآيات .

حسن الجزاء في غير آية من كتابة، وفي قوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . .﴾^(١) وأمر أزواج نبيه عليه الصلاة والسلام أن يذكرن ما سمعن منه ﷺ فقال: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(٢) فكيف لا يُعلمن الخير وما يعين عليه^(٣).
ويستحسن القاسبي تعليم الأنثى ما ينفعها من علوم شرعية، فيقول «وأما تعليم الأنثى القرآن فهو حسن ومن مصالحها»^(٤).

ومن حرص العلماء والمربين في هذا العصر على تربية وتنشئة البنات تربية إسلامية منذ نعومة أظفارهن نجدهم يحرصون على الفصل بين الذكور والإناث في التعليم وينهون المعلمين عن فعل ذلك.

يقول الإمام سحنون «وأكره للمعلم أن يعلم الجوارى ويخلطن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهم»^(٥).

ويقول القاسبي «ومن صلاحهم، ومن حسن النظر لهم، ألا يخلط بين الذكران والإناث»^(٦).

لكن أين كانت البنات يتعلمن؟ هل كنّ يذهبن مثل الصبيان إلى الكتّاب؟ أم يتعلمن في مقر آخر؟

يقول الدكتور أحمد شلبي «وعندنا من النصوص الصريحة ما يؤكد لنا أن البنات لم تلتحق بالكتاب صبية، ولم تجلس في حلقة الرجال شابة، وكان الغالب أن تتعلم في المنزل عن طريق أحد أقاربها أو بمؤدب يدعى لها»^(٧).

(١) سورة التوبة : جزء من الآية ٧٢ .

(٢) سورة الأحزاب : جزء من الآية ٣٤ .

(٣) القاسبي : الرسالة المفصلة، ص٢٨٩، ٢٩٠ .

(٤) المرجع السابق : ص٢٨٩ .

(٥) ابن سحنون : آداب المعلمين ص٨٩ .

(٦) القاسبي : الرسالة المفصلة ص٣١١ .

(٧) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص٣٣٢ .

ويؤكد هذا الرأي الدكتور محمد عيسى قائلا «وقد جرت العادة على تعليم البنات داخل الدور»^(١).

ومن الأمثلة على تعليم البنات داخل الدور ما ذكر من سيرة القاضي عيسى بن مسكين في غير مدة قضائه «أنه كان إذا أصبح قرأ حزياً من القرآن، ثم جلس للطلبة إلى العصر، فإذا كان بعد العصر دعا بنتيه، وبنات أخيه يعلمهن القرآن والعلم»^(٢).

(١) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ص ٢٦١ .

(٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/٢٢٧ .

المطلب الثاني

«تعليم الكبار»

للتحدّث عن المرحلة الثانية من التعليم العام وهي مرحلة تعليم الكبار لا بدّ من تناول وإيضاح عدد من القضايا المتعلقة بهذه المرحلة . وفي هذا المطلب سأتحديث بعون الله تعالى عن أهم تلك القضايا تحت العناوين التالية :

- أ - سن ابتداء التعليم .
- ب - أوقات التعليم .
- ج - أماكن التعليم .
- د - الرحلة في طلب العلم .
- هـ - معاملة طلاب العلم .
- و - تعليم النساء .

أ - سن ابتداء التعليم :

من الصعب تحديد السن التي يبدأ بها الطالب التعلّم في هذه المرحلة. حيث لم تكن هناك شروط معينة تحدد ذلك وتوضحه .

يقول الدكتور منير الدين أحمد «لم يكن الطلبة فئة محددة يجري اختيارها وتسجيلها وفقاً لنظام معيّن، وإنما كان بوسع أيّ شخص من الناس أن يحضر الدروس على اختلاف أنواعها. وكذلك سن الطلاب لم يكن محدداً، بل كثيراً ما كان يحضر الدروس أشخاص متقدّمون في السن»^(١).

(١) منير الدين أحمد : الدكتور، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس ص ٦١ ط. بدون، دار المريخ، الرياض، ١٤٠١هـ، ترجمة وتعليق د. سامي الصقار).

ب- أوقات التعليم :

أوقات التعليم أو ما يمكن أن نسميه بمواعيد المحاضرات والدروس كانت تُحدّد من قبل الأساتذة أنفسهم لأنهم كانوا يتمتعون بحرية تامة ولا توجد جهة رسمية أو غير رسمية تطالبهم بتحديد مواعيد معينة لذلك، أو تحديد عددها. فكان بوسعهم أن يُحددوا أوقات الدروس وعددها ولكنها في الغالب كانت مرة في الأسبوع^(١).

وربما فضّل الأساتذة والطلاب أوقاتاً معينة مراعين فيها أوقات الكسب، ومواقيت الصلوات الخمس ووجبات الغذاء، واعتدال الجو ونحو ذلك^(٢).

إلا أنّ غالب الدروس كانت تعقد بعد صلاة الفجر حتى الضحى وهذه الفترة هي أكثر الفترات ملاءمة^(٣).

وهناك فترة ثانية تنتهي عند صلاة الظهر، وفترة ثالثة تنتهي بصلاة العصر، أما الفترة الرابعة فكانت تستمر حتى أذان المغرب بل وربما أُلقيت بعض الدروس في المساء أيضاً^(٤).

وكان الأستاذ الذي يُدرس أكثر من علم يفاضل بينها في الوقت مراعيّاً في ذلك ظروفه وظروف طلابه^(٥).

وبذلك كان بوسع الطالب أن يقوم بدراسة أكثر من علم ويذهب إلى أكثر من معلم في اليوم، فالوقت الدراسي كان من المرونة بحيث يتناول اليوم بأكمله^(٦).

(١) انظر منير الدين : تاريخ التعليم عند المسلمين ص ٦١ .

(٢) انظر كريم عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة بنسنية الإسلامية ٩٢-٤٩٤هـ . ص ٢١٤ (ط. الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٦هـ).

(٣) انظر محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ص ٣٥٢ .

(٤) انظر منير الدين : تاريخ التعليم عند المسلمين ص ٦١ .

(٥) انظر كريم عجيل : الحياة العلمية ص ٢١٤ .

(٦) انظر محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ص ٣٥٣ .

ج - أماكن التعليم :

١- المسجد :-

لقد قامت المساجد بدور هام في حياة المسلمين، وتوسع المسلمون في فهم مهمتها، فاتخذوها مكاناً للعبادة، ومعاهد للتعليم، ودوراً للقضاء، وساحات تتجمع فيها الجيوش، وغيرها من المهام. وهي تُعدُّ المؤسسة التعليمية الأولى التي عرفت على يد الرسول ﷺ^(١) ثم الصحابة^(٢) رضي الله عنهم فمن بعدهم .

وفي العصر العباسي الثاني استمرت المساجد في القيام بدورها في تعليم العلم ونشره بين الناس.

فكان العلماء يعقدون دروسهم المتعددة في مختلف العلوم. وكانت بعض تلك الدروس تشهد إقبالاً كبيراً من طلاب العلم ومحبيه ومن أمثلة ذلك :

- ١- كان يجتمع في مجلس الإمام أحمد بن حنبل زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحو خمسمائة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت^(٣).
- ٢- أما الإمام البخاري فكان يجتمع في مجلسه ببغداد أكثر من عشرين ألفاً، وكان هناك ثلاثة مستمليين يرددون كلامه ليسمعه الحاضرون^(٤).

(١) انظر لتعليم الرسول ﷺ الصحابة رضي الله عنهم في المسجد صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، رقم الحديث « ٦٦ » . ١٥٦/١ .

(٢) انظر لاستخدام الصحابة رضي الله عنهم المسجد للتعليم . الهيثمي : مجمع الزوائد ١/١٣٢ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١/٣١٦ .

(٤) انظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/٢٠٠ ولا يستغرب مثل هذا العدد بل ذكر بعض المؤرخين أكبر منه بكثير ، أقتصر على ذكر نموذجين فقط من عصر البحث ذكرهما الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية أحدهما في ١١/٩٩ وذكر أنه كان يحضر مجلس إبراهيم بن عبد الله الكجبي (توفي سنة ٢٩٢هـ) خمسون ألفاً بمن معه محبرة، سوى النظارة، ويستملي عليه سبعة مستمليين كل يبلغ صاحبه، ويكتب بعض الناس وهم قيام.

وقال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٣/٤٢٤ إسنادها صحيح ويَبين أن ذلك المجلس كان في رجة غسان ببغداد .

والآخر ذكره في الجزء نفسه ص ١٢١ وأنه كان يحضر مجلس القاضي جعفر بن محمد الفريابي (توفي سنة ٣٠١هـ) نحواً من ثلاثين ألفاً وأصحاب المحابر منهم نحواً من عشرة آلاف .

- ٣- وكانت حلقة يحيى بن عمر^(١) في القبروان تزدهم بطلاب العلم^(٢).
- ٤- وكان يحضر مجلس القاضي الحسين بن إسماعيل بن محمد الضبي المحاملي^(٣) الفقيه الشافعي المحدث عشرة آلاف رجل^(٤).
- ٥- وظل إبراهيم بن محمد المشهور بنفطويه^(٥) يملئ دروسه في اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها^(٦).
- ٦- وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة كان للشافعيين في جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه خمس عشر حلقة وللمالكيين مثلها ولأصحاب الإمام أبي حنيفة ثلاث حلقات^(٧).
- ٧- وقال الخطيب البغدادي «وأقام أبو اسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي^(٨) ببغداد دهرًا طويلًا يدرس ويُفتي ثم انتقل في آخر عمره إلى مصر»^(٩).
- ولما انتقل إلى مصر كان يحضر درسه بجامع مصر آلاف من الطلاب^(١٠).

- (١) هو الإمام يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي، قال أبو العباس الأبياني: «ما رأيت مثل يحيى بن عمر في علمه وورعه وزهده وكثرة دعائه وبيكاته». توفي رحمه الله بسوسة سنة ٢٨٩هـ. (انظر المالكي: رياض النفوس ٤٩٠/١).
- (٢) انظر المرجع السابق: ٤٩٣/١، والدباغ: معالم الإيمان: ٢٣٥/٢.
- (٣) تقدمت ترجمته في ص ٧٦.
- (٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٦٠/١٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٢٠٣/١١.
- (٥) هو العلامة النحوي أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي المعروف بنفطويه النحوي. له مصنفات فيه، وقد سمع الحديث وروى عن المشايخ وحدث عنه الثقات توفي سنة ٣٢٣هـ. (انظر المرجعين السابقين سير أعلام النبلاء: ٧٥/١٥، والبداية والنهاية ١٨٣/١١).
- (٦) انظر الحموي: ياقوت، معجم الأدباء، المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ٢٥٦/١.
- (٧) سيدة إسماعيل كاشف: الدكتور، مصر في عهد الأخشيديين ص ٣٠٦ (ط. بدون، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٠م).
- (٨) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي أحد الأئمة من فقهاء الشافعية، أقام ببغداد ثم انتقل إلى مصر، توفي رحمه الله سنة ٣٤٠هـ. (انظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١١/٦).
- (٩) و (١٠) انظر المرجع السابق: الجزء والصفحة نفسيهما، والذهبي: السير ٤٢٩/١٥.

٨- وكان للإمام المحدث أحمد بن سليمان بن الحسن النجّاد^(١) حلقتان بجامع المنصور ببغداد إحداهما للفتوى والفقهاء، وكانت قبل الجمعة والأخرى بعد الجمعة لإملاء الحديث^(٢).

٩- وكانت حلقة الإمام أبي بكر محمد النعالي^(٣) بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه بمصر تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها^(٤).

وهكذا كانت المساجد أكثر الأماكن وأهمها لتعلم العلم وتعليمه .

٢- منازل العلماء :-

كانت منازل العلماء تسيّر جنباً إلى جنب مع المساجد في القيام بمهمة تعلم العلم وتعليمه، حيث كانت تعقد فيها الدروس والحلقات العلمية وكانت في الغالب مفتوحة لكل طلاب العلم ومحبيه وبخاصة إذا كانت تلك المنازل واسعة وتصاميمها تلائم أغراض التعليم. ومن الأمثلة على ذلك ما يلي :

١- لما طلب الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى من الإمام البخاري أن يحمل إليه كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما ليسمع منه قال الإمام لرسوله «أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة؛ فاحضرنى في مسجدي أو في داري»^(٥).

(١) هو أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن بن إسرائيل بن يونس النجّاد أحد أئمة الحنابلة وفقهائها توفي رحمه الله سنة ٣٤٨هـ عن ٩٥ سنة . (انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٢٣٤).

(٢) انظر البغدادي : تاريخ بغداد ٤/١٨٩-١٩٠، والذهبي : السير ٥٠٤/١٥ .

(٣) هو أبو بكر محمد بن سليمان النعالي إمام المالكية بمصر في وقته وإليه كانت الرحلة والإمامة. توفي رحمه الله سنة ٣٨٠ بمصر . (انظر السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/٤٥١، ط. الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٧هـ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم).

(٤) انظر المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٥) البغدادي : تاريخ بغداد ٢/٣٣ . وقد يصعب على الباحث الاستدلال بهذا الكلام على وجود الدرس في منزل الإمام البخاري لكنه يدل دلالة واضحة على استعداد الإمام للتدريس في منزله .

٢- وكان عالم الأندلس ومحدثها محمد بن وضاح^(١) يدرس العلم في منزله وقد خصص لذلك جزءاً منه^(٢).

٣- وكان القاضي عيسى بن مسكين^(٣) يحدث في منزله بالعديد من مروياته^(٤).

٤- وكان لأبي عمرو ميمون بن المعلوف^(٥) حلقة في منزلة يُقرأ عليه فيها الموطأ وغيره^(٦).

٥- كما كان أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي^(٧) يقرأ كتابه «الجرح والتعديل» على مجموعة من طلابه في منزله^(٨).

وكان العديد من طلاب العلم يترددون على منازل العلماء لينهلوا من علمهم، فكانت تلك المنازل تغصُّ بهم. ومن أمثلة ذلك :

١- أن الإمام سحنون بن سعيد كانت له حلقة عظيمة في منزله يختلف إليه فيها تلاميذه^(٩).

(١) هو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني مولى صاحب الأندلس عبد الرحمن بن معاوية الداخل، كان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه وعلمه. توفي سنة ٢٨٧هـ (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/٤٤٥).

(٢) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤/٤٤٠ (طبعة وزارة الأوقاف المغربية).

(٣) تقدمت ترجمته في ص ٢٣٦.

(٤) انظر المرجع السابق ٣/٢٢٧.

(٥) هو أبو عمرو ميمون يعرف بابن المعلوف أو بابن العلاف ولي مظالم القيروان توفي سنة ٣٠٤هـ . (انظر الحشني : طبقات علماء افريقية ص ٢٥٢).

(٦) انظر المرجع السابق : الصفحة نفسها .

(٧) هو الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن ادريس الرازي توفي رحمه الله سنة ٣٢٧هـ وقد جاوز التسعين عاماً، (انظر ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ٦/٥٥ والسبكي : طبقات الشافعية ٣/٣٢٤).

(٨) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/٢٦٨، وابن تغري : النجوم الزاهرة ٣/٢٦٥ .

(٩) انظر المالكي : رياض النفوس ١/٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٨، ٢/٢٩ .

٢- وكذلك كان لمحمد بن يحيى بن سلام^(١) في منزله حلقة كبيرة أعجب بها أبو العرب التميمي^(٢) صاحب التصانيف فكانت سبباً في إقباله على طلب العلم^(٣).

٣- أما إبراهيم بن أحمد السبائي^(٤) فقد كانت داره كالمسجد لكثرة من يقصده من طلاب العلم^(٥).

وكان بعض العلماء يخصص أوقاتاً محددة لدروسه ليلتزم بها الطلاب ويواظبوا عليها. فقد كان للقاضي الحسين بن إسماعيل المحاملي^(٦) مجلس علم في منزله كل يوم أربعاء لبحث المسائل الفقهية، وقد بدأ هذا الدرس سنة سبعين ومائتين، فلم يزل أهل العلم يختلفون إليه^(٧).

وكان بعض العلماء يخصصون بعضاً من دروسهم ومجالسهم لأولادهم وأقاربهم، يقول أحد طلبة الإمام أحمد بن حنبل «اختلفت إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، اثنى عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده، فما كتبت منه حديثاً واحداً، إنما كنت انظر إلى هديه، وأخلاقه، وآدابه»^(٨).

(١) تقدمت ترجمته في ص ١٦٩.

(٢) هو العلامة المفتي أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام المغربي الأفرقي صنّف التصانيف وغلب عليه الاهتمام بعلم الحديث والرجال توفي رحمه الله سنة ٣٣٣ هـ . (انظر المرجع السابق : ٣٠٦/٢ والذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٩٤/١٥).

(٣) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣٣٥/٣ .

(٤) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السبائي كان وقافاً عن الشبهات، مشهوراً بالعبادة، شديد الغلظة على أهل البدع، توفي سنة ٣٥٦ هـ . وعاش نحواً من ٨٦ عاماً رحمه الله . (انظر المالكي : رياض النفوس ٤٦٩/٢).

(٥) الدبّاغ : معالم الإيمان ٦٦/٣ .

(٦) تقدمت ترجمته في ص ٧٦.

(٧) البغدادي : تاريخ بغداد ٢٢/٨ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٦٠/١٥ .

(٨) ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢١ .

وقد كان بعض طلاب العلم يعتمدون كثيراً في طلبهم للعلم على آبائهم وأقاربهم وبلغوا في العلم مبلغاً عظيماً، ومن أمثلة ذلك :

١- عبد الواحد بن محمد بن دينار^(١) سمع من أبيه ومن أخيه ورحل معهما وبلغ مبلغ أكابر أهله في العلم^(٢).

٢- وكذلك محمد بن محمد بن عبد السلام الخشني^(٣) سمع من أبيه أكثر علمه، بل وانفرد برواية كتب عن أبيه لم يروها غيره وسمعها الناس منه^(٤).

٣- وكذلك أحمد بن بقي بن مخلد^(٥) الذي تولى قضاء قرطبة ووالده بقي علامة الأندلس ومحدثها يقول عنه ابن الفرضي « لا أعلمه سمع من غير أبيه »^(٦).

كما أن بعض العلماء اضطر إلى التدريس في منزله لمنعه من التدريس في المساجد. كما حدث لكثير من علماء أفريقية . حيث إن الرافضة العبيديين منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد وحرّموا عليهم نشر العلم والاجتماع بالطلبة . مما جعل العلماء ينقلون دروسهم وحلقاتهم العلمية إلى المنازل والمجالس الخاصة سرّاً^(٧).

(١) هو عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن دينار القرطبي كان خيراً ناسكاً توفي رحمه الله سنة ٢٨٢هـ (انظر ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ١/٢٨٩).

(٢) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٣) هو أبو الحسن محمد بن محمد بن عبد السلام الخشني القرطبي كان موصوفاً بالزهد والفضل، توفي رحمه الله سنة ٣٣٣هـ . (انظر المرجع السابق: ٢/٥٣).

(٤) انظر المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٥) هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن بقي بن مخلد، كان زاهداً فاضلاً توفي رحمه الله سنة ٣٤٤هـ . (انظر المرجع السابق : ١/٣٣).

(٦) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

(٧) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ١٢١/٥ (طبعة وزارة الأوقاف المغربية) ومحمد بن الحسن الشعالي الفاسي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ١٤٨/٢ (ط. بدون، المكتبة العلمية، المدينة النبوية، ١٣٩٧هـ، خرج أحاديثه د. عبد العزيز قارئ).

ومن أمثلة ذلك أحمد بن نصر الهواري^(١) سجنه الرافضة العبيديون ومنعوه من التدريس وأمروه بلزوم بيته، فكان يجتمع إليه من يقصده من طلبة العلم^(٢).

وكذلك منع العبيديون محمد بن محمد بن اللباد^(٣) من الفتوى والإسماع واجتماع الطلبة فكانوا يجتمعون إليه في بيته سرّاً، وربما وضعوا الكتب في أوساطهم حتى تبتلّ بالعرق خوفاً من بني عبيد^(٤).

وهكذا ساهمت منازل العلماء في نشر العلم وتعليمه .

٣- أماكن أخرى :

كما وجدت في هذا العصر أماكن أخرى لتعلم العلم وتعليمه، ولكنها لم تكن في مستوى المساجد ومنازل العلماء من حيث كثرتها وإقبال طلاب العلم عليها، بل إن البعض منها كان العلماء يجلس فيها إمّا للعمل وطلب الرزق كالحوانيت، أو كانوا يضطرون إلى الجلوس فيها إضطراراً إمّا من قبل طلاب العلم كالطرقات والأماكن العامة، أو للخوف على أنفسهم كالمقابر مثلاً والتي هي ليست مظنة لمثل هذه المهمة.

وفيما يلي أتطرق بإذن الله إلى مجموعة من تلك الأماكن :

أ - حوانيت العلماء :

كان بعض العلماء يعملون في الأسواق لطلب الرزق وكسب المعاش وكانوا في الوقت ذاته يستقبلون طلابهم في حوانيتهم ويتدارسون مختلف العلوم معهم.

(١) هو أبو جعفر أحمد بن نصر الهواري كان من الفقهاء المبرزين، والحفاظ المعدودين. توفي رحمه الله سنة ٣١٤هـ وقيل غير ذلك . (انظر الحشني : طبقات علماء أفريقية ص٢١١، والمالكي : رياض النفوس ١٨٣/٢).

(٢) انظر الدباغ : معالم الإيمان ٨/٣ .

(٣) هو أبو بكر محمد بن محمد بن اللباد كان فقيهاً فاضلاً جليل القدر ، توفي رحمه الله سنة ٣٣٣هـ ، وهو ابن ٨٣ سنة . (انظر المرجع السابق ٢١/٣).

(٤) انظر المرجع السابق ٢٥/٣ .

كما أن بعض العلماء كان يفد إلى بعض تلك الحوانيت فيلقي فيها ما يتيسر له من علوم ويدارس فيها العلماء ومن الأمثلة على ذلك كله ما يلي :

١- كان الإمام أحمد بن حنبل يروي الحديث في دكان صائغ يدعى إسماعيل بن سالم الصائغ^(١).

٢- وكان الشيخ أبو حميد بن سيار^(٢) يعقد في حانوته درساً في الفرائض بانتظام بين صلاتي المغرب والعشاء.

يقول المحدث عبد الغافر بن سلامة بن أحمد أبو هاشم الحضرمي : «كنا نسمع من أبي حميد بن سيار في دكانه في سوق العتيق -ببغداد- وكنت أحضر مجلسه بالعشي أتعلّم الفرائض من المغرب إلى العشاء الآخرة»^(٣).

٣- ويقول إسماعيل بن محمد الصفار كتبت عن محمد بن إدريس الشعراني^(٤) في دكان أبي العباس بن إسحاق^(٥).

٤- وكان الإمام الفقيه المحدث أبو بكر أحمد بن إسحاق الصبغي^(٦) يبيع في حانوته ، وقال عنه الإمام أبو عبيد الله الحاكم : «وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين»^(٧).

(١) انظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٣٩/٢ .

(٢) لم أظفر له بترجمة إلا أنه من علماء العصر بدليل أن الراوي وهو المحدث عبد الغافر الحضرمي توفي سنة ٣٣٠هـ . (انظر ترجمته في الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٩٤/١٥).

(٣) المرجع السابق : ١٣٧/١١ .

(٤) هو أبو بكر محمد بن إدريس الشعراني حدث عن أبي نصر التمار، وموسى بن إبراهيم الأنصاري، ولم يذكر الخطيب البغدادي تاريخ وفاته . (البغدادي: تاريخ بغداد، ٧٨/٢).

(٥) المرجع السابق الجزء والصفحة نفسيهما .

(٦) هو أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب بن يزيد النيسابوري الصبغي، الإمام الفقيه المحدث . توفي رحمه الله سنة ٣٤٢هـ . (السبكي : طبقات الشافعية ٩/٣).

(٧) المرجع السابق : ١٨٣/٣ .

وقال الإمام الحاكم أيضاً «وكنّا نقرأ على أبي عبد الله بن يعقوب على باب حانوته»^(١)
يعني حانوت الإمام الصبغي.

ب - الأربطة :

قال ابن منظور «والرباط والمرابطة : ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من
الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً»^(٢).

والأربطة جمع رباط وهي حصون تشبه الثكنات العسكرية تبنى على الحدود الإسلامية
البرية والبحرية يقيم فيها المجاهدون لحماية المسلمين من العدو ومباغثاته .

ولما ورد في فضل الرباط في سبيل الله من أجر عظيم، حيث قال ﷺ «رباط يوم في
سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»^(٣)، كثر المرابطون في العصر العباسي الثاني.

يقول الدكتور محمد أسعد طلس : «ولقد كانت الرِبط في أيام بني أمية وبني العباس
بكثرة على الثغور الرومية والبيزنطية وإلى أقصى الشرق وعلى حدود ما وراء النهر وفي
شمال أفريقيا وسائر بلاد المغرب، وكان يقيم فيها المجاهدون وطبيعي جداً أن هؤلاء
المرابطين كانوا في خلال الأوقات التي لا تكون فيها الحرب أو الاستعداد لها، كانوا يعملون
على ترويض أنفسهم جسماً أو روحياً، وكانوا يقرؤون ما تيسر لهم من القرآن، أو نصوص
العلم والدين وأحاديث الرسول ﷺ»^(٤).

وأصبحت تلك الأربطة معاهد تعليم وتربية وعبادة. واستشعر عدد من العلماء حاجة
المقيمين فيها إليهم لإيصال النفع لهم وتربيتهم وتعليمهم فأقبلوا إليها فعمروها بالعبادة
والتربية والتعليم. وها هي بعض النماذج والأمثلة على ذلك :

(١) السبكي : طبقات الشافعية ١٨٣/٣ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب، مادة «ربط» ٣٠٢/٧ .

(٣) سبق تخريجه في ص ٢٢٨ .

(٤) محمد أسعد طلس: التربية والتعليم في الإسلام ص ١١٤ (ط. الأولى، دار العلم للملايين ، بيروت،

- ١- من أولئك العلماء الإمام سحنون بن سعيد حيث كان يحدث في قصر زياد^(١) .
- ٢- وكان يحيى بن عمر الفقيه المحدث يعتكف بقصر المنستير في رمضان ويحدث به^(٢) .
- ٣- وكان سعيد بن إسحاق الكلبي^(٣) ينزل قصر الطوب للعبادة والتعليم فيقيم به الشهور العديدة^(٤) .
- ٤- وفي قصر الطوب أيضاً كان الزاهد الورع جبلة بن حمود الصدفي يحدث المرابطين فيه، ويقصده الطلاب للأخذ عنه^(٥) .
- ٥- وكان يوسف بن مسرور^(٦) فقيهاً محدثاً نزل بقصر سهل يقرئ الطلبة ويدل على الخير إلى أن توفي^(٧) .

- (١) المالكي : رياض النفوس ١/٣٨١. ٤٢٦ وكان يطلق على الرباط في افريقية القصر وقصر زياد هو رباط على ساحل البحر بالقرب من جنياناه ومدينة صفاقس بناه العالم الزاهد عبد الرحيم الربيعي وانفق فيه اثني عشر ألف دينار. (انظر المرجع السابق: ١/٤٢٢، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ٢/١٤٥ ط. الثانية ، مكتبة المنار ، تونس).
- (٢) المرجعان السابقان : الرياض ١/٤٩٧، الورقات ١/١٣٠ وقصر المنستير: هو موضع بين مدينتي المهديّة وسوسة بافريقية وهو خمسة قصور يحيط بها سور واحد يسكنها قوم من أهل العبادة والعلم بناه هرثمة بن أعين سنة ١٨٠هـ وهو حصن كبير عال متقن العمل وفي الطبقة الثانية مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه. وفيه جماعة من الصالحين المرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والوطن.
- (انظر الحموي: معجم البلدان ٥/٢٠٩).
- (٣) هو أبو عثمان سعيد بن إسحاق الكلبي مولاهم سمع من الإمام سحنون بن سعيد وصحبه، توفي رحمه الله سنة ٢٩٤هـ. (انظر المالكي : رياض النفوس ٢/١٢٢).
- (٤) انظر الخشني : طبقات علماء افريقية ص ٢٠٧، والقاضي عياض : ترتيب المدارك ٥/٤١٠. وقصر الطوب : هو عبارة عن رباط صغير به جملة غرف كانت معدة لنزول المرابطين والعباد والصالحين. وكان به مسجد للصلاة ويرج مرتفع وهو يقع على بعد خمسة كيلومترات تقريباً من مدينة سوسة. (انظر حسن عبد الوهاب : الورقات ٢/٨٨).
- (٥) انظر المالكي : رياض النفوس ٢/٣٤. ٣٥ .
- (٦) هو أبو الفضل يوسف بن مسرور مولى نجم الصيرفي كان فاضلاً صالحاً كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر توفي رحمه الله سنة ٣٢٤هـ. (انظر المرجع السابق : ٢/٢٣٤).
- (٧) انظر حسن عبد الوهاب : الورقات ٢/١٤٧، وقصر سهل : يقع في الجهة القبليّة لمدينة سوسة بينه وبينها نحو ثلاثة أميال وهو رباط صغير بناه أحد أصحاب الإمام سحنون وكان من المشهورين بالعلم والورع والثراء يدعى سهل بن عبد الله بن سهل أبو زيد. (انظر المرجع السابق : ٢/٩١-٩٢).

ج - المقابر :-

عندما منع الرافضة العبيديون - كما مرّ سابقاً - علماء أهل السنة من التدريس بالمساجد، وحرّموا عليهم نشر العلم والجلوس للطلاب. عندما فعلوا ذلك لجأ بعض العلماء إلى الاستتار بمواضع غير مشهورة لتدريس الطلاب وتعليمهم بعيداً عن أعين العبيديين، وكانت من تلك المواضع المقابر.

ومن كان يستتر بها أبو عبد الله محمد بن الفتح^(١). يقول أبو بكر المالكي: « كان يخرج إلى مقبرة باب سلم فيستتر خلف حائط فيقرأ هنالك على أصحابه خوفاً من بني عبيد، لأنهم لعنهم الله، منعوا من بث العلم، وسجنوا العلماء في دورهم»^(٢).

د - البادية والأماكن العامة :

ومن الأماكن التي كان يتم التعليم فيها البادية والأماكن العامة، حيث كان بعض العلماء يخرجون إلى البادية فيقصدتهم طلاب العلم، ومن أمثلة ذلك الإمام سحنون بن سعيد الذي كان يكثر من الخروج إلى البادية ليتولى أمور ضيعته. فكان يجتمع لديه في باديته كثير من طلاب العلم^(٣).

وكان ممن قدم إليه في باديته الفقيه يحيى بن عمر، حيث يقول « لما قدمت إلى سحنون سألت عنه، فقيل لي: خرج إلى البادية. فمضيت إلى البادية فاجتمعت به فرأيت رجلاً عليه جبة صوف ومنديل، وهو يتولى حرث ضيعته وأسباب مؤنته.

(١) هو أبو عبد الله محمد بن الفتح المزذب سمع من الفقيه يحيى بن عمر، وكان من أهل العلم والفضل، توفي رحمه الله سنة ٣٣٤هـ وقيل في التي بعدها. (انظر الدباغ : معالم الإيمان ٣/٣٨).

(٢) المالكي : رياض النفوس ٢/٣١٣ .

(٣) المرجع السابق ١/٣٥٩ ، ٣٦٠ .

فاستقلته فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون جئت من المشرق وخلفت به العلماء وجئت إلى هذا الرجل وما أراه يحفظ من العلم شيئاً ولا معه شيء .

فأنزلني ورحب بي فلما كلمته وسألته في العلم رأيت بحراً لا تكدره الدلاء، والله العظيم ما رأيت مثله قط كأن العلم والله جمع بين عينيه وفي صدره»^(١).

وكان القاضي عيسى بن مسكين يذاكر في باديته ويقصده فيها بعض طلابه ويروون عنه إلى وقت الظهر^(٢).

ويقول المحدث محمد بن بشار بن كيسان^(٣) المعروف «ببندار» «... وسألوني الحديث وأنا ابن ثمان عشرة، فاستحييت أن أحدثهم في المدينة، فأخرجتهم إلى البستان وأطعمتهم الرطب وحديثهم»^(٤).

بل إن بعض طلاب العلم أحياناً يجعلون العالم مضطراً للوقوف في بعض الطرق والأماكن العامة لتعليمهم شيئاً من العلم.

وقد حدث مثل هذا للإمام البخاري حينما قدم البصرة لطلب العلم. يقول حاشد بن إسماعيل -وهو ممن كان يطلب العلم معه- «كان أهل المعرفة من أهل البصرة يعدون خلفه -أي خلف الإمام البخاري- في طلب الحديث وهو شاب لم يخرج وجهه حتى يغلبوه على نفسه ويجلسونه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه»^(٥).

(١) المالكي : رياض النفوس، ١/٤٩١، ٤٩٢ .

(٢) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/٢٢٧ وانظر أيضاً حسن عبد الوهاب : الورقات ٢/١٠٣، ١٠٤ .

(٣) هو الحافظ محمد بن بشار بن عثمان بن داود بن كيسان أبو بكر العبدي البصري . لُقّب ببندار لأنه كان بندار الحديث في عصره ببلده، والبندار هو الحافظ ، توفي رحمه الله سنة ٢٥٢هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/١٤٤).

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢/١٠٢ .

(٥) المرجع السابق : ٢/١٥ .

د - الرحلة في طلب العلم :

من أشهر ما اشتهر به طلاب العلم في العصر العباسي الثاني هو الرحلة في طلب العلم وتحصيله «فكان الطالب يترك بلدته بعد أن يُحصَل ما لدى علمائها، فيتوجّه إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، ويكابد مشاق السفر وأخطاره التي يعجز المرء عن وصفها، ولكن هذه المشاق وتلك الأخطار لم تقف حائلاً دون تلك الرحلات التي ملأت أخبارها بطون الكتب»^(١).

وقد أورد الحافظ الراهزمي^(٢) في كتابه «المحدث الفاصل» كلاماً جميلاً فيه وصف بليغ لما يلاقيه طلاب العلم من متاعب ومشاق في سبيل جمعه وتحصيله عن طريق الرحلة والتنقل بين البلدان. ها هو جزء منه «.. فهم يرحلون من بلاد إلى بلاد، خائضين في العلم كل واد، شعث^(٣) الرؤوس، خلقان الثياب، خُمص البطون، ذُبل الشفاه، شُحْب^(٤) الألوان، نُحل الأبدان، قد جعلوا لهم هماً واحداً، ورضوا بالعلم دليلاً ورائداً، لا يقطعهم عنه جوع ولا ظمأ، ولا يملهم منه صيف ولا شتاء، مائزين الأثر: صحيحه من سقيمه، وقوّه من ضعيفه، بألباب حازمة، وآراء ثاقبة، وقلوب للحق واعية، فأمنت قومه المموهين، واخترع الملحدين، وافتراء الكاذبين، فلو رأيتهم في ليلهم، وقد انتصبوا لنسخ ما سمعوا، وتصحيح ما جمعوا، هاجرين الفرش الوطي، والمضجع الشهّي، قد غشيهم النعاس فأنامهم، وتساقطت من أكفهم أقلامهم، فانتبهوا مذعورين قد أوجع الكدُّ أصلابهم، وتيّه السهر ألبابهم، فتمطّوا ليريحوا الأبدان، وتحولوا ليفقدوا النوم من مكان إلى مكان، وذلكوا بأيديهم عيونهم، ثم عادوا إلى الكتابة حرصاً عليها، وميلاً بأهوائهم إليها.

(١) منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين ص ٦٥ .

(٢) هو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الفارسي الراهزمي القاضي الإمام الحافظ . قال الإمام الذهبي وأظنه بقي إلى بعد الخمسين وثلاثمائة، قيل أنه توفي في سنة ٣٦٠ هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء، ٧٣/١٦)

(٣) شُعْثُ الرُّؤُوسِ : أي مغبرة شعور رؤوسهم . (انظر ابن منظور : لسان العرب ، مادة «شعث» ، ١٦٠/٢)

(٤) شُحْبُ الْأَلْوَانِ : أي تغيرت ألوانهم . (انظر المرجع السابق : مادة «شحب» ٤٨٤/١).

لعلمت أنهم حرس الإسلام، وخُزَّان الملك العلام، فإذا قضوا من بعض ما راموا^(١) أوطارهم، انصرفوا قاصدين ديارهم، فلزموا المساجد، وعمروا المشاهد، لابسين ثوب الخضوع، مسالمين ومسلمين، يمشون على الأرض هوناً، لا يؤذون جاراً، ولا يقارفون عاراً، حتى إذا زاغ زائغ، أو مرق في الدين مارق، خرجوا خروج الأسد من الآجام، يناضلون عن معالم الإسلام»^(٢).

وتعدّ الرحلة في طلب العلم من أعلى مراحل التعليم، حيث إن الطالب يلتقي بالعديد من العلماء ويسمع من الكثير منهم وفيما يلي سأذكر إن شاء الله تعالى نماذج من تلك الرحلات في هذا العصر :

١- فهذا الإمام أحمد بن حنبل رحل إلى الكوفة، والبصرة، والشام، والجزيرة، ومكة، والمدينة، واليمن، وكتب عن علمائها^(٣).

٢- وهذا الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحل إلى مرو، وبلخ، ونيسابور، والري، وبغداد، والبصرة، والكوفة، ومكة، والمدينة، ومصر، والشام، وكان يقول قبل وفاته بشهر « كتبت عن ألف وثمانين رجلاً ليس فيهم إلا صاحب حديث »^(٤).

يقول عمر بن حفص الأشقر - وهو ممن كان يطلب الحديث معه - « كنتُ مع محمد بن إسماعيل بالبصرة نكتب الحديث، ففقدناه أياماً فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان وقد نفذ ما عنده ولم يبق معه شيء، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه ثم اندفع معنا في كتابة الحديث »^(٥).

(١) راموا أوطارهم : أي طلبوا حاجاتهم. يقال : رام الشيء يرومه روماً ومراماً: طلبه . (انظر ابن منظور : لسان العرب، مادة «روم» ٢٥٨/١٢).

(٢) الرامهرمزي : الحسن بن عبد الرحمن المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، ص ٢٢٠- ٢٢١ (ط. الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٣٩١هـ، تحقيق د. محمد الخطيب) .

(٣) انظر ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد ص ٢٢ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٩٤/١٢، ٣٩٥ .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٣/٢ .

فجمع من خلال تلك الرحلات كتابه «الجامع الصحيح» الذي سمعه منه الكثير وتلقته الأمة بالقبول.

يقول محمد بن يوسف الفربري «سمع كتاب «الصحيح» لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل ، فما بقي أحد يروي عنه غيري»^(١).

٣- وهذا الإمام مسلم بن الحجاج القشيري^(٢) رحل إلى العراق، والشام، ومصر، والحجاز، وسمع من جماعة كثيرين^(٣).

٤- وهذا محدث الأندلس بقي بن مخلد أكثر من الترحال إلى المشرق، قال عنه الحافظ الذهبي «وعني بهذا الشأن عناية لا مزيد عليها وأدخل جزيرة الأندلس علماً جماً، وبه، وبمحمد بن وضاح صارت تلك الناحية دار حديث، وعدة مشيخته الذين حمل عنهم مئتان وأربعة وثمانون رجلاً»^(٤).

٥- وهذا الحافظ أبو حاتم محمد بن إدريس^(٥) أول ما خرج في طلب العلم أقام سبع سنين يمشي على قدميه، حتى إنه يقول عن نفسه: «أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ ثم تركت العد بعد ذلك .. كل هذا وأنا ابن عشرين سنة»^(٦).

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٩/٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٩٨/١٢.

(٢) هو الإمام الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري توفي رحمه الله سنة ٢٦١هـ بنيسابور. (انظر المرجع السابق ٥٥٧/١٢).

(٣) انظر المرجع السابق: ٥٥٨/١٢، وابن كثير: البداية والنهاية ٣٣/١١.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٨٦/١٣.

(٥) هو أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي الرازي أحد الأئمة الحفاظ الأثبات العارفين بعلل الحديث والجرح والتعديل توفي رحمه الله سنة ٢٧٧هـ. (انظر ابن كثير: البداية والنهاية ٥٩/١١، وابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ٣١/٩).

(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٧٤/٢، والسبكي: طبقات الشافعية ٢٠٨/٢.

وبقي بالبصرة ثمانية أشهر ، وكان يرغب في المزيد؛ إلا أن نفقته انقطعت، فيقول واصفاً معاناته: «فجعلت أبيع ثيابي شيئاً بعد شيء حتى بقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة وأسمع منهم إلى المساء، فانصرف رفيقي ورجعت إلى بيت خال، فجعلت أشرب الماء من الجوع، ثم أصبحت من الغد وغدا عليّ رفيقي، فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد، فانصرف عني وانصرفت جائعاً فلما كان الغد غدا عليّ فقال: مُر بنا على المشايخ. فقلت أنا ضعيف لا يمكنني . قال : ما ضعفك؟ قلت: لا أكتمك أمري، قد مضى يومان ما طعمت فيهما. فقال لي رفيقي : معي دينار فأنا أواسيك بنصفه، ونجعل النصف الآخر في الكراء فخرجنا من البصرة وقبضت منه النصف دينار»^(١).

٦- وهذا الحافظ يعقوب بن سفيان الفسوي^(٢) محدث إقليم فارس قال عن نفسه : «كتبت عن ألف شيخ وكسر كلهم ثقات»^(٣).

٧- ورحل يحيى بن عمر الفقيه الأندلسي القيرواني إلى المشرق وسمع حديثاً كثيراً^(٤)، وأنفق في طلب العلم ستة آلاف دينار^(٥).

٨- وهذا الحافظ محمد بن حبان البستي^(٦) شيخ خراسان يقول عن نفسه «لعلنا قد كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ» قال الحافظ الذهبي معلقاً على قوله هذا : «قلت : كذا فلتكن الهمم، هذا مع ما كان عليه من الفقه والعربية والفضائل الباهرة وكثرة التصانيف»^(٧).

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٧٤/٢ . ٧٥ .

(٢) هو أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفسوي الفارسي الإمام الحافظ الرجال توفي رحمه الله سنة ٢٧٧هـ (الذهبي : سير أعلام النبلاء، ١٣/١٨٠، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص٢٦٢، ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ).

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/١٨١ .

(٤) الخشنى : طبقات علماء افرقية ص١٣٤ .

(٥) الدباغ : معالم الإيمان ٢/٢٣٦ .

(٦) هو الإمام العلامة شيخ خراسان أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي الدارمي البستي، توفي رحمه الله سنة ٣٥٤هـ وقد جاوز الثمانين عاماً. (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٦/٩٢).

(٧) المرجع السابق : ٩٤/١٦ .

وهكذا كان أولئك رحمهم الله يحرصون على طلب العلم وتحصيله مهما كلفهم ذلك من مصاعب ومشاق.

هـ - معاملة طلاب العلم :

لقد كان طلاب العلم في هذا العصر يحظون بمعاملة حسنة سواء كانت من قبل شيوخهم وأساتذتهم، أو من قبل بعض الوجهاء والمسؤولين، أو من قبل عامة الناس وكانت تلك المعاملة سبباً من أسباب مواصلتهم لطلب العلم وتحصيله والنبوغ فيه بعد توفيق الله وتيسيره .

ويمكن أن ألخص بعض سمات تلك المعاملة في النقاط التالية :

١- عدم أخذ الأجرة على التعليم :

كان عامة العلماء في هذا العصر لا يتقاضون على التعليم في هذه المرحلة أجراً، بل كان منهم من لا يرى جواز ذلك، وبخاصة فيما يتعلق بالعلوم الشرعية - كما تقدم بيان ذلك-^(١) فكانوا يعلمون احتساباً لوجه الله الكريم وطلباً لثوابه ومرضاته .

وكان عدد كبير منهم قد امتهن مهناً مختلفة بالإضافة إلى اشتغالهم بالعلم والتعليم .

يقول الدكتور منير الدين أحمد « هذا ولم يكن التعليم هو الوسيلة أو المهنة التي يعتمد عليها المعلم في كسب رزقه، إذ كان لكل معلم مهنته الخاصة، وقد قام أحد الباحثين الأجانب بإحصاء للعلماء المسلمين في القرنين الثالث والرابع للهجرة، فوجد أن ٧٥٪ منهم كانوا من التجار وأصحاب الحرف، الأمر الذي جعل غالبية العلماء في حالة الاكتفاء من الناحية المادية، بل إن بعضهم كان يعد من الأغنياء إلى درجة يستطيع معها مساعدة طلابه المحتاجين»^(٢) .

(١) انظر ص ٢٩٣ .

(٢) منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين ص ١١٨ .

وها هي بعض النماذج والأمثلة التي تدل على عدم أخذ أولئك العلماء للأجرة على التعليم :

١- فقد كان أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان^(١) المعروف بالصواف صبوراً على التدريس وكان يقول : « أنا حُبْسٌ وكتبي حُبْسٌ »^(٢) أي وفقاً لله على العلم وطلابه.

٢- وكان الإمام المحدث محمد بن يعقوب بن يوسف^(٣) والذي يعرف بأبي العباس الأصم. وقد حدثت ستاً وسبعين سنة، وكان لا يأخذ شيئاً على التحديث إنما كان يورق ويأكل من كسب يده^(٤).

٣- وكان الإمام الحافظ محدث نيسابور محمد بن عبد الله بن محمد الخراساني الجوزقي^(٥) يقول « أنفقت في طلب الحديث مائة ألف درهم، ما كسبت به درهماً »^(٦).

٢- حسن المعاملة من قبل أساتذتهم وشيوخهم :-

حظي عامة طلاب العلم في هذا العصر من معظم أساتذتهم وشيوخهم بمعاملة حسنة وكان ذلك من أسباب جدهم ومواصلتهم لطلب العلم وتحصيله. « فقد كان الأساتذة يُكثون المحبة والعطف لطلابهم، كما كان منهم من يعين المحتاج منهم ويتفقد من يتغيب، ويعود المرضى منهم »^(٧)

(١) هو أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان بن داود الصواف أحد فقهاء المالكية توفي رحمه الله سنة ٢٩١ هـ . (انظر المالكي : رياض النفوس ١/٥٠٥).

(٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/٢٤٣ .

(٣) هو أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل بن سنان الأموي مولاهم محدث خراسان توفي رحمه الله سنة ٣٤٦ هـ وله من العمر ٩٩ سنة . (انظر ابن الجوزي : المنتظم ٦/٣٨٦، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٢/٣٧٣).

(٤) انظر ابن الجوزي : المنتظم ٦/٣٨٦، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٥/٤٥٤-٤٥٥ .

(٥) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن زكريا الشيباني الخراساني الجوزقي برع في علم الحديث وصنف فيه التصانيف ، توفي رحمه الله سنة ٣٨٨ هـ وله من العمر ٨٢ سنة. (انظر المرجع السابق : ١٦/٤٩٣).

(٦) المرجع السابق : ١٦/٤٩٤ .

(٧) انظر منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين ص ٧٨ .

وها هي بعض النماذج والأمثلة على ذلك :

- ١- كان الإمام سحنون بن سعيد كثيراً ما يدفع إلى تلميذه جبلة بن حمود الصدفي ما يكتسي به، ويهديه ذلك عندما يرى عليه علامات الحاجة^(١).
- ٢- وكان الحافظ إبراهيم بن إسحاق الحربي يتفقد طلابه فلما فقد أحدهم، قال لطلابه «يا قوم إن كان مريضاً فقوموا بنا لعيادته، أو مديوناً اجتهدنا في مساعدته، أو محبوساً سعينا في خلاصه»^(٢).
- ٣- ويقول أحمد بن محمد بن مسروق الطوسي دخلت الري فقصدت أبا موسى الدولابي^(٣) وكان في ذلك الوقت من أشرف من يذكر- فلقيته فسلمت عليه، وأقمت عنده في منزله ثلاثة أيام وكان له تلاميذ يتكلم عليهم فأردت الخروج فوقف لأودعه. فابتدأني وقال : يا غلام الضيافة ثلاثة أيام، وما كان فوق ذلك فهو صدقة منك علي^(٤). وكان يدعو طلابه إلى منزله وبيالغ في إكرامهم^(٥).
- ٤- ولما اعتل أحد طلاب محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم^(٦) وتأخر عن مجلسه سأل عنه، فقبل له إنّه كان عليلاً فجاءه من الغد ليعوده^(٧).

(١) انظر المالكي : رياض النفوس ٢/٢٩-٣١ .

(٢) الحموي : معجم الأدباء ١/١٢٧ .

(٣) لم أظفر له بترجمة فيما اطلعت عليه من كتب السير والتراجم والطبقات إلا أنه من علماء العصر لأن راوي الحادثة أحمد الطوسي توفي سنة ٢٩٨هـ. (انظر ترجمته في الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٥/١٠٠، والذهبي سير أعلام النبلاء ١٣/٤٩٤).

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٥/١٠٠ .

(٥) انظر المرجع السابق : ٥/١٠١ .

(٦) هو أبو عمرو محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم اللغوي المحدث المعروف بغلام ثعلب كان كثير العلم والزهد، توفي رحمه الله سنة ٣٤٥هـ. (انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٢٣٠).

(٧) انظر البغدادي : تاريخ بغداد ٢/٣٥٦ .

٥- وذكر الدباغ في معالم الإيمان أن أحد طلبة العلم من أهل الأندلس وصل إلى الفقيه أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني^(١) للقراءة عليه « فأكرمه وأنزله وأجرى عليه ما يحتاج إليه من نفقة وجعله إمام مسجده فبينما هو ذات يوم خارج من داره إلى الصلاة - وكانت داره التي أنزله فيها مجاورة للمسجد في قبالة حمام أبي محمد- إذ نظر إلى امرأة خارجة من الحمام، وقد كشفت عن وجهها لما نالها من حر الحمام ولم تظن أن أحداً ينظر إليها، فلما رآته سترت وجهها وانصرفت. فقيدت بصره وأخذت من نفسه مأخذاً عظيماً، فتبعها إلى أن دخلت دار الفقيه أبي محمد بن أبي زيد -والفقيه ينظر إليه في تلك الحالة- فلما رآه ينظر إليه سقط في يده، وداخله من الحياء والخجل ما لا مزيد عليه، ورجع إلى داره حزيناً كثيراً، فلما تأخر عن الصلاة أتاه المؤذن يؤذنه بها، وأعلمه أن الشيخ أبا محمد بعث إليه، فأتى فصلى بالناس، ثم أخذ الفقيه معه في المذاكرة والمؤانسة إلى أن صلى العشاء الآخرة، فقال له أبو محمد : انصرف إلى دارك حتى أصل إليك، فلم يشك أنه يقول له في ذلك وظن سوءاً وعاد إليه حزنه وكتابته. فلما وصل إلى داره لم يجلس إلا وأبو محمد في أثره، فقال له : يا بني إنما جئتك معذراً من تقصيري في حقك إذ لم أقم بجميع ما تحتاج إليه، وذلك أنني لم أتفقد أنك تحتاج إلى النساء فإنك شاب -وها أنا شيخ احتاج إلى الزيادة من ذلك- فكيف أنت؟ وأما الصبية التي رأيتها خارجة من الحمام فإني ربيتها صغيرة لنفسني، وهي لك، وما أخرجتها لهذا الوقت إلا أنهم في الدار من ذلك الحين يصلحون من شأنها فلم يبرح حتى وصلت الصبية بجميع ما تحتاج إليه من ثياب وحلي وفرش وتركها في منزله وانصرف»^(٢).

(١) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن النفاوي القيرواني أحد فقهاء المالكية وكان من أهل العبادة والورع والفضل والإحسان توفي سنة ٣٨٦هـ وعاش ٧٦ سنة رحمه الله تعالى . (انظر الدباغ : معالم الإيمان ١٠٩/٣).

(٢) المرجع السابق : ١١٣/٣-١١٤ .

٣- تيسير أسباب طلب العلم :-

ومن الأمور التي حظي بها طلاب العلم في هذا العصر، أن عدداً من العلماء وبعض المسؤولين في الدولة الإسلامية كانوا يهتمون بالإففاق على طلاب العلم، وبذل لهم ما يحتاجون إليه من مال ونحوه، ليس هذا فحسب، بل كان منهم من يوقف لهم دوراً ويوفر لهم فيها جميع ما يحتاجونه من مسكن ومطعم وكتب ونحو ذلك. وكان طلاب العلم أنفسهم ينفق بعضهم على بعض ويواسي بعضهم بعضاً.

وهذه بعض النماذج على ذلك :

- ١- كان في منزل يعقوب بن شيببة^(١) أربعون لحافاً معدةً لمن يبيت عنده من الوراقين لتبييض كتابه ونقله^(٢).
- ٢- وكان القاضي محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زرعة^(٣) قاضي دمشق يهب لمن يحفظ مختصر المزني في الفقه الشافعي مائة دينار^(٤).
- ٣- وقال الوزير أبو الحسن بن الفرات^(٥) عندما تذكر طلاب العلم : «لعل الواحد منهم يبخل على نفسه بدائق ودونه ويصرف ذلك في ثمن ورق وحبر، وأنا أحق بمراعاتهم ومعاونتهم على أمرهم، وأطلق لهم من خزانته عشرين ألف درهم»^(٦).

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن شيببة بن الصلت بن عصفور السدوسي مولاهم كان بارعاً في مذهب الإمام مالك وألف فيه تأليف جليلة، توفي رحمه الله سنة ٢٦٢هـ . (القاضي عياض : ترتيب المدارك ٥٦/٣).

(٢) انظر المرجع السابق : ٥٧/٣ .

(٣) هو القاضي أبو زرعة محمد بن عثمان بن إبراهيم الشقفي الشافعي تولى قضاء مصر ثم دمشق وكان ثقة عدلاً من سادات القضاة، توفي رحمه الله سنة ٣٠٢هـ . (انظر السبكي : طبقات الشافعية ١٩٧/٣ وابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٢٢).

(٤) السبكي : طبقات الشافعية ١٩٧/٣ .

(٥) هو الوزير الكبير أبو الحسن علي بن أبي جعفر محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات وكان سمحاً مفضلاً توفي رحمه الله سنة ٣١٢هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٤/٤٧٤).

(٦) الصابي : أبو الحسن الهلال بن المحسن، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٢٣.

وكان ينفق على خمسة آلاف من العباد والعلماء، تُجرى عليهم نفقات في كل شهر ما فيه كفايتهم^(١).

٤- وكان المحافظ أحمد بن مهدي بن رستم^(٢) صاحب ضياع وثروة، أنفق على أهل العلم ثلاثمائة ألف درهم^(٣).

٥- وأسس جعفر بن محمد بن حمدان الموصلية^(٤)، داراً للعلم في بلده، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب للعلم لا يُمنع أحدٌ من دخولها. وإذا جاء الغريب وكان معسراً أعطاه ورقاً وورقاً^(٥).

وكذلك عمل المحافظ محمد بن حبان البستي حيث بنى داراً للعلم ووقف كتبه فيها على طلاب العلم وقرئ عليه جملة من مصنفاته في تلك الدار^(٦).

ويقول ياقوت الحموي عن تلك الدار: «وقد كان أبو حاتم بن حبان سبب كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها... ثم قال :

وقال المحافظ أبو عبد الله الحاكم : أبو حاتم بن حبان داره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه، ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفهمة، ولهم جرايات يستنفقونها داره، وفيها خزانة كتبه في يدي وصي سلمها إليه لئبذلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفة من غير أن يخرج منها»^(٧).

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٥١ .

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٢٧٠ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/٥٩٧ .

(٤) هو أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلية أحد فقهاء الشافعية توفي رحمه الله سنة ٣٢٣ هـ وهو ابن ٨٣ سنة . (انظر الحموي : معجم الأدباء ٧/١٩٣) .

(٥) انظر المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما والمراد بقوله «ورقاً وورقاً» أي أنه كان يعطي طلاب العلم الغرباء المعسرين ورقاً للكتابة ونقوداً يستعينون بها على طلب العلم .

(٦) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٦/٩٤ . ٩٥ .

(٧) الحموي : معجم البلدان ١/٤١٨ . ٤١٩ .

٧- وكان دعلج بن أحمد بن دعلج^(١) الإمام المحدث الفقيه تاجراً صاحب أموال عظيمة وكان كثير النفقة على طلاب العلم. قال عنه المحافظ الحاكم: «دعلج الفقيه شيخ أهل الحديث في عصره، له صدقات جارية على أهل الحديث بمكة وبغداد وسجستان». وقال عنه البغدادي «كان دعلج من ذوي اليسار له وقوف على أهل الحديث»^(٢).

٨- وكان محمد بن عمران بن موسى بن عبيد^(٣) قد جهز بيته لسكنى بعض طلاب العلم عنده، حيث كان يقول: «كان في داري خمسون ما بين لحاف ودُواج»^(٤) معدة لأهل العلم الذين يبيتون عندي»^(٥).

٩- وكان أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني من الأجواد وأهل الإيثار والصدقة كثير البذل للفقراء والغرباء وطلبة العلم، كان ينفق عليهم ويكسوهم ويزودهم ويصلهم بالأموال الكثيرة^(٦).

١٠- كما أن طلاب العلم أنفسهم كان غنيهم ينفق على فقيرهم وموسرهم يواسي مُعسرهم. ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

أ - فالإمام البخاري لما نفدت نفقته ولم يبق معه شيء حتى ما يلبسه أثناء طلبه للعلم بالبصرة، اجتمع بعض من كان يطلب العلم معه وجمعوا له الدراهم واشتروا له ما يكتسي به^(٧).

(١) هو أبو محمد دعلج بن أحمد بن دعلج بن عبد الرحمن السجستاني البغدادي المحدث الحجة توفي رحمه الله سنة ٣٥١هـ وقد جاوز التسعين عاماً. (انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/٣٠).

(٢) المرجع السابق: ٣١/١٦.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبيد الكاتب المعروف بالمرزباني توفي رحمه الله سنة ٣٨٤هـ وهو ابن ٨٨ سنة. (انظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٣/١٣٦).

(٤) قال ابن منظور «الدُواج»: ضرب من الثياب. (لسان العرب: مادة «دوج» ٢/٢٧٧).

(٥) البغدادي: تاريخ بغداد ٣/١٣٦.

(٦) انظر الدباغ: معالم الإيمان ٣/١١٣.

(٧) انظر البغدادي: تاريخ بغداد ٢/١٣.

ب- ومحدث الأندلس بقي بن مخلد عندما رحل إلى المشرق لطلب العلم، وكان لا مال له التقى بأحد طلاب العلم من أهل بلده - وكان واسع المال - فسأله بقي أن يتيح له من ماله ما يشتري به الكتب ويجمع به الدواوين ويكون سماعهما واحداً، فأجابته، وكان ذلك سبباً من أسباب استكثار بقي من الرواية والجمع^(١).

ج - وهذا الحافظ أبو حاتم الرازي حينما كان يطلب العلم في البصرة ونفدت نفقته واساه رفيقه وقال له « معي دينار فأنا أواسيك بنصفه، ونجعل النصف الآخر في الكراء »^(٢) وعلى الرغم من زهادة المبلغ إلا أنه كثير بالنسبة له لأنه أعطاه جميع ما يملك ولم يبق لنفسه شيئاً.

و - تعليم النساء :-

كانت النساء في هذه المرحلة يتعلمن غالباً في البيوت عن طريق آبائهن أو أحد محارمهن، حيث كنّ يستفدن من الدروس التي كانت تلقى في بيوت العلماء. وكانت بعض النساء تخرج إلى المساجد لحضور مجالس العلم حيث كانت تخصص فيها أماكن مناسبة لهن.

واستطاع عدد من النساء مواصلة طلب العلم وتحصيله حتى برز عدد منهن في ذلك وبلغن درجة عالية من العلم والفقه في الدين .

وها هي بعض النماذج والأمثلة التي تبين لنا ما يتعلق بتعليم النساء في هذه المرحلة والدرجة العلمية التي وصل إليها عدد منهن:

ذكر الخطيب البغدادي أنه كان يحضر مجلس المحدث أبي الحسن علي بن محمد البغدادي المصري رجال ونساء^(٣).

(١) انظر بن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ١٤٣/١ .

(٢) البغدادي : تاريخ بغداد ٧٥/٢ .

(٣) انظر المرجع السابق : ٧٦/١٢، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٨٢/١٥ .

ومن النساء اللاتي طلبن العلم وبرزن فيه أسماء بنت الإمام أسد بن الفرات التي كانت تسمع المجالس العلمية التي كان يعقدها والدها في داره حتى اشتهرت بالفضيلة ورواية الحديث والفقه^(١).

وكانت خديجة بنت الإمام سحنون بن سعيد عاقلة عالمة ذات صيانة ودين. وكانت النساء يستفتينها^(٢).

وكانت أم عيسى بنت الحافظ إبراهيم بن إسحاق الحربي فاضلة، عالمة تفتي في الفقه^(٣).

وكانت فاطمة بنت الإمام أبي داود السجستاني صاحب السنن محدث بالحديث^(٤).

وكانت أمة الواحد واسمها «ستيتة» بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل الضبي المحاملي محدث عن أبيها وغيره، وكتب عنها الحديث، وكانت فاضلة عالمة من أحفظ الناس للفقهاء على مذهب الإمام الشافعي. وكانت تفتي بذلك، وكانت حافظة للقرآن الكريم عالمة بالفرائض والنحو وغيرها من العلوم^(٥).

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ص٢٢ (ط. بدون، المطبعة التونسية ١٣٥٣هـ).

(٢) المرجع السابق : ص٢٣، ٢٤.

(٣) البغدادي : تاريخ بغداد ٤٤٢/١٤، وابن كثير : البداية والنهاية ١٩٦/١١.

(٤) انظر البغدادي : تاريخ بغداد ٤٦٨/٩ و ٤٤٢/١٤.

(٥) انظر المرجع السابق : ٤٤٣، ٤٤٢/١٤.

المبحث الثالث

«التعليم الخاص»

تمهيد :

ومن أنواع التعليم في هذا العصر أيضاً تعليم أبناء الخاصة من كبار رجال الدولة وأعيانها، وهو ما يعرف بالتعليم الخاص .

وفي هذا المبحث سأتطرق بعون الله تعالى إلى هذا النوع من التعليم من خلال العناوين

التالية :

أ - المقصود بالتعليم الخاص .

ب - اختيار المؤدّب .

ج - مكان التأديب .

د - مهمة المؤدّب .

هـ - أجرة المؤدّب .

أ - المقصود بالتعليم الخاص :

يقصد بالتعليم الخاص، ذلك النوع من التعليم الذي يتلقاه أبناء الخلفاء، و الأمراء، والوزراء، وغيرهم من كبار رجال الدولة، والأغنياء، حيث يقوم الآباء باستئجار المعلمين لكي يتولوا تعليم أبنائهم. فهو إذاً خاص بأناس معينين ولا يتيسر لعامة الناس، وهو لا يختلف كثيراً من ناحية المحتوى عن التعليم العام، لكنّه قد يتميز عنه في بعض جوانبه، مثل سنّ البداية، ومكان تلقي العلم، وكذلك في بعض مناهج المنهج، حيث كان التلميذ في التعليم الخاص يعد إعداداً معيناً يتناسب مع ما يطمح إليه والده من طموحات^(١).

(١) انظر محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ص ٤٢٥ .

وكان يطلق على من يقوم بهذا النوع من التعليم لقب « مؤدّب » أمّا من يقوم بتعليم الطبقة المتوسطة وسواد الشعب لقب « معلّم » ولكن هذا ليس دائماً، بل كان يحدث غالباً .
لذا سأستخدم لقب « مؤدّب » في هذا المبحث على من يقوم بتعليم أبناء الخاصة للتمييز بينه وبين « المعلّم » .

ب - اختيار المؤدّب :-

من خلال الاطلاع على مجموعة من أسماء المؤدّبين، نلاحظ أن الآباء كانوا يحرصون كل الحرص على أن يكون مؤدّبوا أولادهم من أفضل الرجال وأعلامهم ديناً، وعلماً، وخلقاً، لذا نراهم دائماً يطمحون إلى تأديب أولادهم على يد من أتصف بتلك الصفات واشتهر بها .
وكانوا أحياناً يجابون لما يطمحون إليه، وفي أحيان أخرى يقابلون بالرفض والاعتذار.
وها هي بعض النماذج والأمثلة على ذلك كلّه :

فمن الذين أجابوا الآباء ووافقوا على تأديب أولادهم ما يلي :

- ١- المؤدّب يعقوب بن إسحاق السكّيت^(١) شيخ العربية، حيث كان مؤدّباً لأولاد الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر، ثم ارتفع محله وأدّب أولاد المتوكل^(٢) .
- ٢- ومنهم المؤدّب العلامة محمد بن أرقم السبائي^(٣) حيث أدّب أولاد الأمير محمد بن عبد الرحمن^(٤) .

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكّيت البغدادي شيخ العربية، كان ديناً خيراً توفي رحمه الله سنة ٢٤٤ هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/١٦٦) .

(٢) انظر المرجع السابق : الجزء والسفحة نفسيهما .

(٣) هو محمد بن أرقم السبائي من أهل قرطبة وكان بصيراً بالعربية والحساب أدّب القاسم، وأصبغ، وعثمان، أولاد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي (انظر ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ١/٣٥٧) ولم يذكر له تاريخ وفاة إلا أنه من علماء العصر لأن الأمير محمد بن عبد الرحمن توفي سنة ٢٧٣ هـ (انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٥١) .

(٤) انظر المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

- ٣- ومنهم عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي البغدادي^(١)، وكان عالماً زاهداً، عابداً، ورعاً، أدب جماعة من أولاد الخلفاء منهم المعتضد والمكتفي^(٢).
- ٤- ومنهم العلامة إمام الكوفيين في النحو أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني^(٣) المعروف «بشعلب» حيث كان مؤدباً لظاهر ولد الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر^(٤).
- ٥- ومنهم المؤدب جابر بن غيث^(٥) وكان مشهوراً بالفضل متديناً حيث أدب ولد الوزير هاشم بن عبد العزيز^(٦).
- ٦- ومنهم العلامة شيخ العربية محمد بن العباس بن محمد البيزدي البغدادي^(٧) حيث أدب أولاد المقتدر^(٨).
- ٧- ومنهم عبد الله بن سليمان بن المنذر^(٩) حيث كان مؤدباً لأولاد الناصر لدين الله^(١٠).

- (١) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان أبو بكر القرشي مولاها المعروف بابن أبي الدنيا كان ثقة كثير التصانيف توفي رحمه الله سنة ٢٨١ (انظر ابن الجوزي : المنتظم ١٤٨/٥).
- (٢) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٨٦/٣ .
- (٣) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار النحوي الشيباني مولاها المعروف بشعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة، توفي رحمه الله سنة ٢٩١هـ. (انظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢٠٤/٥).
- (٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٧/١٤ .
- (٥) هو أبو مالك جابر بن غيث اللبي كان متديناً عالماً بالعربية وضروب الأدب توفي رحمه الله سنة ٢٩٩هـ (انظر ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ١٠٢/١).
- (٦) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .
- (٧) هو أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد يحيى بن المبارك البيزدي البغدادي العلامة شيخ العربية توفي رحمه الله سنة ٣١٠هـ. (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٦١/١٤).
- (٨) المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .
- (٩) هو عبد الله بن سليمان بن المنذر بن عبد الله بن سالم القرطبي كان من أهل العلم بالعربية والآداب توفي رحمه الله سنة ٣٢٥هـ. (انظر ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ٧٧٨/٢).
- (١٠) انظر المرجع السابق : الجزء والصفحة نفسيهما .

٨- ومنهم العلامة محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأنباري^(١) حيث كان مؤدباً لأولاد الرازي بالله^(٢).

٩- ومنهم محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي^(٣) وكان فقيهاً إماماً موثقاً حيث كان مؤدباً للمغيرة بن الناصر لدين الله^(٤).

وهناك جماعة من العلماء لم تجب أولئك الآباء لطلبهم واعتذروا عن تأديب أولادهم، وتخصيصهم بذلك دون سواهم، أذكر منهم :

١- الإمام أحمد بن حنبل، حيث رفض أن يُسمع ولد المتوكل الحديث فلم يجلس على بساطه ولم يأكل من طعامه^(٥).

٢- ومنهم الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، حيث رفض أن يخصص لأولاد الأمير خالد ابن أحمد الذهلي مجلساً لسماع الحديث خاصة بهم دون غيرهم^(٦).

٣- ومنهم الإمام أبو داود السجستاني^(٧) حيث جاء إليه الأمير أبو أحمد الموفق وقرع عليه بابيه وطلب مطالب عدة كان منها أنه قال له «وتروي لأولادي كتاب السنن.

(١) هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن الأنباري كان من بحور العلم في اللغة والعربية والتفسير والحديث وغير ذلك توفي رحمه الله سنة ٣٢٨هـ . (انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٩٦).

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ٧١/٢ .

(٣) هو الفقيه النحوي محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي القرطبي ، المعروف بالرياحي، كان رجلاً صالحاً متديناً ، توفي رحمه الله سنة ٣٥٨هـ . (انظر ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، ٢/٦٩).

(٤) انظر المرجع السابق الجزء والصفحة نفسيهما، والسيوطي : جلال الدين عبد الرحمن، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ١/٢٦٢ (ط. الأولى، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٣٨٤هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).

(٥) ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد ص ٣٧٤ .

(٦) انظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢/٣٣ .

(٧) هو الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث بن شاذان الأزدي السجستاني، أحد حفاظ الإسلام وقرسان الحديث، توفي رحمه الله سنة ٢٧٥هـ . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/٢٠٣).

فقال : نعم . قال : وتفرد لهم مجلساً للرواية فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة.
فقال : أمّا هذه فلا سبيل إليها لأن الناس شريفهم ووضعهم في العلم سواء»^(١) .
وهكذا كان الآباء يحرصون على اختيار أفضل الرجال ديناً وعلماً وخلقاً لتأديب أولادهم
والعناية بهم .

ج - مكان التأديب :

تأديب أبناء الخاصة كان يتم في بيوت آبائهم، حيث كان الآباء يدعون المؤدبين إلى
بيوتهم ويُعدّون فيها أماكن مناسبة لذلك .

ومن الذين تولوا تأديب أبناء الخاصة في بيوت آبائهم ما يلي :

١- أبو العَمَيْثَل عبد الله بن خليل بن سعد^(٢) حيث استدعاه الأمير طاهر بن الحسين،
وعهد إليه تأديب ولده، فأقام معه في خراسان^(٣) .

٢- ومنهم عثمان بن المثنى القيسي^(٤) حيث كان يؤدب ولد الأمير محمد بن عبد الرحمن
في قصر الخلافة^(٥) .

٣- ومنهم المؤدب العلامة صاحب التصانيف الكثيرة عبد الله بن محمد بن عبيد
القرشي مولاهم البغدادي حيث أدب غير واحد من أولاد الخلفاء منهم المعتضد والمكتفي^(٦) .

(١) السبكي : طبقات الشافعية ٢/٢٩٦، وابن أبي يعلى : طبقات الخنابلة ١/١٦٢ .

(٢) هو عبد الله بن خليل بن سعد كان شاعراً فاضلاً وكان أبوه مولى لبني العباس توفي عبد الله سنة ٢٤٠هـ .
(انظر الزركلي : الأعلام ٤/٨٥) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/٨٩ .

(٤) هو أبو عبد الملك عثمان بن المثنى القيسي القرطبي رحل إلى المشرق والتقى بعدد من علمائه، توفي رحمه
الله سنة ٢٧٣هـ وله من العمر ٩٩ عاماً . (انظر ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ١/٣٠٢) .

(٥) انظر ابن سعيد : علي، المغرب في حلى المغرب ١/١١٢، ١١٣ (ط. الثانية، دار المعارف، مصر ١٩٦٤م،
تحقيق د. شوقي ضيف) .

(٦) البغدادي : تاريخ بغداد ١٠/٨٩، الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٣/٣٩٧، ٤٠٠ .

- ٤- ومنهم إمام الكوفيين في النحو أحمد بن يحيى المعروف بشعلب حيث أدب الأمير طاهر ابن محمد بن عبد الله بن طاهر وأقرده له والده داراً في داره ليقوم فيها هو وتلميذه وكان يتغدى معه فيها^(١).
- ٥- ومنهم المؤدب جابر بن غيث وكان مشهوراً بالفضل متديناً استجلبه الوزير هاشم بن عبد العزيز لتأديب ولده، فكان سكناه قرطبة^(٢).
- ٦- ومنهم المؤدب عبد الله بن سليمان بن المنذر المكفوف، حيث كان يختلف إلى أولاد الناصر لدين الله ويؤدبهم داخل القصر^(٣).
- ٧- ومنهم المؤدب محمد بن العباس بن محمد اليزيدي حيث استدعاه المقتدر لتأديب أولاده فلزمهم^(٤).
- ٨- ومنهم العلامة النحوي إبراهيم بن السري الزجاج^(٥) البغدادي حيث كان مؤدباً للقاسم ابن الوزير عبيد الله بن سليمان ثم ارتفع وصار مؤدباً لأولاد المعتضد ومن ندمائه^(٦).
- ٩- ومنهم الإمام الحافظ محمد بن القاسم بن بشار، أبو بكر الأنباري، حيث كان يتردد إلى أولاد الرازي ليؤدبهم. وكان يملئ من حفظه شيئاً عظيماً^(٧).

(١) انظر الحموي : معجم الأدباء ١٢٥/٥ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ١٠٢/١، والسيوطي : بغية الوعاة ٤٨٣/١ .

(٣) انظر ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ٧٧٨/٢ .

(٤) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٣٨/٤، والسيوطي بغية الوعاة ١٢٤/١ .

(٥) هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج كان فاضلاً ديناً حسن الاعتقاد، له مصنفات حسنة توفي رحمه الله ٣١١ هـ . (انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١٤٨/١١).

(٦) انظر ابن النديم : محمد بن إسحاق، الفهرست ص ٩٠ (ط. بدون، دار المعرفة، بيروت) والبغدادي : تاريخ بغداد ٩٠/٦، وابن الجوزي : المنتظم ١٧٦/٦ - ١٧٧ .

(٧) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ٧١/٢ .

١٠- ومنهم المؤدب محمد بن الحسن الزبيدي النحوي، حيث طلبه المستنصر من أشبيلية إلى قرطبة للاستفادة منه. فأدب جماعة من أولاده منهم هشام^(١).

د - مهمة المؤدب :-

يتولى المؤدب مهمتين أساسيتين أولاهما تعليم العلم بمختلف علومه وموضوعاته .

والثانية هي الإشراف عليهم والعناية بأخلاقهم وآدابهم .

ففيما يتعلق بالمهمة الأولى نجدها لا تختلف كثيراً عن مهمة معلم صبيان العامة، إلا في قضية الموضوعات حيث إن آباء الخاصة كانوا يحرصون على تعليم وتلقين أبنائهم موضوعات معينة .

يقول الأستاذ كريم حسين « تنوعت موضوعات التأديب وألوان الثقافة التي يتلقاها الأولاد المؤدبون، ربما حددها الأب أو شارك المؤدب في تحديدها. وراعت مجملها -على ما يبدو- المستقبل المرجو للولد. مزودة إياه بالعلم والمعرفة اللاتقنين، في الوسط الاجتماعي والعلمي، وما يُغذّي العقل والروح والجسد. فهي مناهج للتربية والتعليم».

ثم يتحدث عن أنواع العلوم التي كان يُودَّب بها فيقول : « وأول العلوم التي أدب بها المؤدبون القرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم الفرائض، والنحو، والشعر، والحساب، والهندسة»

ثم يصل إلى نتيجة وهي : « أن المعرفة التي حصل عليها الأولاد المؤدبون تجاوزت -كماً ونوعاً- المعرفة التي حصل عليها الأولاد في المكاتب لطول مدة التأديب بشكل عام، وتجاوز عمر المؤدبين عمر المكتبيين»^(٢).

(١) انظر الحموي : معجم الأدباء ١٧٩/١٨ - ١٨٠، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٤١٧/١٦ .

(٢) كريم عجبل حسين : الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية ص ٢٤٢-٢٤٣ .

إذاً فمن مهمة المؤدب تأديب صبيان الخاصة بعلوم مختلفة وموضوعات متعددة. ولا ريب أن تلك العلوم والموضوعات كانت تختلف من شخص لآخر تبعاً لاختلاف رغبات الآباء، حيث إنهم - كما تبين لنا - كانوا يشتركون مع المؤدب في اختيار تلك العلوم والموضوعات. ولكنهم في الغالب كانوا يهتمون بالعلوم والموضوعات التي تعدهم وتُهيئهم لتولي المناصب الكبيرة والمراكز المرموقة .

أما فيما يتعلق بالمهمة الثانية وهي الإشراف عليهم والعناية بأخلاقهم وآدابهم. فإن الآباء - كما مر معنا سابقاً - كانوا يختارون لتأديب أولادهم من أحسن الرجال وأفضلهم ديناً وعلماً وخلقاً. وإذا كان الأمر كذلك فإنه غالباً ما يترك المؤدب أثراً قوياً على من يؤدبهم ويهتم بهم، لأنهم يتخذونه قدوة لهم فيقلدونه في أقوالهم وأفعالهم .

ومن الأمثلة على حرص الآباء على أن يتولى المؤدب هذه المهمة ويقوم بها ما روي عن محمد بن هشام المرواني^(١) حينما دخل على الخليفة الناصر لدين الله ليذاكره، استحسنه، وأمره بالتزام بنيه ليؤدبهم بحسن أدبه فيتخلقوا بخلقه^(٢) .

وكان بعض الآباء ينبهون المؤدبين، ويؤكدون عليهم بالتزام الأخلاق الحميدة والسلوك الحسن، وأن يكونوا قدوة حسنة في أنفسهم ليستفيد الأبناء منهم ويتأثروا بأفعالهم وأقوالهم. ومن الأمثلة على ذلك ما قام به أبو مروان بن حبيب السلمي، حيث أرسل رسالة إلى مؤدب ولده يقول فيها : «بسم الله أما بعد، فلتكن أول ما تؤدب نفسك، فإن عيني متعلقة بك، وأعينهم متعلقة بك، فالحسن عندهم ما استحسنته، والقبيح عندهم ما استقبحته، وعلمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تخرجهم من فنٍ إلى فنٍ حتى

(١) هو أبو بكر محمد بن هشام بن عبد العزيز المرواني الأموي أحد أدباء الأندلس وفضلائها توفي رحمه الله قبل سنة ٣٥٠هـ . (انظر الزركلي : سير أعلام النبلاء ١٣١/٧).

(٢) أحمد بن محمد المقرئ : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٥٧٣/٣، (ط. بدون، دار صادر، بيروت تحقيق: د. إحسان عباس).

يُحْكِمُوهُ ، فإن ازدحام العلوم مقللة للفهوم، وعلمهم من الشعر أعفد، ومن الحديث أشرفه،
وكن لهم كالطبيب الذي لا يضع الدواء إلا في موضع الداء، وهددهم دوني يزدادوا بذلك
صلاحاً، والسلام»^(١).

هـ - أجره المؤدب :

مؤدب أولاد الخاصة كان أحسن حالاً من الناحية المالية من معلم صبيان العامة. حيث
إنه كان يتقاضى أضعاف ما يتقاضاه معلم الصبيان، وأجر المؤدب غير معروف ومحدد، بل
هو يتفاوت بتفاوت ثراء آباء الأولاد وعلم، ومكانة، وجهد المؤدب^(٢).

ويقول الدكتور أحمد شلبي «نعم المؤدبون بالغنى والرخاء اللذين استمتعت بهما طائفة
العظماء الذين اتصل بهم المؤدبون وتعيين شخص ما مؤدباً كان يعتبر فاتحة خير عليه وعلى
ذويه، إذ كانت هذه الوظيفة تضمن لشاغلها غنى سريعاً شاملاً، وتضمن له كذلك تسوية
لأية مشكلات مالية يعانيتها أو ديون يزرع تحتها»^(٣).

وها هي بعض النماذج والأمثلة على الأجور التي كان يتقاضاها بعض المؤدبين :

- ١- كان عند أحد قواد الأمير عبد الله بن طاهر مؤدب رزقه في الشهر سبعون درهماً^(٤).
- ٢- أما يعقوب بن السكيت الذي كان مؤدباً لأولاد الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر فقد
كان يتقاضى خمسمائة درهم في الشهر ثم جعلها الأمير ألف درهم^(٥).

(١) المغراوي : أحمد بن أبي جمعة، جامع جوامع الاختصار والتبيين فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان
ص٣٩-٤٠ . (ط. بدون، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، تحقيق أحمد البدوي ورايح
بونار).

(٢) انظر كريم حسين : الحياة العلمية في مدينة بنسنية الإسلامية ص٢٤٦ .

(٣) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص٢٤١ .

(٤) الحموي : معجم الأدباء ٢٣/٣ .

(٥) البغدادي : تاريخ بغداد ٢٧٣/١٤، وابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٩٨/٦ .

- ثم أدب أولاد المتوكل فأجزل له العطاء^(١) حتى إنّه في إحدى المناسبات منحه المتوكل خمسين ألف دينار بالإضافة إلى مرتبه المنتظم^(٢).
- ٣- أمّا المؤدّب عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي، فقد كان يؤدّب المكتفي وكان له عليه كل يوم خمسة عشر ديناراً^(٣).
- ٤- أمّا المؤدّب العلامة النحوي المعروف «بثعلب» فقد كان يجري عليه الأمير محمد بن طاهر في الشهر ألف درهم لقاء تأديب ولده، وذلك سوى الأشياء العينية^(٤). وقد خلف مالا عظيماً بعد وفاته^(٥).
- ٥- أمّا شيخ العربية محمد الزجاج فقد أدب القاسم ابن الوزير عبيد الله بن سليمان، وكان يقول عن ذلك التأديب : «وكان ذلك سبب غناي»^(٦).
- ٦- أمّا محمد بن الحسن الزبيدي فقد نال دنياً عريضة من الحكم المستنصر بسبب تأديب ابنه الأمير هشام^(٧).
- وكثيراً ما حصل المؤدّبون بالإضافة إلى المال على مساكن وأطعمة منتظمة وغيرها من الهدايا والمنح^(٨).
- وهكذا كان مؤدّبو أبناء الخاصة يتقاضون الأموال الطائلة ويظفرون بالهدايا العظيمة، والهبات الكبيرة .

(١) انظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢٧٣/١٤ ، ابن خلكان وفيات الأعيان ٣٩٥/٦ .

(٢) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص٢٤٢ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٧١/١١ .

(٤) انظر الحموي : معجم الأدباء ١٢٦/٥-١٢٧ .

(٥) المرجع السابق : ١٢٦/٥-١٢٧ ، والقفطي : علي بن يوسف ، إنباه الرواة على أنباء النحاة ١٨٣/١ . (ط. الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤٠٦ هـ تحقيق محمد أبو الفضل).

(٦) البغدادي : تاريخ بغداد ٩٠/٦ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٦٠/١٤ .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٧٢/٤ ، ٣٧٣ .

(٨) انظر الحموي : معجم الأدباء ١٢٦/٥-١٢٧ ، وأحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص٢٤٢ .

المبحث الرابع

«تقويم أثر هذا الأسلوب»

من خلال ما تقدّم تبين لنا بحمد الله أنه كان لأسلوب التربية والتعليم في العصر العباسي الثاني الأثر الحسن في المجتمع الإسلامي. ويمكن أن أجمل أهم تلك الآثار في النقاط التالية :-

١- من آثار هذا الأسلوب أن العصر العباسي الثاني يُعدُّ من أزهى عصور العلم، حيث ازدهرت فيه الحركة العلمية ازدهاراً كبيراً، فكثر فيه التصنيف والتأليف في مختلف العلوم والمجالات .

حتى إننا نجد أن عدداً من العلماء قد ألف وصنف المئات من الكتب. فهذا الإمام الحافظ إبراهيم الحربي قال لابنته لما اشتكتها إلى عمها وأنهم في فقر شديد وهو مع ذلك قد ردّ أعطية السلطان أكثر من مرة . قال لها : «يا بنية إنما خفت الفقر؟ قالت : نعم . فقال لها : انظري إلى تلك الزاوية، فنظرت فإذا كتب. فقال : هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب كتبتها بخطي، إذا مت فوجّهي في كل يوم بجزء تبيعيه بدرهم فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم ليس هو فقير»^(١) .

وهذا الإمام ابن جرير الطبري قيل إنّه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة^(٢) .

٢- ومن آثار هذا الأسلوب نشر العلم ورفع الجهل عن أعداد كبيرة من الناس في هذا العصر لكثرة الدروس والحلقات العلمية التي كانت تعقد في عدد من الأماكن، إضافة إلى كثرة روادها .

(١) البغدادي : تاريخ بغداد ٣٣/٦ .

(٢) المرجع السابق : ١٦٣/٢ .

وقد رأينا أنه كان يحضر بعض تلك الدروس الآلاف من الناس، كدروس الإمام أحمد والإمام البخاري والقاضي المحاملي وغيرهم .

٣- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً تمكين العديد من أفراد المجتمع الإسلامي، ومساعدتهم على المحافظة على العقيدة الصحيحة والتمسك بالكتاب والسنة . فأهل السنة في أفريقيا عندما تسلط عليهم الرافضة العبيديون وحكموهم لم يتركوا مذهب أهل السنة والجماعة على الرغم من المحاولات الكثيرة التي قام بها العبيديون لطمس مذهب أهل السنة ونشر التشيع والرفض بينهم . فقد كان العلماء يُعلّمون الناس ويعقدون لهم الحلقات والدروس في عدد من الأماكن على الرغم من منعهم والتضييق عليهم .

يقول الدباغ «وجزى الله مشيخة القيروان خيراً، هذا يموت، وهذا يضرب، وهذا يسجن، وهم صابرون لا يفرون، ولو فرُّوا لكفرت العامة دفعة واحدة»^(١) .

فلولا لطف الله ورحمته ثم جهود أولئك العلماء لتعرض العديد من أهل السنة للفتنة في دينهم والردة عن مذهب أهل السنة والجماعة . لأن الرافضة كانوا يعقدون الدروس والحلقات العلمية والمناظرات لنشر مذهبهم ودعوة الناس إليه .

٤- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً قوة التأثير في أخلاق وسلوك عدد من المتعلمين، فالعلماء كانوا يعلمون ويهذبون المتعلمين بأقوالهم وأفعالهم .

فالإمام أحمد كان يجتمع في مجلسه زهاء خمسة آلاف أو يزيدون. نحو خمسمائة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسُّمت^(٢) .

(١) الدباغ : معالم الإيمان ٢/٢٠٠، ويقصد بالكفر هنا الانتقال إلى مذهب الرافضة ولا يخفى ما فيه من الكفر والردة عن الإسلام .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١/٣١٦ .

وكثيراً ما كان العلماء يُربون طلابهم وتلاميذهم ويحملونهم على أخلاق الإسلام وآدابه ، ويحثون على اقتران العلم بالعمل. فهذا الإمام سحنون بن سعيد كان يقول «من لم يعمل بعلمه لم ينفعه العلم بل يضره، وإنما العلم نور يضعه الله تعالى في القلوب فإذا عمل به نور الله قلبه وإن لم يعمل به، وأحب الدنيا أعمى حُب الدنيا عليه ولم يُنوره العلم»^(١).

وكان أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان داود الصواف يوصي طلاب العلم بوصايا متعددة، كان منها أن يتخذ له قبل طلبه للعلم أدباً يستعين به على طلبه، وأن يتخذ له بعد طلبه أدباً يستعين به على حمله والعمل به^(٢).

وكان الإمام أبو بكر الصبغى يفتي بنيسابور نيفاً وخمسين سنة وكان لا يدع أحداً يغتاب في مجلسه^(٣).

٥- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً اهتمام عدد من علماء المسلمين ومربيهم بتعليم الصبيان، فصنفوا الكتب والرسائل لتحديد مهام ومسؤوليات وآداب المعلمين، وما الطرق التي يجب عليهم أن يسلكوها في التعليم، وغير ذلك من القضايا المتعددة.

فصنف محمد بن سحنون كتاب «آداب المعلمين»، وصنف أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ابن أبي خالد المعروف بابن الجزار القيرواني كتاب «سياسة الصبيان وتدريبهم» وصنف أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني «رسالة في تعليم وتربية الصبيان» لما طلب منه ذلك بعض المعلمين، قيل هما شيخه أبو إسحاق السبائي والمعلم محرز بن خلف

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢/٦٢٠ .

(٢) انظر المالكي : رياض النفوس ١/٥٠٦ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٥/٤٨٤، ٤٨٦ .

التونسي ، وانتشرت هذه الرسالة في عدد من بلاد المسلمين ، وأول نسخة نسخت منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري بعشرين ديناراً ذهباً^(١) .

وصنف أبو الحسن القاسمي «الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» .

٦- ومن آثار هذا الأسلوب تخريج المئات بل الآلاف من العلماء الأفاضل الذين ساهموا في إفادة الأمة الإسلامية في العديد من المجالات، فنشروا العلم وبذلوه للصغير والكبير، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ووقفوا في وجوه المناوئين لها، مستخدمين في ذلك ما وسعهم من وسائل وأساليب .

فتلاميذ الإمام أحمد بن حنبل كانوا يُعدُّون بالآلاف، وتلاميذ الإمام سحنون بن سعيد قد زادوا عن السبعمائة^(٢) ، وقيل بل تسعمائة^(٣) . وقال أحد العلماء «ما بورك لأحد بعد النبي ﷺ في أصحابه، ما بورك لسحنون في أصحابه، فإنهم كانوا في كل بلد أئمة»^(٤) .

وكان تلاميذ عبد الملك بن حبيب السلمي قرابة الثلاثمائة. فقد خرج ذات يوم من الجامع وخلفه ثلاثمائة طالب حديث وفرائض وفقه وإعراب^(٥) .

(١) انظر الدباغ : معالم الإيمان ١١١/٣-١١٢ .

ورجع الدكتور الهادي الدرقاش أن أبا محمد القيرواني صنف رسالتين الأولى : كانت بطلب من شيخه أبي إسحاق السبائي، وهذه لم تصلنا كاملة بل وصل جزء منها، أما الثانية: فكانت بطلب من قريبه المعلم محرز بن خلف التونسي وهذه وصلتنا وقد طبعت عدة طبعات . (انظر الهادي الدرقاش : الدكتور، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني حياته وآثاره ص٣٥٣. ط. الأولى، دار قتيبة، بيروت، ١٤٠٩هـ).

(٢) انظر ابن فرحون : الديباج المذهب ص١٦٤ ، ومحمد محمد مخلوف : الشجرة الزكية ٦٩ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٦٨/١٢ .

(٤) المرجع السابق : ٦٥/١٢ .

(٥) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣٢/٣ .

٧- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً أن الرحلات العلمية التي كان يقوم بها طلاب العلم في هذا العصر لجمع العلم وتحصيله من أكبر عدد ممكن من العلماء ساهمت في نقل ونشر العلم إلى معظم أرجاء العالم الإسلامي وأمصاره، كما ساهمت تلك الرحلات في استمرار الوحدة الثقافية بين الأقطار الإسلامية على الرغم من تمزق العالم الإسلامي من الناحية السياسية.

فكان طلاب العلم يتعلمون على من شاؤوا من العلماء، بغض النظر عن الدولة التي يتبعونها ويعيشون تحت حكمها، وكانوا ينقلون من الكتب والرسائل إلى ديارهم ما ينال إعجابهم واستحسانهم .

فمثلاً عن طريق الإمام سحنون بن سعيد وغيره دخل إلى القيروان جامع الإمام عبد الله ابن وهب^(١) .

وعن طريق الإمامين بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح الأندلسيين أصبحت الأندلس دار حديث وإسناد، حيث أدخل إليها العديد من المصنفات والمسانيد التي تعنى بالحديث وعلومه بعد أن كان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأي الإمام مالك وأصحابه^(٢) .

وعن طريق الإمام القايسي دخل إلى المغرب الجامع الصحيح للإمام البخاري^(٣) .

٨- ومن أهم آثار هذا الأسلوب في هذا العصر وأبرزها تدوين العديد من العلوم الإسلامية والعناية بها .

ومن أهمها السنة النبوية المطهرة .

(١) انظر المالكي : رياض النفوس ٣٧٣/١ .

(٢) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٨٧/١٣ .

(٣) انظر الدباغ : معالم الإيمان ١٣٩/٣، ومحمد محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٩٧ .

يقول الدكتور مصطفى السباعي « ثم جاء القرن الثالث فكان أزهى عصور السنة وأسعدها بأئمة الحديث وتآليفهم العظيمة الخالدة»^(١).

ويقول الشيخ محمد محمد أبو زهو « هذا والقرن الثالث يعتبر أجل عصور الحديث وأسعدها بتدوين الحديث وتقريبه على طالبه، ففيه ظهر كبار المحدثين وحذاق الناقدين، ومهرة المؤلفين، وفيه ظهرت الكتب الخمسة : الصحيحان للبخاري ومسلم، والسنن لأبي داود والنسائي والترمذي، وقد اعتمدها المحدثون وعول عليها المستنبطون، وحظيت بخدمة العلماء في جميع العصور ما بين شارح ، ومختصر وناقد ومنتصر ومستخرج عليها، ومؤرخ لرجالها، وجامع لأطرافها، ومستدرک عليها.

قال النووي : لم يفت الكتب الخمسة من الأحاديث الصحيحة إلا النزر اليسير»^(٢).

وكانت هناك عدة طرق لتدوين الحديث في هذا العصر من أهمها :

١- التدوين على طريقة المسانيد :

وهي جمع ما يروى عن الصحابي في باب واحد رغم تعدد الموضوع، ومن دون على هذه الطريقة من علماء العصر كل من الأئمة : إسحاق بن راهويه^(٣)، وأحمد بن حنبل، ويعقوب بن أبي شيبة، ومحمد بن مهدي وغيرهم^(٤).

أما الإمامان أبو بكر بن أبي شيبة، وبقي بن مخلد؛ فقد صنفا مسنديهما على الأبواب

(١) مصطفى السباعي : الدكتور، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ١٠٥-١٠٦، (ط. الثانية، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٨هـ).

(٢) محمد محمد أبو زهو: الحديث والمحدثون أو عناية الأمة الإسلامية بالسنة النبوية ص ٣٦٧ . (ط. بدون، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الرياض -١٤٠٤هـ).

(٣) هو الإمام الحافظ إسحاق بن إبراهيم بن مخلد التميمي الخنظلي المروزي المعروف بابن راهويه نزل نيسابور ومات بها سنة ٢٣٨هـ. (الذهبي: سير أعلام النبلاء ، ٣٥٨/١١).

(٤) انظر محمد أبو زهو: الحديث والمحدثون ص ٣٦٥، السباعي: السنة ص ١٠٦.

والمسانيد حيث رتبا الأحاديث على أسماء الصحابة رضي الله عنهم ثم رتبا حديث كل صحابي على أبواب الفقه^(١).

وهؤلاء جميعاً وإن كانوا تقدموا خطوة على سابقهم فأفردوا حديث رسول الله ﷺ بالتأليف ولم يخلطوه بأقوال الصحابة والتابعين غالباً، إلا أنهم لم يميزوا الصحيح من الضعيف ودونوا هذا وذاك^(٢).

٢- التدوين على طريقة الأبواب :

وهي تخريج الأحاديث على أحكام الفقه وغيرها وتنويحه أنواعاً وجمع ما ورد في كل حكم وكل نوع في باب^(٣).

وأهل هذه الطريقة انقسموا إلى قسمين :

أ - قسم اقتصر على تدوين الحديث الصحيح دون غيره كالإمامين البخاري ومسلم^(٤).
قال المحافظ ابن حجر : فلما رأى الإمام البخاري هذه التصانيف -يعني المسانيد- ورواها وانتشق رباها واستجلى محياها، وجدها بحسب الوضع جامعة بين ما يدخل تحت التصحيح والتحسين والكثير منها يشمله التضعيف، فلا يقال لغثة سمين، فحرك همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه أمين، وقوى عزمه على ذلك ما سمعه من شيخه إسحاق بن راهوية حيث قال مخاطباً تلاميذه : لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ . قال البخاري : فوق ذلك في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح^(٥).

(١) انظر ابن حجر : مقدمة فتح الباري ص ٦، محمد أبو زهر : الحديث والمحدثون ص ٣٦٥-٣٦٦ .

(٢) رفعت فوزي : الدكتور ، المدخل إلى توثيق السنة وبيان مكانتها في بناء المجتمع الإسلامي، ص ٥٩ (ط. الأولى، مؤسسة الخانجي، مصر ١٣٩٨هـ).

(٣) ، (٤) محمد أبو زهر : الحديث والمحدثون ص ٣٦٦ .

(٥) انظر ابن حجر : مقدمة فتح الباري ص ٦، ٧ .

ب - قسم لم يقتصر على الصحيح فقط، بل جاء فيها الصحيح والحسن والضعيف كالأئمة الدرامي وابن ماجة وأبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم^(١).

كما تأسست في هذا العصر علوم أخرى كانت تخدم السنة النبوية المطهرة من أهمها:

١- علم مصطلح الحديث .

٢- علم الجرح والتعديل .

فعلم مصطلح الحديث : هو علم يضع القواعد العلمية لتصحيح الأخبار، وهي أصح ما عُرف في التاريخ من قواعد علمية للرواية والأخبار، بل كان علماؤنا رحمهم الله هم أول من وضعوا هذه القواعد على أساس علمي لا مجال بعده للحيلة والتثبث .

وهو يبحث عن تقسيم الخبر إلى صحيح وحسن وضعيف . وتقسيم كل من هذه الأنواع الثلاثة إلى أنواع، وأول من صنّف في هذا الفن تصنيفاً علمياً بحيث جمع كل أبوابه وبحوثه في مصنف واحد. هو القاضي أبو محمد الرامهرمزي في كتابه «المحدث الفاصل بين الراوي والسامع»^(٢).

أما علم الجرح والتعديل : فهو علم يبحث فيه عن أحوال الرواة وأمانتهم، وثقتهم، وعدالتهم، وضبطهم، أو عكس ذلك من كذب، أو غفلة، أو نسيان، وهو علم جليل من أجلّ العلوم التي نشأت عن تلك الحركة العلمية المباركة .

ومن أوائل من صنّف في الجرح والتعديل كل من الأئمة : يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، والبخاري، ومسلم، وأبو داود السجستاني، وأبو حاتم الرازي وغيرهم^(٣).

(١) انظر السباعي : السنة ص ١٠٦ ، محمد أبو زهو : الحديث والمحدثون ص ٣٦٦ . وقد راعيت في ذكر هؤلاء الأئمة بهذا الترتيب تاريخ الوفاة فحسب .

(٢) انظر السباعي : السنة ص ١٠٧ . ١٠٨ ، وصحة اسم الكتاب : المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، وقد حققه د. محمد عجاج الخطيب، ونشره دار الفكر، بيروت، سنة ١٣٩١ هـ .

(٣) انظر المرجع السابق : ص ١٠٩ ، ١١٠ .

الفصل الرابع

أسلوب الترغيب والترهيب

الفصل الرابع

«أسلوب الترغيب والترهيب»^(١)

تمهيد :

الترغيب والترهيب أسلوب من أساليب الدعوة، استخدم كثيراً في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لأهميته، وحسن تأثيره في نفوس المدعوين .

وفي العصر العباسي الثاني استخدم العلماء والدعاة هذا الأسلوب في عدد من المجالات. فنجدهم يرغبون في عدد من الفضائل والطاعات، كالجهد في سبيل الله، والتوبة، وطلب العلم، ونحو ذلك. وفي المقابل نجدهم يرهبون من اقتراح أنواع من المعاصي والسيئات، كأكل الحرام، والوقوع في الصالحين وانتهاك حرمتهم، والجلوس إلى أهل البدع، ونحو ذلك.

وفي هذا الفصل سأتطرق إلى هذا الموضوع بعون الله تعالى من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : أهمية أسلوب الترغيب والترهيب .

المبحث الثاني : مجالات أسلوب الترغيب والترهيب في هذا العصر.

المبحث الثالث : تقويم أثر هذا الأسلوب .

(١) قد يكون بين هذا الأسلوب وأسلوب الموعظة الحسنة نوع من التداخل، إلا أنني حرصت على الفصل بينهما

طلباً للدقة، ولأنه يوجد بينهما -من وجهة نظري المتواضعة- فرق يسير أو جزه فيما يلي :-

أ - أن أسلوب الموعظة الحسنة أعم من أسلوب الترغيب والترهيب، حيث إن الترغيب والترهيب صيغة من صيغ الوعظ وشكل من أشكاله .

ب- أن أسلوب الموعظة الحسنة يُحرص فيه غالباً على ترقيق القلوب. أما في أسلوب الترغيب والترهيب فليس الأمر كذلك .

ولعل هذين الأمرين يتضحان جلياً للقارئ من خلال هذا الفصل ، وبما شجعتني أيضاً على الفصل بينهما موافقة مجلس الكلية على ذلك وإقراره .

المبحث الأول

«أهمية أسلوب الترغيب والترهيب»

قبل أن أتطرق إلى أهمية أسلوب الترغيب والترهيب، أذكر المراد بالترغيب والترهيب في اللغة والاصطلاح.

فالترغيب في اللغة : الرَّغْبُ والرُّغْبُ والرُّغْبُ والرُّغْبُ : الضراعة والمسألة.

قال تعالى ﴿وَيَدْعُونا رَغْباً وَرَهْباً﴾^(١) ، ويقال في الدعاء: رَغْبَةً ورهبةً إليك.

ورَغْبُهُ : أعطاه ما رغب . والرُّغائب : ما يُرغَبُ فيه من الثواب العظيم^(٢) .

وأما الترهيب : يقال: رَهَبَ، يَرَهَبُ، رَهْبَةً، ورُهْباً، ورَهْباً. فهو الخوف. رَهَب الشيء : أي خافه وقزعه منه^(٣) .

وأما في الاصطلاح :

قال الدكتور عبد الكريم زيدان نقصد بالترغيب : كل ما يُشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه.

ونقصد بالترهيب : كل ما يخيف، ويحذر المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله^(٤) .

وذكر الدكتور توفيق الواعي هذين التعريفين ثم قال : فالترغيب والترهيب على هذا هو : تشويق الناس إلى ثواب الله والجنة، وتخويفهم من عذاب الله والنار^(٥) .

(١) سورة الأنبياء : جزء من الآية ٩٠ .

(٢) انظر ابن منظور : لسان العرب، مادة «رغب» ٤٢٢/١ .

(٣) انظر المرجع السابق : مادة «رهب» ٤٣٦/١ .

(٤) عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة ص٤٢١ .

(٥) توفيق الواعي : الدعوة إلى الله ص١٩٩ .

ولما كانت النفوس متباينة في قبول الحق والعمل به، فمنها من ترغب في الخير وتطلبه، حينما تُذَكَّرُ به وتُحَثُّ عليه. ومنها من تلهث وراء شهواتها، وملذاتها مهما كانت تلك الشهوات والملذات، دون النظر إلى حلها أو حرمتها.

لما كان الأمر كذلك كان لا بد من مراعاة تلك النفوس أثناء دعوتها وتوجيهها .

فالنفس الأولى بحاجة إلى الترغيب قبل الترهيب، لأن ذِكرَ الخير يرغبها، ودعوة الإحسان تدفعها وتحثها.

أما النفس الثانية فهي بحاجة إلى الترهيب قبل الترغيب لعلَّه أن يتخذ طريقه إليها فيزجرها، ويمنعها عما حرم الله عليها .

وهذا لا يعني الاقتصار على الترغيب دون الترهيب أو العكس. بل على الداعية أن يكون حكيماً في استخدام هذا الأسلوب، فيجمع بين الترغيب والترهيب كلما دعت الحاجة إلى الجمع بينهما.

وله في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة خير أسوة، فكثيراً ما نجدهما يجمعان بين الترغيب والترهيب في موضع واحد.

وها هي بعض النماذج والأمثلة التي تدل على ذلك :

الجمع بين الترغيب والترهيب في الكتاب والسنة :-

١- قال تعالى مرغباً في طاعته عز وجل وطاعة رسوله ﷺ ومرهباً من عصيانه عز وجل وعصيان رسوله ﷺ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾^(١).

(١) سورة النساء : الآيتان ١٣، ١٤ .

٢- وقال تعالى مرغباً في جنته ومرهباً من ناره : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾^(١).

٣- وقال ﷺ مرغباً في حفظ اللسان والتكلم به فيما يرضي الله عز وجل، ومرهباً من إطلاقه والتكلم به فيما لا يرضي الله عز وجل : «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»^(٢).

٤- وقال ﷺ مرغباً في المبادرة إلى فعل الخير ليستن به، ومرهباً من المبادرة إلى فعل الشرِّ مخافة أن يستن به : «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٣).

مجالات الترغيب والترهيب في الكتاب والسنة :-

إن المتمعن في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ يجد أن أسلوب الترغيب والترهيب فيهما، لم يقتصر على مجال معين، بل تعددت وتنوعت مجالاته. فتارة يكون الترغيب والترهيب في أمر من أمور الآخرة، وتارة أخرى يكون في أمر من أمور الدنيا.

ولإيضاح هذا الأمر وبيانه سأذكر بعون الله وتوفيقه بعضاً من الشواهد على ذلك :

(١) سورة محمد ﷺ : الآية ١٢ .

(٢) صحيح الإمام البخاري مع الفتح، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم الحديث «٦٤٧٨» ٣٠٨/١١ .

(٣) صحيح الإمام مسلم : كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم الحديث «١٠١٧» ٧٠٥/٢ .

١- الترغيب والترهيب في أمر من أمور الآخرة :

أ - الترغيب في الجنة ونعيمها :-

قال تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(١).

ب - الترغيب في تنفيس كربة مؤمن :

قال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة...»^(٢).

ج - الترغيب من أهوال يوم القيامة :-

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٣).

د - الترغيب من النار وشدة عذابها :-

قال تعالى ﴿فَانذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾^(٤).

وقال ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه، كما يغلي الرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً»^(٥).

(١) سورة محمد ﷺ : جزء من الآية ١٥ .

(٢) صحيح الإمام مسلم : كتاب الذكر، باب في الاجتماع على تلاوة كتاب الله، رقم الحديث «٢٦٩٩»
٢٠٧٤/٤ .

(٣) سورة الحج : الآيتان ١، ٢ .

(٤) سورة الليل : الآيتان ١٤، ١٥ .

(٥) صحيح الإمام مسلم : كتاب صفة النار، باب في أهون أهل النار عذاباً، رقم الحديث «٣٦٤» ١٩٦/١ .

٢- الترغيب والترهيب في أمر من أمور الدنيا :-

أ - الترغيب في الحياة الطيبة :-

قال عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

ب - الترغيب في البسط في الرزق :-

قال ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٢).

ج - الترهب من التعامل بالربا :-

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ..﴾^(٣).

د - الترهب بالحرمان من الرزق :-

قال ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»^(٤).

هذه هي عدد من النماذج والأمثلة على بعض مجالات الترغيب والترهب في الكتاب والسنة . ولو أراد المرء تتبعها وحصرها لظال به المقام .

(١) سورة النحل : الآية ٩٧ .

(٢) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم الحديث «٢٠٦٧»
٣٠١/٤ ومعنى قوله «أو ينسأ له في أثره» أي يؤخر له في بقية عمره . انظر ابن حجر العسقلاني: فتح
الباري ٣٠٢/٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٧٨ وجزء من الآية ٢٧٩ .

وقال العلامة القاسمي رحمه الله «والحرب نقيض السلم ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبداً، وفيه إحياء إلى سوء الخاتمة إن دام على أكله» (محمد جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل، ٧١٤/٣ ط. الأولى، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ تصحيح وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٨٠/٥، ٢٨٢، والإمام ابن ماجة في سننه، في كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم الحديث «٤٠٧١» ٣٨٥/٢، وقال الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجة «حسن» رقم الحديث «٤٠٢٢» ٣٧١/٢ .

وهكذا تبين لنا بحمد الله تعالى أهمية هذا الأسلوب، وكيف أنه قد ذُكر كثيراً في القرآن الكريم والسنة النبوية، كيف لا، وهو أسلوب يراعي حال النفس البشرية القائمة على غريزة حب الذات، وقد عُرف الإنسان السوي بأنه محب لما ينفعه، مبغض لما يضره، لأنه يحب ذاته ويحرص عليها .

وفي العصر العباسي الثاني استخدم الدعاة إلى الله تعالى هذا الأسلوب في مجالات متعددة. وهذا ما سنراه في المبحث التالي بإذن الله تعالى .

المبحث الثاني

«مجالات أسلوب الترغيب والترهيب في هذا العصر»

تعددت مجالات أسلوب الترغيب والترهيب في العصر العباسي الثاني، فتارة نجد الترغيب في أنواع الطاعات، وتارة أخرى نجده في عدد من الأخلاق والفضائل النفسية. وفي المقابل تارة نجد الترهيب من ارتكاب البدع، واقتراف المعاصي والسيئات. وتارة أخرى نجده من التخلق بعدد من الأخلاق والسلوكيات .

وفي هذا المبحث سأطرق إن شاء الله تعالى إلى عدد من تلك المجالات وذلك من خلال المطالبين التاليين :-

المطلب الأول

«مجالات الترغيب»

١- الترغيب في طلب العلم وتعلمه :

أ - ترغيب الإمام أحمد في طلب الحديث :-

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله مرغباً في طلب الحديث : « ما أعلم أن الناس في

زمان أحوج منهم إلى طلب الحديث من هذا الزمان. قيل : ولمَ ؟

قال : ظهرت البدع، فمن لم يكن عنده حديث وقع فيها»^(١).

ب - ترغيب الإمام البخاري في الإكثار من طلب الحديث وسماعه :-

قال محمد بن العباس الفريزي : « أملى عليّ -يعني الإمام البخاري- يوماً حديثاً

كثيراً، فخاف ملاكيّ . فقال :

(١) ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد ص ١٨٣ .

طِبْ نَفْساً، فَإِنَّ أَهْلَ الْمَلَاهِي فِي مَلَاهِيهِمْ، وَأَهْلَ الصَّنَاعَاتِ فِي صَنَاعَاتِهِمْ، وَالتَّجَارِ فِي تِجَارَاتِهِمْ . وَأَنْتَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ .

فقلت : ليس شيء من هذا - يرحمك الله - إلا وأنا أرى الحظَّ لنفسِي فيه»^(١) .

ج - ترغيب المعافى الحمصي^(٢) لصبي في طلب العلم :-

كان محمد بن عوف^(٣) صبياً يلعب بلعبة له كما يلعب الصبيان في زمانه، فوَقَّعت

لعبته قرب المعافى بن عمران الحمصي رحمه الله فقال له المعافى : ابن من أنت ؟

فقال محمد : ابن عوف بن سفيان .

فقال المعافى : أما إن أباك كان من إخواننا، فكان يَمُنُّ يكتب معنا الحديث والعلم،

والذي كان يشبهك أن تتبع ما كان عليه والدك.

قال محمد بن عوف : فصرت إلى أمي فأخبرتها .

فقالت : صدق، هو صديق لأبيك، فألبستني ثوباً وإزاراً، ثم جئت إلى المعافى، ومعِي

محبرة وورق .

فقال لي : اكتب : حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد ربه بن سليمان، قال : كتبت لي

أم الدرداء رضي الله عنها في لَوْحِي : اطلبوا العلم صغاراً، تعملوا به كباراً، فإن لكلِّ

حاصد ما زرع»^(٤) .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٤٥/١٢ .

(٢) هو المعافى بن عمران الظهري الحميري الحمصي أبو عمران المحدث ذكره ابن حبان في الثقات، مات رحمه

الله بعد المائتين . (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٨٦/٩، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٢٠٠/١٠) .

(٣) هو الحافظ محمد بن عوف بن سفيان الطائي الحمصي أبو جعفر أثنى عليه طائفة من العلماء ووصفوه

بالحفظ والعلم والتبحر. مات رحمه الله في وسط سنة اثنتين وسبعين ومائتين. (انظر الذهبي : سير أعلام

النبلاء ٦١٣/١٢) .

(٤) انظر المرجع السابق: ٦١٤/١٢ .

فطلب محمد بن عوف العلم بعد ذلك فأصبح من العلماء الحفاظ، حتى إن الإمام أحمد ابن حنبل قال فيه « ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثل محمد بن عوف»^(١).

٢ - ترغيب أبي علي السوسي^(٢) لابنه في التوكل على الله :-

رغب أبو علي الحسن بن نصر السوسي ابنه محمداً في التوكل على الله عز وجل وحثه عليه. يقول محمد «غلا السعر مرة بسوسة^(٣)، فقلت لأبي : اشتر لنا الطعام، فإني أرى السعر قد غلا، فقال لي : ادع لي بحسان -يعني خادمه- فدعوتها، فأنت فقال لها : اكتالي ما عندنا من القمح.

قال محمد : فظننت أنه يشتري لنا ويزيدنا، فعرفت الخادم بما عندنا من القمح .

فقال لها : امضي به إلى السوق إلى الجروي الحنّاط وقولي له: يقول لك الشيخ : بع لنا هذا القمح. ففعلت الخادم.

ثم قال لي : يا بني، يا محمد أنت إنما متكلك على ما في يديك، فما أنت من المتوكلين على الله تعالى. كأن القمح إذا كان عند أبيك ينجيك من قضاء الله عز وجل عليك، أنت رجل قليل اليقين، يا بني : من توكل على الله كفاه»^(٤).

نعم من توكل على الله كفاه. كيف لا ، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(٥). ويقول ﷺ : «لو أنكم

(١) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/٦١٥ والصفدي : خليل بن ابيك، الوافي بالوفيات ٤/٢٩٤، ط. الثانية ١٣٩٤هـ، تحقيق : س. ديدرينغ.

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٢٤٩.

(٣) تقدم التعريف بها في ص ٤٣.

(٤) انظر المالكي : رياض النفوس ٢/٣٩٧. ٣٩٨.

(٥) سورة الطلاق : جزء من الآية ٣.

تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خصاصاً وتروح بطاناً»^(١).

ولا يفهم من هذا أن الشيخ السوسي لا يأخذ بالأسباب، بل يفهم من موقفه والله أعلم بالصواب، أنه يريد أن يقوي في ابنه الثقة بالله، وحسن التوكل عليه، ويعطي ابنه درساً عملياً في أنه يجب على المسلم ألا يتكلم على ما في يديه فحسب، بل لا بد له من التوكل على الله بعد الأخذ بالأسباب.

٣- ترغيب أبي ميسرة الفقيه^(٢) لرجل في قيام الليل :-

جاء رجل إلى أبي ميسرة أحمد بن نزار الفقيه وشكا إليه أنه لا يقوم الليل. فقال له :

إذا استيقظت فتوضأ وصل ركعتين، فإذا نودي يوم القيامة : أين قوام الليل؟ قمت

معهم بتلك الركعتين.

قال أبو الحسن بن الحلاف : لقد أعجبني هذا من قول أبي ميسرة وهكذا يكون

الأدلاء^(٣).

فهنا يرغب أبو ميسرة الرجل في قيام الليل ويحثه عليه ويلاحظ أن أبا ميسرة لم يرشده

إلى الإكثار من ذلك .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٣٠ / ١ وقال الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة «صحيح على شرط مسلم» رقم الحديث « ٣١٠ » ومعنى قوله «تغدو خصاصاً وتروح بطاناً» أي تغدو بكرة وهي جياح، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف. (ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة «خصص» ٨٠ / ٢).

(٢) هو أبو ميسرة أحمد بن نزار الفقيه، كان رجلاً صالحاً ، عالماً مشهوراً بالفقه، مجانياً لأهل الأهواء كثير الصلاة والذكر، توفي رحمه الله سنة «٣٣٧هـ» بالقيروان . (انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣ / ٣٥٨، والدباج: معالم الإيمان ٣ / ٤١).

(٣) المالكي : رياض النفوس ٢ / ٣٦٤. والأدلاء : جمع دليل وهو ما يستدلُّ به، وقد تقدم شرحها في ص ٢٠٥.

ويبدو لي والله تعالى أعلم أنه خشي لو أنه أرشده إلى الإكثار من القيام والإطالة فيه لكسل عنه الرجل وترك ذلك كله، ولكنه رغبه في شيء يسير وهي صلاة ركعتين لعله ينشط بعدها ويصلي أكثر منها .

ولو فُرض أن الرجل عمل بوصية أبي ميسرة، واقتصر على تلك الركعتين، وداوم عليها، لكان ذلك خيراً كثيراً . كيف لا ، والرسول الكريم ﷺ قد حث على المداومة على العمل الصالح وإن قل . حيث قال : «سددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يُدخِلَ أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل»^(١) .

٤- ترغيب الخليفة «المهتدي بالله» في التكلم بالحق :

قال جعفر بن عبد الواحد : «ذاكرت المهتدي بشيء، فقلت له: كان أحمد بن حنبل يقول به، ولكنه كان يخالف، كأني أشرت إلى آبائه .

فقال المهتدي : رحم الله أحمد بن حنبل، لو جاز لي لتبرأت من أبي، تكلم بالحق وقل به، فإن الرجل ليتكلم بالحق فينبل في عيني»^(٢) .

فالخليفة هنا يرغب جعفر بن عبد الواحد في قول كلمة الحق مهما كانت، ويخبره بأن من يفعل ذلك فإنه ينال إعجابه وتقديره واحترامه .

وهذا بلا شك فيه حث وترغيب لجميع رعيته بأن يتصفوا بهذه الصفة الحسنة، ويتحلوا بهذا الخلق الكريم .

وبخاصة أنه هو نفسه كان قدوة حسنة في ذلك، حيث كان يوصف بالورع، والزهد، والصلاح، والعدل. فقد كان يمنع أصحابه وموظفيه عن الظلم ونهاهم عنه^(٣) .

(١) صحيح الإمام البخاري مع الفتح : كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل. رقم الحديث «٦٤٦٤» ٢٩٤/١١ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٣٧/١٢، والسيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٣ .

(٣) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٣٦/١٢-٥٣٧ .

٥- الترغيب في الجهاد في سبيل الله :

أ - ترغيب الخليفة «المنتصر بالله» في جهاد الروم :-

كتب الخليفة «المنتصر بالله» في سنة ٢٤٨هـ كتاباً إلى عامله محمد بن طاهر يخبره بعزمه على تسيير جيش لجهاد أعداء الله الروم، وأمره بقراءة هذا الكتاب على المسلمين في نواحي عمله، وأورد فيه العديد من النصوص التي تحث على الجهاد في سبيل الله وترغب فيه، وكان مما جاء فيه :

«... وجعل الجهاد أعظم فرائضه منزلة عنده، وأعلىها رتبة لديه، وأنجحها وسيلة إليه، لأن الله عز وجل أعز دينه^(١)، وأذل عتاة الشرك، قال عز وجل، آمراً بالجهاد، ومفترضاً له : ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢)...»^(٣)

ثم قال «... وحكّم الله عز وجل لإحياء المجاهدين بنصره، والفوز برحمته، وأشهد لموتاهم بالحياة الدائمة، والزلفى لديه، والحظ الجزيل من ثوابه، فقال ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤)...»^(٥)

(١) يظهر لي والله أعلم بالصواب أن في هذه العبارة والتي تليها سقط وصحتها كما يلي «لأن الله عز وجل أعز به دينه، وأذل به عتاة الشرك».

(٢) سورة التوبة : الآية ٤١ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٤١/٩ .

(٤) سورة آل عمران : الآيتان ١٦٩ . ١٧٠ .

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٤٢/٩ .

إلى أن قال : « ... فاعلم ذلك واكتب إلى عمالك على نواحي عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا ، ومرهم بقراءته على من قبلهم من المسلمين وترغيبهم في الجهاد ، وحثهم عليه واستنفارهم إليه ، وتعريفهم ما جعل الله من الثواب لأهله ، ليعمل ذوو النيات والحسبة والرغبة في الجهاد على حسب ذلك في النهوض إلى عدوهم والخفوف^(١) إلى معاونة إخوانهم والذيادة عن دينهم ... »^(٢) .

ب - ترغيب أحمد بن أبي الوليد^(٣) في جهاد بني عبيد الرافضة :

رغب جماعة من علماء أهل السنة^(٤) بالقيروان الناس في جهاد بني عبيد فخرج معهم جمع كبير ، فلما كان يوم الجمعة خطب بهم أحمد بن محمد بن أبي الوليد خطبة أبلغ فيها ، رغب الناس في الجهاد ، وبين لهم حكمه وثوابه . ومما قال :

« ... يا أيها الناس جاهدوا من كفر بالله وزعم أنه رب من دون الله تعالى ، وغير أحكام الله عز وجل ، وسب نبيه ﷺ ، وأصحاب نبيه ، وأزواج نبيه ، فبكى الناس بكاء شديداً . »^(٥)

فخرجوا من الغد ، وخرج معهم جماعة من الخوارج ، وحملوا جميعاً على الرافضة فأوجعوهم ، فلما أيقن الخوارج بالنصر تحركت نفوسهم الخارجية فانكشفوا عن أهل السنة

(١) الخفوف : هو سرعة السير من المنزل . والمراد هنا : الإسراع إلى معاونة إخوانهم في جهادهم . (انظر ابن منظور : لسان العرب ، مادة «خفف» ٨١/٩) .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٤٣/٩ .

(٣) هو أحمد بن محمد بن أبي الوليد ، أبو إبراهيم ، كان صاحب مظالم القيروان وكان عدلاً في أحكامه ، وكان أيضاً خطيباً بليغاً ، توفي سنة ٣٤٥هـ بالقيروان . (انظر الدباغ : معالم الإيمان ٦١/٣) .

(٤) كأبي الفضل المصممي ، وأبي إسحاق السبائي ، وأبي العرب بن تميم ، وربيح القطان وغيرهم . (انظر المالكي : رياض النفوس ٣٣٩/٢-٣٤١) .

(٥) المرجع السابق : ٣٤٣/٢ .

لينال منهم الرافضة، فقتل منهم خمسة وثمانون نفساً من العلماء والزهاد. ولم يكتب الله لهم النصر بعد أن بدت لهم بوادره^(١).

٦- ترغيب أبي الفضل الغدامسي^(٢) لشاب في التوبة :-

قال أبو بكر المالكي في ترجمة أبي الفضل العباس بن محمد الغدامسي رحمه الله: «ولقد ذكر عنه أنه خرج من بيته ليلة من الليالي إلى المسجد - وكان مرابطاً في قصر المنستير^(٣) - فرأى شاباً من جيرانه يرتكب منكراً. فأوهمه أنه لم يره، وقادى إلى المسجد فصلى بالناس وعاد إلى بيته.

فضاق القصر بأقطاره على الشاب، وطالت عليه ليلته، وجزع جزعاً شديداً، وظن أن أبا الفضل يحكي عنه للمرابطين ما رآه. فهرب من القصر إلى سوسة وترك جميع ما في بيته. فأقام بها مدة يتوقع ما يكون، فأتى قوم من المنستير، فسأل رجلاً منهم: هل أحدث الغدامسي من بعدي حدثاً أو ذكر عني شيئاً؟

قال: ما سمعت ولا رأيت. ثم سأل غيره فلم يسمع شيئاً يسوؤه، وقال له المسؤول: لقد أوحشتنا من غيبتك، وافتقدنا قراءتك وأذائك.

فلم يصدقهم فيما بينه وبين نفسه وقال: أحتال في الرجوع إلى بيتي، وأخذ ما كان لي فيه، وأنتقل إلى حصن من الحصون، فدخل الحصن نساءً، فأخبر بدخوله الشيخ أبو الفضل، فقال: علي به.

(١) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥٣/١٥.

(٢) هو أبو الفضل العباس بن محمد الغدامسي نسبة إلى مدينة غدامس - تقع الآن في ليبيا - قدم إلى افريقية سنة ٢٨٦هـ وسكن قصر المنستير وكان يخدم المرابطين فيه، توفي رحمه الله سنة ٣٤٩هـ وهو ابن ست وتسعين سنة. (انظر المالكي: رياض النفوس، ٢/٤٤٠)

(٣) تقدم التعريف به في ص ٣١٠.

فأتاه جماعة من المرابطين وقالوا له: الشيخ يدعوك، فقام إليه وهو لا يشك أنه أخبرهم بما ارتكب من منكر وهو يقول في نفسه: بأيّ وجه ألقاه، وأيّ حرمة تكون لي إذا أمر بضربي وأهانني، فقام كأنه يساق إلى الموت بالسيف صبراً، وليس في وجهه نقطة من دم.

فلما رآه الشيخ أبو الفضل قام إليه وسلم عليه، وعانقه، وتبسم في وجهه وقال له :
ما هذه الغيبة؟ والله لقد أوحشتنا في غيبتك هذه، امض فصل بالناس فإنني قد ضعفت
الليلة عن القراءة.

وأخذ بيده فمضى به وأدخله المحراب، فلم يصلّ بالناس حتى كادت نفسه تخرج من بين
جنبه حياء وحشمة.

فلما انصرف الناس عدل إلى بيته فقال له الشيخ : سبحان الله العظيم! أنت الليلة
ضيفنا، وضيافتك واجبة علينا. فمكث عنده تلك الليلة وقد عظم في نفسه الأمر، وقال في
نفسه: ما لي وجه أنظر به إلى وجه الغدامسي بعد هذا كله. ثم أخبر الشيخ بأنه يرغب
الانتقال إلى قصر آخر .

فقال له الشيخ : والله لا برحت ولا خرجت مع الناس شبراً واحداً، اجلس يا بني ومدّ
بكفيك إلى الله تعالى معي، ونعتقد توبة نصوحاً من ذنوبنا، ونرغب جميعاً إلى الله تعالى
فيها، فما رأيت في هذه الحصون أكثر ذنباً مني، وافتتح في الدعاء لنفسه وللفتى، واجتهد
في التضرع والبكاء فحسن بعد ذلك بحمد الله حال الشاب ولم يعد إلى ما كان عليه»^(١).

فالحمد لله الذي هبّ أبا الفضل الغدامسي لهذا الشاب حيث استخدم معه أسلوب
الترغيب، واستطاع بتوفيق الله له أن يرغبه في التوبة والرجوع إلى الله عز وجل .

(١) انظر المالكي : رياض النفوس ٢/٤٥٢-٤٥٤ .

المطلب الثاني

« صجالات التهيب »

١- التهيب من التعرض للنبي الكريم ﷺ أو صحابته رضوان الله عليهم بأي نوع من أنواع الأذى :

وُجد في هذا العصر من تعرّض لنبينا الكريم ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم بالسب والشتم، وجاهر بذلك فقتل من قتل منهم، وضرب من ضرب منهم، جزاء لهم وردعاً وتهيباً لغيرهم .

وها هي بعض النماذج والأمثلة على ذلك :

أ - في سنة « ٢٤١هـ » شهد على رجل من أهل بغداد يدعى « عيسى بن جعفر بن محمد ابن عاصم » شهد عليه سبعة عشر رجلاً أنه يشتم أبا بكر، وعمر، وعائشة، وحفصة رضي الله عنهم، ويلعنهم، ويكفرهم، ويرميهم بالكبائر، وينسبهم إلى النفاق. فرفع أمره إلى الخليفة « المتوكل على الله » فأمر أن يضرب في مجمع من الناس حد الشتم، ثم يضرب بالسياط حتى يموت، ويلقى في دجلة، ولا يُصلّى عليه، ليرتدع بذلك أهل الإلحاد والمعاندة، وقيل إنه ضرب ألف سوط^(١).

ب- وفي خلافة المتوكل أيضاً قتل قاضي مصر الحارث بن مسكين^(٢) نصرانياً سبّ النبي الكريم ﷺ بعد أن جلده الحدّ وضرب الحدّ في سبّ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها

(١) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٩/ ٢٠٠-٢٠١، وابن كثير : البداية والنهاية ١٠/ ٣٢٤ .

(٢) هو أبو عمرو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف الفقيه المحدث ولأه المتوكل قضاء مصر ثم استعفى منه سنة « ٢٤٥ » فأعفي. توفي رحمه الله سنة « ٢٥٠هـ » وله ست وتسعون سنة. (انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٤).

وتهدد بالرجم^(١).

ج- وفي شهر رمضان من سنة «٢٥٨هـ» ضرب بباب العامة بسامراء رجل يعرف «بأبي فقعس» لما ذكر عنه من أنه يسب السلف. ضرب ألف سوط وعشرين سوطاً فمات^(٢).

د - وفي سنة «٣١٣هـ» قبض على «الكعكي» وجماعة معه من الرافضة، يشتمون الصحابة رضي الله عنهم، فضرب الكعكي ثلاثمائة سوط، وشهر به على جمل، ونودي عليه: هذا جزاء من يشتم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما^(٣).

هـ - وفي القيروان ضرب قاضيها عبد الله بن حسان بن أبي منظور^(٤) ضرب يهودياً سب النبي الكريم ﷺ حتى مات^(٥).

٢- الترهيب من القول بخلق القرآن :

في سنة «٢٣٧هـ» كتب الخليفة «المتوكل» إلى الآفاق يرهب رعيته من الكلام في مسألة الكلام^(٦)، وينهاهم عن الجدل في القرآن الكريم، والقول بخلقه، وأن من فعل ذلك فجزاؤه الموت^(٧).

(١) انظر الكندي : الولاة وكتاب القضاة ص-٤٧٠ .

(٢) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٩/٥٠٠ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١١/٣٠ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ٦/١٩٥ .

(٤) هو عبد الله بن حسان بن أبي منظور أبو محمد الأنصاري، تولى قضاء القيروان وكان صليباً في قضائه سالكاً طريق العدل في أمره توفي سنة «٣٣٧هـ» . (القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/٣٣٩-٣٤٠) .

(٥) المرجع السابق : ٣/٣٤٠ .

(٦) أي الخوض في مسألة كلام الله تعالى والتأويل فيه .

(٧) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٩/١٩٠ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١٠/٣١٦ .

٣- الترهيب من إيذاء العلماء والصالحين :

أ - الترهيب من إيذاء الإمام سحنون بن سعيد :

تقدم قاضي القيروان ابن أبي الجواد^(١) للصلاة على جنازة فلم يصل الإمام سحنون رحمه الله خلفه فبلغ ذلك الأمير زيادة الله الأغلبي فأمر أن يُوجَّه إلى عامل القيروان أن يضرب سحنوناً خمسمائة سوط، ويحلق رأسه ولحيته.

فلبلغ ذلك وزيره علي بن حميد فأمر صاحب البريد أن يتوقف، وتلطف حتى دخل على الأمير وقت القائلة وقد نام فقال له : ما شئ بلغني في كذا ؟

قال الأمير : نعم .

قال : لا تفعل فإن الغير إنما هلك بضربه البهلول بن راشد^(٢) .

قال الأمير : وهذا مثل بهلول ؟

قال : نعم . وقد حبست البريد شفقة على الأمير .

فشكره الأمير ولم ينفذ أمره .

وبينما الإمام سحنون يقرى الناس إذا أتاه الخبر بما أراح الله منه، وقيل له: لو ذهبت إلى علي بن حميد فشكرته .

قال : لا أفعل.

قيل له : لو وجهت ابنك لذلك ؟

(١) هو عبد الله بن أبي الجواد القاضي المعتزلي كان يقول بخلق القرآن، تولى قضاء القيروان بأمر من الأمير زيادة الله الأغلبي، ثم عزله الأمير محمد بن الأغلب سنة ٢٣٢هـ، ومات في السجن سنة «٢٣٤هـ» .
(انظر ابن عذاري : البيان المغرب، ١٠٦/١ . ١٠٩ . ١١٠).

(٢) هو البهلول بن راشد الحجري الرعيني مولاهم أحد علماء إفريقية وعبادها ضربه أمير إفريقية محمد بن مقاتل العكي لوعظه إياه فأوجعه وكان ذلك سبب وفاته سنة ١٨٣هـ، فارتج الناس لخبر ضربه . (انظر المالكي : رياض النفوس ٢١٢/١-٢١٤).

فأبى^(١) وقال : ولكنني أحمد الله الذي حرك ابن حميد لهذا فهو أولى بالشكر. وأقبل على إسماعه^(٢) .

فالوزير هنا رهب الأمير من التعرض للإمام سحنون بأي نوع من أنواع الأذى، وأنه يخشى عليه إن فعل ذلك أن تغضب عليه العامة وتشور عليه كما ثارت على الأمير من قبله محمد بن مقاتل العكي .

ب - الترهيب من إيذاء العلماء المرابطين بقصر الطوب^(٣) :

أتى جماعة من أصحاب الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلب إلى قصر الطوب لينزلوا به، وكان في القصر جماعة من العلماء منهم سعيد بن إسحاق الكلبي^(٤) رحمه الله فمنعوه من ذلك، وأغلقوا باب القصر في وجوههم .

فبلغ ذلك الأمير إبراهيم فأتى إلى باب القصر وهو مغضب فقال: من هذا الذي منع عبيدي أن يدخلوا القصر؟

فارتاع أهل القصر لذلك وداخلهم من الجزع أمر عظيم، فأتوا إلى سعيد بن إسحاق فعرفوه فتشرف من أعلى القصر وقال : من هذا؟ فقال له : أنا إبراهيم بن أحمد الأمير .

(١) مما يظهر للباحث أنه كان الأولى للإمام سحنون أن يشكر الوزير على فعله هذا، وبخاصة أنه أمر ذات يوم أصحابه بشكر الأمير أبي العباس بن الأغلب حينما ساندته في قضية قضى بها على أحد خاصته. (انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦٠٧/٢، والدباغ : معالم الإيمان ٩٢/٢).

ولعل الإمام سحنون لم يشكر هذا الوزير هنا لمصلحة لم يهتد إليها الباحث .

(٢) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦٠٩/٢، والدباغ : معالم الإيمان ٩٣/٢ .

(٣) تقدم التعريف به في ص ٣١٠ .

(٤) تقدم ترجمته في ص ٣١٠ .

فرجع سعيد صوته وقال: يا إبراهيم تركنا لك الدنيا كلها وانزونا في هذا الشجر فجئت
تؤذينا، والله لئن لم تمر لأهلكنك^(١).

فمضى إبراهيم هارباً على وجهه حتى جاز القصر بأمر عظيم .

فقال له الذين حوله : مالك يا سيدنا؟

فقال لهم : لما صال علي سعيد بن إسحاق تلك الصلوة حسبت أن الفحص^(٢) اشتعل
ناراً علي، فمازلت كذلك حتى وقعت في هذا الموضع^(٣).

ففي هذا المثال نجد أن سعيد بن إسحاق الكلبي رحمه الله رهب الأمير إبراهيم بن أحمد
من إيذاء العلماء المرابطين بالقصر وتوعده بالدعاء عليه بالهلاك .

٤- ترهيب الإمام الحربي من الجلوس إلى أهل البدع :

قال الإمام إبراهيم الحربي^(٤) رحمه الله مرهباً من الجلوس إلى أهل البدع: « لا أعلم
عصابة خيراً من أصحاب الحديث، إنما يغدو أحدهم، ومعه محبرة، فيقول: كيف فعل النبي
ﷺ، وكيف صلى، إياكم أن تجلسوا إلى أهل البدع، فإن الرجل إذا أقبل ببدعة ليس
يفلح^(٥) » .

نعم إن الجلوس إلى أهل البدع والاستماع إلى أقوالهم فيه خطر عظيم على المرء المسلم،
لأن المبتدع قد يقول أو يعمل ببدعة فيؤثر بها على جلسه فيعمل بها.

(١) ليت الشيخ الكلبي لم يستخدم هذا التعبير «لأهلكنك» لأنه ليس للبشر، ولعل الشيخ يقصد بذلك الدعاء
عليه بالهلاك، ولم يقصد أنه يبطش به ويقضي عليه لضعفه وعدم قدرته على ذلك .

(٢) قال العلامة ابن منظور «الفحص : ما استوى من الأرض والجمع فحوص» (لسان العرب، مادة «فحص»
٦٤/٧) ويبدو والله أعلم أن الموضع الذي فيه القصر يسمى «الفحص» لاستوائه .

(٣) المالكي : رياض النفوس ١٥/٢، الدباغ : معالم الإيمان ٢٥٦/٢ .

(٤) تقدمت ترجمته في ص ٢٣٨ .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١٣ .

لذا نجد أن النبي ﷺ حث المسلم على مجالسة المجلس الصالح، وحذره من مجالسة جلس سوء حيث قال ﷺ: «مثل المجلس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة»^(١).

ولاشك أن أهل البدع جلساء سوء فيجب الحذر منهم وعدم مجالستهم، وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحذرون من مجالسة أهل الأهواء والبدع، من ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب»^(٢).

ومن ذلك أيضاً قول عبد الله بن المبارك رحمه الله يوصي إسماعيل الطوسي: «يكون مجلسك مع المساكين، وإياك أن تجالس صاحب بدعة»^(٣).

٥- ترهيب أبي سنان الأسدي^(٤) لطالب العلم من الغيبة:

قال سليمان بن سالم، قال لي أبو سنان زيد بن سنان الأسدي: «يا سليمان، إذا كان طالب العلم قبل أن يتعلم مسألة في الدين يتعلم الوقعة في الناس، متى يفلح»^(٥).

فنجد هنا أن أبا سنان الأسدي رحمه الله يرهب طالب العلم من الغيبة والوقوع في أعراض الناس، وأنه متى ما اتصف بهذه الصفة الذميمة فإنه لا يفلح، ولا يكون طالب علم بحق، لأن طالب العلم حري به أن يكون قدوة حسنة في أقواله وأفعاله.

-
- (١) صحيح الإمام البخاري مع الفتح، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم الحديث «٥٥٣٤» ٦٦٠/٩ .
 (٢) الآجري : أبو بكر محمد بن الحسين، الشريعة، ص٦١ (ط. الأولى، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ، تحقيق محمد حامد الفقي).
 (٣) اللالكائي : أبو القاسم هبة الله بن الحسن، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١٣٧/١ . (ط. بدون، نشر دار طيبة، الرياض، تحقيق د. أحمد سعد حمدان).
 (٤) هو زيد بن سنان الأسدي، كان فقيهاً ثقةً متواضعاً توفي سنة ٢٤٤هـ . (انظر الدباغ: معالم الإيمان ١٠٨/٢).
 (٥) المالكي : رياض النفوس ٣٨٨/١، والدباغ : معالم الإيمان ١٠٩/٢ وفيه «فمتى يصلح» .

ليس هذا فحسب، بل إننا نجد أبا سنان رحمه الله يضم إلى ترهيبه من هذه الخصلة الذميمة بالقول، يضم إليها الفعل أيضاً . فقد قال أبو بكر المالكي واصفاً إياه : «وكان رحمه الله تعالى لا يتكلم أحد في مجلسه بغيبة أحد، وإذا هم بذلك نهاه وأسكته»^(١) .

٦ - ترهيب أبي بكر بن هذيل^(٢) لرجل من الكذب وأكل المال الحرام :

أعطى أبو بكر بن هذيل الفقيه رحمه الله رجلاً من أصحابه بَدَنًا^(٣) صنعته زوجته وقال له: عسى أن تبيع هذا البدن، وتأتينا بالثمن، فأخذه الرجل وعرضه للبيع إلا أنه لم يأت بثمان جيد. ثم أتاه رجل يبدو أنه جاهل في أمور البيع والشراء وقال له : تبيع لي هذا البدن؟

قال الرجل : نعم . قال : كم ثمنه ؟

فقال له الرجل : كذا وكذا، وزاد في ثمنه . فقبل بذلك واشترى البَدَنَ فأتى الرجل بالدرهم في صُرَّة فلما دفعها إلى أبي بكر أمره أن يضعها في تابوت عنده.

وبعد مدة من الزمن جاء الرجل إلى أبي بكر زائراً فقال له: كُنْتُ دفعت إليك بَدَنًا فما صنعت في أمره؟

قال الرجل : أصلحك الله، بعته وأتيتك بالثمن.

فقال أبو بكر : ما وصل إلي منه شيء .

قال الرجل : بلى قد أتيتك بالثمن وأمرتني أن أضعه في التابوت .

فقال أبو بكر : لا أعلم شيئاً من ذلك^(٤) .

(١) المالكي : رياض النفوس ٣٨٨/١، والدباغ : معالم الإيمان ١٠٩/٢ .

(٢) هو أبو بكر بن هذيل، كان فقيهاً زاهداً ورعاً، قتل رحمه الله سنة ٢٩٧هـ وقيل غير ذلك بأمر من أبي العباس الشيعي (انظر المرجع السابق: ٢٦٦/٢، وابن عذارى: البيان المغرب، ١٥٤/١ - ١٥٥) .

(٣) البدن : هو نوع من الثياب التي تلبس. قال ابن منظور «البدن : شبه درع إلا أنه قصير قدر ما يكون على الجسد فقط قصير الكمين» (ابن منظور : لسان العرب، مادة «بدن» ٤٩/١٣) .

(٤) يبدو والله أعلم أنه فعلاً قد نسي أن الرجل أتى بالمال ووضعه في التابوت.

فقام الرجل مبادراً إلى التابوت، وإذا بالصرّة فيه على حالها .
 فأتى بها إليه وقال له : هذه هي أصلحك الله وجدتها في التابوت.
 فأخذها ثم قال للرجل : سألتك الله أخبرني ما قصة هذه الدراهم؟
 فقال الرجل: والله لأصدقنك، ثم أخبره بالقصة كما جرت، فقال أبو بكر: ويحك يحل
 لك أن تطعم أخاك الحرام ؟

فقال الرجل : فإني تائب أصلحك الله إني لا أعود إلى شيء من هذا أبداً .

فقال أبو بكر : تصدق بها . قال الرجل : تصدق بها أنت .

فقال أبو بكر : والله لا فعلت ولا يتصدق بها إلا أنت عقوبة لك فيما فعلت ^(١) .

ففي هذا الموقف رهب أبو بكر بن هذيل رحمه الله هذا الرجل من الكذب وأكل الحرام،
 حيث قال له : ويحك يحل لك أن تطعم أخاك الحرام؟ ولم يكتف رحمه الله بالترهيب بالقول،
 بل ضم إليه الفعل فلم يقبل ذلك المال، بل وأمره أن يتصدق به .

٧- ترهيب أبي إسحاق السبائي ^(٢) لرجل من الاغترار بالنفس :-

دخل عبد العزيز بن أيوب ذات يوم على الشيخ أبي إسحاق السبائي رحمه الله
 وقال له : إني رأيت شيخاً لم أر أجمل منه هيباً وحيّةً وهو يُزمرُّ بمزمار له .

فبدر أبو إسحاق السبائي إليه وقال له: إيه يا عبد العزيز إياك أن تقول لك نفسك إنك
 خير منه، لأنه مسلم ما بينك وبينه إلا أن يتوب، ويراجع أمر الله تعالى، إياك أن تحدثك
 نفسك أنك خير منه، وأقبل يكرر ذلك عليه وقد صال وتغيظ.

ثم قال أبو إسحاق : والله ما أرى لي فضلاً على أهل الكباير من المسلمين، فإذا رأيتم
 أهل البلاء فاحمدوا الله تعالى على العافية ^(٣) .

(١) انظر الدباغ : معالم الإيمان ٢/٢٦٧ .

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٣٠٥ .

(٣) انظر المالكي : رياض النفوس ٢/٤٨٥ .

فرحم الله أبا إسحاق السبائي، حيث رهب عبد العزيز بن أيوب من أن يغتر بنفسه، وأنه أفضل من هذا الشيخ الذي ارتكب تلك المعصية، وهو ترهيب حسن، وتنبيه جيد لأن المسلم قد يدخل عليه الشيطان من هذا المدخل، فيغتر بنفسه، ويرى أنه أفضل من غيره ولا يزال به الشيطان حتى يوقعه في معصية هي أكبر من المعصية التي وقع فيها أخوه المسلم، وأعظم جرماً، والعياذ بالله .

ومن لطف الله عز وجل ورحمته بهذا الشيخ أن يسر له التوبة، والإقلاع عن تلك المعصية، حيث شوهد وهو يطوف بالبيت حاجاً فقبل له : ما سبب توبتك وحجك ؟ قال لا أدري، إلا أنه ألقى في قلبي التوبة فتبت، ثم خرجت إلى هاهنا فحججت كما ترى. فحسن حاله بحمد الله عز وجل^(١).

٨- الترهيب من اقتراف الذنوب والمعاصي :-

أ - ترهيب الإمام إبراهيم الحربي لرجل من الوقوع فيما حرم الله :-

قال مقاتل بن محمد بن بنان العكي : «حضرت مع أبي وأخي عند أبي إسحاق -يعني الإمام إبراهيم الحربي- رحمه الله فقال إبراهيم لأبي هؤلاء أولادك ؟ قال : نعم . قال : احذر لا يرونك حيث نهاك الله فتسقط من أعينهم»^(٢).

فالإمام هنا رهب هذا الرجل من أنه إذا وقع فيما حرم الله عز وجل عليه فإن أول ما يجنيه من تلك المعاصي هو سقوطه من أعين أبنائه .

(١) انظر المالكي : رياض النفوس ٤٨٥/٢ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٣٧/٦ .

ب- ترهيب العباد المرابطين بسوسة لإبراهيم بن الأغلب من استعمال آلات اللهو :

أظهر الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلب يوماً في قصره بسوسة عزفاً ولهواً. فدخل رجل من المتعبدين إلى المسجد الجامع فقال لأصحابه: قوموا بنا إلى هذا الرجل، فقد أحدث علينا أموراً لا نعرفها، ولا نصبر له عليها، فإما أن يزيل عنا هذا الأمر، وإلا فنحن نخرج وأرض الله واسعة، ونحن إنما سكنناها لله الواحد القهار^(١).

فخرج معه نحو سبعين رجلاً من المتعبدين، وتوجهوا إلى قصر إبراهيم، فملئوا الفضاء الذي بين يدي القصر مع من تبعهم، فوجدوا الأمر الذي يكرهونه قائماً من اللهو والعزف.

فقيل لهم : ما تريدون ؟

قالوا : نريد الأمير لنجتمع به .

فقيل لهم : الأمير في شغل، لن تصلوا إليه في يومكم .

فقالوا : عرفوه أنا لا نبرح من هنا حتى نجتمع به .

فدخل الحاجب إلى الأمير فقال : شيوخ سوسة كلهم بالباب، وأرادوا الاجتماع بك.

فقال له : أو يمكنني الاجتماع بهم وأنا على هذه الحال؟ ألا اعتذرت لهم عني .

فقال : اعتذرت فلم يقبلوا عذري، وقالوا : لن نبرح حتى نرى الأمير .

فقال له : اخرج إليهم فانظر ماذا طلبوه نفذه لهم .

فخرج الحاجب إليهم فقال : إن الأمير أمر بتنفيذ ما تحبون، لأنه على حال لا يمكن

الاجتماع بكم .

(١) سكنوها مرابطة في سبيل الله لأنها ثغر من ثغور المسلمين .

فقالوا : نحن إنما جئنا إلى هذه المدينة وسكنناها لله الواحد القهار، وقد أحدثت علينا هذه الأمور من اللهو والعزف فيما أن يقطع عنا هذا الأمر وإلا فنحن نخرج عنه وأرض الله واسعة .

فعاد الحاجب إلى الأمير فأخبره . فقال للحاجب :

ارجع إليهم فقل لهم : لن تروا ما أنكرتموه بعد هذا .

فانصرفوا، وصار هو بعد ذلك يخرج إلى موضع خارج المدينة، يخلو فيه بما يحب فإذا قضى وطره رجع ليلاً إلى قصره^(١) .

فرحم الله أولئك العباد، حيث رهبوا الأمير من ارتكاب هذا المنكر والمجاهرة به، وهددوه إن لم يترك هذا الأمر فسيخرجون من المدينة التي ما سكنوها إلا طاعة لله عز وجل، وابتغاء ثوابه ومرضاته .

ويحمد الله عز وجل وتوفيقه استطاعوا -هم وغيرهم- أن يحافظوا على هذا الثغر من أن تنتشر فيه مثل هذه المنكرات.

يقول أبو بكر المالكي :

«وكانت مدينة «سوسة» في ذلك الوقت ليس بها شيء من المنكر: لا خمر، ولا لهو، ولا عزف، وإنما كان أهلها مشتغلين بالحرب والحرز^(٢) على المسلمين والمسلمات، وقيام الليل، وصيام النهار»^(٣) .

(١) انظر المالكي : رياض النفوس ٤٨٦/١ .

(٢) الحرز : أي مشتغلين بالمحافظة على المدينة وحراستها من الأعداء ، قال ابن الأثير : يقال : أحرزت الشيء أحرزه إحرزاً إذا حفظته وضممته إليك وصنته عن الأخذ . (ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر مادة «حرز» ٣٦٦/١) .

(٣) المالكي : رياض النفوس ٤٨٧/١ .

ج - ترهيب جماعة من أهل سوسة لأمير من أمراء بني عبيد الرافضة من استعمال آلات اللهو :

تقول عائشة زوج الحسن بن نصر السوسي^(١) رحمه الله : سمعت الحسن يصيح بي فجئت إليه وأنا مذعورة - إذ ليس من عادته أن يصيح بعد أخذه في الصلاة - فقال : كأني أسمع صرير مزار .

فقلت له : ومزار في سوسة من أين وأين ؟ وأنت قد قطعت منها الملاهي وكسرت ما في دار الخمر من أواني الخمر^(٢) .

فقال لي : تسمعي .

قالت : فسمعت حس مزار من ناحية قصر طارق فأخبرته بذلك، فلما تيقن، قطع ما هو فيه ونزل إلى باب داره، ففتحه وصاح إلى بعض جيرانه وقال :

التمسوا لي هذا المزار في أي دار هو وعرفوني بذلك^(٣) .

فمضوا حتى وصلوا إلى قصر طارق فسألوا أهل القصر عن نزل بالمسكن الذي بنى طارق في غربي قصره .

فأخبروهم بأنه نزل به أمير من أمراء بني عبيد، وأنه أتى معه بالمسكر والملاهي .

فرجعوا إلى الشيخ وعرفوه بذلك فقال لهم : اجمعوا الناس، فلما جمعوهم قال لهم : تصلون إلى هذا الفاسق وتقولون له : أتيت بالمنكرات إلى رباط المسلمين وثغر من ثغورهم، اخرج عنا وإلا جاهدناك حتى تخرج .

(١) تقدمت ترجمته في ص ٢٤٩ .

(٢) لعل هذا القول مما يؤكد ما ذكر سابقاً من أن أهل «سوسة» كانوا يحرصون كل الحرص على المحافظة على هذا الشرع وحمائته من المجاهرة فيه بالمنكرات وانتشارها .

(٣) لعل الشيخ الحسن لم يخرج بنفسه لإنكار هذا المنكر لكبر سنه، وضعف بدنه. أو أنه رأى أن ذهاب غيره بأمره أبلغ في الترهيب .

فذهبوا إليه وعرفوه ما قال الحسن رحمه الله فقال لهم :

أنا منصرف عنكم بالغداة. وقطع التي كانت عنده، ولم يسمع منه بعد النكير عليه شيء . فلما أصبح رحل عنهم^(١) .

فرحم الله الحسن بن نصر الذي كان سبباً بعد توفيق الله عز وجل في ترهيب هذا الرافضي من ارتكاب المنكرات في هذا الشجر من ثغور المسلمين. ومما يظهر جلياً من خلال هذه الحادثة ذلة صاحب المعصية وخوره على الرغم من علو منصبه وسلطته .

(١) انظر المالكي : رياض النفوس ٢/٤٠٠ .

المبحث الثالث

«تقويم أثر هذا الأسلوب»

من خلال ما تقدم ذكره، تبين بحمد الله تعالى أنه كانت لأسلوب الترغيب والترهيب العديد من الآثار الحسنة على الفرد والمجتمع، أوجز أهمها في النقاط التالية :

١- أن معاقبة من تعرّض للنبي الكريم ﷺ، أو لأحد من صحابته رضوان الله عليهم بالسبّ والشتم، أن معاقبتهم بأي نوع من أنواع العقاب، كالقتل أو الجلد ونحو ذلك علانية بين الناس، لا شك أن فيه من الترهيب الشيء الكثير لكل من تسول له نفسه الإقدام على مثل هذا الأمر .

وهذا مما أدى بحمد الله إلى انحسار هذه الظاهرة، وعدم انتشارها، وقلّة من يجاهر بها. أمّا لو كان الواقع خلاف ذلك، فلم يردع أولئك المعتدون القاذفون، لانتشر سب وشم السلف الصالح، وجاهر به كل كافر ومبتدع .

٢- ومن آثار هذا الأسلوب أنه عندما نهى المتوكل الناس ورهبهم من الخوض في عدد من الأمور المتعلقة بالعقيدة، كمسألة الكلام، والقول بخلق القرآن، عندما نهاهم عنها تركوها، ولم يجاهروا بها، بخاصة في الأماكن التي للخلافة فيها سلطان قوي.

فارتفع بتوفيق الله ثم بهذا الترهيب شأن السنة وأهلها، وذلّ أهل البدع من المعتزلة والجهمية وضعف أمرهم.

قال الإمام الذهبي «أظهر المتوكل السنة، وزجر عن القول بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى الأمصار، واستقدم المحدثين إلى سامراء، وأجزل صلاتهم، وروواً أحاديث الرؤية والصفات^(١) .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢/٣٤ .

وقال الحافظ ابن كثير «وارتفعت السنة جداً في أيام المتوكل عفا الله عنه، وكان لا يولي أحداً إلا بعد مشورة الإمام أحمد»^(١).

٣- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً القيام بالجهاد في سبيل الله تعالى، ومقاتلة أعداء الله ورسوله. ويتضح هذا الأمر من خلال ما يلي :

أ - حينما كتب الخليفة «المنتصر بالله» كتاباً يرغب فيه المسلمين بجهاد الروم .

ب - أن علماء أهل السنة حينما رغبوا الناس في جهاد الرافضة العبيديين استجاب لهم جماعة كبيرة منهم، وجاهدوا معهم حتى كادوا أن يهزموا الرافضة ويقضوا على دولتهم .

٤- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً أن الخليفة «المهتدي بالله» حينما قال مرغباً في التكلم بالحق «تكلم بالحق وقل به، فإن الرجل ليتكلم بالحق فينبل في عيني» لا شك أن هذا القول سيترك أثراً حسناً في رعيته بإذن الله تعالى وذلك من خلال ما يلي :

أ - مسارعة الناس إلى التكلم بالحق في أي زمان ومكان.

ب - حرص الموظفين في الدولة والمسؤولين فيها على إتقان ما وكل إليهم من أعمال خشية انتقادهم من قبل الناس وإبلاغ الخليفة بتقصيرهم وإهمالهم .

٥- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً احترام وتقدير بعض العلماء والصالحين، وعدم التعرض لهم بأي نوع من أنواع الأذى.

ومن أمثلة ذلك ما وقع للإمام سحنون بن سعيد رحمه الله مع الأمير «زيادة الله»، وكذلك ما وقع للعلماء المرابطين في قصر الطوب مع الأمير «إبراهيم بن أحمد» .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣١٦/١٠ .

٦- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً توبة بعض أهل المعاصي ورجوعهم إلى الله تعالى وندمهم على ما سبق منهم .

ومن أمثلة ذلك توبة الشاب علي يد الشيخ أبي الفضل العباس بن محمد الغدامسي رحمه الله .

٧- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً إقبال بعض الناس على طلب العلم وحبهم له، ونبوغهم فيه بعد أن كانوا معرضين عنه غير حريصين على طلبه .

ومن أمثلة ذلك إقبال محمد بن عوف على طلب العلم ونبوغه فيه بعد توفيق الله له ثم ترغيب المعافى بن عمران الحمصي له فيه وحثه على طلبه .

٨- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً أن ترهيب بعض العلماء لطالب العلم من الوقوع في بعض الأخلاق الذميمة كالوقوع في أعراض الناس ونحو ذلك، كما قال سنان بن زيد ابن سنان الأسدي رحمه الله لسليمان بن سالم، لاشك أن هذا الحرص سيترك بإذن الله آثاراً حسنة على طلاب العلم منها :

أ - حسن خلق طالب العلم وحرصه على عدم الوقوع في أعراض الناس.

ب - تفرغ طالب العلم لطلب العلم والجهد والاجتهاد في تحصيله والاشتغال به .

٩- ومن آثار هذا الأسلوب أيضاً محاصرة عدد من المنكرات الظاهرة والقضاء عليها .

ومن أمثلة ذلك ما قام به العباد المرابطون بسوسة مع الأمير «إبراهيم بن أحمد» وأيضاً ما قام به جماعة من أهل سوسة مع الأمير الراضي .